ول الفقه
ى الإسلامى

لقرآن الكريم

رؤية تربوية

د . سعيد إسماعيل على

ر
العربى

القرآن الكريم

رؤية تربوية

الدكتور سعيد إسماعيل على
كلية التربية - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الكتاب الحالى هو مثال واضح لتلك السمة التى نسم بها المعرفة العلمية من أنها كالكائن الحى تنمو نموا كميا ونموا كيفيا مع مرور السنين ، وأنها كذلك تتسم «بالتراكمية» ، ففى عام ١٩٧٣ نشرت بالمجلد الأول للكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس بحثا بعنوان « مصادر التربية الإسلامية » حاولت فيه أن أقتفى أثر علماء الفقه عندما يدرسون « أصول الفقه » فى الشريعة الإسلامية ببيان كيف يمكن للمربى المسلم أن يعتمد على نفس الأصول أو المصادر لبناء تربية إسلامية ، علما وسلوكا .

وعندما أتيحت لى الظروف لأن أقوم بتدريس مقرر يحمل عنوان « أصول التربية الإسلامية» بكلية التربية بمكة المكرمة بداية من العام ١٩٧٦/٧٥ ، كان البحث المشار إليه آنفا هو النواة التى من خلالها صنفت كتابا حمل نفس عنوان المقرر وظهرت طبعته الأولى فى أواخر عام ١٩٧٦ ، ولم أعد طباعة الكتاب إلا مرة واحدة فى عام ١٩٧٨ .

ومنذ ذلك الوقت حتى عام ١٩٩١ وأنا آمل فى إعادة طباعة الكتاب ،دون أن أتمكن من هذا ، حيث كان تصور جديد قد بدأ يحتل فكرى ، وتنفيذه كان يحتاج وقتا وجهدا لم يكونا متاحين ،إلى أن أتاح لى الله- سبحانه وتعالى- هذا فخرج كتاب عام ١٩٩٢ يحمل عنوان : « الأصول الإسلامية للتربية » ، أتبعته بآخر يحمل الاسم القديم وهو « أصول التربية الإسلامية » ، ولا داعى لذكر الفرق بين الكتابين ، فقد ذكرت هذا فى مقدمة كل منهما .

فلما انتهت طبعة « الأصول الإسلامية » ورغب الناشر فى إعادة طبعه ، تغيرت خريطة الكتاب فى ذهنى مرة أخرى ، وإذا بى أفكر فى موسوعة يحمل كل جزء منها أصلا واحد فقط ، على أن يكون عنوان هذه الموسوعة هو « أصول الفقه التربوى الإسلامى » ، وهو طموح جاء متأخرا ، وخاصة أنى بلغت من العمر عتيا ، ومع ذلك فها أنا ذا أنفذ بداية المشروع بإخراج الكتاب الحالى عن الأصل الأول للتربية الإسلامية وهو القرآن الكريم .

ولقد كان اختيـارى للتعبير « أصول الفقه التربوى الإسـلامى » خطوة طالما تمنيتها نحو أن نتعامل وفق مصطلحات وتعبـيرات تنتمى إلى المجال المدروس نفسه ، وإن كنت قد ترددت فى البداية ، وخاصة أن كثيرين يرتبط مصطلح « الفقه » فى أذهانهم بدراسة الشريعة الإسلامية ، لكن التدقيق جيدا فى المعنى اللغوى « للفقه » يكشف بطبيعة الحال أن تتصل بالفهم والوعى والاسـتنباط وحسن الإدراك . مما يتيح لنا استعـمالها فى علوم عدة .

ونظرا لأن هذا الكتـاب موجه إلـى جمهـور المشتـغلين بالعلوم التربوية بـالدرجة الأولى ، فقد رأيت لزامـا علىّ أن أضمن كل فصل من القضـية بعملية تنظيـر فقهى ، اعتمد فيها بطبيعة الحـال على المتخصصين فيه دون أن أزعم فى نفسى قدرة على الإفتاء فيه والفصـل فيما قد يكون موضع نزاع أو اخـتلاف فى الرأى ، إيمانا منى بأن مثل هذا التنظير ضرورى لباحث التـربية الذى لا تتضمن برامج إعداده شيئا من التـثقيف الفقهى الدينى مما يمكنه من أن يمد يده للقرآن الكريم كى يغترف منه ما هو بحاجة إليه من التربية الإسلامية فى مصدرها الأول ، ونبعها الأساسى .

أسأل الله العلى القـدير أن أكون قد وفقت بعض الشىء فى الوفـاء بالمقصود من هذا العمل العلمى ، وأن يتيح لهذه الموسوعة أن تستكمل أجزاؤها سواء على يدى - إذا كان فى العمر بقية - أو على يد آخرين ، إنه نعم المولى ونعم المعين .

د . سعيد إسماعيل علي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تمهيد.	٧
الفصل الأول : البنية الأساسية للعقيدة	١٣
الحاجة إلى العقيدة الدينية :	١٣
أولا : الله	١٩
وجوده .	١٩
التوحيد .	٣٠
صفات الذات الإلهية .	٤٣
ثانيا:عالم الغيب	٤٨
الغيب .	٤٨
الملائكة .	٥٢
اليوم الآخر .	٥٨
ثالثا : الكون	٦٧
خلقه .	٧٠
تدبيره .	٧٤
تسخيره للإنسان .	٧٧
رابعا : الإنسان	٨٠
لغة .	٨٠
خلق الإنسان .	٨٤
غاية خلق الإنسان .	٨٧
الطبيعة الثنائية التكاملية .	٩٣
النفس .	٩٥
الفصل الثانى : القرآن الكريم – جوانب أساسية	١٠١
مقدمة	١٠١
تعريفه .	١٠٢
خصائصه .	١١٥
إعجازه .	١٢٦
نزوله .	١٣٧
محتوياته .	١٤٨
أساليبه .	١٥٩
الفصل الثالث : أساسيات تربوية	١٨١
مقدمة	١٨١
احترام عقل الإنسان .	١٨٤
تكريم الإنسان .	١٩٨
النظرة الواقعية للفطرة البشرية .	٢١٣
مراعاة الحاجات الاجتماعية .	٢٢٩
البناء الخلقى .	٢٤٨
نظرية واقعية .	٢٦٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع: طرق وأساليب للتعليم	٢٨١
العلم فى التصور القرآنى .	٢٨١
الحث على طلب العلم والتعليم .	٢٨٢
معنى العلم ومجالاته.	٢٩٣
مبادئ وسبل التعلم والتعليم.	٢٩٩
التوظيف التربوى للقصة.	٣٠٤
الأهمية التربوية .	٣٠٤
أنواعها .	٣٠٧
دلالات تربوية.	٣٢٠
التوجيه العملى.	٣٢٩
العبادات .	٣٤٢
البعد التربوى للعبادات .	٣٤٢
الدور التربوى لعبادة الصلاة .	٣٤٦
الدور التربوى لعبادة الصوم .	٣٤٩
الدور التربوى لعبادة الزكاة .	٣٥٤
الدور التربوى لعبادة الحج .	٣٥٧
الجدل والحوار .	٣٥٩
ضرب المثل والتساؤل .	٣٧٨
الفصل الخامس : تعليم القرآن وتعلمه	٣٩٩
مقدمة	٣٩٩
التوجه القرآن لبناء الإنسان .	٤٠٠
فضل تعلم القرآن وتعليمه .	٤٠٥
فهم القرآن .	٤٢٣
القرآن مصدر التعليم وتعلم العلوم الحديثة .	٤٤٢
أساليب تعليم القرآن الكريم .	٤٥٤
آداب حملة القرآن .	٤٦٧
الخاتمة.	٤٧٩
المراجع.	٤٨١
كتب للمؤلف.	٤٩٨

تمهيد

لم يكن الصراع بين المسيحية والوثنية بالسهل اليسير منذ القرن الأول للميلاد. لكنه كان صراعا ضاريا، عانى فيه المسيحيون صنوفا من التعذيب والمحن لم يكن لها مثيل، إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية، وأصبحت الدين الرسمى للدولة. ومنذ القرن الرابع الميلادى بدأت قلاع الوثنية تنهار وتنحسر موجاتها وينتشر الإيمان بالله خالق كل شيء فى أوربا وفى غرب آسيا وفى شمال أفريقيا، وهى جملة العالم المعروف فى ذلك الزمان. وأما جزيرة العرب فقد استمر أهلها يعبدون الأوثان ويسجدون للأصنام، وظلت أرجاء فارس تستضيء بهياكل النار[1] .

ففى بلاد العرب، كانوا يعبدون ما ينحتون ويصنعون من تماثيل وأصنام وأوثان، ويتخذونها أربابا من دون الله، حتى كان الرجل منهم ـ كما يروى ابن هشام فى السيرة النبوية ـ إذا سافر فترك منزلا- أخذ أربعة أحجار فجعل أحسنها فى نظره ربا له، وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدره[2] .

وفى فارس كانت الديانات الوثنية ـ فضلا عن المجوسية ـ التى يجمع فرقها المختلفة القول بإلهين : النور والظلمة، أحدهما للخير والآخر للشر.

وكانت الديانة المزدكية، من هذه الديانات الضالة، تدعو إلى الإباحية المطلقة، ومع هذا الضلال فى العقيدة والدين، بلغ الظلم الاجتماعى فى هذه البلاد حدا لا يطاق، فقد كان الأكاسرة يزعمون أن دما إلهيا يجرى فى عروقهم، وبجانب هذا كان المجتمع الفارسى يقوم على نظام طبقات، وكانت الطبقات تقوم على اعتبار الأنساب والحرف، وكان على كل أحد أن يقنع بمركزه الاجتماعى ولا يتشوف لما فوقه؛ ولهذا كانت الهوة بين الطبقات لا قرار لها، وكان بعضهم يتخذ من بعضهم أربابا[3] .

وفى بلاد الروم، والشرق الأدنى، (الشام ومصر)، انقسمت الكنيسة المسيحية على نفسها إلى « أرثوذكسية »، فى الإمبراطورية الشرقية « وكاثوليكية » فى الإمبراطورية الغربية بروما، وكان هذا الانقسام من الخطر بعيد الأثر، فقد صار كل

(١) أحمد فؤاد الأهوانى: التربية في الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٧٦

(٢) محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسان إليه، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١، ط٢، ص ٣٢٢

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣.

مذهب من هذين وكأنه ديانة قائمة بذاتها، وصارت كل من هاتين الديانتين عدوا شديدا للديانة الأخرى، إذ كان انقساما فى المبادئ والأصول لا اختلافا فقط فى الفروع[1] .

ومن ثم، اعتبرت كل كنيسة كل من لم يذهب مذهبها خارجا عن الدين يجب عقابه واضطهاده. وكان من هذا أن شعر الناس بأن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المنشودة. وكان من الطبيعى أن يستتبع هذا الفساد فى العقيدة، وتلك الفرقة فى الدين والاضطهاد للخارجين على المذهب الرسمى للدولة، الانحلال فى الأخلاق، والفساد فى الإدارة والظلم فى المجتمع، هذا الظلم الذى كان الغنى يتقيه بفضل جاهه وماله.

ولكن العالم شهد فى مستهل القرن السابع ظاهرة جديدة شيعت وثنية العرب ومجوسية الفرس فى الفناء الأخير، تلك الظاهرة هى الديانة الإسلامية بما حملت معها من هدم للآلهة المصنوعة، وتوحيد لله الواحد القهار.

وإذ تشهد صفحات التاريخ بأن الإسلام قد انتشر انتشارا عجيبا بين الناس بسرعة تبعث على الدهشة ، نجد أن من الضرورى الإشارة إلى أن هناك عوامل ذاتية ساعدت على ذلك، هى من صلب الدين وأصل من أصوله ولازمة من لوازمه وهى[2] :

- بساطة العقيدة الإسلامية وخلوها من الغموض والتعقيد .
- مرونة التشريع الإسلامى وصلاحيته للتمشى مع تطورات الحياة .
- الدعوة الملحة للأخذ بمكارم الأخلاق والبعد عن سيئها .

كما أنه ما من شك فإن الحروب المتوالية المحلية والعالمية، والخصومات المتتابعة المذهبية والعقائدية، والثغرات المتلاحقة القومية والعنصرية... كل ذلك قد مهد للإسلام طريقه الفطرى فى الأرض وملأ الخافقين، وهذه، كما ترى، عوامل خارجية عن ماهية الإسلام لا صلة لها بجوهره، ولكنها ذات أثر فعال فى دفع عجلته والدعاية لرسالته، فإن احتكاك المسلمين بغيرهم بسبب هذه الأحداث التى أشرنا إليها مدعاة لتبادل الآراء وتداول النقاش واستعراض ماله من كل المحتكمين من مزايا وأخلاق وتقاليد، وكانت هذه فرصة عظيمة للإسلام فى بث عقيدته ونشر تشريعه وتركيز مزاياه العديدة والأخلاق الرشيدة فى عقول مختلف الأمم والشعوب.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥

(٢) عبد الرحمن الأمين: عوامل انتشار الإسلام، ضمن بحوث « التوجيه الإسلامى للشباب »، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٠٨ .

وعلى الرغم من اعترافنا بذلك، إلا أن استقراء التاريخ أيضا يلزمنا الاعتراف بحقيقة أخرى، وهى أنه لم يكن من السهل أن ينتقل الناس من عهد إلى عهد دون حاجة إلى ما يثبتهم فى العهد الجديد، ويهدم العهد القديم، والانتقال من القديم إلى الجديد هو الثورة بعينها، تحمل بين طياتها معول الهدم وبذور البناء. وفى النفس حنين فطرى إلى الماضى الذى يمثل بنيان الحياة الأولى، وسلطان الزمان. لقد قضى الناس زمنا طويلا يلتفتون إلى الماضي، ويعودون إلى الذكريات الغابرة فيتمثلون الآلهة فى أوثانها، فينهض المؤمنون لإخفات أصوات الملحدين، وآراء الزنادقة الكافرين. واستعمل أهل الإيمان فى حربهم سلاحين: لسان الحق يزهق الباطل ويشيد بآيات اليقين ويقيم الحجة على المخالفين وأهل العناد، والسلاح الثاني: سيف القوة يكمم الأفواه ويعذب الكافرين.

لقد ظهر النبى ﷺ فى أمة أمية، دينها الوثنية، ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه[1].

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعوى النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان ﷺ يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات؛ ولذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يرجع بالقوم إلى ما هو فى حدوده وإلى تدبر ما جاء به القرآن من الهداية، فإن دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الإبراء على الطلب لمن يدعيه، قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾** ﴾ [العنكبوت].

ولم يكن طلب المعجزات من النبى ﷺ ناشئا عن ترو من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة وإصرار منهم على ألا يقبلوا شيئا إلا ببرهان، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه من الجاهلية الأولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها، فكان النبى عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى العمل بمقتضيات الفطرة الإنسانية، ويطلب ما لا يخالف سنة الله التي لن تجد لها تبديلا، قال تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا**

---

(١) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، دار الهلال، القاهرة سلسلة كتاب الهلال (١٨)، سبتمبر ١٩٥٢، ص ٢١.

يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام].

أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح رداً مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه، إذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى أن ٢ + ٢ = ٥، وبرهن على ذلك بإبرائه مريضا من داء عضال، فإن المدعى بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحدا على اعتقاد صحة دعواه التى أتى بها[1].

إن هذا الدين منهج إلهى للحياة البشرية، يتم تحقيقه فى حياة البشر بجهد البشر أنفسهم فى حدود طاقتهم البشرية، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة التى يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم، ويسير بهم إلى نهاية الطريق فى حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة. وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة، فى أى خطة وفى أى خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته، وواقع حياته المادى أيضا، وأنه - فى الوقت ذاته يبلغ به - كما تحقق ذلك فعلا فى بعض الفترات، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة - إلى ما لم يبلغه أى منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق، وفى يسر وراحة وطمأنينة واعتدال، ولكن الخطأ كله ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها، ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه، تلك الخوارق التى تبدل فطرة الإنسان، ولا تبالى بطاقاته المحدودة، ولا تحفل بواقعه المادى البيئي[2].

هذا المنهج الإلهى الذى يمثله الإسلام فى صورته النهائية، كما جاء بها محمد ، ﷺ لا يتحقق فى الأرض، وفى دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله، لا يتحقق بكلمة «كن» الإلهية مباشرة لحظة تنزله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه. ولا يتحقق بالقهر الإلهى على نحو ما يمضى ناموسه فى دورة الفلك وسير الكواكب، إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيمانا كاملا وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه فى قلوب الآخرين وفى حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك[3]. .

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية ، ص ٢٣.

(٢) سيد قطب : هذا الدين ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ٩.

تجاهد الضعف البشرى والهوى البشرى فى داخل النفوس، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف فى وجه الهدى، وتبلغ ـ بعد ذلك كله ـ من تحقيق هذا المنهج إلى الحد الذى تطيقه فطرة البشر والذى يهيئه لهم واقعهم المادى . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته فى سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهى . . ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة، وتنهزم فى المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة، بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال، وقبل كل شيء. . بقدر ما تمثل هى ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية فى واقعها وسلوكها الذاتى[1] .

وهكذا لم يكن باستطاعة أهل الإيمان أن يقيموا الحجة على المخالفين بغير طريقة للدعوة والتعليم ترتكز على الإقناع العقلي، وقدرة على إبراز ما فى العقيدة نفسها من مظاهر وآيات تتفق وحاجات الناس ومصالحهم وتقدمهم . كذلك، ما كان بإمكانهم أن يستخدموا سلاح القوة بغير بناء بشرى يجعلهم يحسنون استخدامه. وقد تطلب هذا وذاك بذل أقصى الجهود وأمضاها فى سبيل تكوين جماعة إسلامية وفقا للمبادئ والقيم التى أتى بها الإسلام فكان أن عرفنا ما نسميه بالتربية الإسلامية .

وعلى هذا نستطيع القول، بأن التربية الإسلامية هى تلك المفاهيم التى يرتبط بعضها ببعض فى إطار فكرى واحد يستند إلى المبادئ والقيم التى أتى بها الإسلام، والتى ترسم عددا من الإجراءات والطرائق العملية، يؤدى تنفيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكا يتفق وعقيدة الإسلام.

وما دام الأمر كذلك، فإن الخطوة الأولى التى ينبغى مناقشتها، إذا أردنا أن نبنى تربية إسلامية، هى أن نتفق على المصادر أو الأصول التى ينبغى أن نستند إليها فى ذلك، فلقد درجت الجمهرة الكبرى من الأبحاث والدراسات التى قامت فى هذا المجال أن تسير فى أحد اتجاهين :

الأول : تاريخي، يتتبع تطور المعاهد والمؤسسات ونظم التعليم الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى مطلع القرن العشرين، وهذا اتجاه له وظيفته وله قيمته التى تتمثل فى قيمة أية دراسة تاريخية .

الثانى : فلسفي، يلتمس مظاهر الفكر التربوى فى الإسلام فيما كتبه مفكروه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٠

وفلاسفته من أمثال: ابن سينا والغزالى وإخوان الصفا وابن خلدون وغيرهم. وهذا أيضا اتجاه له قيمته ووظيفته . لكنا نرى أنه مكمل للاتجاه الأول، بحيث يمكننا أن نصفه بأنه «تاريخي» أيضا. فإذا كان الاتجاه الأول يقف عند حد المؤسسات والنظم، فالثانى يبرز الاتجاهات والأفكار والنظريات. . . الأول يكشف عن الشكل، والثانى عن المضمون. . . الأول يكشف عن «واقع» التعليم فى العالم الإسلامي، والثانى يكشف عن «نظرياته» و«أفكاره» .

ولكن . . لنا بعد هذا أن نتساءل : ما دمنا نقول «تربية إسلامية»، أفلا يعنى هذا أن مصدرها هو «الإسلام» ؟ هل يتمثل الإسلام فى الكتاتيب والمساجد والمدارس، أم فى آراء ابن سينا والغزالى وابن خلدون ؟ الحق أننا مع التسليم بأن هذا وذاك مشبع بالروح الإسلامية، وهو نبت عالمها، إلا أنه من الخطأ الفاحش أن نظن أن هذا هو الإسلام . إن القضية البديهية التى يقوم عليها الكتاب، هى أننا ينبغى أن نلتمس العون الأساسى فى بناء التربية الإسلامية من دستور الإسلام ومعينه الرئيسي، وهو القرآن الكريم .

إن هذه الحقيقة تبين زيف العديد من الاتهامات الباطلة التى توجه إلى التربية الإسلامية، فهناك من الباحثين ـ سواء بقصد أو بغير قصد ـ يتهمون هذه التربية ـ مثلا ـ بأنها «أخروية»، تشجع على الكسل والتواكل، وأنها «نظرية» بعيدة عن خضم الواقع ونبضه. . . إلخ، وهم إذ يوجهون هذه الاتهامات، يحاولون التدليل عليها بنص من هذا المفكر أو ذاك ، وبواقعة من هذا العهد أو تلك الفترة، ولو حصروا أنفسهم فى كتاب الإسلام الأساسى وسنة نبيه لاستبان لهم الحق ووضح أمامهم الطريق، بل إن «علمية» المنهج تقتضى ذلك وتفرضه .

الفصل الأول

البنية الأساسية للعقيدة

الحاجة إلى العقيدة الدينية

عجز الإنسان الدائم يلجئه إلجاء إلى التفكير فى القدرة التى لا يعجزها شىء .

إن الطفل حال ولادته يكون عاجزاً تماماً عن كل شىء، ولولا أمه ترضعه، وتأخذه فى حضنها وتقضى له حوائجه كلها ما أمكن أن يعيش .

ثم يبدأ يحس بالقدرة على بعض الأشياء . . يبدأ يحرك أصابعه، ويحرك يده، ويحرك عضلات ساقيه وأصابع قدميه، ويحرك رأسه، ولكن هذا كله داخل حضن الأم لا يستطيع أن يغادره بعد . .

ثم يحس بمزيد من القدرة . . فهو الآن فى خارج الحضن، ويتحرك بعض الحركات، ويفرح فرحاً هائلاً، ولاشك بمقدرته تلك، ولكنه يتطلع إلى المزيد. ويأتى يوما يحبو فيه على الأرض . . إنه يتطلع إلى الوقوف والمشى ! ثم يقف ويمشى ويترنح ويسقط ثم يعود فيقوم . . إنه يتطلع إلى الوقوف الثابت والمشى المتمكن، ويصل إلى ذلك ذات يوم . . إنه يريد أن يطول النافذة وأُكرةِ الباب . . ويطول هذه وتلك ذات يوم. . ثم يتطلع إلى مزيد من القدرة ومزيد من القوة، ومزيد من التمكن[1] .

ويكبر، كما شاء الله له أن يكبر، ويبلغ من القوة مداه، فهل يتوقف عن التطلع لحظة ويكتفى بما وصل إليه من التمكين ؟

كلا ! إنه ليحس بمزيد من العجز كلما بلغ مزيداً من القدرة !! إن تطلعاته لا تقف عند حد، وكلما توصل إلى شىء من القدرة أغراه ذلك بالتطلع إلى المزيد فيحس بالعجز عن ذلك المزيد، ويحاول من جديد ويصل إلى شىء مما يريد، فيتطلع، فيحس بالعجز . .

وعجزه الدائم ذلك يلجئه إلجاء إلى التفكير فى تلك القدرة التى لا يعجزها شىء، من وراء هذا الكون الهائل الذى لا يقدر هو على شىء منه . . إلا فتاتا من

---

(١) محمد قطب : الإيمان بالله فى القرآن الكريم، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، السنة الأولى ٩٣/ ١٣٩٤هـ ، العدد الأول، ص ١٦ .

القدرة لا يغنيه .. ولا يرضيه .. عندئذ ينطلق يبحث عن تلك القدرة، فيهتدى أو يمضى فى الضلال[1] .

إن هذا الإنسان هو ذرة من ذرات العالم، يعجز عن إدراك سبب وجوده فى هذه الحياة، كما يعجز عن إدراك الغاية وما فيها من خير له، لو وكل لأمر نفسه، ولهذا لم يتركه سدى، بل زوده بالعقل يهديه سبيل الخير ويقفه على المنهج الواضح .

وبهذه الإرادة الربانية حاول أن يعرف الكون، ومركزه منه، والغاية التى ينبغي، أن يستشرف لها ، ومن ثم كان تراث الإنسانية ، قبل عهد النبوات، من النظم والآراء والأفكار، فى الدين والاجتماع والطبيعة ونواحى المعرفة الأخرى[2] .

إلا أن العقل يضل ، ويضل كثيراً حين يحاول الوصول لإدراك ما ليس فى طاقته، وبخاصة العالم الأعلى، وما يتصل به .. من أجل ذلك كان يعزف عن الفلسفات الإلهية للأمم والأجيال التى حرمت نور الوحى الإلهى فى بلاد الشرق واليونان وغيرها .

وإذا رجعنا إلى أصول الدين منذ عصور الإنسان الأولى فسوف نجد أن الإنسان قد ترقى فى العقائد، كما ترقى فى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليس أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى[3] .

ولقد لخص بعض الباحثين عن العقائد معبودات القدماء أو آلهتهم فى عدة أصناف منها[4] :

١ـ أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تمثل منها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧

(٢) محمد يوسف موس: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦١، ص٢١ .

(٣) عباس محمود العقاد: الله، دار الهلال، القاهرة سلسلة كتاب الهلال (٤٢)، سبتمبر ١٩٥٤، ص ١٠ .

(٤) أبو الوفا المراغى : فكرة التوحيد فى القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة كتب إسلامية العدد (١٧٠)، مايو ١٩٧٥ ، ص ١٢ .

٢ـ أرباب الإنسانية وهى الأرباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والموهوبين ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .

٣ـ أرباب الأسرة وهم الأسلاف الغابرون يعبدهم أبناؤهم وصغارهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهورة، كما يحيى الناس ذكرى الموتى فى هذا الزمان ويزودونهم بالأقوات، لكن مع هذا الفارق البعيد، وهو أن الرجل الهمجى لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عبادة، وأن يجعل هذا القبر فى حكم الضحايا والقرابين .

٤ـ أرباب المعانى كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام .

٥ـ أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الطعام .

٦ـ أرباب النسل والخصب وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث ويسمونها بالأمهات الخالدات، وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

٧ـ الآلهة العليا، وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها لشرائع الخير وتحاسبهم عليها، وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء(١) .

وهذه الطبقات من طبقات العبادة، هى أرقى ما بلغته الإنسانية فى أطوارها المتوالية، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس .

ويرجع الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون بالعقيدة الدينية إلى مصدرين : أحدهما اجتماعى لفائدة المجتمع أو فائدة النوع كله، والآخر فردى يمتاز به آحاد من ذوى البصيرة والعبقرية الموهوبة(٢) .

فالحاسة الدينية الاجتماعية «حيلة نوعية» يلجأ إليها خيال النوع الإنسانى لكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده وخدم نفسه وأطاع لذته، ولم يتحمل الألم ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه، ولما كانت إرادة الحياة مستكنة فى النوع كما هى فى آحاده على انفراد، نشأت من «الغريزة» النوعية «ملكة»، يسميها

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : الله ، ص ١٥ .

برجسون ملكة الخرافة الرمزية أو «ملكة الأساطير» وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذى يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين(١) .

وإذا كان هذا الرأى إنما هو واحد من آراء ساقها بعض الفلاسفة والمفكرين إلا أن هناك كثيرين يقرون بفطرية النزعة إلى التدين فى الإنسانية، من هذا ما ينقله لنا «دراز» عن معجم «لاروس» للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الخالدة للإنسانية»، ويقول كذلك : «إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى، بل لا تضعف ولا تذبل، إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة وعند عدد قليل من الأفراد»(٢) .

ونقل عن السياسى والمفكر الفرنسى «بارتيلمى سانت هيلير» قوله كذلك: «هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا: ما العالم ؟ ما الإنسان؟ من أين جاء ؟ من صنعهما؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدأ ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هذه الحياة الدنيا ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شىء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتها بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة، لا توجد أمة، ولا شعب، ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة»(٣) .

إن العقول الفسيحة الأفق تطلب دائماً تحت كل اختلاف ائتلافاً، ومن وراء كل كثرة وحدة؛ ولذلك تأبى الوقوف عند المقاييس النسبية والتفسيرات الجزئية، ولا ترضى بآحاد القوانين حتى تسمو إلى قانون القوانين . بل إنها لتستشرف إلى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها وجعلتها تتعاون على أداء الوظيفة المشتركة لهذا البنيان الكونى . . يا سبحان الله ! أليست وحدة النظام بين هذه الكتائب المختلفة الطبيعة، المتنوعة العمل، من الكائنات السماوية والأرضية، آية على وحدة القيادة العامة التى تشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التى يسير على هداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى؟ وجملة القول أن العقول السامية تشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الزائلة، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، حقيقة لا يحويها شىء من العلوم والمعارف، ولكنها تتشوف إليها كل العلوم والمعارف، وتلك هى الحقيقة التى تفردها

---

(١) المرجع السابق. ص ١٦.

(٢) محمد عبد الله دراز :الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د.ن، د.ت،ص ٨٤.

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها.

الأديان العليا بالتقديس، ولا تنكرها سائر الأديان وإن أشركت معها فى هذا التقديس بعض الحقائق ، الجزئية الفانية[1] .

إن الله عادل حكيم، يعلم أن الإنسان لا يكون شيئاً إن تركه إلى نفسه وعقله، وأن من العدل ـ ليكون الإنسان مسئولاً عما يفعل، وليحقق الغرض من وجوده ـ أن يبين له الرشد من الغيّ، ويفصل له بين الحق والباطل، وقد كان هذا على ألسنة من اصطفاهم من خلقه ليكونوا حاملى رسالاته، هذه الرسالات التى رأيناها متدرجة لتتفق كل منها وعقلية الشعب أو الأمة التى جاءت لها.

لهذا رأينا الدين يجىء فى أثر الدين، والرسول يتبع الرسول، وكل دين له ناسه المحدودون، وزمنه الموقوت، حتى بعث محمد ﷺ بدين للناس جميعاً والإنسانية عامة، وذلك حين قضت الضرورة بإرساله ولا معدى عن بعثه، ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال وباطل[2] .

ولعلنا نستطيع بعد هذا أن نشير إلى المنهج القرآنى فى عرض البنية الأساسية للعقيدة [3] . . .

١ـ أنه ينفرد عن المناهج الأخرى بعرض الحقيقة . . كما هى فى عالم الواقع، فى الأسلوب الذى يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطها، دون تعقيد، ذلك لأنه يخاطب الإنسان فى كل مستوياته، ومن ثم لا يتوقف إدراك هذه البنية الأساسية على درجة معينة من العلم، لأن العقيدة هى حاجة البشر الأولى، والتصور الذى تنشئه فى عقولهم وقلوبهم هو الذى يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله، ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلُّم أى علم، ولطلب أى معرفة .

٢ـ أنه مبرأ من تلك النظرة «الجزئية» المتقطعة الملحوظة فى الدراسات العلمية، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل، وإنما يعرض هذه الجوانب فى سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة الإنسانية بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس فى الأرض بحياة الملأ الأعلى[4] .

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٩.

(٢) محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسان إليه. ص ٢٢.

(٣) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٦ . ص ٦٥.

(٤) المرجع السابق . ص ٦٦.

٣ـ ومع تماسك جوانب «الحقيقة» وتناسقها، يحافظ المنهج القرآنى تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها ـ فى الكل المتناسق ـ مساحته، التى تساوى وزنه الحقيقى فى ميزان الله، ومن هنا تبدو «حقيقة الألوهية» وخصائصها بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى يبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسى[1].

٤ـ كذلك يتميز المنهج القرآنى بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية ـ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم ـ وهى تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً لا يتسامى إليها المنهج البشرى فى العرض، ولا الأسلوب البشرى فى التعجيز، ثم هى فى الوقت ذاته تعرض فى دقة عجيبة وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة!

وتعتبر العقيدة فى الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، فمن عرف عقيدة قوم فى إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة عقيدة الفهم والوجدان، ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول التى تتبعه جميع الموجودات[2].

ولقد كان النظر فى صفات الله مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان؛ لأن الفيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيد بها الحكيم الدينى ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة، فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الإلهى إلى أوج لا يلحق به الخيال فضلاً عن الفكر والإحساس.

وجاء الإسلام من جوف الصحراء بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية، كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ فى جانب النقص منها ـ أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله.

وهكذا نبدأ عرض البنية الأساسية للعقيدة بأولها وأهمها ومصدرها جميعاً..

الله...

---

(١) المرجع السابق . ص ٦٧.

(٢)عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : دار الهلال ، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (١٦٩) ، إبريل ١٩٦٥ ، ص ٣٦.

أولا ـ الله

وجوده:

إن وجود الله هو للمؤمن حقيقة موضوعية وذاتية معاً. إن وجوده هو برهان على هذا الوجود ، وكل موجوداته هما آيات هذا الوجود ، وليست مقاييس العقل الإنسانى هى مقاييس هذا الوجود، فالله هو مقياس كل موجود، ومن يحاول أن يستدل على وجود الله بالبرهان العقلى، هو كمن يحاول أن يزن الجبل بميزان الذهب وهذه هى عقلانية وجود الله الذاتية[1] .

هذه العقلانية الذاتية، تقابلها العقلانية الموضوعية، فالقرآن ـ كما سوف يأتى بتفصيل أكثر فى فصل تال ـ هو كتاب الدعوة إلى النظر العقلى فى وجود الله، وهو الكتاب الذى جعل النظر العقلى أو الفلسفة فريضة دينية[2] .

إننا نتوقف هنا لدى آيات أربع فى القرآن تدعو إلى التفكير والتأمل والتعقل[3] :

﴿ ... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾ [البقرة].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ... (٨) ﴾ [الروم].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ... (١٨٤) ﴾ [الأعراف].

﴿ ...وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر].

وذلك لأن الأولى تدعو الإنسان إلى التفكير فى آيات الخلق، وتدعوه الثانية للتفكير فى آيات النفس، وتدعوه الرابعة والخامسة للتفكير فى آيات الأمس، وهى كلها آيات الوجود الدالة على وجود الله، وهى كلها آيات الإعجاز الإلهى، وهى كلها معجزات تهدى العقل إلى الوجود الإلهى، وهى كلها مناهج عقلية لاستقراء هذا الوجود استقراء محسوساً، فالطبيعة معجزة الله ، والإنسان معجزة الله ، والتاريخ معجزة الله ، والعالم المفكر فى الكون، والمستقرئ لقوانين حركته، والعالم النفسى المفكر فى الكون الإنسانى والمستقرئ لقوانين سلوكه، والعالم المؤرخ المفكر فى الماضى والمستقرئ لقوانين تطوره، جميع هؤلاء مهتدون وهداة إلى وجود الله .

---

(١) حسن صعب: الإسلام والإنسان ،دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١ . ص ٥٣.

(٢) المرجع السابق . ص ٥٤.

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها.

إن الله جلت قدرته يقول : ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] ، ويقول : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف].

هذا هو مفتاح الدليل على وجود الله تعالى وموقفه، نعنى أن الإنسان يسلك إلى هذا سبيل الانتفاع بحواسه وعقله وتفكيره، وذلك فى عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد أو فى عجائب خلق الأرض والسموات والقوانين التى تدبرها وتحكم أمورها، وفى بدائع ما فطر عليه الحيوان والنبات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وحينئذ يعرف يقيناً أن هذا كله لم يكن مصادفة بلا خالق، بل كله من صنع إله قادر حكيم[1] .

فهذا الإنسان، مم خلق ؟ خلق من قطرات ماء ينزل من صلب الرجل وترائب المرأة حين الاتصال المعروف بينهما، وهذه « النطفة » المتشابهة الأجزاء- حين ينظر المرء إليها- كان منها الإنسان بما فيه من عظام وأعصاب وأوتار وعروق، ولكل من ذلك وظيفة يقوم بها وعمل يؤديه، وكل هذا فى تعاون واتساق عجيب .

فمن ذا الذى جعل ذلك كله من تلك القطرة أو القطرات من السائل المهين؟ ومن الذى جعل منها كل تلك الأنواع من العظام واللحم والأعصاب وما إليها ؟ ومن الذى جعل منها كل تلك الأجهزة التى لا قوام للإنسان بدون واحد منها. . . فجهاز للنظر وآخر للسمع، وآخر للشم، وآخر للذوق، وجهاز للدورة الدموية، وجهاز للعقل والفكر، وجهاز للإحساس . . وهكذا .

لا يمكن أن يكون كل ذلك قد وجد من نفسه، بل لابد من أن تكون هناك قوة عليا قادرة حكيمة مريدة، وهذه القوة العليا هى ما ندعوه نحن « الله » القادر العليم، الحكيم، الله خالق كل شىء، الله أحسن الخالقين[1] .

إننا نرى «النطفة» القذرة التى كانت معدومة، فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام فى مواضعها وحسن أشكال أعضائها، وزين ظاهرها وباطنها، ورتب عروقها وأعصابها، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، ثم صيرها أخيرا إنساناً سميعاً بصيراً عالماً ناطقاً.

---

(١) محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ،ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق . ص ٧٥.

وهكذا بالتفكير فى عجائب الإنسان وبديع خلقه وكمال صنعه، يصل المرء إلى الإيمان بالله الذى خلقه فأحسن خلقه، ولا عجب ! فهو صنع الله الذى أتقن كل شىء وهو بكل شىء عليم(١) .

وأكد ابن رشد أن أفضل طريقة لإثبات وجود العالم عن الله تعالى هى الطريقة التى نبه القرآن الكريم عليها، ودعا الكل من بابها، وإذا استقرأت الكتاب العزيز وجدتها تنحصر فى نوعين(٢) :

أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ويسمى هذا الدليل دليل العناية .

والطريقة الثانية، ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة فى الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، وهو مايسمى دليل الاختراع .

فبالنسبة للدليل الأول فهو يقوم على أصلين: أحدهما أن العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا فى جميع أجزائه لوجود الإنسان ولوجود جميع الموجودات التى هاهنا. والأصل الثانى أن كل ما يوجد موافقاً فى جميع أجزائه لعقل واحد، ومتجهاً نحو غاية واحدة، فهو «مصنوع»، ضرورة، وينتج عن هذين الأصلين أن العالم مصنوع وأن له صانعاً ! .

وتشير آيات قرآنية إلى هذا فى قوله عز وجل : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ] .

هذه الآيات، إذا تأملها الإنسان، وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان، وذلك أنه تعالى ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس، وهو أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها، وأنها لو كانت بشكل آخر غير شكلها، أو فى موضع آخر غير الموضع الذى هى فيه، أو بقدر آخر غير هذا القدر، لما أمكن أن نخلق عليها ولا أن نوجد فيها، وهذا كله محصور فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ

---

(١) المرجع السابق . ص ٧٦

(٢) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٤٧ .

الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ، وذلك أن المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع، وزائداً إلى هذا المعنى الوثارة ـ من وثير ـ واللين[1] .

ثم نبه اللـه بقوله: **﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾** [النبأ] على المنفعـة الموجودة فى سكون الأرض بسبب الجـبال، فإنها لوكانـت أصغر مما هى لتزعزعـت من حركات الماء والهواء وتزلزلت وخرجت من موضعها، ولـهلك ما عليها من الحيوان ضرورة. وإذن، موافقة سكونها لما عليها من الموجـودات لم يكن بالاتفاق، ولكن عن قصد قاصد وإرادة مريد، فهى ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة على الصفة التى قدّرها.

وجاء بعد ذلك قـوله تعالى: **﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾** [النبأ] تنبيها على موافقة الليل والنهـار للحيوان والنبات، إذ الليل يسترها من حرارة الشمس كما يستر اللباس الجسد ويقيه شدة الحرارة، ومع هذا فالليل يجعل ما فيه حياة يستغرق فى النوم، ولذلك قال: **﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾** أى مستغرقاً بسبب الظلام .

ثم قال: **﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾** ، وهى السموات معبراً بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها، وكذلك عن معنى ما فـيها من نظام واتفاق أو موافقة لما خلقت من أجله، عبر بلفظ الشدة عـما جعل فيها من القوة علـى الحركة الدائمة، فليس هناك خوف من أن تخـر السقوف والمـبانى العاليـة. وهذا كله تنبيه مـن الخالق على موافـقة السموات والأفلاك وسائر ما فيها، فى إعـدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها، لوجود ما على الأرض وما حولها، حتى إنه لو وقف جرم من الأجرام السماوية لحظة واحدة ، فضلاً عن أن تقف كلها، لفسد ما على وجه الأرض[2] .

ثم نبه بقوله: **﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾**، على منفعة الشمس وموافقتها لوجود ما على الأرض، إذ لولا الضوء لما انتفع الإنسان والحيـوان بحاسة البصر ـ فضلاً عن أثر الشمس فى حـياة الإنسان والحيـوان ـ ونبّه على هذه المنفعة لأنهـا أشرف منافع الشمس وأظهرها .

وأخيراً نبّه الخـالق، جلت حكمته ، بقوله: **﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾** على العناية فى نزول المطر، وأنه ينزل لمكان الحيوان والنبـات، وأن نزوله لهذا بقدر محدود وفى أوقـات محدودة لا يمكن أن يكون مصادفة، بل سبب ذلك، العناية الإلهية بالأرض وما عليها .

---

(١) محمد يوسف موسى، بين الدين والفلسفة ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٤٩ .

أما دليل الاختراع، فهو يقوم على أن كل شىء من السموات والأرض والحيوان والنبات مخترع، وذلك بدليل المشاهدة فى هذين، وبدليل حركات السموات التى تؤذن بأنها مسخرة لنا، وكل ما كان كذلك فهو مخترع حتماً، وكل مخترع له مخترع ضرورة، فيصح من هذين الأصلين أن للعالم مخترعا له[1] .

وتتعدد جهود المفكرين والباحثين والعلماء لحقيقة الوجود الإلهى . . . من ذلك ما يلفت إليه الشيخ الغزالى فى تساؤله[2] :

ماذا نرى عندما تعبث الأيدى بأوراق (اللعب) ، أو بأزهار النرد ؟

إنها تلقى ما بها أو تستقبل ما أمامها دون أن تدرى عنه شيئاً ثم تتأمله بعد أن يقع لتعرف ماذا يحتوى .

كذلك الأطفال وهم يلهون بالألاعيب المهداة إليهم، إنهم يرمونها يمنة أو يسرة، ويحركونها بضعف أو بقوة دون أن يكون لهم هدف أكثر من حب العبث وطلب المرح. هذه الحركات التى نلمحها فى الصغار والكبار، لا يمكن أن توصف بأنها مقرونة بحكمة محكومة بقانون، أو مصوغة فى إطار من سداد الفكر ودقة الغاية، إنها حركات وحسب . ومن هنا يجىء السؤال : هل خلق العالم جاء على هذا الغرار ؟ فركمت ـ من التراكم ـ مواده بعضها فوق بعض دون قصد أو سيرت حركاته علوا وسفلاً دون ضبط، كأن الخالق أراد من هذا الصنيع اللهو والتسلية ؟ الإجابة الفورية هى بالنفى، فقد قال سبحانه وتعالى :﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] وفى آية أخرى يبين أن كيان هذا العالم تضام وتماسك، أو تحرك وانطلق وفق نظام رائع، وسنن متسقة، وغاية مرسومة، ومراحل معلومة: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الدخان] .

ويلفت الغزالى نظرنا إلى أهمية التوقف وقفة ذكية فاحصة عند كلمة « بالحق» هذه، فإنها تكررت فى كتاب الله عشرات المرات، وهى فى شتى مواضعها تعنى أن الحياة لا تسير خبط عشواء، وأن بناء الكون قائم على بصر نافذ وأوضاع اكتنفها من

---

(١) المرجع السابق . ص ١٥٢

(٢) محمد الغزالى : الجانب العاطفى من الإسلام ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٤١ .

ألفها إلى يائها إعداد حكيم، وتنظيم مضبوط، يستحيل أن يتطرق إليه خلل أو يتنابه عوج[1].

ولا ينبغى لنا أن نتصور نجماً يخترق الفضاء متجولاً ، بحيث يسرع إذا أحب ويبطئ إذا أحب . إنه يجرى تبعاً لقوانين قيد بها ، وقوى حبس فى حدود إذن الله بها، ولم يأذن بغيرها[2].

إنه الحق الذى انساب فى أوصال العالم كما تنساب الروح فى البوق، والذى تكرر كثيراً فى القرآن الكريم : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم]

ومع كل هذا فهناك من لا يؤمن بوجود الله !

والأساس الذى أقام عليه كثير من الملحدين رأيهم هو تلك الرؤية القاصرة إلى حقيقة «العلة»، ذلك لأنه باكتشاف قانون «العلية» وأن الكون فى حركته الكلية يسيره قانون العلة والمعلول من زعم الملحدين- أن هذا الكشف يعنى : عدم تفسير الظواهر تفسيراً يجعل للدين والإله مكاناً فيها[3].

ولا شك فى أن هذه نظرة قاصرة للعلية، فمعنى العلة الحقيقية وهى التى تكون وراء جميع الظواهر التى تحدث فى الكون ، أنه «الله» سبحانه وتعالى بلغة المؤمنين المخلصين، وأما الأسباب والعلل الأخرى فليست إلا أسباباً وعللاً قريبة، والمثال التالى ربما يوضح جوهر هذه الفكرة[4] :

إذا ذبح إنسان حيواناً بواسطة سكين حتى زهقت روحه، فأين هى العلة وراء هذه العملية ؟ إن التفسير الميكانيكى للظواهر يرى أن العلة هى السكين؛ لأنها هى التى ذبحت الحيوان . وهذا كلام مردود بأوليات العقل ، إن السكين لم تفعل وحدها، أى لم تتحرك من ذاتها لإحداث هذه العملية، وإذن فلا تصح أن تكون علة للحادثة، بقى

---

(١) الجانب العاطفى من الإسلام ، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق . ص ٣٤.

(٣) محمد نصار: عناصر العقيدة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العددان ٦٩ ـ ٧٠ ، أغسطس/ يناير ١٩٩٤، ص ١٥.

(٤) المرجع السابق . ص ١٦.

أن يقال أن الإنسان هو الفاعل للذبح بواسطة السكين، وهذا يعنى أنه ليس علّة مستقلة، ثم تسأل بعد ذلك : من الفاعل الحقيقى لإزهاق الروح ؟ لا يمكن أن يقال إنها السكين، لأن عملها الذبح، أى أنها آلة فقط لتنفيذ العملية، ولا يمكن أيضاً أن يقال إنه الإنسان لأنه مجرد فاعل لقطع رقبة الحيوان لا لإخراج روحه، وإذن فهناك علة بعيدة غير منظورة وراء هذه العلل القريبة.

والطبيعة التى يقولون بها هى نفسها بحاجة إلى التفسير . . .

فلو سألنا طبيباً : ما السر وراء احمرار الدم ؟ فسوف يجيب : لأنه فى الدم خلايا حمراء، حجم كل منها واحد على سبعمائة من البوصة، فلو قيل له : ولماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟ لأجاب : لأن فيها مادة تسمى «الهيموجلوبين» وهى مادة تحدث لها الحمرة، حين تختلط بالأكسجين فى القلب، ولو سئل : ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل «الهيموجلوبين» ؟ لأجاب إنها تصنع فى الكبد، ولو سئل : كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد بعضها ببعض ارتباطاً كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟ لأجاب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة. ولو قيل له : ولكن: لماذا تهدف القوى دائماً إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ،حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد إنسان فى الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟ لأجاب : لا تسألنى عن هذا، فإن علمى لا يتكلم إلا عن الذى يحدث، وليس له أن يجيب عن : لماذا يحدث؟[1] .

إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيض القوية، فيخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم . لقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه ، ولكنا شاهدنا اليوم - بالمنظار - أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله فى تكسير قشرة البيضة لينطلق خارجاً منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيض[2] .

هذه المشاهدة كما يزعم المعارضون أبطلت الفكرة القديمة القائلة بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة إذ قد رأينا يقيناً أن قانون «الواحد والعشرين يوماً» يحدث هذه العملية، والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولا

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧.

(٢) وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ، المختار الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٨.

تكشف عن سببه الحقيقى، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن (تكسر البيضة) بل عن (كيف يظهر هذا القرن)؟ إن السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن، والعلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه «مشاهدة للواقع على نطاق أوسع» ولكن ليس تفسيراً له .

إن الاكتشاف الذى اعتبره معارضو الدين بديلاً للإله، يمكننا أن نفسره بسهولة بأنه «أسلوب عمل الطبيعة» . إننا نستطيع أن نقول بكل قوة: إن الله يجرى إرادته فى الكون بواسطة هذه القوانين التى اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن .

ولم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله فى كتاب من كتب الأديان المنزلة كما تكررت فى القرآن الكريم، فقد كان يخاطب أقواماً ينكرون وأقواماً يشركون وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون فى مذاهب الربوبية والعبادة، وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذى نزل فيه وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم فلزم فيه تمحيص العقول فى الربوبية عند كل خطاب[1] .

وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلي مغزاها، ولكنها وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ [الحجرات] .

فحتى العيان لا يكفى لإقناع من صرف عقله عن سبيل الإقناع ، لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينه وسمع بأذنيه ، وكل شيء في الأرض والسماء كاف لمن جرد عقله من أسباب الإنكار والإصرار: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم] .

ومما يستوقف النظر أن البراهين التى جاء بها القرآن الكريم وخصها بالتوكيد والتقرير هى أقوى البراهين إقناعاً وأحراها أن تبطل القول بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها، ونعنى بها «أولاً» برهان ظهور الحياة فى المادة ﴿ ... يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ... (٩٥) ﴾ [الأنعام]، ﴿ ...وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ... (٢٣) ﴾ [الملك]، وثانياً برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة: ﴿ ... جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ... (١١) ﴾ [الشورى] .

---

(١) عباس محمود العقاد ، الله ، ص ١٩٨ .

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحى فيعجبون ما وسعهم العجب لدقتها واتساق أجزائها وتعاون وظائفها وسريان عوامل النمو فيها ، بمقاديره الضرورية على حسب السن والنوع والفصيلة ، سواء فى جسم الإنسان أو جسم الحيوان أو جسم الحشرة أو جسم النبات ، فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الأعضاء، وعلى أى نحو تتساند تلك الوظائف، وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة، وأن كل ذرة منها تقع فى موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه كأنها على علم بها وبما تطلبه منها، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها[1] .

والإنسان نفسه الذى آثره الله على غيره بالخلافة فى الأرض، وفضله على كثير ممن خلق، وزوده بمختلف المواهب والقوى، مدين بحياته، وبما تقوم عليه حياته وبما وصل إليه من علم وحضارة ورقى، لله جل شأنه، فهو من الآيات الدالة عليه، كما يقول الله[2] : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم] ، وهو على ما أحرزه من تقدم فى مجال العلم والمخترعات لم يخلق من العدم شيئاً، ولم يصنع من الموجود ما يعجز عنه غيره ، وهذا هو الفارق بين عمل المخلوق وعمل الخالق، فكل ما أوجده الله يزيدك العلم به إذعانا لعظمة موجده، وثقة بالعجز عنه، ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها والإجادة فيها، ومن هنا كان العلماء أعرف الناس بالله وأكثرهم خشية له، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر] .

وإذا كنا قد عنينا بأهمية : «البراهين» و «الحجج» التى تؤكد وجود الله، فإن هذا لا ينبغى أن يحجب عنا حقيقة إن وجد من ينكرها، فإن هذا الإنكار إنما هو مكابرة ومعاندة، هذه الحقيقة هى «إيمان الفطرة»[3] ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

(١) عباس محمود العقاد : الله ص ٢٠٠

(٢) عبد الرحيم فودة : الدين عند الله ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ،سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد ٥٣ ، رجب ١٣٩٢هـ / أغسطس ١٩٧٢ ، ص ٩٤.

(٣) عدنان الشريف : من علم النفس القرآنى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٦.

للدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [الروم] .

فالإنسان مفطور على الإيمان بما أودعه الله فيه من عقل مفكر يهديه إلى البرهان الذى يتلاءم مع مستوى علمه ومنطقه على أن له رباً وجبت طاعته من بين ما يصعب حصره من الأدلة والبراهين فى هذا الكون، وما حواه من مخلوقات من أصغر جسيم فى الذرة إلى أكبر مجرة، مروراً بعالم النبات والحيوان، و كلها تشهد بوحدانية الخالق وعظمته، وهذا ما نفهمه من معانى الآية الكريمة السابقة والآيتين التاليتين : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)** ﴾ [الأعراف] . ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)** ﴾ [الزخرف].

وقد حاول فرعون ـ وهو حاكم أعمى البصيرة ـ أن يسأل موسى عن كنه الله! فكان الجواب الفذ : إن الله يعرف بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا وآثاره التى يستحيل أن تنسب لغيره :﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)** ﴾ [الشعراء].

وفى سؤال آخر لفرعون :﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)** ﴾ [طه] .

إن الله أعز وأسمى من أن يجعل وجوده قضية تحتمل القيل والقال والأخذ والرد. وإذا كان فى البشر عميان لا يحسون وجوده، ولا يشكرون نعمته، فهم أنزل رتبة من أن ينصب لهم منبر، أو تصور لهم شبهة[1].

---

(١) محمد الغزالى : المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٢٥.

ويكفى أن يتحدث رب العالمين عن نفسه فيمحو باطلهم فى سياق من العظمة والجلال، هو لهما أصل، وبهما جدير! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر].

ومع ما أوردنا من نصوص قرآنية لكافية لتأكيد الحقيقة الإلهية، إلا أننا نرى أن نزود القارئ بالمزيد من البرهنة والنصوص .

إن تدبير معاش جماعة من البشر، بل معاش فرد واحد، بل جانب واحد من حياة فرد واحد كالطعام والشراب والكساء، فضلاً على الخلق والإنشاء، هو أمر هائل جداً . . أمر يقتضى تحريك قوى وطاقات وأجرام وأفلاك، وعوامل كونية متشابكة، لا قبل لواحد من البشر ـ بل لا قبل للبشر جميعاً بتحريكها فضلاً على خلقها وإنشائها، ولا قبل للعبيد أجمعين ـ لا البشر وحدهم ـ بمحاولة شيء من ذلك، ولا يقدر على تحريكها وتنسيقها ـ فضلاً على خلقها وإنشائها ـ بحيث ينشأ من تلك الحركة المتناسقة تدبير أمر طعام أو شراب أو كساء لمجموعة من البشر، بل لفرد واحد من البشر، بل لحى واحد من أحياء الدنيا فى هذه الأرض إلا الله القادر القاهر، خالق هذه القوى والطاقات، والأجرام والأفلاك، الذى تدين له بالعبودية، وتخضع لنواميسه وأوامره، وتتحرك بإرادته وتعمل بقدره[1] .

إنها تتطلب خلق هذا الكون بطبيعته هذه أو بموافقاته التى لا تحصى ، والتى تسمح ـ بتجميعها على هذا النحو ـ بنشأة الحياة ونموها ـ على النحو الذى نمت فيه دون سواه ـ وتتطلب تحريك الشمس والقمر والأرض والرياح، ومئات العوامل الأخرى، وفق خطة معينة تتوافر فيها آلاف الموافقات، التى يستحيل أن تنشئها المصادفات، إذ إن للمصادفات كما يسمونها قانوناً كذلك لا يسمح قطعاً بأن تتجمع هذه الموافقات كلها تلقائيا ـ وليست هناك مصادفات فى الواقع ولا فى التصور الإسلامى، وإنما هو «القدر» المرسوم والتدبير المعلوم، سواء عرفه البشر أم لم يعرفوه[2] .

---

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى، ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٣٤ .

فإن نحن تجاوزنا الأرزاق الأولية الضرورية لحياة الإنسان فى أبسط مظاهرها الأولية، ونظرنا فى سائر مقومات حياته من زواج ونسل، ونوم وصحو، وقدرات وطاقات، وقوى واستعدادات، يواجه بها هذا الكون، ويتعامل معه، ويسخر قواه وطاقاته ومدخراته وأقواته لمصلحته، وللنهوض بوظيفة الخلافة فى هذا الملك العريض، والتعامل مع شتى العوالم، ثم التعامل مع الله- سبحانه وتعالى- خالق هذه العوالم اتضح ألا سبيل إلى شىء من هذا كله، إلا بقدر الله وإرادته وتدبيره ، وإلا بعلمه وحكمته، وإلا بفضله ورحمته .

والقرآن الكريم يواجه الإنسان بهذه الحقائق على نحو فريد حقا :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس].

التوحيد..

وهو أس الإيمان بوحدانية الله، والمراد بالوحدانية «التفرد» فى الذات والصفات والأفعال للحق سبحانه وتعالى[1] ، أى: ليست هناك ذات تشبه ذاته أو تماثلها ـ نفى الشريك والضد والند ـ وليس هناك صفات تشبه صفاته ـ نفى المماثلة فى الصفات والتشبيه منها ـ كما أنه ليس هناك من أفعال غيره يشبه فعله جل وعلا ـ ونفى المماثلة الذى يلزم منه «التفرد» قد جمعتها آية واحدة هى قوله تعالى :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] .

(١) محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، ص ٢١.

ووحدانية الله تعالى هى المبدأ الأول للإسلام ولكل شىء إسلامى، وفحوى هذا المبدأ أن الإله هو الله، وأنه لا إله غيره، وأنه تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأنه مطلق الكمال بكل المقاييس، هو الخلاق ليس له شريك، بأمره توجد كل الموجودات. هو الحق ومصدر كل حق وكل خير وكل جمال، وإرادته هى التى تحدد غاية وجود الكائنات، وهى القانون الذى يحكم الكون والمخلوقات ويقنن للسلوك والأخلاق والتوجه إليه والرغبة إليه هى التوجه إلى الخير والعدل والحق، وهى أسمى الغايات وأسمى مراتب الوجود، وطاعة أمره هى بداهة تحقيق العدل والحق والخير، وهى واجب على كل الكائنات، وعلى رأسها الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم، وزوده بالإرادة التى بها يحمل المسئولية والأمانة فى التصرف والخيار الحر بين السمو نحو الحق والخير والإصلاح، أو الانحطاط نحو الباطل والشر والفساد، وأناط بالإنسان أمانة عمارة الأرض وإبداع طاقاتها ليحقق بالإرادة الحرة المثل الإلهية فى إبداع معانى الخير والإصلاح وصور الحق والجمال[1].

وأن يفكر المرء ويعيش واعياً بوحدانية الله معناه أن يعيش واعياً على ربوبية الله الحق وألوهيته فى عالم غايته الخير والحق والجمال والإعمار والحيوية؛ لأن كل شىء فيه موجود بصنعته عز وجل ولإنفاذ إرادته، معتمد فى بقائه على ربوبيته ومتجه دائماً بطبيعته نحو تحقيق الإرادة الإلهية. فى مثل هذا العالم لا شىء موجود صدفة أو عبثاً أو فارغاً من معنى فكل شىء خلقه الله بقدر، وحين يكون الإنسان جزءاً من عالم، هذه صفاته، فإنه يدرك من العلاقات بينه وبين كل الكائنات ما لا يحده حد، وفوق ذلك كله يدرك أنه مخلوق لله ومعتمد عليه ومدين له، هو- سبحانه - موضع تقديسه وحبه وولائه وطاعته.. ولكى يكون المسلم مسلماً فإن عليه أن يكون وعيه دائماً عامراً بذكر الحق سبحانه وتعالى والتوجه إليه. ومادام الله هو الخالق وهو الديان، فلن يكون المسلم مسلماً حقاً حتى يفعل كل شىء كما حددته إرادة الحق وجاء به شرع الله، قاصداً به وجه الله وحده. وكما أن الحياة والطاقة منحة من الله. فكذلك كل ما يناله الإنسان من الخير والسعادة ثمرة الطاعة لما أمر الله به، وبما سخر الله من الخلق وقدر. هذا هو ما يجب أن تكون عليه الحياة الإسلامية[2].

---

(١) المعهد العالمى للفكر الإسلامى: إسلامية المعرفة: القاهرة، ١٩٨٦، ص ٧٨.

(٢) المرجع السابق. ص ٧٩.

ومن شاء أن يرى القـرآن وهو فى أروع حالات توقده وتألقه وتحفـزه، فليره وهو يتحدث عن وحدانية الله وقدرته ورحمته .

إن آيات القـرآن حين تتحـدث عن الله لتبلغ قـمة الاحـتـدام الذكى ، والتـفوق المنطقى ، وتصـول الآيات وتجول فى ميدان اكتظـت أرضه بالأصنـام والأوثان والشركاء والشبهات «وتكاد تسمع للآيات مثل الصلصلة وهى تدمدم على الآلهة الزائفة والأرباب المجلوبين ، تكاد ترى الآيات الكريمات وكـأنها تعـدو، وتقتحم أو تتـواثب، وتدهم ، وتنذر، وتطوق، وتباغت، متعقـبة أباطيل الشرك وأكاذيبه، فى كل مكان .. فى كل زمان .. فى كل مناسبة»[1] .

والقرآن العظيم حـين يتحدث عن الله فـإنما يتحدث عن الله الأحـد، فليس الله عنده إلا واحد أحد، وحيث يوجد التعدد لا يكون ثمة إله؛ ذلك لأن الله لا يتعدد ولا يتكرر ولا يتغير . ﴿ ... إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء].

والقرآن فى هذا لا يزعم لنفسـه أنه أتي بجديد، بل هو ينادى في إلحاح أن تلك دعوة إبراهيـم وملته: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل].

فإصرار القرآن على وحدانيـة الله ورفضه كل تعدد فى ذات الله .. إصراره على رفض التشبيه والتمثـيل بالنسبة لله الذى ليس كمثله شىء .. إصراره هذا وذاك إنما هو توكيـد للحنيفيـة الأولى التى جاء أبو الأنبـياء والمرسلين إبراهيم عليـه السلام . ثم هو توكيد لما هتف به موسى وعيسى وكل رسول كريم كما سوف نبين بعد قليل .

ولأهمـية «التـوحيـد» ظهر فى العلوم الإسـلامـية علم باسم «علم التـوحيـد»، والتوحيـد هنا علم يبحث فيه عن وجـود الله وما يجب أن يثبت له من «صـفات» وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم[2] .

وقد سمى هذا العلم بالتـوحيد تسمية له بأهم أجـزائه وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلـق الأكوان وأنه وحده مرجـع كل كون ومنتهى كل قـصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعـثة النبى ﷺ كما تشهد به آيات الكـتاب العزيز. وقد

---

(١) خالد محمد خالد : كما تحدث القرآن، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤ . ص ٨٤.

(٢) محـمد عبده : رسـالة التوحيـد، تحقيق مـحمود أبو ريه، دار المعـارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٨٠.

سمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه، وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلاً لما يأتى بعدها، وإما لأنه، فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما .

ومما يشير إلى أن الفطرة البشرية ـ فى حالة نقائها ـ تشعر بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره ما ترويه الآثار العربية إلى اهتداء الأعرابى إلى ذلك معبراً عن هذا بقوله : «البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير : فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟» فجاء الإسلام مصدقاً لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلال شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونبهها إلى النظر فى آثار الله تعالى، فما عليك إلا أن تتصفح القرآن الكريم، فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته(١) .

نعم ربما قال إنسان أنه لو كان التوحيد فطرياً لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم، فذهبوا- كما نعلم- مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابهاً بين آلهتهم، وهذا مباين لمقتضى الفطرة، إذ منشأ ذلك أن الإنسان ميال إلى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات وإلى إنكار ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة.

فمن ذلك ما قصد الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ [النساء] .

ومن البديهى أن الشىء لا يصح إنكاره إلا إذا أثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والإحاطة به فمن العجب أن يتخذه

(١) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، ص١٦.

ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشيء، وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على المذهب العجيب الذى هو مظهر جهل إلى حد كبير[1] .

ولقد كانت قضية العبودية لله وحده بلا شريك، هى قضية الاعتقاد الأولى والحقيقية، فى جميع الرسالات السماوية، على مدار العصور والقرون .

هذه هى الحقيقة التى يقررها الله- سبحانه ـ فى كتابه الصادق الكريم، وهى تختلف اختلافاً أصيلاً عميقاً عما يذهب إليه عدد من علماء تاريخ الأديان!

فمنذ عهود سحيقة، مجهولة من «التاريخ» .. ذلك الطفل الحدث الذى لم يع من تاريخ الإنسانية إلا القليل، ولم يستيقن بعد من شيء فى هذا القليل، وما يزال ما يعلمه عنه فى حدود الظن والتخمين، نقول: منذ عهود سحيقة لا علم لهذا «التاريخ» بها، جاء الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وتنزلت الرسالات من عند الله ـ سبحانه ـ لتقرير هذه الحقيقة الكبرى ... حقيقة التوحيد .. توحيد الألوهية .. واختصاص الله سبحانه بها وخصائصها وتوحيد العبودية لله وحده بلا شريك، والدينونة لله وحده بلا منازع . ولم يكن « التوحيد » فى الرسالات السماوية ـ قط «تطوراً» فى العقيدة انتهى إليه التعدد والتثنية، أو انتهت إليه العقيدة فى الأرواح، ثم الآلهة الكثيرة، أو انتهت إليه شتى المدارج والخطوات التى يختلف «علماء الأديان المقارنة» فى ترتيب تعليلها كذلك، ويذهبون فى شأنها كل مذهب، وبخاصة بعد ما سيطرت نظرية التطور فى عالم الأحياء، حوالى ما ينيف عن قرن من الزمان ـ بعد دارون ـ وما جره على الفكر الأوربى من سلبيات فى تعميمه على كل مافى الوجود وكل من فى الوجود[2] .

لقد أرسل الله الرسل ـ منذ فجر البشرية ـ بالتوحيد الخالص الكامل، وقد عرف التوحيد ـ فى صورته الخالصة الكاملة ـ هؤلاء الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وعرفه كذلك منهم أتباعهم الذين آمنوا بهم، وعلى مدار الرسالات .. ولكن الذين لم يؤمنوا كانوا يظلون فى جاهليتهم . وهؤلاء لا نستطيع أن نوافق علماء الأديان المقارنة

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية، ص ١٧ .

(٢) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي، ص٨٤ .

فى أن عقائدهم كانت تختلف فى طور حياتهم عن طور، وكان من أول المؤثرات فى ارتقائها نحو التوحيد إلى جانب ما يكون من مؤثرات أخرى سياسية واجتماعية وثقافية مما تذكره هذه الدراسات ـ هو بدون شك ما تتركه رسالات التوحيد السماوية من تأثرات وموجات ورواسب فى جاهلية الجاهلين . . على أن الارتقاء نحو التوحيد فى معتقدات الجاهلين لم يكن خطا ثابتا صاعداً، فقد كانت الانتكاسات فيه تلى الاندفاعات . وكانت الموجة تصل إلى ذروتها فى عقائد أتباع الرسل الموحدين، ثم يخلف من بعدهم خلف يرتكس إلى الجاهلية، يعود إلى التعدد ويعود إلى الخرافة، وينشىء حول عقيدته ما ينشىء من الأساطير(١) .

والمصدر الأساسى الذى يرتكز عليه الإيمان بالله هو العقل، منحه الله إلى الإنسان، فالإيمان بالله ـ فيما يؤخذ من القرآن الكريم ـ يستلزمه المنطق السليم والنظر الصائب، ولا يحتاج إلى دليل خارج عن النفس، وما يحيط بالإنسان من مخلوقات تتجلى فيها عظمة الخالق وقدرته الشاملة وتصرفه المطلق تبعاً لإرادته النافذة وحكمته السامية(٢) .

ولهذا لا نجد فى القرآن آية تناقش المؤمنين فى أسباب إيمانهم بالله، أو تحاول التدليل على صحة عقيدتهم بطريقة مباشرة، فكل ظاهرة من ظواهر الكون آية للمؤمن بربه يزداد بها إيمانه ولا يؤسس عليها، وتقوى بها عقيدته ولا تبدأ عندها . نقرأ ذلك فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم].

فالمتحدث عنهم فى هذه الآيات هم الذين كفروا بالله ولم يستمعوا إلى صوت العقل ونداء الواقع، ولم يحاولوا فهم الكون الذى يعيشون فيه وينعمون بما وهبهم الله

(١) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٢) أحمد إبراهيم مهنا ، مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم . مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية . الكتاب ١٥ ربيع الآخر ١٣٩٠ هـ / يونية ١٩٧٠، ص٢٩ .

من فضل، وذكر المؤمنين فى نهاية كل آية إنما هو لبيان انتفاعهم بما تنطق به من مظاهر قدرة الله ورحمته وتصرفه المطلق فى تثبيت عقيدتهم وتجديد إيمانهم بخالقهم[1]، وهذا هو نفس المعنى الذى نفهمه من قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات]. وقوله جل شأنه: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [الأعراف].

أما أسلوب القرآن مع الكافرين فيختلف عن ذلك، إذ يناقشهم فى أسباب كفرهم ويقيم الدليل على خطأ الطريق الذى سلكوه، وعلى مخالفته لما تقضي به الفطرة ويهدى إليه العقل، ومن ذلك قوله عن الذين أنكروا وجود الله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور].

ويوجه إليهم الحديث الذى ينطق بالدليل الواضح فيقول:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)﴾ [الواقعة].

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة].

وحين اشترط الأنبياء فى مقولتهم لأقوامهم ﴿... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (٥٠)﴾ [هود] كان ذلك معنى الأخذ بأيديهم إلى معرفة الإله الحق، وترك الشركاء الذين اتخذوا آلهة من دونه، على أى نحو كانت تلك الآلهة، ظواهر كونية كالشمس والقمر، أو أصنام تصنع وتعبد من دون الله، أو بعض الأشخاص والحيوانات .... إلخ، وحسب القرآن فى هذا كله أن يكشف عن العلاقة الصحيحة بين المعبود والعابد، أو الخالق والمخلوق، تلك التى يقرر العقل والفطرة أن يكون أحد طرفيها أعلا طبيعة ومكانة وهو « الإله الحق» والآخر أدنى طبيعة ومكانة وهو «العابد» وفى ضوء هذا التحديد للعلاقة الصحيحة تسقط جميع الاعتقادات والممارسات التى تتجاوزها[2].

وقد أطلعنا القرآن الكريم على مشهد سيق للتعليم بأسلوب الترقي من موقف إلى آخر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا

(١) مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم، ص ٣٠.

(٢) محمد نصار: عناصر العقيدة الإسلامية، ص ١٩.

أُحبُّ الآفلين ﴿٧٦﴾ فلمَّا رأى القمر بازغًا قال هذا ربِّي فلمَّا أفل قال لئن لَّم يهدني ربِّي لأكونَنَّ من القوم الضَّالِّين ﴿٧٧﴾ فلمَّا رأى الشَّمس بازغة قال هذا ربِّي هذا أكبر فلمَّا أفلت قال يا قوم إنِّي بريء مِّمَّا تُشركون ﴿٧٨﴾ إنِّي وجَّهتُ وجهي للَّذي فطر السَّموات والأرض حنيفًا وما أنا من المُشركين ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وقبل هذه الآية مباشرة جاء قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزر أتتَّخذُ أصنامًا آلهة إنِّي أراك وقومك في ضلال مُّبين ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام].

إن هذه الآيات تكشف عن الخصائص التى تكون للإله الحق، وهى الصفات المطلقة من علم وقدرة وإرادة وحكمة، بها جميعاً توجد الموجودات على نمط يدل عليها، وبناء على ذلك يمكن أن تقاس خصائص الآلهة المفترضة : الكواكب بصفة عامة، القمر، الشمس، هل تتوافر فيها خصائص الإله الحقيقى أو إنها ليست كذلك ؟ إن الناظر فيها يشهد بأنها ليست آلهة، لأنها تأفل وتظهر، وهذه الأعراض لا تليق بالإله، كما أنها، من ناحية أخرى لا تملك خصائص الخلق والتدبير، إذ هى فى ذاتها مطبوعة على ما يصدر عنها، وإذا كانت كذلك فهى أثر لصانع فطرها على ذلك، وبهذا كله ينتفى كونها آلهة، وإذا كان هذا شأن الكواكب التى نلمس آثارها نفعاً وضرا، فمن باب أولى أن تكون الأصنام آلهة مزعومة، ومن ثم ينتهى المشهد ببيان الإله الحق الذى فطر السموات والأرض، وذلك الذى كان الغاية من إيراد هذا الموقف(١) .

ولنقتبس نموذجاً آخر من سورة من السور التى استغرقت الدلائل على وحدانية الله قدراً كبيراً منها وهى سورة الرحمن ، قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ

(١) محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، ص ٢٠ .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن].

فى هذا القدر من الآيات من سورة الرحمن تعداد لنعم الله وآلائه على الإنسان فى خلقه ومعاشه، وكلها دلائل واضحة وقوية الدلالة على قدرة الله ووحدانيته وتفرده بالسلطة والتدبير والحكمة وليس فيها إحالة على مجهول، ولا تحتاج إلى التنبيه إلى مواقع العظمة فيها فتكون مجالاً للشك والتردد، إذ هى آيات بينات فى أنفسنا : خلق الإنسان، علمه البيان، وآيات أمام أعيننا لا تغيب عنها نستضىء بها، ونتتفع بها فى زروعنا وضبط مواقيتنا فى عبادتنا ومعاملاتنا ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ، وآيات فى زروعنا حين تخضر وتينع ثم تصفر وتيبس على نظام مطرد لا يختلف، وفى هذا دلالة على وجود مسخر مدبر لهذا النظام، وآيات فى نخيلنا ذوات الأكمام، وفى حبنا ذى العصف والريحان، وفى أصل خلقنا من صلصال كالفخار، وفى خلق الجن من لهيب خالص أو غير خالص من الدخان، وفى ترتيب منازل القمر والشمس على وجه لا يستطيعان انحرافا عنه، وفى خلق المياه العذبة والمالحة وإخراج اللؤلؤ والمرجان منها، وإجراء السفن فيها شارعة قلاعها كالأعلام لتبادل المنافع وتيسير سبل الحياة، فى كل تلك الآيات، بل فى كل آية لمن تفكر فيها، أى تفكر أو التفت إليها أدنى التفات[1] .

وعقيدة التعدد تتنافى مع وحدة الكون التى تتمثل فى ظواهر متكاملة تخضع لقوانين ثابتة، فعقيدة التعدد تفسر هذه الوحدة تفسيراً خاطئاً يفرض أن تعدد المخلوقات يعنى تعدد الخالقين، وهذا وَهْم باطل، وظن كاذب، لأن المخلوقات مهما تعددت وتنوعت بينها علاقات متشابكة، كما أنها تخضع لقوانين واحدة وسنن مطردة[2] : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك].

وكذلك تتنافى عقيدة التعدد مع الشخصية الإنسانية، وتكامل نشاطاتها العقلية والروحية والبدنية، وخضوعها لقوانين ثابتة تربطها بنظام الكون وتجعلها جزءا لا يتجزأ

(١) أبو الوفا المراغى، فكرة التوحيد فى القرآن الكريم، ص ٥١.

(٢) أحمد عبد الحميد غراب: الشخصية الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤٦.

من عالم الغيب والشهادة، فروح الإنسان من عالم الغيب وجسمه من عالم المادة، وهما متفاعلان في وحدة متكاملة وهي شخصية الإنسان[1] .

والآلهة المتعددة تكون محسوسة أو غير محسوسة :

أ - فالآلهة المحسوسة تكون في شكل تماثيل وصور تمثل عبادة البشر أو الحيوانات أو مظاهر الطبيعة، كما في الديانات الوثنية أو الديانات السماوية التي تأثرت أفكار بعض معتنقيها بعناصر وثنية .

ب - وقد تكون هذه الآلهة غير محسوسة، كما هي الحال في مظاهر الوثنية المعاصرة، فقد أصبح كثير من الناس - ومنهم مسلمون مع الأسف - يتخذون غير الله أو مع الله آلهة اخرى، وأهمها المال والسلطة والشهرة، وعلى رأس هذه القوى : الهوى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجاثية].

ونفي البنوة لله جزء من إثبات الغنى المطلق لله الواحد القهار، فما عداه فقير إليه لا يقوم إلا به، أما سبحانه فهو مستغن بذاته عما عداه، وهذا معنى الآيات: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ [يونس] .

إنه ليس لشيء في الأرض أو السماء وجود من ذاته. إننا نشبه المصابيح الكهربائية التي لا تضيء من ذاتها وإنما تضيء بتيار يسري في الأسلاك إليها، فإذا انقطع هذا المدد الخارجي أظلمت. أو نحن كالمحركات التي تدير شتى الآلات والأجهزة بطاقة مجلوبة إليها، فإذا انقطعت الطاقة سكنت الآلات وتعطلت الأجهزة[2] .

إن وحدانية الله حقيقة أزلية أبدية لا يماري في ذلك إلا جهول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ... (١٨)﴾ [الحج].

وهذا الكثير الذي حق عليه العذاب، هو الذي جحد الله، أو جعل له من عباده

---

(١) أحمد عبد الحميد غراب، ص ٤٧.

(٢) محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص ٣١.

جزءاً، أى جزء ؟ وكيف يرتفع المخلوق إلى مستوى الخالق ؟ أو كيف يسوى بين الموجد ومن أوجده ؟ إن كتاب الله هو الذى شرح هذه الحقيقة أوفى شرح، وفيه عرفنا أن الإسلام المطلوب من البشر، هو تجاوب مع الإسلام الشائع فى الكون كله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران].

والقرآن يرد على دعوى الجاحدين بأساليب كثيرة متنوعة، منها أسلوب السخرية الذى يتضمن الرد الفعلى على هذه الدعوى، ولكن فى صياغة تتسم بالسخرية من طبيعة هذه الآلهة ومن مدى قدرتها(1)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج].

فالآية فى موجزها ترسم صورتين مفترضتين شديدتى السخرية من الآلهة ومن عجزها، فأما الصورة الأولى، فتتضمن كأن الآلهة جميعاً اجتمعوا ليحاولوا عمل شىء يدل على أنهم آلهة- وهو الخالق- فعمدوا إلى أهون المخلوقات المعروفة فى حياة الناس وأصغرها وهى الذبابة، ورغم تعاونهم جميعا وتآزرهم على خلقها فلم يستطيعوا .

أما الصورة الثانية فكأن الآلهة جميعاً كانوا مجتمعين، وكان أمامهم شىء يأكلونه مثلاً، فجاء الذباب أو ذبابة فاختطفت هذا الشىء، فحاول الآلهة مجتمعين أن يأمروها بإرجاع هذا الشىء كما ينبغى للآلهة أن تفعل، فلم يستطيعوا، وحاولوا مجتمعين أن يطاردوها فلم يستطيعوا، فالذبابة ضعيفة؛ لكن آلهتهم أضعف منها حيث غلبتهم الذبابة على أمرهم سواء فى خلقها وفى مسلكها، ولذلك كان التعقيب المحكم للقرآن حينئذ : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ والطالب هم الآلهة المزعومون والمطلوب: الذباب!

ويقف ابن رشد موقفاً نقدياً من الاستناد إلى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء] . كدليل عرف باسم دليل التمانع أو الممانعة لإثبات وحدانية الله ويعتبره دليلاً متكلفاً، لأن الجمهور لا يقدرون فهمه ولا يحصل لهم به إقناع، وذلك بأن هذا الدليل يجرى هكذا: لو كان الخالق للعالم اثنين لجاز أن يختلفا وإذن، فإما أن يتم مراد واحد منهما، فلا يكون العالم موجودا ومعدوماً معاً وهذا مستحيل، أولاً يتم مراد واحد منهما، فلا يكون العالم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) عبد الحليم حفنى : التصوير الساخر فى القرآن الكريم، ص ١١١ .

موجودا ولا معدوماً، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، فيكون هذا الآخر عاجزاً والعاجز ليس بإله. ويكون الذى تم مراده هو الإله وحده، وهذا هو المطلوب[1] .

وفضلاً عن أن هذا الدليل ليس برهاناً قاطعاً، وليس فى طاقة الجمهور فهمه، ولا يحصل لهم به اقتناع إذا بسط مفصلاً، فإن ابن رشد يرى ضعفاً واضحاً فيه إذ يمكن أن يقال بأن هذين الإلهين قد يتفقان بدل أن يختلفا، وهذا هو الأليق بالآلهة، وحينئذ يحتاج الأمر إلى تفصيل الدليل بما لا يطيقه الجمهور والعامة من الناس .

أما طريقة ابن رشد التى يرتضيها فتقوم على أنه من المعلوم أن اجتماع ملكين فى مدينة واحدة وعمل كل منها من عمل صاحبه، يؤدى إلى فساد المدينة، فكذلك لو كان هناك خالقان لفسد العالم ولكن العالم موجود، وعلى غاية الصلاح، فيكون الخالق واحداً ضرورة[2] .

ويضيف إلى هذه الآية آية أخرى تقول: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]، إنه يضيفها فى استدلاله لينفى ما قد يقال: إن لنا أن نفرض آلهة متعددة يتفقون فيما بينهم على أن يكون لكل واحد عمل خاص، وذلك بأنه فى هذه الحالة يكون لنا أكثر من عالم واحد، ولكن العالم بأجزائه المتماسكة المترابطة هو واحد لا أكثر، وإذاً فالخالق واحد لا غير.

ومجمل ما يقال فى عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات، فالله هو المثل الأعلى، وبالتالى فإن الإيمان بالتوحيد فى الإسلام يؤدى إلى أن تتحول حياة الإنسان المؤمن به إلى جهاد لا نهائى لتحقيق هذا المثل الأعلى للكمال فى حياة الإنسان، وفى حكم الإنسان أو فى ثقافة الإنسان، وفى حضارة الإنسان، وفى دار الإنسان؛ ولذلك فإن العقيدة الإسلامية تبدو مثالية فى توحيديتها التجريدية المطلقة، فالله بالذات والروح والفكر والخلق والكلمة هو الأول والآخر، ولكن مثاليتها موصولة بواقعية حية ومتجددة فى جهاد المسلمين لتصيير التوحيد الحقيقة المحسوسة لوجود الإنسان. إن ملكوت الله مطلق الكمال فى وحدانيته، وملكوت الإنسان يقترب من الكمال الإلهى بمقدار ما يرتقى فى المعراج الوحداني. والعقيدة الإسلامية هى حركة هذا الارتقاء وحركيته، لأن المؤمن

(١) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة، ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

لا يكتفى بتأمل معتقده، بل يحياه، و المسلم لا يهدأ باله حتى يحقق هذا الارتقاء فى نفسه وكونه[1].

وقد عدد باحثون أثر التوحيد فى الحياة الدنيا فى الآثار التالية[2] :

١ـ أن التوحيد يحرر الإنسان من كل عبودية إلا الله سبحانه، فيتحرر عقله من الخرافات والأوهام، ويتحرر ضميره من الخضوع والذل والاستسلام، وتتحرر حياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله .

٢ـ أنه يعين على تكوين الشخصية المتزنة التى توحدت غايتها، وتوحد طريقها، فليس لها سوى إله واحد تلوذ إليه فى جميع أمورها وشئونها.

٣ـ أنه يملأ نفس صاحبه أمنا وطمأنينة، فلا يخاف شيئاً ولا يرهب أحداً إلا الله، ولهذا نرى الموحد بالله، آمناً إذا خاف الناس، مطمئناً إذا قلق الناس، وهادئاً إذا اضطرب الناس .

٤ـ يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة لما تمتلئ به نفسه من الرجاء فى الله، والثقة به سبحانه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه والاستغناء عن خلقه، فهو راسخ كالجبل، لا تضعفه الأهوال ولا تخذله المحن .

٥ ـ أنه أساس لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية، لأن الأخوة والمساواة لا يتحققان فى حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض . أما إذا كانوا كلهم عباد الله فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس، ولهذا كانت دعوة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول مختومة بهذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

٦ـ أن الإنسان اذا عرف مفهوم التوحيد معرفة كاملة، ودفعه ذلك إلى الصدق والخير والشجاعة، فلا يرى غير الله ولا يخشى سواه .

٧ـ أن مفهوم التوحيد فى الإسلام إنما يرسم دائره كاملة للمجتمع والفكر الإنسانى

---

(١) حسن صعب، الإسلام والإنسان ، ص ٢٨

(٢) يوسف عبد الغنى على: حول مفهوم التوحيد فى رحاب القرآن المجيد، مجلة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، أسيوط ، ١٩٨٥ العدد الثالث ص ٦١ .

كل قوامـها سيـادة الإنسان للكون تحت حكم اللـه والتقاء القـيم الروحية بالـقيم المادية وارتباط القلب بالعقل والدنيا بالآخرة[1] .

صفات الذات الإلهية

فكرة الله فى الإسلام، هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى العقائد الدينية السابقـة وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عـليها، ولهذا بلغت المثل الأعلى فـى صفات الذات الإلهية، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله بقسطـاس الإيمان وقسطاس النظر والقيـاس. ومن ثم كان فكر الإنسـان من وسائل الوصول إلى معرفة الله فى الإسلام وإن كانت الهداية كلها من الله[2] .

وإذا كانت صورة الله فى فلسفة أرسطو تتـسم بالتجريد والتنزيه، لكن صورة الله فى الإسلام أصح إذا قيست بالقياس الفلسـفى الصحيح؛ لأن صفات الإله التى تعددت فى عقـيدة الإسلام لا تعدو أن تكـون نفياً للنقائـض التى لا تجوز فى حق الإله، وليس تعدد النقائض مما يقضى بتعدد الكمـال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد، فإن الكمال المطلق واحد والنقائض كثيرة ينفيها جميعاً ذلك الكمال الواحد . وما إيمان المسلم بأن الله عليم قديـر فعال لما يـريد كريـم رحـيم، إلا إيماناً بأنه جل وعلا قـد تنزه عن نقائض الجـهل والعجز والجحد والغشم، فهو كامل منزه عن جميع النقائض، ومقتضى قدرتـه أن يعمل ويخلق ويريـد لخلقه ما يشاء، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة» التى توهمها (أرسطو) ـ فيلسـوف اليونانية الكبير ـ مخطئاً فى التـجريد والتنزيه، فهو سعيد بنعمـة كماله، سعيد بنعمة عطائه، كفـايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفـايتهم من الوجـود فى الزمان، أى مـن ذلك الوجـود المحدود الذى لا يغض مـن وجود الله فى الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل[3] .

وقد تناول ابن رشد صفات الكمال بالتدليل عليها، وهى صفات: الحياة ـ العلم ـ الإرادة ـ القدرة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام، وكان منهجه يسير على النحو التالى[4] :

١ـ نبه القرآن على وجـه الدلالة على العلم بقوله : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] .

---

(١) يوسف عبد الغنى على . ص ٦٢ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤١.

(٤) محمد يوسف موسى : الدين والفلسفة ، ص ١٥٥.

والدلالة هنا نجدها فى الآية الثانية، وذلك بأن المصنوع، بترتيب أجزائه، وموافقة جميعها للمنفعة المقصودة منه، يدل على أنه حدث عن صانع يجعل ما يصنع على ترتيب ونظام يؤدى إلى الغاية المقصودة منه، فوجب أن يكون عالماً ضرورة به .

٢ـ وإذا كان من المشاهد أن من شرط العلم فى العالم أن يكون حيا، وإذا كان من شرط ما يصدر عنه شيء من الأشياء أن يكون مريدا له وقادرا عليه، كان من الطبيعى أن تثبت لله تعالى صفات الحياة والإرادة، والقدرة[١] . كذلك، لما كان من شروط الصانع الجدير بهذا الوصف أن يكون مدركاً لما يصنعه بكل نوع من الإدراك، وجب أن يكون الخالق جل وعلا سميعاً بصيرا، وإلا لما كان أكمل الخالقين، ولما استحق أن يكون معبودا، ومن ثم جاء فى القرون حكاية لقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ ...يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم].

٣ـ أما بالنسبة لصفة الكلام، فإذا كان المخلوق الذى ليس بفاعل حقيقى يقدر على هذا الفعل، فيكون من الحرى أن يتصف بذلك، الفاعل الحقيقى .

وإذا كان الإنسان يتكلم بألفاظ يتلفظ بها، إلا أن كلام الله قد يكون بواسطة ملك، أو قد يكون وحياً وإلهاماً، كما قد يكون بواسطة لفظ يخلقه الله فى سمع من يصطفيه بالتكليم، وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى].

ويصف سبحانه وتعالى نفسه فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم[٢]: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر،

---

(١) محمد يوسف موسى : الدين والفلسفة . ص ١٥٦.

(٢) عبد الغنى عبود : الإنسان فى الإسلام والإنسان المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص١٢١ .

المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور .

وهى صفات تصفه فى كل حالاته، وتحدد موقفه أمام مخلوقاته مجتمعة وأمام كل مخلوق منها على حدة، كما تحدد موقفه من الكون، والحياة والأحياء، وموقفه من المؤمنين به ومن العصاة له، وتحدد موقفه من بدء الخلق، وموقفه من نهايته .

وهى صفات فيها التعميم وفيها التخصيص، وفيها التنوع والمرونة بحيث تناسب كل حال، وتستجيب لكلٍ متغير، فهو ليس عفواً غفوراً على طول الخط، ولكنه منتقم جبار أيضاً هو عفو غفور للتائبين إليه، والمستغفرين له، وهو منتقم جبار بالنسبة للمكابرين المعاندين، الذين لا يتعظون، ولا يريدون أن يتعظوا [1] .

وحين تعرض القرآن لمسألة الصفات ذكرها بكل وضوح وجلاء، و ليس مسئولاً عما آلت إليه لدى المدارس المختلفة، لأن أفهام البشر ليست حاكمة عليه، وكان يكفيهم هذه المباعدة الواضحة بين ما لله وما لسواه مما ذكرته آية الشورى، وكان يكفيهم أيضاً أن يعلموا أن اللغة هى لغة إنسانية وهى مشتركة فى جملها بين المعانى الإلهية والمعانى الإنسانية، وإذا كان الأمر هكذا فكان ينبغى أن تراعى هذه القضية، ومن ثم فالألفاظ المشتركة فى دلالتها على المعنيين - الإلهى والبشرى - ينبغى أن تفيد المعنى الذى يليق بما تضاف إليه[2] .

إن القرآن الكريم قد فصل فى الصفات الثبوتية (مثل : السميع ، البصير... إلخ) وأجمل فى صفات النفى (مثل : لا تأخذه سنة ولا نوم)، وهذا هو الوضع الطبيعى فى هذه المسألة ، وإذن فالفكر البشرى الذى عكس هذه القضية ، قد جاءت مباحثه فيها غير متلائمة مع روح القرآن الكريم ، وفى نفس الوقت لا تثبت أمام النقد العلمى الدقيق .

لقد قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]. وقد جاء التوجيه هنا على سبيل الأمر، وإذن فمحاولة تأويلها أو تفسيرها على غير ما جاءت، بحمل ظاهرها على

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢) محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، ص ٢٢ .

المفهوم الإنسانى، يعد تجاوزاً لروح القرآن الكريم، وقد توعد الحق سبحانه وتعالى فى الآية الذين تجاوزوا هذه الروح بأن عملهم هذا سيكون محل مؤخذاته يوم القيامة. إن الصفات التى وصف الله بها نفسه فى كتابه الكريم هى الصفات التى ينبغى لكل كمال مطلق منزه عن الحدود، والكمال المطلق واحد لا يتجزأ، ولا يكون كمالاً مطلقاً إلا إذا كان غاية فى القدرة والعلم والرحمة والعدل والإحسان والتصريف .

وعلة الزلل كله أن نحصر هذه الصفات، وهى لا تقبل الحصر، أو نقيسها على شىء ، فأصدق الإيمان ـ وأصدق التفكير معاً فى هذا الصدد ـ أن الله ليس كمثله شىء، وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار[1] .

ونتوقف مع محمد الغزالى وقفة مطولة بعض الشىء أمام آية قرآنية هامة جمعت الكثير مما وصف به الله نفسه : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] .

فقد سبق أن تناولنا ما يشير إليه الجزء الأول وهو «لا إله إلا هو » أما بالنسبة لـ«الحى القيوم » فالأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة، ذلك أن الحياة، عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم، وهو عرض يفارقهم يوماً ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيض جل شأنه، الحى الذى لا بداية لحياته ولا نهاية، فحياته وصف ملازم له أولاً وأبدا، وذلك هو الفرق بين حياة الخالق والمخلوق[2] .

وقد ورد فى الآيات والآثار ـ أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن، والقائم على الشىء والقيم عليه أو القوام عليه، ألفاظ تتفاوت فى الكشف عن هذا الإحاطة الشاملة لفنون التصريف وألوان السيطرة على العالم.

ولكن لفظ« القيوم » جاء على ضوء الصيغة فى المبالغة، إشارة إلى أنه من المستحيل أن يفلت زمام الأمور من الخالق، أو أن تسير فى وجهة غير ما قضى، إذ كل شىء يستند فى وجوده وبقائه إلى هذا الوجود الأعلى .

أما بالنسبة إلى « لا تأخذه سنة ولا نوم »، فتعنى أن رب العالمين لا يشغله شأن

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ، ص ٢٢.

(٢) محمد الغزالى : الجانب العاطفى من الإسلام ، ص ٢٩.

عن شأن ولا يغفل عن أمـر فى السماء لاهتمامه بأمر فـى الأرض، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء، ولا تنفك قبضته الواعية عن ذرة فى عالم الغيب أو عالم الشهود لسهو أو إغفاء[1] .

والله « له ما فى السموات وما فى الأرض» تشير إلى سعة ملك الله، فماذا نقول فى غنى يشمل آفاق السموات وفـجاج الأرض ؟ إن العالم كله، علوه وسفله، ملك لله وحده .

«من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وهذه الشفاعة لا تعدو لوناً من إكرام الله فى الدار الآخرة لمن أهينوا بسـببه فى الدنيا، فيـريد الله أن يصلح بالهم وأن يعلى قدرهم، وأن يشعر عـباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة، وأن يطوى قلوب المقصـرين والمتأخرين على محبتهم وإعزازهم لما سيق إليهم من فضل على أيديهم . بيد أن الشفاعة المذكورة، لا تهدم قـواعد العدل ولا تعطل موازين الحـساب ولا يحتـاج إليها سابق بالخـير، ولا ينتفع بها مارق من الحق[2] .

«يعلم مابين أيديهم وما خلفهم»، فهذا الجزء يشير إلى أن علم الله محيط بما فى الظاهر وما فى الباطن، الأمس واليوم والغد .

وفضلاً عن هذا فقد استأثر سبـحانه بعلم لا يستطيع أحد غيره أن يحيط به وإلى هذا تشير الآية القرآنية : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة] .

وكذلك قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة].

ويقـول : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل].

---

(١) المرجع السابق . ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق . ص ٣٢.

وفى قوله تعالى فى آية الكرسي: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء»، إشارة إلى أن ما يستطيع الإنسان أن يعرفه سواء بوسائل الحس المعروفة أو باستدلال عقلي، فإنما بمشيئة الله، لأنه هو الذى خلق هذه الوسائل المعرفية. أما علم الغيب، فلا قبل للإنسان بمعرفة شيء منه إلا بما يوحيه سبحانه وتعالى إلى رسله الكرام.

يقول نوح لقومه وفقاً للنص القرآنى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف].

ويقول يعقوب لبنيه فى القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف].

واستكمالاً لآية البقرة نجده سبحانه وتعالى إذ يقول: «وسع كرسيه السموات والأرض»، فإن كل ما نذكره من هذه الجملة هو ما توحى به من الإشراف الإلهى العالى على سائر الخلق، ما نرى وما لانرى، وإن السموات والأرض لا يستغرقان إلا جزءا من الملكوت الواسع الذى اشتمل عليه هذا الكرسى[1] وفى قوله: «ولا يؤوده حفظهما» أى لا يتجشم مشقة فى ضبط السموات والأرض وتدبير الأمر بينهما.

وتجيء الجملة الأخيرة لتكون بمثابة (التاج) لما سبق، فهى تشير إلى أنه سبحانه وتعالى هو العلى العظيم.

ثانيا ـ عالم الغيب

الغيب:

الإيمان بالغيب ركن أساسى فى العقيدة الإسلامية يعبر عنه سبحانه وتعالى بعبارة واضحة صريحة، فالركن الأول فى صفات المتقين بنص القرآن: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، كما جاء في مستهل سورة البقرة: ﴿... ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

فالناس قسمان: مادى لا يؤمن إلا بالحسيات، وغير مادى يؤمن بما لا يدركه الحس، أى بما غاب عن المشاعر حتى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم، ولا شك أن الإيمان بالله وملائكته- وهى جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى، وباليوم الآخر- إيمان بالغيب.

(١) الجانب العاطفى من الإسلام، ص ٣٥.

وما دام الغيب لا بغيب عن الله، فما دوره ؟[1].

بالنظر فى الآيات ـ وهناك غيرها كثير بطبيعة الحال ـ يتضح أن الإنسان يغفل عن هذه الحقيقة وربما كان قصوره هو عن إدراك الغيب سبباً فى غفلته، ولكن النظر فى الآيات يوضح أيضاً أن الإنسان يغفل عن حقيقة أنه لا يعلم الغيب؛ لذلك فالآيات ترد الإنسان عن الغفلة عن الحقيقية : تذكره أن الله يعلم الغيب وأنه هو لا يعلم... تذكره أنه فى مجال معين، العلم لله وليس للإنسان فيه نصيب : ﴿... وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

﴿.... ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة].

[البقرة].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور].

فعلم الغيب فارق واضح بين الخالق والمخلوق يكاد أن يجده الإنسان فى كل منحى من مناحى حياته ونشاطه، فهو بذلك تنبيه دائم للتوحيد[2].

الملائكة :

تشير آيات قرآنية متعددة، وأحاديث نبوية مختلفة إلى وجوب الإيمان بالملائكة ضمن عناصر العقيدة الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]. وكما جاء فى حديث جبريل المعروف الذى منه أن «نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونؤمن بالقدر خيره وشره»[3] .

والذى ينكر وجود هؤلاء الملائكة يكون كافراً، ففى ذلك يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ

---

(١) إبراهيم أحمد عمر : العلم والإيمان ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ ، ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان جـ١ ص١٥٧ شرح النووى، دار التراث، بيروت.

مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وفى معيار العقل الصريح لا مبرر لإنكارهم لأنه لا يترتب على الإيمان بوجودهم استحالة عقلية، و كل ما كان كذلك، فإن وجوده يكون ممكناً عقلاً، فإذا جاء النص اليقينى الثبوت بما يفيد وجوده، فلا مناص من الإيمان بذلك عقلاً، وهنا يتضافر دليل العقل مع دليل النقل[1].

ومن المعلوم أن الملائكة عالم يدخل ضمن عالم الغيب الكبير، ومن الثابت فى ديننا أن هذا العالم لا يحيط بحقائق ودقائق أنواعه وأفراده علما سوى خالقه، وهو الله سبحانه وتعالي، ومن يرتضي من رسول، و قد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

ويقول السلف فى الملائكة أنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم، فيجب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم، فنفوِّض علمها إلى الله تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور، إذ لو كانت كذلك لرأيناها، قال عز وجل: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ ... ﴿١﴾ ﴾ [فاطر].

وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على أن فى الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا، بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحى الذى أخبر به[2].

وأما الخلف، فمنهم من تكلم فى حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفاً، ومنهم من أمسك عن ذلك، وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون[3].

وروى الشيخ محمد عبده أن بعض المفسرين قد ذهب مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة، بحيث يرادف بينها وبين «الروح»، ومضمون هذا المعنى أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ نبات وغير

---

(١) محمد نصار، عناصر العقيدة الإسلامية، ص ٤١.

(٢) تفسير المنار ، جـ١ ، ص ٢١٢.

(٣) المرجع السابق . ص ٢١٣.

وما دام الغيب لا يغيب عن الله، فما دوره ؟[1].

بالنظر فى الآيات ـ وهناك غيرها كثير بطبيعة الحال ـ يتضح أن الإنسان يغفل عن هذه الحقيقة وربما كان قصوره هو عن إدراك الغيب سبباً فى غفلته، ولكن النظر فى الآيات يوضح أيضاً أن الإنسان يغفل عن حقيقة أنه لا يعلم الغيب؛ لذلك فالآيات ترد الإنسان عن الغفلة عن الحقيقية : تذكره أن الله يعلم الغيب وأنه هو لا يعلم... تذكره أنه فى مجال معين، العلم لله وليس للإنسان فيه نصيب : ﴿... وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

﴿.... ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة].

[البقرة].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور].

فعلم الغيب فارق واضح بين الخالق والمخلوق يكاد أن يجده الإنسان فى كل منحى من مناحى حياته ونشاطه، فهو بذلك تنبيه دائم للتوحيد[2].

الملائكة :

تشير آيات قرآنية متعددة، وأحاديث نبوية مختلفة إلى وجوب الإيمان بالملائكة ضمن عناصر العقيدة الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]. وكما جاء فى حديث جبريل المعروف الذى منه أن «نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونؤمن بالقدر خيره وشره»[3].

والذى ينكر وجود هؤلاء الملائكة يكون كافراً، ففى ذلك يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ

---

(١) إبراهيم أحمد عمر : العلم والإيمان ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ ، ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان جـ١ ص١٥٧ شرح النووى، دار التراث، بيروت.

من قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦]. وفى معيار العقل الصريح لا مبرر لإنكارهم لأنه لا يترتب على الإيمان بوجودهم استحالة عقلية، و كل ما كان كذلك، فإن وجوده يكون ممكناً عقلاً، فإذا جاء النص اليقينى الثبوت بما يفيد وجوده، فلا مناص من الإيمان بذلك عقلاً، وهنا يتضافر دليل العقل مع دليل النقل[1].

ومن المعلوم أن الملائكة عالم يدخل ضمن عالم الغيب الكبير، ومن الثابت فى ديننا أن هذا العالم لا يحيط بحقائق ودقائق أنواعه وأفراده علما سوى خالقه، وهو الله سبحانه وتعالى، ومن يرتضي من رسول، و قد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

ويقول السلف فى الملائكة أنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم، فيجب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم، فنفوض علمها إلى الله تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور، إذ لو كانت كذلك لرأيناها، قال عز وجل: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ ... ﴿١﴾ ﴾ [فاطر].

وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على أن فى الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا، بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحى الذى أخبر به[2].

وأما الخلف، فمنهم من تكلم فى حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفاً، ومنهم من أمسك عن ذلك، وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون[3].

وروى الشيخ محمد عبده أن بعض المفسرين قد ذهب مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة، بحيث يرادف بينها وبين «الروح»، ومضمون هذا المعنى أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ نبات وغير

---

(١) محمد نصار، عناصر العقيدة الإسلامية، ص ٤١.

(٢) تفسير المنار، جـ١، ص ٢١٢.

(٣) المرجع السابق. ص ٢١٣.

ذلك، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهى سُمِّىَ فى لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال فى التسمية بالتوفيق يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة . والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكاً رغم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع، فالحقيقة واحدة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، والذى لا يؤمن بالغيب يقول : لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها، ولا يعلمها إلا الله فعلام يختلف الناس ؟ وكل يقر بوجود شىء غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمها حق الفهم ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه. وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب، وقد اعترف بما غيب عنه لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدره، فيتفق مع المؤمنين بالغيب، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى، ويحظى بما يحظى به المؤمنون؟[1] .

وقد روى أحمد ومسلم ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار وخلق الإنسان مما وصف لكم».

ذلك حديث لرسول الله ﷺ يذكر فيه الأصل الذى خلقت منه الملائكة، والأصل الذى خلق منه الجان، والأصل الذى خلق منه الإنسان . . وهو حديث جليل بعيد المرامى، متعدد المعانى، لا يريد به ـ عليه الصلاة والسلام ـ مجرد الإخبار عن الأشياء التى خلقت منها الملائكة والجن والناس، إنما يريد إلى جانب ذلك الإشارة إلى ما وراءه[2] .

ولو كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد مجرد الإخبار والفائدة العلمية لاكتفى بذكر النور الذى خلقت منه الملائكة دون الحاجة إلى ذكر الأصلين الآخرين، فإن القرآن الكريم تولى تقريرهما تقريرا مؤكدا مكررا فى غير موضع منه .

(١) المرجع السابق . ص ، ٢٢٣.

(٢) البهى الخولى : آدم عليه السلام، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٩٧٤، ص ٧٥.

فرسول الله ﷺ - إذا - يريد شيئاً فوق الفائدة الإخبارية، يريد أننا لا نعيش فى هذا الكون الرهيب العميق وحدنا مع صنوف الطير والوحش والبهائم، ويريد أن نقابل بين نوعين من الكائنات التى تحيا معنا فيه، وتتصل بنا ونتصل بها، ويريد بهذه المقابلة أن نختار لنفسنا بين ما أصله نور وأصله نار .

لا بد لنا من أصدقاء مؤنسين فى هذا الكون الغامض، فمن أى النوعين نختار ذلك الصديق المؤنس، والعشير الصالح ، والقرين النافع ؟ . . من الملائكة، أم الجن؟ . . من النور أم النار ؟

ومما هو جدير بالملاحظة أن رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن الأصول التى خلقت منها هذه الأنواع - لم يذكر الأصل الذى خلق منه الإنسان، واكتفى بذكر الأصلين الآخرين فقط، كأنه يريد أن يركز الأذهان فى المقابلة بين هذين الأصلين وحدهما، بحصر الانتباه فى المقارنة بين النور الذى تألفه الطباع والنار المحرقة ليختار الإنسان صديقه وقرينه على علم وبينة[١].

والذى يؤخذ من القرآن الكريم بخصوص الملائكة :

١- أنهم خلق من خلق الله يختلفون عن الإنسان فى طبيعتهم، وباعتبارهم عالماً غيبيا، ليس ماديا من طبيعته أن يبرز فى العالم المادى ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

٢- والملائكة مطيعون لله، بخلاف الإنسان، يقول تعالى : ﴿... عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول :﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

٣- والملائكة هم رسل الله إلى من يشاء من عباده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ... ﴿١﴾﴾ [فاطر]. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٨.

وعن طريق الوحى الذى يحمله الملك، تلقى الأنبياء والرسل ما شاء الله أن ينعم به على عباده من كتبه المقدسة وشرائعه الهادية، وفى هذا يقول القرآن لكريم: ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ** (٢) ﴾ [النحل].

وكما أن الملائكة كانت رسل الله إلى أنبيائه فيما يتعلق بالوحى وتعاليم الأديان، فقد كانوا رسله كذلك بالبشرى إلى بعض خلقه [١]. نقرأ قصة رسول الله زكريا عليه السلام : ﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** (٣٩) ﴾ [آل عمران]. وجاء فى قصة مريم: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** (٤٢) ﴾ [آل عمران]. وكان هذا تمهيداً لما جاء بعد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** (٤٥) **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** (٤٦) ﴾ [آل عمران].

٤ـ ومنهم من يثبت به الله سبحانه وتعالى المؤمنين ويؤيدهم، نفهم هذا من قوله عز وجل : ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** (١٢) ﴾ [الأنفال].

٥ـ ومنهم من يقبض الأرواح عند الموت ، يقول تعالى : ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (٣٢) ﴾ [النحل].

٦ـ والملائكة مأذونون أيضاً فى توجيه اللوم والتوبيخ إلى من ظلم نفسه ولم يحاول الانتفاع بنعمة الله عليه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا ...** (٩٧) ﴾ [النساء].

٧ـ ومن الملائكة من يحفظ على الإنسان أعماله فى دنياه حتى تعرض عليه فى ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** (١٠) **كِرَامًا كَاتِبِينَ** (١١) **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** (١٢) ﴾ [الانفطار].

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص٢٩.

(٢) مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم ، ص ٣٦.

فماذا قدم القرآن إلى الإنسان لكى يطمئن قلبه إلى تحقيق أمله فى حياة أخرى تجعل لنضاله فى الدنيا قيمة ومعنى ؟

وأقرب ما يلفتنا إليه القرآن، ما نراه فى الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها وما نبصره بأعيننا من خروج الحى من الميت وخروج الميت من الحى توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلى أو المستحيل المادى[1] :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ١٩].

وقد كان من العرب الجاهلين من رفع الله الغشاوة عن قلبه وعقله، فرأى أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، ولكن كثرتهم الكاثرة كانوا على غير هذه العقيدة، إذ كانوا يرون أنه من المحال أن يعود إلى الحياة مرة أخرى من مات وصار تراباً، وكانوا يقولون مستنكرين :﴿ ... أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء] [2] ؟ . فرد عليهم الله بقوله :﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء].

ولما جاء أحد منكرى البعث والحياة الأخرى النبى ﷺ، قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

وقد كان جواب هذا المتعجرف المستنكر جاهزاً من نفسه، وذلك بأنه تناسى خلقه من لا شىء، أو من نطفة لا أثر فيها للحياة، فصارت بإرادة الله وقدرته حية، وصار هو بشراً سويا، فالذى فعل هذا قادر على إعادة الموتى إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت[3] .

وهكذا يضع سبحانه وتعالى أمام بصر الإنسان وبصيرته، وحسه ووجدانه، آية

---

(١) مقال فى الإنسان . ص ١٢٨ .

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

القدرة الإلهية المعجزة فى خلق الإنسان أول مرة، فلن يعييها أن تعيده مرة أخرى، وذلك أهون . وتوشك الآيات القرآنية فى خلق الإنسان أن تكون فى الغالب الأعم موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى[1].

ومن هذه الآيات، ما يأتى فى سياق الرد على الكافرين فى هزئهم بنذير الآخرة ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق].

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

والسياق ـ كما نرى ـ يقرر أن الاستفهام الصادر عن فريق المنكرين هؤلاء ـ إنما هو من قبيل الاستفهام الإنكارى، غير أن إنكارهم يقوم على قصور فى التصور، ومن ثم نرى القرآن الكريم يقف أمام هذه القضية كى يدحض هذا الإنكار بأكثر من دليل، تنوعت فى سياقها حتى شملت كل مدارك الإنسان فلا يبقى له بعد ذلك تعليل صحيح أو تبرير مقبول يرفض بهما هذه العقيدة[2] .

لقد عقب القرآن على من استبعد إحياء العظام بعد أن بليت ورمت، ذلك الذى يستلزم رفض الإيمان بالبعث بقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس] وفى هذه العلة قياس عقلى لا يقبل القدح لاتحاد العلة فيه، فإذا تصورنا أن النشأة الأولى للإنسان التى كانت من العدم المحض وعلى غير مثال سابق، هى مظهر لقدرته وإرادته وعلمه وحكمته، فإن هذه الصفات هى على إطلاقها وعمومها، فإذا كانت هذه هى علة الخلق، ابتداء ، فهى نفسها علة الإحياء مرة ثانية، وتولد الحياة عن العدم كتولد العدم عن الحياة فى ميزان الصفات المطلقة سواء بسواء، بل إن العقل قد يرى فى المرحلة الثانية للإحياء ـ وهى البعث هنا ـ ما ليس فى المرحلة الأولى ـ وهى الخلق ابتداء، والإيجاد من عدم ـ من الجهد والمشقة إن افترضنا أن ذلك جائز فى حق الله سبحانه وتعالى، ولعل هذا ما تشير إليه الآية القرآنية: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

---

(٤) مقال فى الإنسان ، ص ١٢٩ .

(٢) محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، ص ٨ .

النفس تتلبس بالمادة فى معارج الترقى والتطهير، وتخلص من المادة ـ طوراً بعد طور ـ لتعود إلى عنصرها الأول من الحرية والصفاء [1].

أما «كانط» ـ المتوفى فى سنة ١٨٠٤ ـ فقد أكد أن العقل والمنطق يوجبان أن تكون بين الفضيلة والخير، وبين الرذيلة والشر، رابطة العلية والمعلول، بمعنى أن الفاضل يجب أن يلقى خيراً جزاء عمله الصالح، وأن الآثم يجب أن يلقى شرا جزاء عمله السيئ، ولكن هذا قد لا نجده فى هذه الحياة التى نحياها على وجه الأرض، فما أكثر الفضلاء التاعسين فى حياتهم، وما أكثر الأشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا وزينتها. وهذا وذاك نحسه ونلمسه بالنسبة إلى الأفراد والجماعات[2].

وقد رأى كانط فى سبيل حل هذه المعضلة حلا عقليا، أنه لابد من فرض وجود الله وخلود الروح، وجعل هذا من بدائه علم الأخلاق ومسلماته، وأن يكون الإله كامل العلم، ليعلم تماماً قيمة كل إنسان وعلمه وما يستحق من سعادة، كما يكون كامل القدرة، ليتخطى قوانين الطبيعة التى لا تربط بين الفضيلة والسعادة برابطة العلة والمعلول.. ويثبت الفاضل. كما يرى أن هذا كله لا يكون على كماله إلا فى الدار الآخرة، التى يكون فيها الخير جزاء الفضيلة، والشر جزاء الرذيلة، ولهذا يكون التسليم بذلك أمراً ضروريا فى علم الأخلاق[3].

ونريد من الإشارة الموجزة : إلى رأى هذين الفيلسوفين، أن يذكر الناظرون فى هذه القضية- قضية الحياة بعد الموت ـ أنها مسألة بحث وتفكير وليس قصاراها أنها مسألة اعتقاد وإيمان، فالعقل لا يخرجها من متناول بحثه، وأصحاب العلم التجريبى أنفسهم لا يملكون من أسانيدهم العلمية ما يسوغ لهم إغلاق الباب فيها لأنهم لم يحصروا قط طبيعة الحياة، ولم يثبتوا قط أنها وليدة المادة الصماء، فليس لهم أن ينقضوا ويبرموا فى طبيعة شىء ليس بالمحصور فى علمهم، وليس مقطوعاً لديهم بأصل تكوينه وغاية مصيره[4].

لكن العقل نفسه يستلزم فارقاً لابد منه بين تمثيل الحقيقة، والبحث والتفكير، وتمثيل هذه الحقيقة بعينها للتدين والاعتقاد، فالحقيقة الاعتقادية لابد أن تمتزج بتصور

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ، ص ١٨٤.

(٢) محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص١٣٦ .

(٣) المرجع السابق : ص١٣٧ .

(٤) عباس محمود العقاد :الفلسفة القرآنية ص١٨٥.

المؤمنين بها؛ لأن الخطاب فيها موجه إلى ملايين من البشر منهم العارف والجاهل، ومنهم الذكى والغبى، ومنهم كبير النفس وصغيرها، ورفيع الحس ووضيعه، ومنهم من يطلب الكمال ومن لا يعرف ما لا يطمح إليه، فلا بد من توضيح الحقيقة الاعتقادية بالمحسوسات فى كثير من الأحوال، وعلى هذا ينبغى أن يروض فكره كل من ينظر إلى عقيدة الحياة الأخرى فى القرآن الكريم .

وقضية الإيمان باليوم الآخر مبنية على قضية «التكليف» التى اختص الله بها الإنسان، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، والتكليف لا يكون إلا عندما يتحقق الأساس الذى يقوم عليه، وهو حرية الإرادة الإنسانية، ومسئولية المكلف الكاملة عن كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو اعتقاد، وللعقل الإنسانى- الذى هو قدرة الإدراك والتمييز- دوره الواضح فى هذا المقام، إذ ليس من المعقول أن يكلف من يحرم من تلك القدرة، كما أن الاستطاعة التى تتعلق بالأفعال والقدرة عليها من مكملات عناصر المسئولية التى تستلزم الجزاء[1] .

ولما كان الإيمان باليوم الآخر متوقفاً على الإيمان بأن الله عادل وحكيم، فقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن وجوب مجىء هذا اليوم مستندة فى إثبات ما تتحدث عنه على أن الخالق حكيم ومستحيل عليه العبث، وعادل يستحيل عليه الظلم، يقول الله تبارك وتعالى :﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴿١١٥﴾ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون] . ويقول جل شأنه : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية].

وحرص القرآن الكريم على الاستجابة إلى ما ظلت البشرية تلتمسه من اقتناع بإمكان تحقق أملها البعيد، بقدر ما فى طبيعة الإنسان الرشيد الواعى، من ميل إلى الجدل، ومقرراً حقه فى أن يطلب ما يطمئن به قلبه، ولو كان متعلقاً بمسألة غيبية، وللإنسان أسوة فى إبراهيم عليه السلام، وقد عرض علينا القرآن من حديثه [1] :

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ... ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة]. ولم يخرج هذا السؤال إيمان إبراهيم ولا حرمه شرف اصطفائه نبيا وخليلاً .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، ص ١٢٧ .

فماذا قدم القرآن إلى الإنسان لكى يطمئن قلبه إلى تحقيق أمله فى حياة أخرى تجعل لنضاله فى الدنيا قيمة ومعنى ؟

وأقرب ما يلفتنا إليه القرآن، ما نراه فى الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها وما نبصره بأعيننا من خروج الحى من الميت وخروج الميت من الحى توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلى أو المستحيل المادى[1] :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ١٩].

وقد كان من العرب الجاهلين من رفع الله الغشاوة عن قلبه وعقله، فرأى أن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، ولكن كثرتهم الكاثرة كانوا على غير هذه العقيدة، إذ كانوا يرون أنه من المحال أن يعود إلى الحياة مرة أخرى من مات وصار تراباً، وكانوا يقولون مستنكرين :﴿ ... أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء] [2] ؟ . فرد عليهم الله بقوله :﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء].

ولما جاء أحد منكرى البعث والحياة الأخرى النبى ﷺ، قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

وقد كان جواب هذا المتعجرف المستنكر جاهزاً من نفسه، وذلك بأنه تناسى خلقه من لا شىء، أو من نطفة لا أثر فيها للحياة، فصارت بإرادة الله وقدرته حية، وصار هو بشراً سويا، فالذى فعل هذا قادر على إعادة الموتى إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت[3] .

وهكذا يضع سبحانه وتعالى أمام بصر الإنسان وبصيرته، وحسه ووجدانه، آية

---

(١) مقال فى الإنسان . ص ١٢٨ .

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

القدرة الإلهية المعجزة فى خلق الإنسان أول مرة، فلن يعييها أن تعيده مرة أخرى، وذلك أهون . وتوشك الآيات القرآنية فى خلق الإنسان أن تكون فى الغالب الأعم موجهة إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى[1] .

ومن هذه الآيات، ما يأتى فى سياق الرد على الكافرين فى هزئهم بنذير الآخرة ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق].

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

والسياق ـ كما نرى ـ يقرر أن الاستفهام الصادر عن فريق المنكرين هؤلاء ـ إنما هو من قبيل الاستفهام الإنكارى، غير أن إنكارهم يقوم على قصور فى التصور، ومن ثم نرى القرآن الكريم يقف أمام هذه القضية كى يدحض هذا الإنكار بأكثر من دليل، تنوعت فى سياقها حتى شملت كل مدارك الإنسان فلا يبقى له بعد ذلك تعليل صحيح أو تبرير مقبول يرفض بهما هذه العقيدة[2] .

لقد عقب القرآن على من استبعد إحياء العظام بعد أن بليت ورمت، ذلك الذى يستلزم رفض الإيمان بالبعث بقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس] وفى هذه العلة قياس عقلى لا يقبل القدح لاتحاد العلة فيه، فإذا تصورنا أن النشأة الأولى للإنسان التى كانت من العدم المحض وعلى غير مثال سابق، هى مظهر لقدرته وإرادته وعلمه وحكمته، فإن هذه الصفات هى على إطلاقها وعمومها، فإذا كانت هذه هى علة الخلق، ابتداء ، فهى نفسها علة الإحياء مرة ثانية، وتولد الحياة عن العدم كتولد العدم عن الحياة فى ميزان الصفات المطلقة سواء بسواء، بل إن العقل قد يرى فى المرحلة الثانية للإحياء ـ وهى البعث هنا ـ ما ليس فى المرحلة الأولى ـ وهى الخلق ابتداء، والإيجاد من عدم ـ من الجهد والمشقة إن افترضنا أن ذلك جائز فى حق الله سبحانه وتعالى، ولعل هذا ما تشير إليه الآية القرآنية: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

---

(٤) مقال فى الإنسان ، ص ١٢٩ .

(٢) محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، ص ٨ .

وقد تحدث القرآن كثيراً عن نعيم الإنسان وعذابه فى الدار الآخرة، وذكر كثيراً من أنواع النعيم وأصناف العذاب بعبارات ألف الإنسان فى حياته الدنيا التعبير بها عما يعرفه من نعيم وشقاء أو لذة وألم، ومصادر الإسلام تؤكد أن للحياة هناك نشأة أخرى ليس لها من حياة الدنيا إلا الأسماء، والذى نؤمن به أنها دار النعيم أو العذاب، وأنها ليست كالدنيا بخواصها ومزاياها وأنها المرحلة الأخيرة من مراحل الحياة الإنسانية[1] .

وفى نعيمها يقول : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا ... ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

ويقول أيضا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾ [الرحمن].

وفى عذابها يقول: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لاَّ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة]. ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة].

ومن توابع الإيمان باليوم الآخر الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين، ليوفيهم حسابهم، الإيمان بما يسبق ذلك اليوم، وهو نهاية هذه الحياة الدنيا، وهو ما يعرف بالساعة أو القيامة، وقد جاء يطلب الإيمان بذلك اليوم، القرآن الكريم والسنة المطهرة[2].

ففى القرآن الكريم نرى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر] وقوله : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة]. وقد خبأه عن عباده، حتى يظلوا مترقبين وقوعه، فيشدهم هذا إلى العمل الصالح .

يقول عز من قائل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٤٥ .

(٢) محمد نصار ، ص ٥٢ .

فإذا كان يوم القيامة، ذهبت الأرض بما عليها، وفنيت السموات، وأصبح الملك حقا خالصاً لله وحده ذى القوة والجبروت، ثم يكون بعد ذلك البعث للحساب والجزاء.

ويسمى يوم الحساب العظيم هذا بأسماء عدة، فى كتاب الله الكريم، فهو يسمى بيوم البعث أو بيوم القيامة، لأن الناس يقومون فيه من الموت، أو يبعثون للحساب، ولهذا سمى بيوم الحساب .. كذلك يسمى بيوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين الحق والباطل، كما يفصل فيه، بعدله، فى القضية الأزلية التى تشغل كل إنسان يومئذ، وهى: إلى أين يسير ؟ إلى جنة عرضها كعرض السموات والأرض، أم إلى نار وقودها الناس والحجارة ؟.. كما يسمى بيوم الحق لأنه الحقيقة الكبرى، وإن كذب بها المكذبون، ممن أعماهم الشيطان، وأضلهم .. ويسمى بيوم الدين، ويوم الجمع، ويوم الخروج، وغير ذلك من الأسماء، التى يدل كل منها على جانب من جوانب هذا اليوم، وتجتمع كلها لتحيط بهذا اليوم العظيم، من جميع أطرافه، وتدل فى صدق ودقة عليه، وما ينتظر الناس ويحدث لهم فيه[1].

وتحدثنا آيات القرآن الكريم بما يحدث للخلق فى يوم الحساب :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء].

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة].

ولما كان يوم البعث أو القيامة هو اليوم الموعود، تجلى فى كثير من آيات القرآن أسلوبه المعجز فى التصوير، فهو بعبارات سيد قطب الفريدة ـ يعبر بالصورة المحسة المتجلية عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، و إذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة[2].

---

(١) عبد الغنى عبود : اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٢.

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن . دار المعارف، القاهرة . ١٩٨٦ ، ص ٣٤.

ولعل هذا ما نستطيع أن نـلمسه فى سورة (التكوير) على سبيل المثال حيث إن هناك مشاهد أخـرى مماثلة في سور أخـرى : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير].

فهـذا ـ كما يعبـر سيد قطب ـ هو مـشهد الانقلاب الـتام لكل معهـود، والثورة الشاملة لكل موجود . . الانقلاب الذى يشمل الأجـرام السماوية والأرضية، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة، ونفوس البشر، وأوضاع الأمور حين ينكشف كل مستور، ويعلم كل مجـهول، وتقف النفس أمـام ما أحـضرت من الرصـيد والزاد فى موقـف الفصل والحساب، وكل شىء من حولها عاصف، وكل شىء من حولها مقلوب[1] .

وهذه الأحداث الكونية الضـخام تشير بجملتهـا الى أن هذا الكون الذى نعهده، الكون المنسق الجـميل الموزون الحـركة، المضـبوط النسـبة، المتـعدد الصنعـة، المبنى بأيد وإحكام. إن هذا الكون سينفرط عقد نظامـه، وتتناثر أجزاؤه أو تذهب عنه صفاته هذه التى يقوم بهـا، وينتهى الى أجله أو قدره، حـيث تنتهى الخلائق إلى صـورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا فى هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره فى المشاعر والقلوب كى تنفصل عن هذه المظاهر الزائلة وتتصل بالحقيقة الباقية . . حقيقة الله الذى لا يتغير ولا يزول ! .

وبناء الآخرة يتطلب أخلاقاً معينة فـمن استحلى أخذ رشوة، أو غصب حق، أو أكل حرام، فلـن يجد إلا منقلباً مـشئـوماً، وقد وجـدنا مسـا أصاب فئـات من الناس فانطلـقوا يركضـون فى سـاحـات الدنيا ركض الوحـوش لا يقع فى مخالـبهم شىء إلا ابتلعوه، فـهم لصوص مال وجـاه، وهم يلتـهمون ما يعـرض لهم دون تهـيب لحرام أو ابتغاء لحلال، ما يفرقـهم شىء عن وحوش الغاب. إن هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويستحيل أن يتغير سلوكهم بإيمان صحيح[2] .

أما الموقنون بالآخـرة فلهم سيـرة أخرى. إنهم يتقـون الشبهـات استـبراء لدينهم

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، م٦ ، جـ٣ ، ص ٣٨٣٧.

(٢) محمد الغزالى : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، ص ١٥١ .

وعرضهم، ويكترثون بالآخرة أشد من اكثرات غيرهم بالدنيا، وهم يفهمون بعمق قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت].

كيف يتم الحساب الإلهى وكم يستغرق ؟ لا ندرى بدقة. إن القرآن ذكر الخلاصات المهمة التى ينبغى أن يعرفها المؤمنون. وقد سئل على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم ؟ فأجاب : كما يرزقهم على كثرتهم[1] .

وفى ذلك اليوم الفذ تسمع صيحتان متناقضتان : إحداهما تنضح بالبشري والأخرى بالويل : الصيحة الأولى لمؤمن فرح طروب مسفر الوجه يقول: ﴿ ... هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحاقة].

والأخرى لكافر نادم، كالح الوجه، حزين، يقول : ﴿ ... يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة :].

ثالثا – الكون

تفسر العقيدة الإسلامية الوجود على أنه ثنائية ذات طرفين : الأول، الله جل جلاله : والثانى ما سواه من عناصر الكون جميعاً، وهو المعبر عنه «بالعالم» فى اصطلاح الفكر الإسلامي[2] . إن هذه الثنائية أثبتتها الآية الأولى التى نزلت من القرآن وهى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق] حيث انحاز الرب الخالق إلى جهة، وانحازت كل المخلوقات الكونية إلى جهة أخرى .

وهذان الطرفان فى ثنائية الوجود متباعدان فى الحقيقة الذاتية حيث يتصف الله تعالى بالكمال المطلق، ولا يستطيع العقل البشرى أن يعلم من كنه حقيقته شيئاً، وقصارى ما يدرك منه ثبوت صفات الكمال له، فى حين يتصف العالم بصفات النقص والدون إزاءه، وهو ذو طبيعة معقولة فى إمكان العقل البشرى إدراكها وتحصيل حقيقتها[3] .

---

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، ص ١٦١ .

(٢) عبد المجيد النجار ، خلافة الإنسان بين الوحى والعقل ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ ، ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق . ص ٤١ .

إن هذا التباعد فى الحقيقة الذاتية بين الله والعالم تلزم منه مفارقة مطلقة بينهما فى الوضع، حيث يقتضى الكمال الذى هو صفة الله تعالى، التعالى عن التحيز المكانى، سواء كان حلولاً أو مجاورة أو مقابلة أو غيرها من الأوضاع، وتبقى كيفية الوضع بالنسبة لله داخلة فى مجال غير المعقول من حقيقة الألوهية .

لكن هذه المفارقة المطلقة فى الوضع ليست مؤدية إلى مفارقة فى مطلق الصلة بين الله والعالم على نحو ما سوف نفصله فيما بعد. والعالم المخلوق عالمان : عالم الشهادة وعالم الغيب، ولعل أوضح صورة لهذين العالمين، هى الصورة التى قدمها القرآن، ومن ثم فإن ذلك ينعكس بدوره على المعرفة من حيث إنها معرفة بهذين العالمين، فعالم الشهادة وما يجرى فيه من تفصيلات وإجماليات تجريبية يعرف بالملاحظة بواسطة العقل والحواس، ويقوم العقل بالاستنباط مما يلاحظه بالاستقراء والاستنتاج بتقديم معرفة عنه[1] .

أما عالم الغيب وهو وراء هذه الحواس وهذا العقل، ومعرفته إجمالاً من حيث مبدأ التسليم بوجوده، تدخل فى إمكان المعرفية الإنسانية، إذ إن العقل يستطيع من خلال النظر فى قوانين عالم الشهادة أن يسلم بعالم الغيب، كما سبق لنا أن بينا فى الجزء السابق. لكن تفصيلات هذا العالم ليس فى إمكان العقل أن يعرفها، ومن ثم أسعف الله هذا الإنسان بمعرفتها عن طريق الوحى، وعلى ذلك فالمعرفة الإنسانية المهتدية بالنظرة القرآنية هى معرفة بعالم الغيب والشهادة، ولا يصح أن تسلط مقاييس عالم الشهادة على عالم الغيب، ذلك أن لهذا العالم طبيعته وقوانينه التى تبلغ وتلقن للإنسان عن طريق الأنبياء .

وإذا كنا قد شرحنا معالم التصور الإسلامى الخاص بعالم الغيب، فإننا فى الجزء الحالى نسعى إلى تقديم التصور الإسلامى عن عالم الشهادة : وهو « الكون ». والكون يشمل كل ما خلق الله مما يقع عليه اسم الشىء من أجناس لا يحصره العدد ولا يحيط بها الوصف، وهذا يعنى أنه يشمل كل شىء من أحياء وجماعات وعوالم روحية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله[2] .

---

(١) راجع عبد الحميد الكردى : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، مكتبة المؤيد ، الرياض ، ١٩٩٢ ص ٤٣٧ .

(٢) على خليل أبو العينين: فلسفة التربية الإسلامية فى القرآن الكريم، دار الفكر العربى، القاهرة ، ١٩٨٠، ٨٤ .

ولما كان ذلك يشمل فيما يشمل، كل المعارف الإنسانية المختلفة، خرج الناس عن هذا المفهوم الواسع إلى مدلول أكثر تحديداً يقتصر على ذلك النظام الشامل للأجرام السماوية المدرك منها حسيا وغير المدرك، أشكالها وأحجامها، مادتها وصفاتها، وفوق ذلك كله أهلها وعمرها، ماضيها ومصيرها[١] .

والنظرة إلى الوجود التى يأخذ بها الإنسان، ويقيم عليها تصوره للحياة ويأخذ منها فلسفته، هى الأصل الذى تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته الأخلاقية والسلوكية، وهى المحرك الخفى لأفكاره وسلوكه، وهى أساس اختلاف الثقافات والحضارات، وكل حضارة وكل نظام اجتماعى أو سياسى أو حتى اقتصادى لا ينبثق إلا عن مفهوم وتصور للوجود وعن الله، وتصور الإنسان هو الذى يجدد موقفه فى الوجود وعلاقته بالكون وبما وراء الكون، ولا تنطلق الحضارة إلا من اعتقاد يؤمن به الإنسان فى هذا المجال أو ذاك، فالعقيدة سواء كانت دينية غيبية، أم فلسفة اجتماعية أم سياسية أم تاريخية- هى عقيدة، وهى الأساس الذى تقوم عليه وبه الحضارة، وكذلك جميع نظم تلك الحضارة[٢] .

وقد يظن البعض منا أن مظاهر الكون الكبرى لا أهمية لها كثيراً بالنسبة لحياتنا العلمية، وأنه إذا فنى كل شىء فى الوجود ما عدا الشمس والأرض والقمر، فلن يضيرنا ذلك فى شىء، ولكن ثبت من البحوث والدراسات العديدة التى قام بها علماء الفلك والجيولوجيا خطأ هذه الفكرة، ذلك أن التقدم الحديث فى علوم الكون يشير بوضوح متزايد إلى أن أحوالنا اليومية لا يمكن أن تستمر كما هى، لولا وجود أجزاء الكون البعيدة[٣] . فكما لا يستطيع الإنسان أن يعيش على الأرض بمعزل عنها بهوائها وشمسها ونباتها وحيواناتها وحشراتها وميكروباتها، لا تستطيع الأرض أن تعيش بمعزل عن أمها الشمس، ولا عن غيرها من الكواكب بنات الشمس، ولا تستطيع المجموعة الشمسية أن تعيش بمعزل عن المجرات السماوية الأخرى .

ولا شك أن التفكير فى الكون قد شغل الإنسان منذ أن تفتحت عليه عيناه ، ولكن لم يدون من هذا التفكير إلا النزر اليسير، ولم يصلنا من ذلك إلا أقل القليل .

---

(١) زغلول راغب النجار : الإنسان والكون ، محاضرة ، ملحقة بكتاب : عبد الله شحاته : تفسير الآيات الكونية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٢٧٠.

(٢) محمد هيشور : سنن القرآن فى قيام الحضارات وسقوطها ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، القاهرة، ١٩٩٦ ، ص ١٦٠.

(٣) عبد الغنى عبود : الإسلام والكون ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص . ١٩.

وما لا بد من الاعتراف به أن الأفكار الإنسانية الأولى التى وصلتنا عن الكون، مليئة بالخرافات والأساطير التى اختلطت بمعتقدات قديمة مختلفة، ولو أنها لا تخلو من محاولات علمية منهجية لتفسير بعض الظواهر الكونية[1] .

فقد سجل التاريخ أن الحضارة البابلية فيما بين النهرين، والحضارة الفرعونية فى مصر القديمة، قد اهتمتا برصد حركات الأجرام السماوية، واستخدام العمليات الرياضية لمعرفة الروابط بينها، وبالفعل، فإنهم قد توصلوا إلى بعض المعلومات الدقيقة عن الشمس ومجراها، وعن مراحل القمر المختلفة، وعن ظهور واختفاء بعض الكواكب بصورة دورية، وإن كان قد صاحب هذه الملاحظات بعض التفسيرات الموغلة والخرافات والأساطير .

ومن هنا كان تعرف الإنسان لهذا الكون ضرورة من ضرورات وجوده، يرى فيه عظمة خالقه، وقدرته وإعجازه فى إبداع خلقه، ويرى فيه ضآلة وجوده أمام هذا الكون المتناهى فى اتساعه، الدائب فى حركته، المنطلق فى فضائه إلى نهاية لا يعلمها إلا مبدع الكون وخالق الفضاء، ويرى فيه حاجته الماسة إلى رعاية خالقه فى كل لحظة من لحظات وجوده، وفى كل آن من آناء عمره، ويرى فى استقراء قوانينه والتعرف على سننه، ما يمكنه من عمران كوكبه، وتسخير الطبيعة فى سبيل سعادته[2] .

ونود أن ننبه إلى أن حديثنا هنا عن التصور القرآنى للكون لا يقوم على اعتبار القرآن الكريم كتاباً فى العلوم الكونية، وليس القرآن بدائرة معارف، وإنما ترد الحقائق الكونية كغيرها من الحقائق فى القرآن الكريم بقدر ما تخدم الإطار العام للعقيدة الإسلامية. وتوضحه وتجليه، وهى لا ترد فيه لذاتها، بل تأتى لتوضح للإنسان هذه الحقائق الأساسية التى يعيش فى وسطها[3] .

والحديث عن الكون يتطلب منا تناوله من منظورات ثلاثة :

١- خلقه :

يقرر القرآن الكريم أن هذا الكون مخلوق حادث، ليس بالقديم الأزلى، كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه. لقد خلقه الله سبحانه خلقاً، وأنشأه إنشاء، بعد أن لم يكن،

(١) زغلول راغب النجار : الإنسان والكون ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

(٣) على خليل : فلسفة التربية فى القرآن الكريم ، ص ٢٨ .

سواء فى ذلك مادة بنائه الأساسية أو الصورة التى ظهرت فيها، ولم يشارك الله ـ سبحانه ـ أحد فى خلق هذا الكون، ولا فى خلق شىء منه، سواء فى مادته أو صورته. إن الله سبحانه هو الذى أعطى كل شىء خلقه. أعطى كل شىء صورته، وأعطى كل شىء وظيفته[1] :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل].

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور].

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف].

وقد ذكر الله سبحانه أنه خلق من الأشياء التى أبدعها مخلوقات أخرى فبين أنه خالق الجان من نار كما أشرنا من قبل: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر].

ويبين أنه خلق الإنسان ـ كما سيأتى بتفصيل فيما بعد ـ من طين وما شابه : ﴿ ... إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات].

وعملية الخلق تحكمها إرادة الله- سبحانه وتعالى- وتتم فى زمن، وليست من قبيل صدور المعلول من العلة، وإلا لأدى ذلك إلى قدم العالم كمعلول عن العلة كما فى التصور الفلسفى، وأدى إلى أن يكون خلق العالم خلقاً ضروريا؛ ولذلك فإن القرآن فى هذه المسألة قد أدى إلى الحقيقتين التاليتين[2] :

أولهما : أن الله يخلق فى زمن، وهو سبحانه القادر على أن يقول للشىء كن فيكون ولكن حكمته تقتضى هذا السر الذى لا يعلمه إلا هو سبحانه، ولأن هذا التصور يناسب صفة الكمال له سبحانه، يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة].

---

(١) سيد قطب ، مقومات التصور الإسلامى ، ص ٣٢.

(٢) راجح عبد الحميد : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، ص ٤٤٥.

والثانية : أن الله سبحانه خالق بالاختيار، فإرادته مختارة كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس].

فالإرادة المختارة أساس لعملية الخلق، وهذا بخلاف التصور الفلسفى الذى يوجب على الله أن تصدر عنه المخلوقات صدوراً ضروريا، أى بالطبع وليس بالإرادة والاختيار(١).

كما كان الإنسان القديم يفهم أن هناك قوى كثيرة تتعاون فى إدارة وامتلاك الكون، بمعنى أنه كان يعتقد أن ألوفا من الآلهة الصغار يعملون تحت إشراف الإله الأكبر. ولكن دنيا العلم الحديث رفضت هذه الأساطير عن الكون، ولكن بعضاً ممن يزعمون لأنفسهم التقدمية والعصرية قد استبدلوا بالدين القديم (الشرك) ديناً جديداً هو الإلحاد، ذلك أنهم يعتقدون أن الكون ليس معرضاً لأعمال وجود ذى وعى، ولكن نتيجة لحادثة صدفية اتفاقية، حيث إن وقوع حادثة ما تنتج عنه حوادث أخرى تلقائيا .. وهكذا تبدأ سلسلة طويلة من الأسباب والوقائع، وهذه السلسة هى التى تدبر الكون(٢).

وقالوا إنه ـ فى البدء ـ لم يكن فى الكون شىء مثل النجوم والسيارات، ولكن كانت هناك المادة التى لم تكن متجمدة، بل كانت منتشرة فى كل مكان فى الفضاء الفسيح فى صورة الذرات الأولية : الإلكترونات، والبروتونات، ويمكننا تشبيهها بغبار ذرات متناهية كانت تعمر الكون كله. وكانت المادة فى حالة توازن تام حينئذ دون أية حركة إطلاقاً .

ويقول الرياضيون : إن هذا التوازن كان بحيث إن أى خلل فيه ـ مهما كان خفيفاً- كاف لتبديد ذلك للأبد. ويقولون أيضاً : إن ذلك الخلل كان سيكبر وينتشر حتمياً بعد أن وقع للمرة الأولى . وإذا سلمنا جدلاً بوقوع الخلل الأول ـ الذى حرك المادة ـ فإنهم يدعون ـ بعد ذلك ـ أن جميع الحوادث التالية يمكن إثباتها بالرياضيات على أنها نتاج «الصدفة »، فالذى حدث كما يقولون : هو خلل خفيف فى المادة الراكدة، تماماً كما يحدث عندما يحرك أحدنا بيده مياها راكدة فى حوض من أحواض المياه، فإن دوائر الحركة تكبر حتى تشمل الحوض كله .

لكن يظل السؤال : من أوجد الحركة الأولية فى عالم المادة الراكدة ؟ إنهم يقولون : لا علم لنا بذلك. لكن من المؤكد أن هذا الخلل قد حدث، ثم استمر فى

---

(١) راجع عبد الحميد الكردى ، ص ٤٤٦.

(٢) وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ، ص ٢٥.

الكبر والانتشار، وكانت النتيجة أن المادة بدأت تتقلص وتتجمع فى مختلف الأمكنة، وهذه المواد المتجمعة المتقلصة هى التى نسميها اليوم بالنجوم والسيارات والمجرات. إنه حقاً تفسير ساذج ضعيف، ذلك الذى يرجع هذا إلى «الصدفة»(1).

إن فى النصوص القرآنية التى تتحدث عن نشأة الكون بعض التفصيلات عن تركيب هذا الكون، وعن مراحل نشأته، فهناك ذكر لعدد السموات وعدد الأرضين، وذكر لأيام الخلق، وذكر لمادة الكون فى بعض مراحل نشأته، و ذكر لبعض الأطوار والتحولات التى تمت فيه، وأكثرها تفصيلاً هى هذه النصوص(2):

- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

- ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

- ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

---

(1) المرجع السابق . ص ٢٦.

(2) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى ، ص ٣٢٠.

ونحن إذ نثبت هذه الآيات ـ وهناك غيرها مما يسير فى نفس الاتجاه ـ ونحن على وعى ـ كما ألمحنا إلى ذلك من قبل ـ بأن القرآن لم يتزل ليكون كتاب علوم أو فسيولوجيا، أو طب . . والحقائق التى وردت فيه عن مثل هذه المسائل، إنما وردت فى صورة الإشارة الكلية، فى معرض الهداية الاعتقادية ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الاعتقادية التى أحاطت بهذه المسائل، و بالقدر الذى يكفى لتصحيح العقيدة[1] .

٢.تدبيره :

لو وضعنا أمام القارئ مجرد صفحة واحدة من مليارات الصفحات التى تنطق بمعجزة تدبير الكون فلربما زاد شوقه ليطلع على صفحات أخرى من مصادر متخصصة لا لكى يتيقن من قدرة الله على تصريف شئون الكون ولكن ليزداد تيقناً ويتعمق إيماناً .

فبالنسبة لهذا الكوكب الذى نعيش عليه (الأرض)، نجد أنه شبه كرة من الصخر ذات قلب مركزى سائل (كما يعتقد الآن غالبية العلماء)، وقشرة صخرية صلبة، على هيئة قارات، صخورها قليلة الكثافة نسبيا .

وسمك القشرة الأرضية لا يسهل تقديره، لعدم وضوح الحد الفاصل بينها وبين جوف الأرض، وتتكون هذه القشرة الأرضية من ثلاثة أنواع رئيسية من الصخور: أولها وأصلها كلها هى الصخور النارية والصخور الرسوبية والصخور المتحولة[2] .

والصخور مهما تباينت أنواعها تتكون أساساً من المعادن، وتتكون المعادن من عناصر أو من مركبات من هذه العناصر. وليست المعادن وحدها هى التى تتكون من عناصر، فكل شىء فى مادة الأرض، باطنها وقشرتها، وهواؤها وماؤها، حيوانها ونباتها وإنسانها، كل شىء فيها يتألف من هذه العناصر ومركباتها .

والعناصر تتركب من جزيئات، ويتركب الجزىء من ذرات، والذرة تتركب من نواة فى الوسط، عليها شحنة كهربية موجبة، وعدد من الإلكترونات تدور حولها فى مدارات ثابتة محددة، كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس، والإلكترونات تحمل شحنة كهربية سالبة، تعادل شحنة النواة الموجبة، لتحتفظ الذرة بحالة من التعادل[3] .

---

(١) مقومات التصور الإسلامى ، ص ٣٢٤.

(٢) زغلول راغب النجار ، الإنسان والكون ، ص ٢٨٣.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٤.

والذرات على درجة من الصغر حتى أنه إذا تراصت عشرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين فى طابور، لما بلغ طوله مليمترا واحداً فقط، ولو كان الفرد منا عطشاناً وشرب لترا من الماء، فإن ما شربه يكون محتوياً على عدد من الذرات يساوى عدد حبيبات الرمل التى تغطى سطح الكرة الأرضية، كلها، بما فى ذلك المحيطات والبحار، وبسمك يصل إلى ثلاثين سنتيمترا[1].

ويؤكد العلماء أن الإلكترون من أصغر الجسيمات الذرية، ووزنه أقل من وزن البروتون بحوالى ١٨٤٠ مرة، ولكن دورانه حول نواته، أكبر من دوران أى شىء عرفه البشر، وعرفته السموات، إذ يدور ٧٠٠٠ مليون مليون دورة فى الثانية الواحدة[2]، مما يتيح فرصة التعادل والاتزان التى أشرنا إليها .

وهكذا بنى أصغر شىء فى الوجود، وهكذا صممت الأحجار، أو الذرات التى بنيت بها الأكوان، على نفس فكرة المجموعات الشمسية والمجرات، التى تكررت فى الذرة. إنها لمعجزة أن يكون أصغر ما فى الوجود قد بنى على نفس فكرة أكبر ما فى الوجود[3] .

من هذا المثال يتضح أن للكون الذى نعيش فيه وحدة واحدة تنظيمية، ونظاماً معجزا، لايستطيع العقل البشرى أن يحيط به، ولكن هذا النظام تفسره قوانين ثابتة أو سنن دائمة، تؤكد بما لا يرقى إليه شك، أن كل شيء في هذا الكون قد خلق بقدر معلوم، ودقة متناهية، وحكمة سابقة : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]. ﴿... مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ... ﴿٣﴾﴾ [الملك].

وهذا يجعلنا نعود مرة أخرى إلى ذلك التفسير الساذج الضعيف المستند إلى منطق «الصدفة » فى نشأة هذا الكون .

فإذا كان هذا الكون مرهوناً بوقوع بعض المصادفات، فكيف نفسر اضطراد كل الوقائع والحوادث على نهج طرق معينة ثابتة نهجتها بالفعل، ولولا هذا النهج لما كنا اليوم موجودين لنفكر فى هذه القضايا. ألم يكن من الممكن أن ترتطم النجوم ببعضها وتتحطم ؟ وبعد حدوث الحركة الأولية فى المادة، أما كان من الممكن أن تبقى حركة

---

(١) عبد المحسن صالح : دورات الحياة ، دار القلم ، القاهرة ، المكتبة الثقافية ، يناير ١٩٦٣ : ص٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥.

مجردة دون أن تصبح حركة «ارتقائية» تجرى فى سلسلة مدهشة من العمل التطورى لإيجاد الكون الحالى ؟ ما هو ذلك المنطق الذى أوجد النظام الشمسى فى ركن بعيد من أركان الكون ؟ وما هو ذلك المنطق الذى أمكن بواسطته إجراء تغيرات مدهشة أتاحت الفرصة لنشأة الحياة الإنسانية على كرة الأرض من العدم ؟ وهذه التغيرات التى قد حدثت بالفعل على كرتنا لا نعرف حتى الآن ما إذا كانت موجودة على ظهر سيارة أو نجم آخر من ملايين المجرات مادة بدون حياة ؟ هل لأحد أن يقوم لنا بتفسير معقول لتوضيح : كيف وجدت الحياة على سطح الأرض.. ولماذا ؟ وتحت أى قانون تستأنف الحياة وجودها المدهش بهذا التسلسل؟[1].

ثم، ما هو ذلك المنطق الذى أوجد فى حيز مكانى صغير كل تلك الأشياء اللازمة لحياتنا ومدنيتنا ؟ ثم ما هو المنطق الذى يعمل على إبقاء هذه الأحوال دائماً فى صالحنا كما هى ؟ أى صدفة واتفاق يتيحان حدوث هذه الإمكانات بهذا التسلسل والترتيب الجميل، ثم استمرارها ملايين السنين بحيث لا يطرأ عليها أدنى تغير يخالف مصالح الإنسان ؟

صدق الله العظيم الذى قال :

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٥٠)﴾ [الفرقان].

وعلى الرغم مما نراه وندركه من كثرة بادية، و «تعداد» ملحوظ فى الكون، إلا أن وحدانية الله استلزمت كذلك وحدة، كما قال سبحانه فى كتابه العزيز : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]. فلو

---

(١) وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ، ص ٢٦ .

كان هناك أكثر من حقيقة مطلقة واحدة لما بقيت هناك أية حقيقة مطلقة . زد على هذا أن الكون حينئذ كان سيتبع توجيهات وتنظيمات مختلفة، وإن حدث هذا فلن يكون ذلك هو الكون والنظام الذى نعرفه نحن البشر منتظماً كما نعرف، كذلك لن يكون من الممكن لنا نحن البشر أن نتعامل مع كون يسوده أكثر من نظام وتوجيه، إن علينا أن نتذكر أن النظام الذى يسود هذا الكون هو الذى بمقتضاه يمكننا أن نتبين وندرك الأشياء فى صورة مواد أو خصائص أو علاقات أو أحداث . إن ذلك الاتساق أو الوحدة فى النظام الكونى هو الذى يمكننا من إدراك استمرارية المواد كأشياء وتكرر الحوادث كعلاقات سببية، وبدون هذا النظام الكونى لن تكون الأشياء ولا الأسباب والنتائج هى ما يعرف البشر أو يتصورون من أشياء وأسباب ونتائج[1] .

إن الخليقة كل متكامل، والسبب الدقيق هو أنها من صنعة خالق واحد سرى نظامه وتقديره فى هذا العالم، وتسرى إلى كل جزء أو جانب منه، ماديا أو فضائيا، جسمانيا أو نفسيا، اجتماعيا أو أخلاقيا، كل ما هو واقع يخضع لتلك القوانين وينفذها. هذه القوانين هى «سنن» الله تعالى فى خلقه.

إن الله-سبحانه وتعالى- فى كليات الأمر والخلق ليس مجرد مصدر تاريخى لهذه القوانين، وإنه خلق الكون والطبيعة ووضع لها النظام والقانون الذى تسير عليه، ثم تخلى عنها. . بل إن الله الصمد المبدئ المعيد المقدر الذى بإرادته تدبر الأمور وبيده مقاليدها ، وكل كائن يوجد وكل حدث يقع فى الكون إنما يتم على ما قضى به أمر الله وقدرت حكمته، وبما أودع فى كل كائن من طبع وقوة، ما خص به كل نفس إنسانية من إرادة وطبع وقوة تمكنها من الأداء والسعى والعطاء والتغيير وفق ما اقتضت كليات حكمة الله وإرادته[2] .

٣.تسخيره للإنسان :

فلما كان الإنسان يشترك مع الكون فى وحدة تركيب مادى، فإنه يكون بذلك مهيأ لأن يتفاعل معه تفاعل انتفاع، إذ التجانس شرط فى هذا التفاعل . ولما كان الإنسان أرفع من الكون شأنا وأعلى قيمة، فإنه سيكون هو المنتفع منه وسيكون الكون مهيأ لذلك النفع، ولذلك جاءت التعاليم القرآنية تؤكد أن الكون كله مسخر للإنسان، مذلل له فى سبيل استثماره واستغلال مرافقه، وقد جاءت هذه التعاليم مبينة لهذا

---

(١) المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، إسلامية المعرفة ، ص ٨٠.

(٢) المرجع السابق . ص ٨١.

التسخير مفصلة له في مظاهر ومستويات متعددة ومختلفة[1] . ومن هنا يجئ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة]. وقال كذلك مؤكداً هذه الحقيقة :﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]. وقال أيضاً :﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف] .

هكذا من خلال هذه الآيات الكريمات ـ وما أكثرها فى هذا المقام ـ يمهد الله للإنسان أرضه بمنه وكرمه ـ ولو شاء لجعلها وعرة صعبة لا تصلح لنشاط الإنسان ـ يهيئ له وسائل الانتفاع بها والاستفادة بعناصرها، ويذلل كل ذلك من أجله ويخضعه لمشيئته، بحيث يسيطر عليه بقوانين العلم ونواميس الحياة، أو يبحث عن الوسائل التى تهيئ له ذلك ـ فالله قد لفت نظر الإنسان إلى وظيفته الأصلية ـ وخلق الله «المادة الخام» والحيوانات والكائنات ليكون سيدها والمهيمن عليها، وهو مأمور حيث يخضعها لمشيئته أن يظل موصولاً به ذاكراً أنعمه عليه، فما كان لعقله أن يهتدى إلى ذلك لولا تيسير الله . . نعم لولا عملية التسخير والتذليل، وإمكانية العمل، وقابلية الكفاح، لما توصل الإنسان إلى ما توصل إليه من علوم ومخترعات، ولو شاء لجعل كل هذه العناصر معاندة لطبيعة الإنسان لا تخضع له ولا تنقاد، وكأنما يذكرنا ربنا بذلك حتى لا نغتر بما نحرز من نجاح، أو نحقق من آمال، أو نبنى من حضارات[2] .

وكما ذلّل الله تعالى قوانين الكون لاستقبال الوجود الإنسانى، فإنه سخرها أيضاً لاستمرار حياة الإنسان وصيرورتها لتحقيق غايتها، فقد خلق الله تعالى الموجودات وصرّف شئونها بحيث تستجيب لنزوعه إلى حفظ حياته، وإلى إنجاز خلافته على

---

(١) عبد المجيد عمر النجار: الإنسان والكون فى العقيدة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد (٧٧) أغسطس/ أكتوبر/ ١٩٩٥ ص ٢٣.

(٢) توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة البحوث الإسلامية (٥٠)، مايو، ١٩٧٢ جـ١ ، ص ١٢٩ .

الأرض، وإلى قدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فعالاً[1] . وهذا المعنى يجمعه قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

ومن مظاهر هذا التسخير لاستمرار الحياة تيسير أسباب الاستنزاع في سبيل الحصول على الغذاء ، كما في قوله تعالى :﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل]. وتيسير تدجين الأنعام للانتفاع بها ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل].

ومن مظاهر هذا التسخير لإثراء الحياة ونمو فعاليتها تيسير سبل التنقل عبر المكان، والتمكين من وسائله سواء في البر أو في البحر،[2] . يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]. وقال : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل] وقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ... ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية].

ويقف سيد قطب وقفة طويلة أمام قوله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] . فيستخرج من المعاني والدلالات ما يجعل القارئ حقاً يذهل من كثرة وعمق وروعة هذه الدلالات على عظيم قدرته- سبحانه وتعالى- في نفس الوقت الإعجاب الشديد والتقدير البالغ لهذا الوعي المتعمق والأفق المتسع والفهم المستوعب الذي أقدر عليه عز وجلّ مثل هذا المفسر العظيم . فالأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى، هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة، وبالفلك التي تمخر البحار أو المذللة للزرع والإنبات[3] .

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم ـ فيما اهتدى إليه حتى اليوم ـ تفصيلاً يمد في ساحة النص القرآني في الإدراك .

فما يقوله العلم في مدلول الأرض « الذلول » إن هذا الوصف «ذلولا » الذي

---

(١) عبد المجيد النجار : الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية ، ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

(٣) في ظلال القرآن ، م٦ ، جـ ٢٩ ، ص ٣٦٣٧.

يطلق عادة على الدابة، مقصود فى إطلاقه على الأرض، فالأرض هذه التى نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هى دابة متحركة، بل رامحة راكضة، وهى فى الوقت ذاته «ذلولا» لا تلقى براكبها عن ظهرها، ولا تتغير خطاها ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ثم هى دابة حلوب مثلما هى ذلول!

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها فى أثناء حركاتها الكبرى، كما جعل لها ضغطاً جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها. ولو كان الضغط الجوى أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير وينتقل - حسب درجة ثقل الضغط - فإما أن يسحقه أو يعوقه، ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتى على ضغط الهواء حوله، كما يقع لمن يرتفعون فى طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء[1].

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً للعناصر التى تحتاج الحياة إليها بالنسب الدقيقة التى لو اختلف ما قامت الحياة: أو عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس.

والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة، ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر، وبعد الأرض عن الشمس والقمر، ودرجة حرارة الشمس، وسمك قشرة الأرض، ودرجة سرعتها، وميل محورها، ونسبة توزيع الماء واليابس منها، وكثافة الهواء المحيط بها .. إلى آخره... وهذه الموافقات مجتمعة هى التى جعلت الأرض ذلولا، وهى التى جعلت فيها رزقاً، وهى التى سمحت بوجود الحياة، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص.

رابعا - الإنسان

لغة

ظل الإنسان هو المحور الأساسى فى البيان القرآنى يدور عليه القول فى سائر الأغراض، وتعود إليه المعانى فى سائر المقامات، وليس فى مجال الخطاب التكليفى فحسب مما يبدو بديهيا، إذ القرآن خطاب من الله تعالى للإنسان، ولكن فى كل مجالات البيان للخلق الإلهى، وللعناية بالكون وما فيه، وفى كل مقامات الشرح

(١) المرجع السابق - ص ٣٦٣٨.

الوجودى فى مختلف الأغراض، وهو ما يشهد بأن للإنسان مقاماً فى القرآن الكريم يغاير فى النوع مقام الموجودات الأخرى جميعا[1] .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تفسر الوجود على أنه ثنائية طرفاها إله خالق وكون مخلوق، فإن هذا الطرف الثانى متساوى الموجودات فيه من حيث وضعها الوجودى، إذ هى مشتركة كلها فى القصور الذاتى الذى صارت به معلولة لله، ولكنها لا تتساوى من حيث وضعها القيمى، بل هى تصبح بدورها من هذه الجهة ثنائية ذات طرفين فى ميزان التقدير : إنسان وكون، وهما طرفان متفاوتان فى القدر، وإن كانا يتساويان فى المخلوقية لله .

ولهذا المعنى، فإن الترتيب الوجودى، بعد ما يذكر الله جل جلاله مبدأ الوجود وعلة العلل، يذكر فيه الإنسان، إشارة إلى مرتبة يكون فيها أقرب إلى الله وآثر عنده، ثم يكون الكون فى مرتبة دونه قدراً وأقل منه مقاماً، ويكون الإنسان بذلك فى منزلة أدنى إلى الله من الكون كله، وتكون نسبته منه نسبة المخلوق الأثير الذى بوئ مقام الخلافة، ونسبته من الكون هى نسبة المستعلى المستثمر له المتصرف فيه بأمر الله تعالى[2].

والإنسان الذى اصطفاه الله وحده لظاهرة الوعى، هو بهذا الوعى الفريد كون الله الأكبر، وإن بدأ كائناً صغيراً من كائنات الطبيعة، والطبيعة هى كون الله الأصغر وإن بدا كونه الأكبر الذى يسع كل ما خلق من كائنات، والإنسان يكبر الطبيعة بالوعى، ولكنه يصغرها بالنسيان . إنه الكائن الذى ينسى[3] .

الإنسان موصوف فى القرآن مفرداً بالإنسان وجمعاً بالناس، وهو مذكور مفرداً وجمعاً بالبشر، ويجمع «إنسان وأناسى »، والأصل الحسى لمعنى كلمة إنسان ذروة الجبل والأرض غير المنزرعة والظل والشكل الذى لا تراه إلا عدسة العين . والفعل من إنسان «أنس » أى ظهر . الإنسان يظهر والجن يخفى . ويظهر الإنسان فتظهر معه المعرفة، ويظهر معه العقل، ومن هنا أضفى على أنس الشىء معنى رآه وعرفه .

والإيناس هو المعرفة والإدراك واليقين، أو ليس الإنسان، كما يعلمنا القرآن الكريم، الكائن الوحيد العارف المدرك والمؤمن ؟

---

(١) عبد المجيد النجار : عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مجلة المسلم المعاصر، العدد(٧٣ـ٧٤) أغسطس ١٩٩٤ / يناير ١٩٩٥ .ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) حسن صعب : الإسلام والإنسان، ص ٧٧ .

ويرادف الكثيرون بين ما ورد فى القرآن الكريم عن البشر والإنسان، لكن التحليل الدقيق يكشف لنا عن فرق هام، ويمكننا أن نعرف البشرية بأنها تعنى الخصائص الحيوية عند الإنسان والتى هى أحوال له باعتباره كائناً حيا ومن ثم يشاركه فيها الحيوانات الأخرى . أى أنها ـ بتعبير علمى ـ الخصائص « البيولوجية والفسيولوجية» عند بنى آدم، منها التكوين الجسدى للكائن الحى من أعضاء، ولكل عضو وظيفة تساهم فى استمرار الحياة، ومثل الاستعدادات الفطرية كتلك الخاصة بالأكل والنوم والجنس وغير ذلك، ومن ثم لا نجد آية قرآنية واحدة ترد فيها كلمة بشر إلا إذا كان موضوع الآية هو حالة من الحالات البيولوجية أو الفسيولوجسية لبنى آدم[1] ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء]. لأن الموت هو من خصائص البشرية وليس من خصائص الإنسانية . وكذلك قوله مخبراً عن مقالة الكافرين ﴿... مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ... ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:]. وبالنسبة للقدرة الجنسية واعتبارها من الخصائص البشرية ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم]. وهكذا لا نكاد نجد آية تتحدث عن بنى آدم مستخدمة كلمة بشر إلا ويكون موضوع الآية الرئيسى هو حالة من حالات بنى آدم الحيوية .

أما الإنسانية كمصطلح قرآنى فهو يعنى الخصائص العليا التى يتمتع بها بنو آدم ولا توجد عند الكائنات الحية الأخرى، فكل ما هو مشترك بين الإنسان والحيوان من أحوال وخصائص ليس من الإنسانية، ونكاد لا نجد آية قرآنية فى القرآن تستخدم كلمة إنسان إلا ويكون موضوع الآية الرئيسى هو خاصية من خصائص الإنسان التى ينفرد بها عن الحيوان[2] . مثال ذلك ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن] . والبيان هو التعبير الراقى الدقيق سواء كان نثراً أو شعراً أو فناً، وذلك للإنسان وحده وإن كان للحيوانات لغتها ومنطقها، لكن لا يصل إلى مستوى البيان، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]، فعلم الإنسان الذى أعطى الإنسان مؤهل السيادة الشامل خاصية إنسانية لا يشارك الإنسان فيها غيره، وقوله : ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق] . فيه دعوة للنظر والتأمل والبحث واستنباط العظة والعبرة، وهذا عمل إنسانى وليس عملاً بشريا .

---

(١) فاروق أحمد الدسوقى ، مفاهيم قرآنية حول الإنسان ، المكتب الإسلامى ، بيروت، ١٩٨٦ ، ص٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٦٧ .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]. بيان للحكمة من خلق الإنسـان ، وهى الابتـلاء، فالابتلاء حالة إنسـانية عند بنى آدم وليس حالة بشـرية، لأن الكائنات الحيـة الأخرى ليـست مخلوقـة للابتلاء . وقولـه تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء] إشارة إلى الجزاء والمسئولية وهى خاصة بالإنسان .

وهكذا مما يثبت أن الإنسـانية تختلف عن البشـرية وإن كانت الإنسانية والـبشرية يجتـمعان فى كـائن واحد وذات واحدة هى الذات الآدمـية. ولكن البشـرية هى أحوال آدمية تتناظر مع الحيوانية أو هى تكاد تكون فى مستواها، بينما الإنسانية هى حالات عليا وسامية لبنى آدم، أو هى خصائص ترتـفع بابن آدم إلى مستوى وجودى أرفع وأكرم من مستوى الحيوان، فالابتلاء والمسئوليـة والجزاء والعلم والسيادة والبيان والحرية وغير ذلك كلها إنسانية وليست خصائص بشرية[1] .

أما لفـظ الناس، فـإنه يأتى فى النـص القرآنى نحو مـائتين وأربعين مرة، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهـذه السلالة الآدمية، أو هذا النوع من الكائنات فى عـمومه المطلق[2] . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

ويجمع بين « الإنس » و « الإنســان » ملحظ مشتـرك من الأصل اللغوى لمادة «أناس» فى دلالتها على نقيض التوحش.

ثم يختـص كل من اللفظين فى البيـان القرآنى بملحظ مـتميـز وراء ذلك الملحظ المشترك، فلفظ الإنس يأتى دائماً مع الجن على وجه التقابل، يطرد ذلك ولا يختلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر «الإنس» وعددها ثمانى عشر آية : الأنعام : ١١٢ ، ١٢٨ (مـرتين) ١٣٠ ، الأعـراف : ٣٨ ، ١٧٩ ، الإسـراء : ٨٨ ، النمل: ١٧ ، فـصلت: ٢٥ ، ٢٩ ، الأحقاف : ١٨ ، الذاريات : ٥٦ ، الجن : ٥ ، ٦ ، وكلها آيات مكيات ، ثم الرحمن : ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٧٤ ، وهى مدنية .

وملحظ الإنسية هنا، بما تعنى من عدم التوحش، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن فى دلالتها أصلاً على الخفاء الذى هو قرين التوحش . وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى مجهولة لا تنتمى إلينا ولا تحيا حياتنا[3] .

---

(١) فاروق احمد الدسوقى ، ص ٦٧ .

(٢) عائشة عبد الرحمن : مقال الإنسان ، ص١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ .

وليس مناط إنسانية الإنسان مجرد كونه منتمياً إلى فصيلة الإنس، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض .

خلق الإنسان:

لقد كان للإنسان وجود فى العلم الإلهى قبل أن يصبح له وجود عينى، ووجوده فى علم الله كان يتضمن تفاصيل كيانه، كما كان يتضمن المهمة التى سيعهد إليه القيام بها فى الكون، ولهذ الاعتبار فإن الإنسان سبقت ماهيته فى العلم الإلهى وجوده العينى فى الكون[1] .

وكانت نقطة البداية فى الوجود العينى للإنسان خلق آدم أبى البشر جميعاً . وإذا كان الكون فى عمومه وبسائر مخلوقاته ربما مر بأطوار متعاقبة حتى آل إلى الصورة التى عرفها منه الإنسان، فإن الخبر القرآنى الذى وصف خلق الإنسان الأول آدم- عليه السلام- يفهم منه أن هذا الإنسان خلق متكامل الصورة على الطفرة الفجائية لا على سبيل الانقلاب التطورى الذى انحدر فيه من سلالات حيوانية دنيا حتى وصل إلى صورته الراهنة[2] . مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

أما عن المادة التى خلق الإنسان منها، فقد تحدث القرآن عن عدة مواد على أنها أصل النوع الإنسانى، وهذه المواد هى[3] .

أ ـ الأرض، يقول سبحانه وتعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه].

ب ـ التراب : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم].

جـ ـ الطين :﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

د ـ الصلصال :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر] .

---

(١) عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحى والعقل ، ص ٥٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣.

(٣) أحمد إبراهيم مهنا : الإنسان فى القرآن ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٣٥.

هـ ـ الماء : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان].

و ـ النطفة : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يس].

ز ـ العلق : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق].

ولا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو من طين، فقد أعفانا الدكتور محمد كامل حسين فيما تنقله عنه عائشة عبد الرحمن[1] من رد ما قالوه من تأويلات لا يحل أن نلزم القرآن بها وليس فيه نص صريح على كيفية خلق آدم، والله تعالى لم يقصر الخلقة من تراب أو من طين على آدم وحده، بل يستوى فى ذلك الناس جميعا، خلقهم تعالى من تراب أو من طين لازب، فشهد بذلك على أن مادة الإنسان ترابية، وهو ما لا نزاع فيه .

وتضيف الدكتورة عائشة، أن القرآن حين يلفت إلى خلق الإنسان من تراب وطين، فليس من الضرورى أن يكون أحدنا عالماً بترابية مادة الإنسان لكى يؤمن بالقدرة الخالقة، وإنما حسبه أن يلتفت إلى الأرض، ندفن جثث موتانا فى ترابها، فتتحلل عناصرها ذائبة فى التراب الذى يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقى عناصره. ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات، ليدرك أننا خلقنا من تراب وإلى التراب نعود، على المشهود المنظور والواقع الحسى المدرك .

وقد يتوهم البعض من تعدد التسميات تبايناً وتناقضاً، وهذا غير صحيح كما يتبين لنا من تسجيل الملاحظات التالية[2] :

ـ فقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان] يعنى أن الإنسان بخصائصه التكوينية التى هو عليها لم يكن شيئاً مذكورا سواء فى ذلك نوعه وكل فرد من أفراده، فلقد مر عليه حين من الدهر السحيق فى أغوار الزمن الماضى لم يكن للإنسان فيه وجود، ولم يكن شيئاً مذكورا مطلقاً إذ كان فى بحر العدم المحض الذى لا حدود له .

---

(١) مقال فى الإنسان ص ٢٥.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار العلم، دمشق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ١، ص ٣٠٢.

وإذا ثبتت هذه الحقيقة لزم عنها أن الإنسان لا بد له من محدث يحدثه، وخالق يخلقه لأن الفلسفة الفكرية والبحث العلمى يثبتان أن كل شىء لم يكن موجودا، ثم وجد بعد ذلك لابد له من موجود قد أوجده، أى : لابد له من خالق قد خلقه، إذ العدم المحض لا يصلح بذاته أن يتحول إلى الوجود، لكن الخالق الذى له الوجود الثابت الدائم، هو الذى يوجد الأشياء من العدم، بما لديه من قدرة وإرادة وعلم حكمة وفيض إنعام(١) .

ـ **الماء** هو العنصر الأول من العناصر المادية التى تكون منها خلق جسد الإنسان كما هو العنصر الأول الذى خلق منه كل كائن حى حادث، وهو المرحلة المادية الأولى فى الخلق: ﴿ ...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

ـ **والتراب** هو العنصر الثانى من العناصر التى تكون منها جسد الإنسان الأول، ويقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

ـ ومن امتزاج عنصرى الماء والتراب يتكون **الطين**، فالطين هو المزيج الذى تكون منه خلق جسد الإنسان، والطين مؤلف من ماء وحفنة من تراب الأرض، وهذا التراب يجمع جملة من عناصر الأرض بنسب ومقادير على وفق علم الله وحكمته. ومرحلة الطين هذه فى بدء خلق الإنسان الأول وصفها الله بأنها طين لازب أى طين لاصق بعضه ببعضه متماسك لزج(٢) .

ـ وبعد مرحلة الطين تأتى مرحلة «**الحمأ المسنون**»، قال فى لسان العرب: الحمأ والحمأة : الطين الأسود المنتن، فالطين مر فى أطوار تغيرت فيها رائحته واسودّ حتى صار حمأ، ثم صار مملساً مصورا بخلق الله، فصار حمأ مسنوناً .

ـ وبعد مرحلة الحمأ المسنون، تأتى مرحلة جفاف الطينة ويبسها حتى صارت **صلصالاً**، إذا نقرته صوّت من يبسه، وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخاراً، لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار(٣) . وفى هذا قوله: ﴿ **خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن].

ـ ثم تأتى مرحلة **نفخ الروح**: فبالنسبة إلى الإنسان الأول كان ذلك بعد أن صارت

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ، جـ١ ، ص ٣٠٣.

(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٦.

الطينة صلصالاً ذا صورة بشرية كاملة، عندئذ نفخ اللـه فيه من روحه فكان بشراً سويا، وبالنسبة إلى السـلالات الإنسانية فإن نفخ الروح يكون فى الجنين من بعـد علوقه بنحو أربعة أشهر.

وبتأمل خلق الله للكون وللإنسان نستطيع أن نلمس وحدة فى التكوين. فالإنسان ليس إلا متكوناً من نفس العناصر التى تتكون منها الموجودات الكونية الجامدة والجسمية، فحينـما يقارن بما على الأرض من جمـادات يتبين على ما يبدو فى الظاهـر من اختلاف بينهما أن أصل تكوينه ليس إلا من تلك الجمادات المعبر عنها بالتراب[1] . وإذا قورن بما على الأرض من مظاهر الحياة تبـين أن وحدة التكوين الجامعة بينهـما هى عنصر الماء . كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ... (٤٥)** ﴾ [النور].

وكما تبـدو وحدة التكوين بين الإنسان والكون فى وحدة العنصـر تبدو أيضاً فى وحدة الكيفية التركيبية، إذ ركبت الموجودات كلهـا بكيفية التزاوج كما يثبته قوله تعالى: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)** ﴾ [الذاريات] وإذا كانت هذه بادية فى الذكورة والأنوثة بالنسبة للحيوان وأصناف من النبات، فإن العلم الحديث كشف عن زوجيـة فى تركيب المادة كلهـا جامدة وحـية، وهى المتمـثلة فيمـا تتكون منه الذرة من شحنات موجبة وأخرى سالبة[2] .

غاية خلق الإنسان

جاء الإعلان الإلهى عن خلق الكائن الجديد (الإنسان) مصاحباً لبيان المهمة التى أنيط بعـهـدته الاضطلاع بهـا فى قـوله عـز وجل: ﴿ ... **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... (٣٠)** ﴾ [البقرة]، بل إن تسميـة هذا الكائن الجديد فى سياق الإخـبار بخلقه كانت تسمية بحسب وظيفته وهى الخلافة، وذلك ينطوى على دلالة بالغة فى إبـراز هذه الوظيفـة والتنـويه بشأنها[3] . ولا يزال القرآن الكريم بعد هـذا الإعلان الأول يعظم هذه المهمة ويبين محتواها وأهدافها وذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ... (١٦٥)** ﴾ [الأنعام] .

---

(١) عبد المجيد النجار : الإنسان والكون فى العقيدة الإسلامية ، ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩.

(٣) عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحى والعقل ، ص ٦١.

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر].

إن الخلافة ـ المهمة الوجودية للإنسان ـ تعنى الخلافة عن الله تعالى لتنفيذ مراده فى الأرض وإجراء أحكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً فى الكون بغاية تطبيق المهمة التى كلفه بها المستخلف ـ الله ـ ائتمارا بما أمر وانتهاء عما نهى.

هذه المهمة التى كلف الله بها الإنسان وجعلها غاية لوجوده تنبنى على عنصر أساسى هو معنى الخليفة عن الله، ومن هذا العنصر تستمد جوهر حقيقتها وكل أبعادها[1] فالحقيقة تقتضى أن يكون الهم الأكبر للخليفة ترقيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل ؛ ولذلك فإن الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همه وجهده فى الاقتراب من الله مستخلفه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ من الاكتمال الدرجة التى ذكرها الله فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق].

والخلافة لغة، النيابة والوكالة، والنيابة أو الوكالة بين اثنين من الناس مثلاً، فإنها تتطلب لكى تقوم عدة عناصر رئيسية هى[2] :

١ـ الموكل

٢ـ الوكيل

٣ـ الموكل فيه أو عليه .

٤ـ شروط الوكالة .

٥ـ مدة الوكالة

٦ـ الحساب فى نهاية الوكالة

ونجد بالقياس هذه الأطراف والعلاقات القائمة بينها موجودة بكاملها فى حقيقة الخلافة :

١ـ المستخلِف (بكسر اللام) وهو الله وجل .

٢ـ المستخلَف (بفتح اللام) وهو الإنسان .

---

(١) خلافة الإنسان بين الوحى والعقل ، ص ٦٢ .

(٢) فاروق أحمد الدسوقى : مفاهيم قرآنية حول حقيقة الإنسان ، ص ٢٧.

٣ـ المستخلَف فيه (بفتح اللام) وهى الأرض وما فيها وما عليها .

٤ـ شروط الخلافة وهى التكليف أو الرسالة السماوية أو الشريعة .

٥ـ مدة الخلافة وهى الحياة منذ آدم إلى يوم القيامة .

٦ـ الحساب يوم الدين .

ومن ثم فإن الخلافة ـ كالوكالة ـ تعبير عن علاقة بين الإنسان والمستخلف، وبين ربه الذى استخلفه من جهة، وعن علاقة أخرى بين الإنسان الخليفة وبين كل ما استخلفه الله عليه فى الأرض من جهة أخرى .

والعلاقة الأولى ذات طبيعة خاصة ومختلفة عن العلاقات الثانية التى لها طبيعتها الخاصة أيضا، أما الأولى فهى تتمثل فى الخضوع والطاعة والاستجابة واستسلام الخليفة لمن استخلف، أو هكذا يجب أن تكون، وبكلمة واحدة نقول إنها عبودية .

أما البعد الثانى أو العلاقة الثانية من علاقتى الخلافة فإنها تتمثل فى سيطرة الإنسان الخليفة. وهيمنته واستغلاله وحاكميته وتسخيره لكل ما استخلفه الله عليه أى لكل ما فى الأرض وما عليها وما فى باطنها من أشياء وأحياء، وبكلمة واحدة نقول إن الإنسان سيد عليها، ومن ثم فهذه العلاقة تسمى سيادة[١] .

وإذا، فما عسى أن يكون دور الإنسان فى تلك الخلافة ؟ أهو الأكل والشرب من ضروب الكد للانتفاع بثروات الطبيعة ؟

إن الواضح أن الأكل والشرب منهج سلبى لا يتصور العقل أن يكون مقصداً إيجابيا أسند إلى الإنسان تحقيقه، وقد فتح الإنسان عينيه لأول مرة على الغابة فوجد ثمارها فأكل، ووجد الغدير فشرب، ولم يكن فى ذلك أى قصد إيجابى عمرانى يمكن أن يكون هو الخلافة المسندة إلى الإنسان[٢] .

حقا إنه تقدم فى كشف قوانين الطبيعة فى السماء والأرض، فزرع وبنى وصنع واخترع، ولكن هل يخرج ذلك عن كونه «توسيعاً» لدائرة انتفاعه وانتقالاً من حال البداءة والسذاجة إلى المدى الذى يرضى رغباته، وشهواته فى تنويع ما يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ؟[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨.

(٢) البهى الخولى ، آدم عليه السلام ، ص ١٣٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧.

ولا يسوغ العقل ولا فى حكمة الله أن يكون الإنسان ذو المواهب والقدرات العظيمة قد خلق لا لشيء إلا لينتفع بالطبيعة على نحو من الأنحاء بدائى ساذج. أو حضرى مترف معقد . . فلابد من الاستشراف إلى الآفاق التى تبدو فيه الأمور للفكر مقدورة بميزان الحكمة الإلهية لتتبين حكمة وجود الإنسان مقدورة بقدر مواهبه ذات الإلهامات العالية .

إن مبدأ تقرير دور إيجابى يناط بالإنسان أمر بديهى، يوجه النظر إلى مواهبه، كما يوجه النظر من أفق حكمة الخالق، وهو إلى ذلك مبدأ يعترف بعلو قدر الإنسان، فإن افتراضه مسيبا من كل تكليف ـ على ما يفترض منطق الحضارة القائمة ـ هو افتراض لسقوط منزلته، واعتباره هملا غير مسئول عن قيمة ما عالية، فإذا كان هذا الدور هو خلافة عن الله تعالى فهو إعلان لما أريد للإنسان من كرامة عظمى. ذلك كله إلى أن الأكل والشرب ليس خلافة عن الله بأى وجه أو على أى حال .

ومن هنا صح قول العقاد بأن أفضل صفة تطلق على الإنسان أنه هو «الكائن المكلف »، هو كائن أصوب فى التعريف من قولة القائلين «الكائن الناطق » وأشرف فى التقدير، وهو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد وأشرف فى التقدير، من هذا وذاك[1] .

إذ ليس الكائن الناطق بشىء، إن يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف. وليس الملك الهابط منزلة تهدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء، إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة موضوع فى موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عداه.

والملاحظ هنا أن الكتاب (القرآن الكريم) الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب «العقل » بكل قدرة من قدراته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، فالعقل وازع «يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وبواطن الأمور . إن هذا العقل بكل عمل من أعماله

---

(١) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، دار الإسلام، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢١.

التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء[1] .

والتكليف على أساس من حرية الإرادة هو السبيل الوحيد إلى الترقى والاكتمال فى منهج العبودية الذى هو روح الخلافة، ففرصة الاختيار بين اتباع الهوى والخلود إلى نوازع الهبوط، وبين اتباع الأمر الإلهى والتسامى إلى الأفق الأعلى، هى التى تمكن الإنسان من مغالبة الهوى لتحقيق التسامى فى ضرب من الجهاد النفسى الذى يؤدى إلى الترقى والاكتمال شيئاً فشيئاً عبر التفاعل مع الكون : أخذاً بالأوامر الإلهية فعلاً وتركاً حتى الوصول إلى الإنسان الخليفة [2] . وما كان الإنسان ليصل إلى تلك الدرجة دون تكليف، فالسموات والأرض والجبال وكل المخلوقات الأخرى مقهورة على حركاتها مسلوبة الحرية فيها؛ ولذلك فإنها تظل ثابتة الوضع طيلة الدهر، لا فرصة لها فى الترقى الذاتى لتمارس عبره الخلافة .

وبالنسبة للعبودية نقول إن الله قد خلق الإنسان عبداً، فهو لا يمكن إلا أن يكون عبداً، فكونه عبدا أمر جبرى لا يستطيع تغييره، بيد أن الله- عز وجل- جعل عبودية الإنسان محل ابتلاء له أو هى أساس ابتلائه فى هذه الحياة الدنيا، فترك له حرية اختيار المعبود، فيستطيع الإنسان أن يعرف عبوديته لله وحده فيحقق عبوديته لله ويستطيع أن يجعلها لله ولغيره ويستطيع أن يصرفها لغير الله تماماً، وبذلك يشرك ويكفر بالله[3] .

ومعنى ذلك أنه إن لم يجعل الإنسان عبوديته لله وحده ويقصر العبادة على الله -عز وجل- سقط بالضرورة فى عبوديته لغير الله، ومن ثم فلا سبيل أمام الإنسان لتحرير ذاته من كل المعبودات والطواغيت والأوثان المادية سوى تعبيدها لله وحده .

أما كيفية تحقيق العبودية لله وحده فبكلمة واحدة «بالدين»، فالتكليف الإلهى للإنسان هو المنهج القويم الصحيح لتحقيق العبودية لله- عز وجل- سواء على المستوى الفردى أو الاجتماعى .

ومنهج تحقيق الدين للعبودية الفردية يكون بالشعائر التعبدية المتمثلة فى العبادات صلاة ونسكاً فرائض ونوافل، فالشعائر التعبدية هى منهج تعبيد ذات الفرد لبارئها[4] .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٢.

(٢) عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان ، ص ٦٤.

(٣) فاروق احمد الدسوقى ، ص ٤٠.

(٤) المرجع السابق ، ص ٤١.

أما المقصود بالعبودية الاجتماعية فهو خضوع الناس فى علاقاتهم الاجتماعية لله ربهم، وهذا يستلزم أن تقوم هذه العلاقات الاجتماعية وما ينبنى عليها من نظم اجتماعية بين الناس وفق حكم الله- عز وجل- وحسب ما أراد لهم .

الطبيعة الثنائية التكاملية :

لعل أبرز ما اتضح لنا فى تكوين الإنسان، أنه كيان مزدوج الطبيعة، وهو بهذا الازدواج كائن متفرد فى عالم ما نعلم من مخلوقات هذا الكون، التى تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة فالحيوان من جانب، والملك من جانب ـ وهما المخلوقان اللذان يجمعهما بالإنسان صلات، كلاهما ذو طبيعة واحدة ووجهة واحدة[1] .

فالحيوان، حتى أعلى درجاته التى تشبه الإنسان فى تركيبه الجثمانى ـ مخلوق ذو طبيعة واحدة، تتحدد بحدود الجسد القوى والتصرفات الفطرية ـ جسمه هو مصدر طاقته، وقواه الفطرية هى الموجهة له وتصرفاته الفطرية هى عالمه بأكمله يأكل ويشرب ويؤدى عملية الجنس بدافع جسدى بحت، لا إدراك فيه لهدف أو لا تصرف فيه فى وسيلة، يأكل حين يدفعه الجوع أو يمسك حين تقرر له معدته حد الاكتفاء، وينشط نشاطه الجنسى فى موسم معين محدد، لا يختار هو وقته، ولا يحدد هدفه ولا يدركه أو لا يختار سلوكاً فيه معيناً غير ما توحيه له نوازعه الفطرية، ثم يكف عن هذا النشاط جملة فى موعد كذلك محدد، لا يختاره هو ولا يدرك سره، ولا يملك كذلك مخالفته.

والملك ـ من وصفه الذى نعرفه به وإن كنا لا نراه ـ مخلوق ذو طبيعة واحدة كذلك وذو اتجاه واحد، مخلوق يعيش فى نطاق روحى ومطيع توجيهاتها بلا إرادة ذاتية ولا تصرف ذاتى، فالملائكة مخلوقات مفطورة على الطاعة المطلقة ﴿ ... **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]. وهى وإن لم يكن لها قوى جسمية : لأنها غير ذات أجسام مادية، فإن لها «قوى روحية » تعمل بوحيها فى كل أمر دون تفكير أو تصرف أو اختيار، أى أنها ذات طبيعة واحدة تعمل فى اتجاه الروح[2] .

والإنسان وحده ـ فيما نعلم من الكائنات ـ هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه . وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله، وهو متغلغل فى كل أعماقه، فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذة المتميزة .

---

(١) محمد قطب : دراسات فى النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٤ ، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢.

ولم يفت الإنسان من قديم أن يفرق بين عنصره المادى ممثلاً فى الجسد، وعنصره المعنوى ممثلاً فى الروح، وقد ربط الحياة والموت بهذه الروح الذى تمنحه الحياة، فكانت الروح تعنى النفس، من حيث لا بقاء لنفس بغير روح .

وشغل الفلاسفة والمفكرون من قديم الزمان بأمر هذه الروح، وقلما نلحظ فى كلامهم عنها أنهم يفرقون بينها وبين النفس، فهم يذكرون الروح ويعنون بها النفس، كما يذكرون النفس ويعنون بها الروح، وقد أعياهم أن يصلوا إلى كنهها، وإن عرفوا من خواطرها أنها سر الحياة، متى فارقت الجسد فسد ومات. ومن حيث كانت سر الحياة، انتفى عند أكثرهم القول بموتها وفنائها، لأن ما به تكون الحياة لا يفنى ولا يموت[1] .

أما من أين جاءت، وإلى أين تمضى، فذلك ما تحيرت فيه العقول والأفكار وتاهت الظنون وضلت الأوهام .

وأكثر الفلاسفة اليونانيين، على أن الروح عنصر لطيف مختلف عن البدن، ومتى فارقته عادت إلى عالمها العلوى «سابحة فى عوالم الفلك غير قابلة للموت » كما قال فيثاغورث لديوجينس. وعند أفلاطون أنها جوهر الإنسان، وهى ذات مستقلة عن البدن، فليس جزءاً من ماهيتها، ولا يدخل فى تعريفها. وهى تهبط مكرهة من عالم علوى إلى أحد الأجسام ، ومن الواجب أن تعمل ما استطاعت على التطهرمن الأدران التى تلحقها بسبب وجودها فى سجن الجسد، والموت هو سبيل الخلاص لها، والنفوس خالدة لا تموت .

وأرسطو يراها كذلك مستقلة عن الجسم، ذات وجود سابق عليه، وتخلد بعده لا تموت، وهكذا.

وإذا ساغ لنا أن نقول: إن للرجل المؤمن كيانين : كيانا ماديا وهو البدن، وكياناً معنويا هو الروح، إذا ساغ ذلك، فإن لنا أن نلتمس آثار الحياة ومظهرها فى ذلك الكائن المعنوى، كما نلتمسها فى الكائن المادى، فإن للحياة فى كل شىء حلت به آثاراً ومظاهر!

ومن آثار الحياة فى البدن، الحركة، أو القدرة على الحركة، وإنجاز الأعمال، فهو الذى يحرث الأرض، ويتعهد الزرع، ويطرق الحديد، ويتصرف بجوارحه فيما لهذه الأرض من ثروات . فهل للكائن الروحى من أثر فى محيطه المعنوى يقابل أثر البدن فى

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ص ١٤٣ .

محيطه المادى ؟ نعم له فى محيطه المعنوى آثاره الروحية الباهرة، فالكرم، والحب، والتعاون على البر والتقوى، ذلك وأمثاله هو حركات روحية تمثل انتقال النفس من صفات السلب إلى صفات الإيجاب، وهى إنما تكون حيثما يقبل الإنسان على أسباب ازدهار حياته الباطنة[1].

هذا، ومن آثار الحياة فى البدن أن تهب له السمع والبصر وسائر الحواس، وكذلك حياة هذا الكون الروحى تهب له سمعاً وبصراً، على ما ورد فى القرآن الكريم، ولكنه سمع آخر، وبصر على غير ما يعهد الناس من إبصار، فالسمع فى البدن آلته الأذن، والبصر آلته العين . أما السمع والبصر الآخران فمركزهما جميعاً القلب، أو الوعى ولا آلة لهما. والسمع والبصر الظاهران يتعلقان بإدراك الصورة الظاهرة من كل شىء أو كل صوت، أما السمع الروحى والبصر القلبى، فمن الحواس الباطنة التى تتعلق بإدراك العبرة فى كل قول تسمعه، وفى كل شىء تراه، والعبرة رحيق يحيى النفوس، ويلين القلوب، لأنه آية الله فى كل شىء، ولله فى كل شىء آية لا تدرك إلا بتلك الحواس[2] .

ولعل ازدواج فطرة الإنسان وتركبها من شهوات النفس وأشواق الروح هى التى رشحته لمقام الاستخلاف فى الأرض؛ لأنه بهذا الجهاد المستمر يصبح مناضلاً ـ قوى الإرادة ثقيل العبء، جسيم التبعية، محتشداً دائماً وأبدا ضد شهوات نفسه الأمارة يتحداها لينتصر عليها، فيصبح أهلا لتحمل الأمانة وأهلا للاستخلاف فى الأرض[3] .

لقد أصبح كل ما فى الكون مسخراً له ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا... ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة]. هذا التمكين الهائل للإنسان معناه أنه سيد الأرض، كل ما فيها مسخر له ـ بقدرة الله تعالى ـ وقد أولى كذلك موهبة العلم بشئونها والاستمتاع بطيباتها، وليست الأرض وحدها بكل ما فيها من عناصر ـ ولكن السموات أيضاً مهيأة لمساعدة الإنسان ليؤدى رسالة الاستخلاف .

ومع هذا التمكين الهائل للإنسان، فإنه ضعيف تغلبه شهوته حيناً ويقعد به هواه، لهذا كان دائماً فى حاجة إلى العون الإلهى والمنهج الإلهى، مع بذل الجهد فى مقاومة

---

(١) البهى الخولى ، آدم عليه السلام ، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥١.

(٣) توفيق محمد السبع ، قيم حضارية فى القرآن الكريم ، جـ١ ، ص ١٠١.

الشهوة وكبح جماح النزعة المادية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس] فبعون الله وجهد الإنسان تتم مقاومة الشهوات، لأن هذه الآية تشيد بالجهد الإنسانى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس].

ولكن مجرد وجود الازدواج فى تكوين الإنسان لا يعطى صورة صحيحة عن الكيان الإنسانى المتفرد بين جميع المخلوقات، فهناك مظهر آخر لهذا الكيان، تنبنى عليه فى الحقيقة كل حياة الإنسان، فهذا الكيان مع ازدواجه ليس مكوناً من عنصرين منفصلين يعمل كل منهما وحده فى اتجاه[1] .

إن النفخة الإلهية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ... ۝٧٢﴾ [ص] .. التى أعطت الإنسان روحه، لم تظل عنصرا منفصلاً عن الكيان المسوى من الطين، ولم تتحيز فى حيز معين منه، وإنما سرت «فيه» كله من أوله إلى آخره، فأصبح كياناً جسميا روحيا فى ذات الوقت .. لم يعد طيناً بحتاً، ولا يمكن أن يعود كذلك، ولا هو روح بحت، ولا يمكن أن يكون، فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان، فيكون منهما كيان واحد مختلط أو مزدوج الصفات متكاملها .

وقد انبنى على هذه الحقيقة أن الإنسان ـ فى حالة السوية ـ يؤدى نشاطه الجثمانى على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان، ويؤدى نشاطه الروحانى على طريقة الإنسان كذلك لا على طريقة الملائكة، أى أنه يؤدى كلا نشاطيه بكيانه الموحد لا بأى من عنصريه منفصلاً عن الآخر ومستقلاً عنه .

ولو اخترنا جانباً واحداً ـ كمثال ـ لأدركنا كيف يتعامل الإنسان معه هذا التفاعل الذى يزدوج فيه عنصراه المادى والروحى، فالإنسان يحمل فى جوانحه رغبة شديدة القوة فى الاتصال بفرد من الجنس الآخر ،لكنه يؤسس لهذه الرغبة النظم والقواعد والمعاملات . وهو لا يقتصر على الملامسة الجسمية وإنما يعبر عن عواطف جياشة عن الحب كلاماً شعراً وقصة ونغماً فى موسيقى وأغانى ورسماً فى لوحات فنية رائعة .. وهكذا .

النفس

وإذا كان فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى التأمل فى الملكوت كما مر بنا للاستدلال بذلك على الخالق المبدع- سبحانه- لكن القرآن يدعونا كذلك إلى

(١) محمد قطب ، دراسات فى لنفس الإنسانية ، ص ٤٧ .

التأمل فى أنفسنا ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]. فهو يشير أولاً إلى ما فى الأرض من مظاهر الإعجاز فى الخلق، التى لا يكاد يحصيها الإنسان عدا(١).

هكذا يمكن للإنسان أن يسرح النظر بعيداً فى هذا الكون فيستنبط أدلة الوجود وأدلة القدرة وأدلة التدبير، ولكنه قل أن ينظر فى نفسه وليس «إلى نفسه» حيث الفرق بينهما هو الفرق بين من ينظر فى السطوح ومن يتغلغل فى الأعماق، ومن أجل هذا يدعونا القرآن الكريم إلى أن نبصر فى أنفسنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] بعد أن نبهنا إلى ما فى الأرض من آيات . إنه يدعونا إلى أن نتأمل آية خلق النفس الإنسانية التى هى نفس كل منا، لأنها، وإن كانت أقرب الأشياء إلينا- هى فى الغالب أبعد الأشياء عن تفكيرنا وتأملنا، فقليل من الناس هم أولئك الذين يتأملون فى أنفسهم ـ بالمعنى القرآنى(٢) .

وليست هذه المقابلة بين العالم المشهود وعالم النفس مجرد صدفة، إنها على العكس ـ تلفتنا لفتا قويا إلى عالم النفس ـ حين نتأمله ـ يكشف لنا عن نفس الأدلة والبراهين التى تنكشف لنا فى العالم الأكبر، كما أشرنا من قبل، فلأهمية هذه الحقيقة نكررها هنا، وذلك أن الإنسان، ذلك الجرم الضئيل، قد تمثلت فيه على الرغم من ضآلته ـ كل مقومات العالم الأكبر، فإذا أدرك الإنسان نفسه، أدرك العالم من حوله، ومن فوقه ومن تحته، ووجد فى نفسه دليلاً على الموجد المبدع- سبحانه- دليلاً على تدبيره الحكيم .

وقد أطلقت النفس فى القرآن على شىء فى داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية، التى لها آثار ظاهرة فى السلوك الإنسانى، ولئن كانت ذات هذا الشىء وحقيقته غير معلومة على وجه التحديد لدى الناس، إلا أن كثيرا من صفاته وخصائصه وآثاره الظاهرة فى السلوك مدركة معلومة، وموصولة بالشعور الظاهر لدى الإنسان السليم .

ومع الإطلاق القرآنى لكلمة النفس، وردت عدة صفات وبيانات، توضح جملة من خصائص النفس وصفاتها وآثارها فى السلوك، وهذه تكشف عن المراد من النفس فى داخل كيان الإنسان .

---

(١) عز الدين إسماعيل : نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية ، مكتبة غريب ، القاهرة د . ت ، ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

ويظهر من متابعة النصوص القرآنية أن النفس قد أطلقت فى القرآن على شىء هو فى داخل كيان الإنسان، يشتمل على كل الصفات والخصائص التى تكونت منها ماهيته، دون النظر إلى الهيكل الجسدى الذى هو وعاء لها[1] .

فالنفوس البشريـة كلها خلقت من نفس واحدة، هى نفس الإنسان الأول « آدم » ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بث منهما، عن طريق التناسل كل السلالات البشـرية المتكاثرة حتى تقوم الساعـة. وهذا يدل على أن أسس خصائص النفوس البـشرية، ومكوناتها وعناصـرها تشترك فى أصول واحـدة، وإن اختلفت نسب العناصر فى الأفراد، ومن الطبيعى أن يتبع هذا الاخـتلاف فى نسب العناصر اختلاف ما فى صفـات الأفراد وخصائصـهم، مع وحدة العمود الأصلى الذى تشـترك فيه جـميع الأفراد .

وعندما ما نسـتعرض الاسـتعمال القرآنى لكلمة النفـس، نرى أنها لا تخرج عن معنيين مجملين، يمكن أن نجعلها ثلاثة قصدا إلى الإيضاح[2] :

أولا : أنها تسـتعمل بمعنى «الذات » ، و المقصود بهـا الذات الأدبية أو المعنوية ـ إن صح هذا التـعبيـر في هذا المجال ـ أى التى لا تكـون ذاتاً مادية، ومن ذلك قـوله سبحانه : ﴿ ... وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران] . وقوله تعالى : ﴿ ... سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام] . وغير ذلك من الآيات التى يكون مدلول النفس فيها هى الذات العلية .

ثانيا : تستعـمل النفس فى معنى قريب جـدا مما سبق، والباحثـون يجعلون هذا الاستـعمال والذى قبله شـيئاً واحداً، لكن النفـس هنا بمعنى «الشخص» وهو استعـمال مادى عكس الأول[3] . إذ لا يجوز في حق الذات العليـة، ومن هذا الاستعمـال قوله سبحانه :﴿ ... أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة] . وقولـه تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ثالثا : تستعـمل النفس كثيراً فى القرآن بمعناها العلمى الحـديث والذى يشير إلى

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة ، الأخلاق الإسلامية ، جـ ١ ، ص ٢١٥.

(٢) توفيق محـمد السبع : نفوس ودروس فى إطار التصـور القرآنى ، مجمع البحوث الإسـلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية (٣٤) ، أغسطس ١٩٧١ ، جـ١ ، ص ، ٣٧.

(٣) المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٨.

أنها ـ على وجه التقريب ـ القوة الكامنة فى الجسم الإنسانى والتى هى مجمع الخير والشر ومستقر القدرات والاستعدادات الفطرية، وما يكتسب من مهارات واتجاهات وقيم، والنزعات المحركة لهذا الجسم المادى فى تصرفه واتجاهه[1].

ومن الآيات التى تقع فى هذا الباب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ... ﴿١٣﴾﴾ [السجدة]. وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ...﴿١٦﴾﴾ [ق] وهكذا.

وقد تكلم فلاسفة قدماء عن «العقل »، والنفس، والروح، بمعانيها التى تنسب إلى الإنسان ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها، وجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هى «الذات الإنسانية » تدل كل قوة منها على الذات الإنسانية، فى حالة من حالاتها . ولا تتعدد «الذات الإنسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل، فإنما هى إنسان واحد فى جميع الحالات، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية ندرك أعمالها ولا ندرك مصادرها، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن قدرات العقل والنفس والروح، وعما ينسب إليها من وعى باطن ووعى ظاهر، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية. . إلى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمال، وإن لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول[2] .

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى (النفس / العقل / الروح) فى الذات الإنسانية وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول. الإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الشهوات ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله . وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام[3] .

ومن عجائب التكوين البشرى تلك الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية فى النفس الإنسانية، كل اثنين منها متجاوران فى تلك النفس، وهما فى الوقت ذاته مختلفان فى الاتجاه : الخوف والرجاء. . . الحب والكره . . الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى

(١) نفوس ودروس ، جـ١ ، ص ٤٠ .

(٢) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، ص ٣٧.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧.

الخيـال . . الطاقـة الحسية والطاقـة المعنوية . . الإيمان بما تدركه الحـواس والإيمان بما لا تدركه الحـواس ... حب الالتزام، والميل للتطوع . . . الفـردية والجماعـية . . . السلبـية والإيجابية[1] . . إلخ كلها خطوط متوازية ومتقابلـة . . وهى ـ باختلافها ذلك وتقابلها ـ تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة، كـأنما هى أوتاد متفرقة متقابلة تشد الكيان كله، وتربطه من كل جـانب يصلح للارتباط ـــ. وفى الوقـت ذاته توسع أفقـه وتعدد جوانبـه وتفسح مجال حـياته، فلا ينحصـر فى نطاق واحد ولا مستـوى واحد، بذلك يتحقق للإنسان كـيان فريد فى كل ما نعرف من مخلوقات الـله. كيان يرجع فى النهاية إلى النشأة الأولى العجيبة المعجزة: قبضة الطين ونفخة الروح[2] .

وتتميز النماذج البشرية التى وصفها القرآن الكريم بأنها حية متحركة دقيقة الملامح والقسمات، صادقة الدلالة قوية الإيحاء، مرتبطـة أشد الارتباط بمجتمعنا وبكل مجتمع يجيد الأخذ من القرآن . . تستطيع البشرية كلها أن ترى فى القرآن صوراً مختلفة بعضها طيب، وبعضها خبيث، وأن ترى فى هذه النماذج القرآنية صور الأشخاص أو الجماعات تعيش معنا على أرض الوطن، كما أن هذه النماذج ترينا الإنسـان نفسية مجردة واضحة عندما تعرض لتحـليل المشكلات والأزمات والمعوقات التى تعترض مـسيرة الإنسان وهو يقطع شوطه الخالد على درب الوجود[3] . وهى نفسية لا تختلـف كثيراً من عنصر إلى عنصر لأن جوهرها واحد، فنستفيد من ذلك دروساً تعيننا على اقتحام العقبات واكتساح المعوقات، ونتجنب ما يعوق الخطأ ويضعف العزائم .

وعندما يعالج القرآن أسباب الهـبوط والتردى فى بعض هذه النماذج نلمح سلامة العلاج لهذه النفوس، لأنه علاج يقدمه للنفوس من خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقـواها، فهو عـليم بمصالحـها، وبما يبـعد عنهـا الأمراض والعطوب، وبما يكفل لـها السعادة فى حاضرها ومستقبلها[4].

ولقـد وقع فى وهم كثـير من الناس أن للإنـسان ثلاث أنفس : نفس مطمـئنة، ونفس لوامة، ونـفس أمارة بالسوء، وأن منهم مـن تغلب على هذه، ومنهم من تغلب الأخرى [5]، ويحتجـون على ذلك بقوله تعالى : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت ، ص ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) توفيق محمد سبع ، نفوس ودروس ، جـ٢ ، ١٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٥) أحمد عمر هاشم : النفس فى القرآن ، دار الفيصل ، القاهرة ،/ ١٩٩٦ ، ص ٢٧ .

[الفجر] وقوله : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة].

وبقوله تعالى: ﴿... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ... ۝٥٣﴾ [يوسف].

والحقيقة أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم.. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه وبذكره عن ذكر سواه .

وأما النفس اللوامة، فهى حالة الإنسان عندما يلهو إلى نفسه ليحاسبها ويلمس تقصيراً فى طاعة الله، فتشعر هذه النفس بالذنب وتلوم نفسها .. هى أشبه بما نسميه «بالضمير».

وأما النفس الأمارة بالسوء، فهى حالة الإنسان عندما يجد نفسه وقد ثارت به نوازع الشهوة والاتجاه إلى الاستجابة إليها .

فهى إذن «مراتب» و «مستويات» لنفس واحدة، أدناها .. الأمارة بالسوء، وأعلاها الاطمئنان بالاتجاه إلى الله ﴿... أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد].

* * *

الفصل الثاني

القرآن الكريم ـ جوانب أساسية

مقدمة

جاءت الرسل وحيا من الله تعالى بجملة من التعاليم التى تهدى حياة الإنسان فى تصوره للوجود، وفى تصريف سلوكه الفردى والجماعى، فبينت له حقيقة ما هو كائن فى عالم الغيب، وبينت ما ينبغى أن يكون من سيرة له فى عالم الشهادة، وذلك هو الدين الذى جاءت به الرسالات تترى، حتى انتهت بالرسالة الخاتمة، رسالة الإسلام التى ختمت الرسالات، ومثلت الصورة النهائية الكاملة لها، حتى كان الدين هو الإسلام[1]، كما جاء فى القرآن الكريم على صيغة الحصر: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ... ⟨١٩⟩﴾ [آل عمران].

فالدين بما هو هدى إلهى يتصف بالمثالية والكمال، فهو تعاليم يتمثل فيها الحق المطلق بناء على الكمال الإلهى فى العلم الشامل بأحوال الوجود، والمحيط بمصلحة الإنسان فى مختلف متقلبات حياته، كما أن الدين ـ والحديث عن الدين الإسلامى ـ حقيقة مصدعة لهدى الإنسان مطلقا عن مقيدات وجوده الزمانية والمكانية، فهى فى أوامرها ونواهيها تخاطب بالتكليف الناس كلهم على اختلاف أوضاعهم الذاتية[2] .

وإن من أسس العقيدة الإسلامية أن المصدر الوحيد للدين هو الوحى، والوحى منضبط محدد فى أصلين، هما: القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وكل من هذين الأصلين منحصر فى نص محدد، تناقلته الأمة فى المصحف الشريف بالنسبة للقرآن، أو فى دواوين السنة للحديث. ولهذا النص المستوعب للوحى خصائص وأحكام، سواء فى طبيعته من حيث هو وحى إلهى، أو من حيث تحمله لتعاليم الهدى، أو من حيث طريقة عرضه إياها على الناس، لتتمثلها العقول على سبيل التكليف .

---

(١) عبد المجيد النجار : فى فقه التدين فهما وتنزيلا ، الدوحة ، كتاب الأمة ، (٢٢) سلسلة فصلية تصدر عن مركز الأبحاث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، الدوحة صفر ١٤١٠ ، جـ١ ، سبتمبر ١٩٨٩ ، جـ١ ، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

ويتوقف فهم الدين إلى حد كبير على معرفة تلك الخصائص والأحكام، وقد أدى الجهل بها أو تجاهلها قديما وحديثا إلى انحراف فى الفهم، بلغ أحيانا إلى ما يهدم الدين نفسه وينقضه من أساسه(1).

ومن هنا كانت عنايتنا فى هذا الفصل ببيان عدد من الخصائص والأحكام التى تعين على حسن فهم النص القرآنى ونحن نستخرج منه معالم منهج تربوى لبناء الإنسان.

تعريفه:

لم يكن لكتاب من الكتب شهرة القرآن، ولذا كان غنيا عن التعريف، ومن هنا لا نجد الأولين من أئمة المسلمين يعنون بتعريفه، وكانوا إذا تكلموا عنه تكلموا عن بيانه للأحكام، وبيان السنة له، غير أن المتأخرين خاضوا فى هذا الموضوع، فعرفه الغزالى بأنه «هو الكلام القائم بذات الله تعالى، وهو صفة قديمة من صفاته تعالى». والكلام اسم مشترك قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما فى النفس، تقول: سمعت كلام فلان وفصاحته، وقد يطلق على مدلول العبارات، وهى المعانى فى النفس، كما قيل(2):

إن الكلامَ لفى الفؤاد وإنما جُعل اللسانُ على الفؤاد دليلا

وقال تعالى: ﴿... وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الملك]، فلا سبيل إلى إنكار كون هذا الاسم مشتركا.

فها هو الغزالى - كما نرى - يتأثر فى تعريفه للقرآن بالفلسفة التى تأثر بها علم الكلام، كما تأثرت بها العلوم المختلفة لما نقلت إلى اللغة العربية فى العصر العباسى وصبغت العلماء بصبغتها فصاروا يتجهون إلى البحث عن حقائق الأشياء ووضع حدود وتعاريف لكل ما يتناوله بحثهم، وقد بين فى تعريفه أن لفظ الكلام من قبيل المشترك، فيطلق على المعانى النفسية قبل أن يتكلم بها، كما يطلق على نفس العبارات التى تدل على هذه المعانى.

وبيان حقيقة القرآن بمثل هذا النحو، لا يفيد البحث فى لغة القرآن وبلاغته

---

(1) المرجع السابق، ص٤٥.

(2) محمد الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٧٩، ص١٣.

والتعـــرف على ما فيـه من أحكام وآداب، ولهذا سلك الأصـوليون مسـلكا آخر فى تعريف القرآن يكون فيه جدوى لمن يريدون البحث فى المناحى السابقة[1].

واختلف المفكرون الإسـلاميون فى لفظ «القـرآن» وذهبوا فى اختلافـهم مذاهب شتى فبينما رأى البعض أنه «مهمـوز» أكد البعض الآخر أنه غير ذلك . ومن أصحاب الاتجاه الأول «الزجاج»[2] و«اللحيانى»[3] ، إذ قال الزجـاج أنه وصف على «فـعلان» مشتق من «القرء» بمعنى الجمع . يقال فى اللغـة «قرأت الماء فى الحوض» أى جمعته، ثم سمـى به الكلام المنزل على النبى ﷺ لجمع السـور والآيات فـيه أو القصـص والأوامر والنواهى، أو لجـمعه ثمـرات الكتب السابقـة . ويقول: إن تـرك الهـمز فـيه من باب التخفـيف . ونقل حركة الهمزة إلى السـاكن قبلها، وهذا ما أشـار إليه الفارسى[4] فى الحلبيات . وقـوله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة] أى جـمعه فى قلبك حفظا، وعلى لسانك تلاوة، وفى سـمعك فهما وعلما. ولهـذا قال بعضهم، أى عند قراءته المخلوقة، ويفهم منهـا كلام الله القديم، وهذا معنى قوله:﴿ ...لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ... ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] ، أى لا تفـهموا، ولا تفعلوا لأن السمع الـطبيعى يحصل للسامع ما شاء أو أبى[5].

ومن أصحـاب الاتجاه الثانى، وهو أنه غيـر مهموز «الشـافعى» إذ ينقل الخطيب البغدادى[6] عنه قوله : «وقرأت على إسـماعيل بن قسطنطين وكـان يقول : القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخـذ من قرأت ولو أخذ من قرأت لكان كل مـا قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل . يهمز قرأت ولا يهمز القرآن ».

ورأى بعض الباحثين أن «قرآن» مأخوذ من «قرأ» بمعنى «تلا» وهذا الفعل أصله

---

(١) محمد الزفزاف ، ص١٤ .

(٢) هو إبراهيم بن السرى ، ويكنى أبو إسحاق ، صاحب كتاب (معانى القرآن) توفى سنة ٣١١هـ.

(٣) هو أبو الحسن على بن حازم ، اللغوى المشهور المتوفى سنة ٢١٥هـ.

(٤) هو الحسن بن أحـمد بن عبـد الغـفار . أبو على الفـارسى ، توفى سنـة ٣٧٧ ، ببغـداد ، والحلبيات. أحد كتبه التى أسماها المسائل الحلبيات.

(٥) الزركشى (بدر الدين محـمد بن عبد الله) البرهـان فى علوم القرآن . تحقيق محـمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٧٢ . جـ١ ، ص٢٧٨.

(٦) الخطيب البـغدادى (الحـافظ ابى بكر أحـمـد بن على) : تاريخ بغـداد ، دار الكتاب العـربى ، بيروت، بدون تاريخ ، جـ٢ ، ص٦٢.

فى اللغة الآرامية ثم دخل العربية قبل الإسلام بزمن طويل[1] ولو صح هذا، فلا ضير فيه، لأن الكلمة وأمثالها ـ وإن كانت فى الأصل أعجمية ـ فقد صارت بعد التعريب عربية بالاستعمال وبإخضاعها لأصول العرب فى نطقهم لغتهم، واندمجت فيها حتى صارت جزءا منها، فنزل القرآن بها، وهى على هذا الحال .

والعرب فى الجاهلية حين عرفوا لفظ « قرأ » استخدموه بمعنى غير معنى «التلاوة» فكانوا يقولون : هذه الناقة لم تقرأ سلى قط، يقصدون أنها لم تحمل ملقوحا ولم تلد ولدا، ومنه قول عمرو بن كلثوم[2] :

هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما قرأ بمعنى « تلا» فقد أخذها العرب من أصل آرامى وتداولوها، فمن المعروف كما يقول «برجشتراسر G.Bergstrasser» أن اللغات الآرامية والحبشية والفارسية تركت فى العربية آثارا لا تنكر، لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب فى القرون السابقة للهجرة .

وما لنا نستغرب هذا ولا نصدقه ونحن نعلم أن لهجات الآرامية المختلفة كانت تسود كل بلاد فلسطين : سوريا وبين النهرين وبعض العراق ؟ ونعلم أيضا أن جوار العرب لليهود الذين كانت لغتهم الدينية الآرامية، عَجَّل فى انتشار كثير من الألفاظ الدينية الآرامية. وقد أشار إلى هذا المستشرق «كرنكو Krenkow » فى بحثه عن لفظ «كتاب» فى «دائرة المعارف الإسلامية» كما نقل المستشرق «بلاشير» طائفة من الكلمات الدينية الآرامية والسريانية والعبرية مؤكدا استعمال العرب لها من أثر الحوار مع اليهود وسواهم من أصحاب الملل، ونذكر من تلك الألفاظ «قرأ، كتاب، تفسير، تلميذ، فرقان، قيوم، زنديق».

وجرى العرف عند كثيرين من أهل الشرع على إطلاق «الكتاب» على كلام الله المكتوب فى المصاحف المقروءة على ألسنة العباد، وهو بهذا الإطلاق مرادف للقرآن من حيث إنه عبارة عن كلام الله تعالى المكتوب فى المصاحف المقروءة على ألسنة العباد[3] . أما اللغويون فيقولون بالتفرقة بينهما استنادا إلى أن الكتاب كما يرون اسم للمكتوب،

---

(١) عبد الوهاب حمودة : مجلة لواء الإسلام ، العدد الأول ، السنة الأولى ص٢٨.

(٢) صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤ ، ص٢٠.

(٣) القاموس المحيط . باب القاف . مادة قرآن.

بينما القرآن مصدر بمعنى القراءة، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة]. أى إذا تلوناه بواسطة جبريل، فاتبع قراءته، كذلك يسميه الله : ﴿ ... لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان].

ويطلق علماء الكلام لفظ « الكتاب» على الكلام الأزلى الذى هو صفة لله تعالى، كما أطلقه علماء الحنفية القدامى على كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن الشيبانى، وغلب فى عرف متأخرى الحنفية على كتاب المختصر لأبى الحسن القدورى. أما علماء النحو فقد غلب الكتاب عندهم على كتاب سيبويه فى النحو[1].

وقال صدر الشريعة : القرآن اسم للنظم الدال على المعنى، فالقرآن مجموع اللفظ وما يدل عليه من معنى. وكون القرآن اسما للنظم ومعناه، مذهب جمهور العلماء، أما القلة منهم فيرون أن القرآن للمعنى فقط [2] . ويستدلون على ذلك بإجازة أبى حنيفة قراءة القرآن فى الصلاة بالفارسية مع القدرة باللغة العربية، إذ لو كان القرآن اسما للنظم والمعنى لما أجاز أبو حنيفة ذلك . فالقارئ فى هذه الحالة لا يعد قارئا للقرآن، لأن الحاصل من القراءة الفارسية معنى القرآن فقط، وقراءة القرآن أمر لابد منه فى الصلاة، قال تعالى : ﴿ ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل].

والراجح ما ذهب إليه الجمهور من العلماء . إذ لا اعتبار لاستدلال القلة منهم بإجازة أبى حنيفة قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة .

وهناك أسماء أخرى عرفت للقرآن نذكر منها [3] :

١ـ الفرقان : تستعمل هذه الكلمة فى الفرق بين الحق والباطل فرقا جليا بغير

(١) بدران أبو العنين : أصول الفقه ، دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص٥٤.

(٢) محمد زكريا البرديسى : أصول الفقه ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص١٦٨.

(٣) عبد الجليل عيسى : حول أسماء القرآن الكريم وصفاته ، سلسلة (مع القرآن الكريم) ، المقاولون العرب ،القاهرة، العدد الثالث ، ١٩٧٥ ، ص٣٤ وما بعدها.

شبهة، يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ... (٢٩) ﴾ [الأنفال]، أي أن الذين يؤمنون بالله يبث الله فى قلوبهم وفى عقولهم نورا وتوفيقا، يفرق به بين الحق والباطل.

بهذا المعنى جاء الفرقان اسما على كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل فى الاعتقاد، وبين الصدق والكذب فى المقال، وبين الصالح وغير الصالح فى الأعمال[1]، وقد جاء ذلك عاما فى القرآن والتوراة والإنجيل، يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسىٰ وهارون الفرقان ... (٤٨) ﴾ [الأنبياء] ، ويجىء «الفرقان» اسما للقرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا (١) ﴾ [الفرقان] وقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان... (١٨٥) ﴾ [البقرة].

٢ـ البرهان : والبرهان هو : البيان للحجة، المؤيد لها بالأدلة، وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ ... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١١١) ﴾ [البقرة]. وفى تقديم الدليل والبرهان يقال : أبره الرجل على قوله ولا يقال : برهن، وذلك رجوعا إلى أصل المعنى فى جذوره، وهو : البره بمعنى البياض . ومن هذا البياض والإشراق للحجة سمى الله القرآن الكريم، الدال بآياته على أنه كلام الله رب العالمين (برهانا) ، وفى ذلك يقول : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (١٧٤) ﴾ [النساء].

٣ـ الكتاب : جاء فى معنى «الكتابة» ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط[1]، والأصل فى الكتابة النظم بالخط، ويستعار كل واحد منها للآخر، ولهذا سمى كلام الله وإن لم يكتب «كتابا» كقوله تعالى: ﴿ الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه ... (٢) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترىٰ من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) ﴾ [يونس]، فالمراد هنا ما تقدم من كتب الله غير القرآن الذى جعله الله مصدقا لما سبق منها . وقوله تعالى :

---

(١) عبد الجليل عيسى ، ص٣٥.

﴿ ...وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران]، يريد به : الكتب المنزلة كلها، أراد بالكتاب الجنس، فصح معنى الجمع[1] .

ويأتى الكتـاب اسما للقـرآن الكريم فى قوله تـعالى :﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر] . وقوله تعالى :﴿ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [القصص].

٤ـ الذكـر : يأتى الذكر تخصيصا بأنه قول الله وكلامه المذكر به، والواعظ بحكمته فى مثل قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص]، وذلك حيث نجد كلمة «ذكر» وهى مصدر تقوم بعمل اسم الفاعل وهو (مذكر) كما يقال : رجل عدل، والمقصود رجل عادل[2] . ومن هنا يأتى «الذكر» اسما لكل كتاب منزل، وذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، أى من بعد الكتاب الذى نزل قبله وهو التوراة.

ويحمل القرآن الكريم من أسمائه اسم «الذكر»، وذلك فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ... ﴿٨﴾ ﴾ [ص].

٥ـ الحق : وأصل الحق، المطابقة والموافقة لحكمة الخالق، سواء فى حركة الأشياء والموجودات، أو فى قول الإنسان وعمله .

من أجل هذا حمل القرآن الكريم اسم «الحق» من بين أسمائه، لأنه قول الله الحق، والهادى بالحق إلى الحق[3] ، وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ ... وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ... ﴿٢﴾ ﴾ [محمد] ويقول تعالى أيضا : ﴿ ...وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ... ﴿١﴾ ﴾ [الرعد].

٦ـ النور: فبالإضافة إلى «النور» المعروف الذى مصدره الشمس والقمر، هناك النور الإلهى الذى تعقل به البصيرة، أسباب الهدى والحق، ومن هذا النور : كتاب الله الذى يهدى به، والذى كان واحدا من أسماء القرآن الكريم، وذلك فى قوله تعالى :

(١) عبد الجليل عيسى ، ص٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص٣٩.

﴿ ... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ... ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن].

٧- الوحى: فهو من أسماء القرآن كذلك، وقد جاء هذا نصا فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء] ، وفى قوله سبحانه : ﴿ ... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه].

وكان إطلاق لفظ الوحى على كلام الله للأنبياء، وعلى القرآن الكريم، لأن الله سبحانه عندما اختار كلام البشر بيانا من الهدى والحق ليجعل كلامه من جنسه، فهو قد أوحى فى هذا الكلام - كما هو ظاهر فى القرآن الكريم - علمه تعالى، وحكمته، وشرعه، وحكمه، وبشائره ونذره، ثم جعل من هذا الكلام الذى أوحى فيه وأوحى به «كلامه» تعالى الذى يعلو به على كل كلام، والذى تتسع حكمته لاحتواء كل حكمة[١].

٩- التنزيل : وذلك فى مثل قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] والله سبحانه أنزل القرآن إنزالا ، أى : استقر به بعد رحلة الوحى عند النبى ﷺ ليبلغه وينذر به، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

١٠- الهدى : فالله يوجه العباد إلى أن يتحروا أسباب الهداية تجاوبا مع ما أودع فى فطرتهم من طلبها وذلك حيث يقول : ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء] ، فإن الاهتداء هنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء بالمؤمنين العاملين، ومن تحريها عند الصادقين من أصل العلم، ومن مباشرة فهم القرآن الكريم بالمداومة على تلاوته، وحسن الإنصات إليه، ومن التفكر فى خلق السموات والأرض، وفى آيات الله فى الأنفس والآفاق، وبذلك تضيق طريق المعصية وراء المؤمن، ويتسع أمامه طريق الهداية ويزداد هدى الله له إشراقا فى حسه ونفسه وعمله[٢] .

---

(١) عبد الجليل عيسى ، ص٤٦ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ، ص٤٤.

ومن هنا يكون طبيعيا أن يكون «الهدى» من أسماء القرآن، وذلك فى مثل قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وفى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الجن].

وقد وصف سبحانه وتعالى القرآن بصفات متعددة، نذكر منها[1]:

١- المبين: مثلما نجد فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة]، ويقول: ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [النمل]. ووصف القرآن بالمبين، نسبة إلى« البيان» والبيان أحيانا يجىء بقصد التعجيز مثلما طالب المشركون من رسلهم الآيات الدالة على صدق دعوهم، وأحيانا بيان بالاختيار: نطقا أو كتابة، أو إشارة، فى مثل قوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]. أما قوله تعالى: ثم إن علينا بيانه ، فالبيان هنا إشارة إلى ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام.

٢- العجب، مثلما جاء فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

٣- المبارك: كما فى قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ... ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام]، فالمبارك فى صفة القرآن الكريم هو: ما فيه الثبوت والاستقرار لكل ما فيه من الحق والخير، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ... ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] وأيضا ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ... ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

٤- ذو الذكر: وذاك فى قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص]، أى: القرآن صاحب الصيت العالى والشرف الرفيع.

٥- المصدق: مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿... وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا... ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] وقوله: ﴿... فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

والمعنى: أن القرآن الكريم يأتى تحقيقا وتأكيدا للصدق الذى سبقه فى كتب الله، كما أنه تحقيق يتجاوز هذا التأكيد والقول فى آياته وأحكامه وأخباره وقصصه إلى تحقيق

(١) عبد الجليل عيسى، ص٤٦ وما بعدها.

بالفعل، إذ يكون من قول القرآن وفعله هذه الآية الحسية الكبرى فى إيمان شعوب عدة وفى بناء مجتمع المؤمنين[1].

٦ـ الحكيم : كذلك وصف الله القرآن الكريم بأنه «الحكيم»، فى قوله عز وجل: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس] وقوله: ﴿الم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [لقمان].

٧ـ العزيز : فسبحانه يقول : ﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ [فصلت] بمعنى أن كتاب الله يصعب مناله، ويمتنع وجود مثله، أو محاكاة قوله .

٨ـ الكريم : كما فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة] ووصف القرآن بأنه كريم، اسم على معنى عطاء الله الذى ينفرد به من الذكر والعلم والهداية والأمن، والعزة والتوفيق .

٩ـ المجيد، بمعنى السعة فى الكرم والجلال، يقول تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق].

ولكثرة هذه الأسماء والصفات، فقد أفرد لها بعض العلماء مؤلفات مستقلة فضلا عن إيرادها أو إيراد جملة منها فى بطون مؤلفاتهم[2].

وقد وقع الاختلاف بين العلماء فى عدد أسماء القرآن الكريم، فهذا الزركشى يذكر أن «الحرالى»[3] أنهى أساميه إلى ما يزيد عن التسعين، لكن الزركشى نفسه لا يورد إلا خمسة وخمسين اسما نقلها عن أبى المعالى عزيزى بن عبد الملك المعروف بشيدلة [4] ، وقد أوردها أيضا السيوطى[5]، أما الفيروز آبادى فقد قال : «ذكر الله تعالى للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد»[6] ومع ذلك فهو لم يذكر إلا تسعة وثمانين

---

(١) عبد الجليل عيسى ، ص٥٠.

(٢) فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومى : خصائص القرآن الكريم ، الرياض ، ١٤٠٩هـ ، د.ت ، ط٤ ، ص١٢١.

(٣) على بن أحمد بن الحسن التجيبى الحرالى ، المتوفى سنة ٦٤٧هـ.

(٤) بدر الدين الزركشى ، البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ، جـ١ ، ص٢٧٣.

(٥) جلال الدين السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، مكتبة مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ، ط٤ ، جـ١ ، ٥٠ـ٥١.

(٦) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق محمد على النجار ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٦ ، جـ١ ، ص٨٨.

اسما وزادها أربعة أسماء، فتكون جملة الأسماء التى أوردها الفيروز آبادى ثلاثة وتسعين اسما من القرآن للقرآن .

وقد بين العلماء حكمة تعدد الأسماء، فقال الفيروز آبادى : «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله فى أمر من الأمور. أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبى ﷺ دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته».

وهناك أسماء أخرى منها :

ـ الكتاب . ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ... (٣)﴾ [الدخان].

وأما الأوصاف، فقد ورد فيها آيات عديدة، وقلما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذى أنزله رب العزة ليكون معجزة خالدة لخاتم الأنبياء، نذكر منها[1]:

أولا : قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾ [النساء].

ثانيا : وقوله تعالى:﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء].

ثالثا : وقوله تعالى:﴿... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ... (٤٤)﴾ [فصلت].

رابعا : وقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس].

والقرآن بأى اسم سميته ـ هو الكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ المكتوب فى المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته وتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية[2] .

---

(١) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، د.ن، ١٩٨٠ ، ص٩

(٢) صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، ص٢١.

وهو معجز لأنه سبحانه تحدى به الناس كافة أن يأتوا بمثله، فعجزوا وما استطاعوا، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فما استطاعوا، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾ [هود].

ثم تحداهم مرة ثالثة، بأن يأتوا بسورة منه، أى سورة مهما قصرت، فما قدروا أيضا، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس].

ونظر المستشرقون إلى القرآن الكريم على أنه من نسج محمد ﷺ وتأليفه عن طريق الوحى المزعوم، والذى هو عبارة عن أحلام ورؤى، وأوهام - حسب افترائهم - وإنه فى بدايته كان عبارة عن أفكار وأمثلة تصور الحياة الآخرة - ونتيجة لهذا حارب الشرك ودعا إلى توحيد الله وحسن عبادته للفوز بالدار الآخرة(١) .

وقد كان متأثرا فى سيرته هذه بالمصادر التاريخية من حوله .

هذا التصور المشوش عن القرآن الكريم تجده مسطورا فى كتبهم ويتناقلونه آثما عن آثم خاليا من أدنى نظرة علمية مجردة . يقول أحد كبرائهم(٢) :

لما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره، أخذ يقضى وقته على ما تعود فى الخلوة فى الغيران المجاورة للمدينة، حيث كان نهبا للأحلام القوية والرؤى الدينية، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئا فشيئا ليذهب إلى قومه منذرا إياهم ما يؤدى بهم ضلالهم من الخسران المبين. وبكلمة واحدة، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربيا لشعبه أى (منذره ومبشره) .

---

(١) عجيل النشمى : القرآن كمصدر تشريعى فى رأى المستشرقين . مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد ٢١٨ ، صفر ١٤٠٣ (١٩٨٢) ، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

ويعبر الكاتب عن نفس الفكرة فيقول: وفى خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارا أخذ يجترها فى قرارة نفسه، وهو منطو فى تأملاته أثناء عزلته ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتى يلمح فيها أثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الوثنية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين . وفى بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج فى شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى، كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوما بعد يوم . وهذه التأملات هى التى كونت الفكرة الأساسية التى بنى عليها تبشيره وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب، الذى سيقع يوما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الأمور التى يراها حوله، والتى كانت تملأ نفسه اشمئزازا . وهكذا أسس محمد ﷺ دعوته على التوبة والندم والخضوع، والإسلام على تمثيلات تتعلق باليوم الآخر قبل كل شىء، وحالة الإدراك هذه كان من نتائجها لا من أسبابها أن نبذ محمد ﷺ الشرك الذى حطت عقائده من شأن القدرة الإلهية التى لا حد لها ووزعتها بين آلهة متعددين .

وقد ناقش الدكتور عجيل النشمى وغيره من الباحثين هذه الافتراءات وفندها مما لا سبيل إلى بسطه هنا[1].

إن القرآن المجيد، كلام الله- سبحانه وتعالى ـ وليس لجبريل الأمين ملك الوحى، ولا للرسول سيدنا محمد ﷺ، ولا لغيرهما دخل فى شىء منه . إنه منزل من عند الله لفظا ومعنى، وكان جبريل أمينا فى تبليغه للنبى عليه الصلاة السلام، وكان النبى عليه والسلام أمينا فى تبليغه للأمة، قارئا لألفاظه المنزلة من عند الله، متبعا لقرآنه[2] . بل كان جمعه فى صدر الرسول بأمر الله ﴿إن علينا وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾. وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)** ﴾ [النحل].

---

(١) المرجع السابق ، ص٢١ وما بعدها.

(٢) الحسينى عبد المجيد هاشم : الوحى الإلهى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة، سلسلة المكتبة الثقافية (٢٣٦) ، ١٩٧٠ ، ص٥٠.

يقول ابن تيمية : فأمره أن يقول : «نزله روح القدس من ربك بالحق» بيان لنزول جبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله وهو الروح الأمين كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء].

وفى قوله «الأمين» دلالة على أنه : مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة ـ كما فى وصفه فى الآية الأخرى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القيامة].

وقوله : «قل نزله روح القدس من ربك بالحق» يقتضى نزول القرآن من ربه، والقرآن اسم للقرآن العربى لفظه ومعناه بدليل قوله: «فإذا قرأت القرآن» وإنما يقرأ القرآن العربى لا يقرأ معانيه المجردة ـ وأيضا فضمير المفعول فى قوله «نزله» عائد على «ما» فى قوله «والله أعلم بما ينزل» فالذى أنزله هو الله[1].

والمتأمل فى الأسماء التى سمى الله بها كتابه الكريم سوف يجد أنها كلها تشير إلى عظمته وأهميته فى بناء شخصية الإنسان المسلم واستحكام أركان المجتمع الإسلامى المكلف بالزحف على وجه الأرض لإعلاء راية القرآن[2] سماه الله تعالى : نورا، وهدى، وشفاء لما فى الصدور، ومهيمنا على كل الكتب والشرائع . ووصفه بأنه حق، ومحكم الآيات، وألزم العالم كله بالخضوع لأحكامه، وقرر أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وكان له شأن بالغ فى الدعوة الإسلامية على عهد النبى ﷺ حتى لقد أفزع أساطين الفصاحة والبلاغة من كفار قريش حينما ظهرت فاعليته فى جذب عيونهم وسراتهم إلى دائرة الإسلام الحنيف فقالوا لأتباعهم: ﴿ ... لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت].

ولم يكن القرآن معجزة تهيئ لأتباع محمد ﷺ أن يعملوا فى الدنيا على مقتضى الخوارق دون عمل إيجابى من جانبهم، كما صنع الله لنبيه موسى حين شق البحر له ولقومه. وأغرق لهم عدوهم فرعون وملأه، بل كان القرآن يعمل على بعث القوة المعنوية فى داخل الإنسان المسلم، ويزود المجتمع بالتشريعات التى تجعل منه قوة لا يقرها

---

(١) الحسينى هاشم ، الوحى الإلهى ، ص٥١.

(٢) الكرمانى (محمود بن حمزة) ، أسرار التكرار فى القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء القاهرة، ١٩٧٤ ، مقدمة المحقق، ص٥.

غالب من بنى الإنسان، إن هو أحكم سلوكه على هداه وأعلن الله تعالى أنه لو شاء لانتصر للمسلمين من عدوهم «ولكن ليبلو بعضكم ببعض» أى أن الإسلام والقرآن جاءا ليؤكدا القيمة العملية للبشر الموصول بحبل الله المتين من حيث كان الإنسان المؤمن مسيرا بمحض الإرادة الإلهية فى الشرائع السابقة فى موضوع الجهاد فى سبيل الله[1].

خصائصه :

وللقرآن عدد من الخصائص والسمات التى ينفرد بها عن الكتب السماوية الأخرى وأيضا عن السنة النبوية نجملها فيما يأتى :

١ـ أنه أنزل باللغة العربية، ولم ينزل أولا بالعبرانية والسريانية، ثم نقله الرسول إلى العربية[2] . وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك فى قوله : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾** ﴾ [الشعراء]: وعندما يزعم البعض أن الرسول قد تلقى القرآن عن بحيرى الراهب، رد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾** ﴾ [النحل] وقال أيضا : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾** ﴾ [الزخرف] وقال: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ... ﴿٤٤﴾** ﴾ [فصلت].

ولا يقدح فى عربية القرآن اشتماله على بعض الألفاظ النادرة التى يرى بعض العلماء أنها ليست عربية الأصل، مثل لفظ «المشكاة » للكوة، لأن هذه الألفاظ مع ندرتها قد أدخلها العرب فى لغتهم، وعربتها ألسنتهم، واللغات يأخذ بعضها عن البعض[3].

والحق أن لم يكن هناك اتفاق حول هذه القضية، فهناك معارضون فى وجود ألفاظ ليست من أصل عربى، ويمثلهم الإمام الشافعى وابن جرير الطبرى .

---

(١) الكرمانى ، أسرار التكرار فى القرآن ، ص٧.

(٢) محمد الحسينى حنفى : المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٢٢٣.

(٣) زكريا البرى : أصول الفقه الإسلامى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، جـ١ ، ص١٨.

وقد شدد أبو عبيدة النكير على من أدعى أن فى القرآن من غير العربية فقال : إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول . ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول .

وقال ابن فارس بعد أن حكى قول أبى عبيدة هذا : وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شىء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها [١] .

وفعلا، فإن هذا الذى توقعه ابن فارس قد وقع ورأينا أحد المبشرين الذى سمى نفسه الأستاذ (الحداد) قد اتخذ من ورود المعرب فى القرآن سلما يرتقى به إلى الطعن فى إعجاز القرآن .

ولم يقتصر نفى وقوع المعرب فى القرآن على هؤلاء الأعلام من القدامى، بل رأينا من الباحثين المحدثين أيضا من يجارى هذه الفكرة وينضم إلى وصفهم، فالشيخ أحمد شاكر محقق كتاب «المعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى» يعارض المؤلف فيما ذهب إليه من ترجيح وقوع المعرب فى القرآن بعد جريانه على لسان العرب، وينقل كلام الشافعى رضى الله عنه كدليل يرد به على المؤلف، ثم يحاول أن يكشف الشبهة عن تلك الألفاظ التى يظن أن أصلها غير عربى لعدم معرفة مصدر اشتقاقها لأن شبهة كونها من أصل أعجمى أقوى من غيرها من الألفاظ ذات الاشتقاق التى قيل أن أصلها من غير لغة العرب، فيقول[٢] :

والعرب أمة من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات وجودا . كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية، بل الفارسية، وقد ذهب منها الشىء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التى يظن أن أصلها ليس من لسان العرب ولا يعرف مصدر اشتقاقها، لعلها من بعض ما فقد أصله وبقى الحرف وحده. وعلى هذا لا تسمى ترجمة القرآن إلى غير اللغة العربية قرآنا، وقد صح عند العلماء رجوع أبى حنيفة عن فتواه التى سبق أن أشرنا إليها فى تجويز الصلاة بالترجمة الفارسية . وروى ذلك عنه نوح بن أبى مريم . ورأى ما ذهب إليه باقى الأئمة من أن العاجز عن النطق بالعربية يصلى ساكنا مستحضرا معنى العبادة والطاعة والمناجاة، ويسقط عنه ركن القراءة عليها، كما يصلى العاجز عن القيام قاعدا حتى يقدر على القيام.

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن ،مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان، ١٩٨١ ، ص٢٠٢

(٢) المرجع السابق ، ص٢٠٣.

ومن هنا أوجب الإمام الشافعى وغيره تعلم اللغة العربية على كل مسلم، حتى يستطيع قراءة القرآن الكريم، وحفظ مقدار منه يصح به الصلاة .

وتعد ترجمة القرآن باعتباره كلاما بليغا فى حكم المستحيل، وقد ذكر ابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى وزكاه بعد ذلك الشاطبى، فقرر أن المعانى الإجمالية يمكن ترجمتها، ولكن المعانى البلاغية التى تستفاد من الاستعارات والإشارات البيانية لا يمكن ترجمتها من لغة إلى لغة فى أى كلام بليغ ؛ لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد ما يطابقه فى اللغات الأخرى، ولا سيما إذا خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى كلفظ « القارعة » التى جاءت فى وصف يوم القيامة فى قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة] فإن المراد فى هذه السورة اختلال النظام الفلكى الذى يؤدى إلى تفتيت الجبال تفتيتا يجعلها كالصوف المنفوش، ويجعل الأرض تنفث ما فى بطنها من معادن وغيرها، وهذا الاختلال هو الذى يقول فيه علماء الفلك : إن خراب هذا العالم لا يتصور إلا بدنو بعض النجوم ذوات الأذناب من الأرض وقرعه لها قرعة شديدة تبس لها الجبال، وتتفتت حتى تكون هباء متطايرا فى الفضاء. وحينئذ يبطل نظام الجاذبية العامة التى كان الله قد أوجدها بين الكواكب فتتناثر الكواكب وتتصادم، ومثل هذا المعنى لا يظهر من الترجمة الحرفية؛ لأن لفظ القارعة يطلق فى الحقيقة على امرأة تقرع أحدا بالمقرعة(1). ومثل هذا كثير من الألفاظ التى جاءت فى وصف القيامة، وما يكون فيها من أهوال . وقد سئل أحد الأتراك الذين يتعصبون لترجمة القرآن : كيف تترجم مثل هذه المفردات الموضوعة ليوم القيامة ؟ قال : «أترجمها بيوم القيامة». وبمثل هذه الترجمة تفوت المعانى التى قصدت من هذه الأسماء، وهى بيان صفات ذلك اليوم، وما يقع فيه مما يكون له تأثير فى النفوس يردها إلى صوابها، ويخيفها من حساب الله .

وكذلك يوجد فى العربية من الألفاظ ما هو مشترك يدل على معنيين مختلفين، كلفظ «القرء»، فإنه يدل على الحيض، وعلى الطهر، وكلفظ «العين» فإنه يدل على عين الماء، وعلى العين التى يبصر بها، ولا يتميز المعنى المراد من المشترك إلا بقرائن تختلف فيها أنظار المجتهدين، ومثل هذا النوع لا يوجد فى غير العربية، وحينئذ قد يختار

---

(1) محمد الزفزاف ، التعريف بالقرآن والحديث ، ص٣٧.

المترجم لفظا يدل على أحد هـذه المعانى التى وضع لها المشترك، فيسد باب النظر على المجتهدين الذين قد يفهمون من أوجه ما هو أحق بالاتباع[1] .

وقد يقول قائل أن هناك ترجمات للقرآن غير صحيحة، فما السبيل لتصحيحها؟ وما السبيل لإعلام الناس بما فى القرآن، والعلماء فى أمريكا وأوروبا يريدون أن ينظروا إلى القرآن ولا يصح أن نحجب عنهم نوره المبين ، وهو من قبيل الدعوة إليه، والحث على الإيمان به؟ ونقول أن ذلك يكون بكتابة تفسير للقرآن ثم بترجمته على أنه تفسير الذين فسروه[2] .

ويتساءل البعض : لم لم يفكر الصحابة فى ترجمة القرآن استكمالا لوسائل الدعوة [3] ؟ والرد أن ذلك كان متعذرا عليهم لعدم وجود من يستطيع ذلك منهم، ناهيك أنهم لم يجدوا من يتولى أمور الدواوين منهم باللغة العربية فأبقوها بلغات أهلها حتى وجد منهم على عهد عبد الملك- أى فى أواخر القرن الأول للإسلام- من يستطيع الاضطلاع بها فقلب لغتها إلى العربية، وكان هذا الأمر لا يستدعى أكثر من القراءة والكتابة . أما الترجمة فتستدعى صدق بعض اللغات الأجنبية، وكيف السبيل إلى ذلك وهو يقتضى ثقافة خاصة لم تكن قد وجدت إلى ذلك العهد .

وهنا قد يتساءل آخر : فكيف لم تتم الترجمة فى العهد العباسى وقد كانت الترجمة فيه زاهرة نشطة ؟[4] .

والرد أن القائمين بأعباء الترجمة فى هذا العهد كانوا كلهم من النصارى واليهود والصابئة، استخدمهم الخلفاء لنقل العلوم الطبيعية والرياضية والطبية وغيرها من اليونانية والسريانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية، ولم يكن بينهم مسلم واحد قط.

ومن جهة أخرى، كانت الشعوب الأوربية فى إبان المدنية العباسية فى العهد الذى يسمونه بعهد القرون الوسطى، وهو المحصور بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر، وكانت أوربا فيه- وهو يزيد عن ألف سنة- فى ظلام حالك من الجهل، وتحت السلطان المباشر لرجال الكنيسة، فكانوا لا يسمحون بتسرب كتاب فيه بصيص من العلم إلى أيدى

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٨.

(٢) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، دار الفكر العربى . القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٨٩.

(٣) محمد فريد وجدى : الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية ، ملحق العدد الثانى من مجلة الأزهر ، ربيع الأول ١٣٥٥هـ / يونية ١٩٣٦ ، ص٥٢.

(٤) المرجع السابق . ص٥٤.

الناس خشيــة أن تنتج من ورائه بدعة دينية، فمــا بالك بكتاب دينى يدعوهم إلى تغــيير ملتهم ؟ وقد بالغوا فى هذا الاحتياط حتى أقاموا مــحاكم خاصة لصيانة العقائد سموها «محاكم التفتيش» .

وإذا كان أحد من العلماء لم يمنــع جواز ترجمة التفسير لأنــها بمنزلته ولا تختلف عنه إلا كونها بلغة أخرى، إلا أنهم قد وضعوا شــروطا لهذه الترجمة ينبغى توافرها فى المترجم وإلا اعتبرت ترجمته ناقصة وغير مقبولة، وهذه الشروط هى[١]:

ـ أن تكون الترجمة مستندة إلى الأصول الصحــيحة التى يجب الاعتماد عليها فى تفسير القرآن وبيان الدين لأحكامه مما أوضــحه العلماء، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وما ثبت بالطرق الصحيحة عن أئمة الــصحابة، ثم لا بد من الاعتماد على اللغة العربية بالشكل الذى أوضحه العلماء، فالمترجم الذى لا يستمد ما يريد ترجمته مما ذكر، ولم يستند فــى استحــضار معنى الأصل إلى تفــسير عــربى مســتمد من ذلك فــلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها .

ـ أن يكون المترجم على علم صحيح بأوضاع اللغتين، المترجم منها والمترجم لها، وعلى بصيرة بدلالات الألفاظ، وأساليب تركيبــها فى اللغتين حتى يؤديه بشكل صحيح لا يعترض عليه فيه .

ـ أن لا يكون معروفا بالهوى والميل إلى عقيدة مــعينة مخالفا لما جاءت به الشريعة الإسلامــية، وهذا شرط فى كل من المفــسر والمتــرجم حتى لا يفســر الأول بهواه، ولا يترجم الثانى برأيه وعقيدته، بل يكون رائد كل منهما القرآن وهداه .

ـ يجب رفع توهم أن تكون هذه التــرجمة هى القرآن، أو أنهــا تشمل جمــيع ما حواه من مــعان وأســرار، لأن هذا ما لا يمكن أن تحــيط به ترجمــة من الترجــمات ولا يستطيعه بشر مهما أوتى من بلاغة التعبير وقوة التأثير .

لذا يجب مراعاة التالى عند طبعها[٢] :

(أ) أن يطبع المصحف وترقم آياتــه بأرقام اللغة المترجم إليــها تفسيره، ثم يكتب تفسير كل آياته مرقما برقمها الذى رقمت به، ولا بد من أن تكون طباعة المصحف وهذا التفسير بالخط العربى .

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص٥٣٦.

(٢) المرجع السابق ، ص٥٣٧.

(ب) أن يكتب باللغة التى ترجم إليها التفسير مرقما بالأرقام التى رقمت بها آيات المصحف بحيث يفهم القارئ غير العربى أن مـا يقرؤه هو ترجمة تفسير القرآن، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذى رقمت به فى المصحف وفى التفسير .

ومن الترجمات الشهيرة :

THE KORAN TRANSLATION FROM ARABIC. BY; THE REV H.M. RODWELL.

وقد ظهرت هذه الترجمة لأول مرة فى عام ١٨٦١ ، بعنوان : القـرآن. ترجمة من العـربية، للقـسيس (رودول)، وتكرر طبـعهـا، وكان المترجم مـن رجال الكنيـسة المسيحية، وقدم لطبـعة ١٩١١ القسيس مرجليوث Margelouth وكان أيضـا من رجال الكنيسة [1] .

والقارئ للتـرجمة يحس أن (رودول) حاول أن تكون حـرفية قدر طاقـته، ولكن الخطر يكمن فيـما كتـبه مرجليوث فى تقـديمه للكتاب، وفى المقدمـة التى كتبـها نفس المترجم وفـى تعليقاته عـلى بعض الآيات، فمرجلـيوث يقول : «إن القـرآن يمثل مكانة مرموقـة بين الكتب الدينية فى العالم، وبالرغم من أنه أحـدث الكتب فى هذا المجال، فإن أثره الواضح فى جـمهور كبيـر من الناس لا يمكن أن ينكر . . . وأن السر فى هذه القوة لهذا الـكتاب يكمن ـ بالطبع ـ فى العقل الذى أصدره . . والحـديث عن القرآن ـ فى الواقع ـ هو نفس الحديث عن محمد، ومحاولة المرء تقييم الكتاب من الناحية الدينية هى محـاولة فى نفس الوقت لتكوين فكرة عن النبى نفسه. وأنه من الصـعب أن توجد حالـة كهذه تـلمس فيـها التـماثل الكامل بين العـمل الأدبى وبين عقل الإنسـان الذى أنتجه»[2] .

ومن التـرجمـات الأخرى ترجـمة عـبد الله يوسف عِلى، وهو هندى مـسلم، ومقدمة الطبعة الأولى لكتابه مؤرخة ١٤ إبريل سنة ١٩٣٤ـ١٨ذى الحجة ١٣٥٢ ، ويقول موجها حديثه إلى القارئ[3] :

«إن الذى أود أن أقدمه إليك إنما هـو تفسير باللغة الإنجليـزية جنبا إلى جنب مع

(١) أحمد إبراهيم مهنا : حول ترجـمة معانى القرآن الكريم ، دراسة مقارنة لثـمانى ترجمات باللغة الإنجليزية ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد ١٨٩ / رمضان ١٤٠٠ ، ص٥٠.

(٢) المرجع السابق ، ص٥١.

(٣) المرجع السابق ، ص٥٥.

النص العربى، ولن يكون ذلك عن طريق إبدال الكلمة العربية بما يقابلها فى الإنجليزية، وإنما بإعطاء أحسن التفسيرات التى يمكننى أن أقدمها فى معناها الكامل الذى استطعت أن أفهمه من النص العربى .

وفى ترجمة النص لم أعبر عن رأى شخصى لى، وإنما اتبعت فى ذلك المفسرين المعترف بهم. وعندما أجد خلافا بينهم أختار من أقوالهم ما يبدو لى رجحانه . . »، وفى اختيار كلمة إنجليزية مقابل الكلمة العربية، من الضرورى أن يستخدم المترجم تفكيره وعلمه فى الترجيح بين البدائل، وبالتالى يكون معبرا عن رأى معين، وقد يكون ذلك عن غير قصد، وهذا مما لا يمكن تفاديه .

٢ـ إن القرآن هو مجموع اللفظ العربى الذى نزل به الوحى على الرسول والمعنى المستفاد منه. وهذه الخاصية تميز القرآن الكريم عن السنة سواء منها الأحاديث النبوية أو الأحاديث القدسية. فالفرق بينهما أن الأولى تنسب إلى النبى ﷺ، أما الثانية فتنسب إلى الله وصاغها الرسول فى لفظ من عنده .

ولعل هذه الخاصية هى الأخرى قد أثارت خلافا يتصل بقضية الترجمة، ومحل الخلاف هو صياغة معانى القرآن بألفاظ غير عربية، مع اعتبار قرآنيته وجريان أحكام القرآن عليه، من حرمة مسه للمحدث والجنب، وعدم قراءته، والحائض وجواز قراءته فى الصلاة وغير ذلك[١] . .

إن العبادة تتعلق بالقرآن الكريم من ناحيتين : الأولى، من ناحية ألفاظه، وذلك بتلاوتها فى الصلاة، وفى خارج الصلاة، فالقرآن بتلاوة ألفاظه، والثانية من ناحية معانيه، وذلك بالعمل بها وتطبيقها والتزام أحكامها[٢] .

ولهذا فإن للفظ القرآن حرمته ومكانته، التى لا تبيح لأحد أن يغير فيه حرفا إضافة أو حذفا، بل اتفق العلماء على «أن كل ما فى القرآن حق، وأن من زاد فيه حرفا من غير القراءات المروية المحفوظة المنقولة نقل الكافة، أو نقص منه حرفا أو بدل منه حرفا مكان حرف، وقد قامت عليه الحجة أنه من القرآن فتمادى متعمدا لكل ذلك، عالما بأنه خلاف ما فعل فإنه كافر »[٣] .

(١) مصطفى سعيد الخن : أثر الاختلاف فى القواعد الأصولية ، فى اختلاف الفقهاء ، (د.م) ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٢ ، ص٣٨٣.

(٢) فهد بن عبد الرحمن الرومى ، خصائص القرآن الكريم ، ص١٧٤ .

(٣) ابن حزم : مراتب الإجماع، دار الكتاب العربى، بيروت، ضمن كتاب محاسن الإسلام للبخارى، د.ت، ط٢ ، ص١٧٤ .

فإذا كان تغيير حرف منه يعد كفرا، فإن تغييره جملة أشد وأعظم، وإذا كان القرآن الكريم معجزا بلفظه، كما هو معجز بمعناه، فيجب الأخذ بهما معا، فإنه لا يتيسر لأحد كائنا من كان أن يأتى بألفاظ تشمل كل المعانى التى تشملها ألفاظ القرآن، وكل من فسر ألفاظ القرآن، جاء ببعض معانيها، وهذا ميدان يتبارى فيه المفسرون، يحاول كل واحد منهم أن يأتى بمعنى، أو يفهم فهما لم يأت به أحد من قبله، ولو جاء أحد منهم بألفاظ تحتوى على كل معانى اللفظ القرآنى، ما احتاجت الآية إلى من يفسرها من بعده، بل كانت هذه الألفاظ التى جاء بها مساوية لألفاظ القرآن، سيما إن ساوتها بالإيجاز، وهذا لا يكون أبدا، وليس بقدرة البشر ولا بقدرة الجن معا لأن الله -سبحانه وتعالى- تحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن[1].

وقد ذكر ابن حزم أن من حدث وأسند القول إلى النبى ﷺ وقصد التبليغ لما بلغه عن النبى ، فلا يحل له إلا أن يتحرى الألفاظ كما سمعها، ولا يبدل حرفا مكان آخر، وإن كان معناهما واحدا، ولا يقدم حرفا، ولا يؤخر حرفا، وكذلك من قصد تلاوة آية أو تعلمها أو تعليمها، ولا فرق .

وبرهان ذلك أن النبى ﷺ علَّم البراء بن عازب دعاء وفيه : «ونبيك الذى أرسلت » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على النبى، قال «ورسولك الذى أرسلت » فقال النبى : لا، ونبيك الذى أرسلت، فأمره عليه الصلاة والسلام، كما تسمع ألا يضع لفظة « رسول » فى موضع لفظة « نبى »، وذلك حق لا يحيل معنى، وهو عليه الصلاة والسلام رسول ونبى، فكيف يسوغ للجهال المغفلين أو الفساق المعطلين، أن يقولوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يجيز أن توضع فى القرآن مكان «عزيز حكيم »، « غفور رحيم » أو « سميع عليم »، وهو يمنع من ذلك فى دعاء ليس قرآنا، والله تعالى يقول مخبرا عن نبيه : ﴿ ...**مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي**... ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس]. ولا تبديل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى. . . ومع إجماع الأمة على أن إنسانا لو قرأ آيات القرآن فقدم آية على أخرى أو قال : «الشكر للصمد مولى الخلائق »، وقال هذا هو القرآن المنزل، لكان كافرا بإجماع»[2] .

واحتج بعضهم بقوله تعالى «وإنه لفى زبر الأولين» وبخطابه تعالى لنا، بالعربية حاكيا كلام موسى عليه السلام . قال على : وهذا لا حجة لهم فيه لأن الذى فى زبر الأولين هو معنى القرآن لا القرآن، ولو كان القرآن فى زبر الأولين لما كان محمد ﷺ

---

(١) خصائص القرآن الكرم ، ص١٧٦ .

(٢) مصطفى الخن ، مرجع سابق ، ص٣٨٥.

مخصوصا به، ولو كانت له فيه آية، وهذا خلاف النصوص والخروج عن الإسلام لأنه لو أنزل على غيره قبله، لما كان محمد مخصوصا به. وأما حكايته لنا كلام موسى وغيره بلغتنا، فلم يلزمنا تعالى قراءة ألفاظهم بنصها، ولا مانع من تفسير القرآن بالعجمية لمن يترجم له، وإنما تمنع تلاوته فى الصلاة بغير العربية .

٣ـ أنه نقل إلينا بطريق التواتر الذى يفيد القطع واليقين بصحة نقله وثبوته، فقد حفظ فى القلوب والصدور ودوّن فى المصاحف والسطور، وانتقل إلى المسلمين فى جميع البلاد جيلا بعد جيل من غير خلاف ولا شك بينهما، دون تحريف ولا تبديل يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر] ويقول : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ... ۝١١٥ ﴾ [الأنعام] .

فلا يعد قرآنا ما نقل إلينا على غير جهة التواتر، كقراءة ابن مسعود . «فصيام ثلاثة أيام متتابعات » ، وكقراءة أبى بن كعب «فعدة من أيام أخر متتابعات» [٢] .

إن التاريخ يشهد بأنه لم ير كتابا تواتر كل ما فيه، غير القرآن الكريم، وأن جميع الكتب السابقة لم تصل إلى أدنى درجات التواتر، بل نالها من قلة الرواة فى بعض درجات الإسناد ، أو ضعف الرواة، أو انقطاع السند أو الوضع، أو التحريف والتغيير والتبديل. . . الشىء الكثير، ولم يسلم كتاب غير القرآن من هذه الأمور أو بعضها [٣] .

---

(١) يقول البيضاوى فى تفسيره : «. . لا أحد يقدر على أن يحرفها شائعا ذائعا كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ. عن زكريا البرى ، جـ١ ، ص٢٠.

(٢) يرى بعض العلماء أن هذه القراءات غير المتواترة، والمنسوبة إلى بعض الصحابة، قد أثبتها هؤلاء الصحابة لأنفسهم فى مصاحفهم أو نقلت عنهم على أنها تفسير وبيان له، لا على أنها من ألفاظ القرآن نفسه، وظن الرواة أنها من ألفاظه، فنقلوها باعتبارها قراءة غير متواترة انفرد بها بعض الصحابة، أو كانت نتيجة اجتهاد حملا منهم للنص على نص آخر، فأثبتوها فى مصاحفهم كما يفعل بعض العلماء أحيانا فى التعليق على نصوص بعض الكتب توضيحا لها وتقييدا لإطلاقها . وهذا هو الأرجح . انظر تفسير المنار فى آية الموازين من سورة النساء، حيث قرر ذلك بعدما أورد قراءة لأبى بزيادة لفظ من الأم وقراءة لسعد بن أبى وقاص بزيادة لفظ «من أم » فى قوله «وله أخ أو أخت من الأم ـ فلكل واحد منهما السدس » ويظهر هذا الحديث المدرج وهو الذى زاد فيه الراوى كلمة فى متنه تفسيرا أو تعليقا فيحسبها من يسمعها من كلام النبى ﷺ، عن: زكريا البرى، جـ١ ص٢٠

(٣) الرومى ، خصائص القرآن الكريم ، ص١٨٨ .

بل إن العلماء جعلوا التواتر جزءا من تعريف القرآن الكريم، وما نقل عن طريق الآحاد فقد قطعوا بأنه ليس من القرآن، قال السيوطى : «لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا، فى أصله وأجزائه، وأما فى محله ووضعه وترتيبه، فكذلك عند محققى أهل السنة للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله، لأن هذا المعجز هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، ومما تتوافر الدواعى على نقل جملة تفاصيله، فما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن قطعا»[1].

ويتصل بهذا أيضا ما هو ثابت من خصائص القرآن أنه متصل السند .

قال محمد بن حاتم المظفر: «إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف فى أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم أنبياؤهم وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التى أخذوها من الثقات»[2] .

وقال ابن حزم : «ونحن إن شاء الله تعالى، نذكر صفة وجوه النقل الذى عند المسلمين لكتابهم ودينهم. . .»، ثم يكمل : «إن نقل المسلمين لكل ما ذكرنا ينقسم أقساما ستة، أولها شىء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة وهو القرآن المكتوب فى المصاحف، فى شرق الأرض وغربها لا يشكون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به وأخبر أن الله عز وجل أوصى به إليه، وإن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا »[3] .

ولا نزاع بين العلماء فى ذلك، إنما النزاع فى صحة الاحتجاج بغير المتواتر والاعتماد عليه فى استنباط الآراء، فالحنفية يذهبون إلى صحة الاحتجاج به؛ لأن المنقول بغير التواتر لا بد أن يكون مسموعا من النبى ﷺ، وإلا لما ساغ للصحابى العدل كتابته وإثباته فى مصحفه، فمآله إلى أن يكون سنة عن الرسول واردة على سبيل البيان والتفسير لكتاب الله، والسنة مما يصح الاحتجاج بها والاعتماد عليها فى الاستنباط[4] .

---

(١) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، جـ١ ، ص٧٧.

(٢) عن خصائص القرآن الكريم ، ص١٧٢ .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٥هـ ، جـ٢ ، ص٨١.

(٤) البرديسى : أصول الفقه ، ص١٧٢ .

وذهب بقية الأئمة إلى أنه لا يصح الاحتجاج بغير التواتر لأن المنقول بغير التواتر ليس قرآنا لعدم تواتره وليس منه؛ لأن الراوى لم ينقله على أنه سنة. وإذا كان هذا شأنه فلا يصح أن يجعل حجة.

وجماع هذه الخصائص جعل للقرآن «شخصية» محددة، إذا صح هذا التعبير، تلك الشخصية التى قامت عليها شواهد كثيرة تؤكد صحتها وسلامتها من التحريف أو التبديل، من ذلك(١):

أولا: التاريخ القرآنى الذى يؤكد أن الرسول ﷺ كان يملى على أصحابه ما ينزل عليه من آيات الكتاب أولا فأولا، وإن أصحابه قد تلقوا ما نزل من الوحى فحفظوه فى صدورهم، بعد أو قبل ما كتب الوحى ما نزل منه.

ثانيا: كان النبى ﷺ والمسلمون يقرءون فى الصلاة المكتوبة والنوافل، بالليل والنهار، كل يوم قدرا كبيرا من القرآن، بل وكثير منهم كان يقرأ كل ما نزل من القرآن فى يوم أو بعض يوم.

ثالثا: أن الله سبحانه وتعالى قد وعد بحفظ القرآن من أن يطرأ عليه خلل أو نقص وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة].

رابعا: كان اليهود، وهم أهل كتاب، وأصحاب علم ودرس، كانوا يرصدون حركات النبى ويتوفرون على التماس السقطات والزلات فى أصل الوحى وصلة الرسول بالسماء، وفيما كان ينزل عليه من القرآن.. ولو أنهم وجدوا سقطة لطاروا بها، ولملأوا الدنيا تشنيعا وتهويلا. وهم مغيظون محنقون، يحسنون الكيد والدس.. ولم يسجل التاريخ- وتاريخ اليهود أنفسهم - أنهم قالوا فى القرآن الكريم قولا، على كثرة ما كان فى القرآن من ذمهم وتقريعهم وكشف ما بهم، وفضح نواياهم الخبيثة.. ثم جاء نصر الله والفتح، فأجلاهم الإسلام عن الجزيرة العربية كلها.. وكان مجال القول والتشنيع أمامهم فسيحا، ولكن الله أخرسهم وضرب على ألسنتهم، فلم يقولوا فى القرآن كلمة يطعنون بها على «شخصيته» فى صورته التى هو عليها، من يوم أن نزل إلى يوم الناس هذا(٢).

---

(١) عبد الكريم الخطيب: من قضايا القرآن، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٣، ص٤.

(٢) المرجع السابق، من قضايا القرآن، ص٥.

خامسا : الفرق الإسلامية الكثيرة التى قامت منذ صدر الإسلام، اشتد بينها الخلاف وطلب كل فريق وجه التغلب بأى سبيل فتقولوا على الرسول ﷺ وكثرت مذاهب التأويل، ولكن لم يجرؤ أحد منهم أن يزيد كلمة أو حرفا فى القرآن .

إعجازه :

لقد مرت المعجزات وبقيت معجزة واحدة خالدة هى القرآن . والمعجزات هى براهين الأديان لأنها من عند الله وليست من عند الإنسان . والأديان لا تكون شيئا إن لم تكن من عند الله ، ويقوم البرهان الساطع على أنها من عند الله، فصدورها من الله ضمان هدايتها الإنسانية فى كل الظروف ما أطاعتها الإنسانية، ووضوح البرهان على أنها من عند الله ضمان استيقان الإنسان إياها وطاعته لها، وسواء أكان الدين خاصا به أم عاما للبشر، فالبرهان عليه ينبغى أن يكون عاما يخضع له كل عقل، لا خاصا تخضع له بعض العقول، وليس يعنى بهذا الشرط فى البرهان على الدين أنه من عند الله إلا المعجزات[1].

وقد أراد الله لختام رسالاته الإعجاز الدائم، فاختار له «الكلمة » والكلمة تسمعها، وتتصفحها، وتعود إليها، إنها معك فى كل حين، تدوى فى أذنك، ماثلة فى سمعك . تستطيع أن تقول : لا أومن لأننى لم أر موسى يشق البحر، ولم أر عيسى يحيى الموتى، ولكنك لا تستطيع أن تقول : لا أومن لأننى لم أر محمدا يتلو هذا القرآن، فهذا هو القرآن أمامك، لا شأن لك بمن قاله، أسمعه، تصفحه، امتحنه، إنه الحق، ومن الحق ما نزل [2] !

استجاب الله بمحمد دعوة أبيه إبراهيم عليهما أزكى الصلاة وأتم التسليم : ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ** ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة]. سأل إبراهيم ربه أن يبعث فى المؤمنين رسولا لا يصنع الآيات وإنما يتلوها. ولأمر ما سمى الله الجملة من القرآن آية : ﴿ **الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ** ... ﴿١﴾ ﴾ [الرعد].

---

(١) محمد أحمد الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم ، إعداد أحمد عبد السلام الكردانى ، القاهرة، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٨ ، ص١٥٩ .

(٢) رءوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، جـ١ ، ص٣٥ .

هذا الحق هو لب إعجاز القرآن ومادته : لا تقرأ فى القرآن إلا حقا، ولا تجد فيه إلا الحق أخبر عنه أو أنبأ به، ما كان وما يكون. إنه الصادق المصدوق فى كل حال .

والحق المطلق يقتضى العلم المحيط، علم المبدأ والمنتهى. علم من لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض، علم من هو بكل خلق عليم. وليس إلا الحق جل جلاله، بكل شىء عليم [1].

ولكن لماذا خاطب القرآن الناس بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله ؟ لماذا يصف لهم السحاب بأنه جبال فى السماء من برد [2] ؟ ولم يركبوا بعد طائرة تجاذب السحاب الثقال ليروه كما قال ؟ لماذا يتحدث عن تزامن الليل والنهار على سطح الأرض، نصف مظلم ونصف مضىء، تأتى الناس الساعة بغتة فتصيب المنهر والمليل [2]؟ لماذا يرى الناس السماء سقفا ككل السقوف ويقول لهم بها غاز وسديم ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... (١١)﴾ [فصلت].

لماذا يخوض فى حقائق الكون ولا يتكشف الناس منها ـ يوما بعد يوم ـ إلا النزر اليسير ؟ أليس لأن المنكرين الوحى على القرآن يتحداهم القرآن بالعلم ؟ فهل تحقق لهم فى الكون بالدليل الثابت علم يعارض حقائق القرآن ؟ هل سبقوا القرآن، أو سبقهم القرآن بالقول الثابت ! أليس تصديق المنكر، بعد تكذيب يقتضى أن يتحقق له ـ عصرا بعد عصر ـ علم جديد يعاجز به القرآن فيعجزه القرآن ؟﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... (٣٩)﴾ [يونس].

وقد تحدى الله المنكرين أن يأتوا بمثل القرآن، وجاء التحدى على نوعين[3] :

١- التحدى العام. ٢- التحدى الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، استمع إلى هذا التحدى الصارخ : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء] .

---

(١) رءوف أبو سعده ، من إعجاز القرآن الكريم ، جـ١ ، ص٣٦.

(٢) يونس / ٢٤ . أنهر القوم، أى صاروا نهارا، وألالوا، عكسه، أى صاروا ليلا.

(٣) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، د.ن ، دون مكان النشر ، ١٩٨٠ ، ص٩١.

وأما الثانى فى (التحدى الخاص): فقد جاء للقرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدى على نوعين أيضا[1]:

١ـ تحد كلى، وهو التحدى بجميع القرآن، فى أحكامه، وروعته، وبلاغته، وبيانه .

٢ـ تحد جزئى، وهو التحدى بمثل سورة من سور القرآن الكريم، ولو من أقصر سورة كسورة الكوثر .

فالأول، مثل قوله تعالى : ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** ۝٣٤﴾ [الطور]. والمراد بالحديث فى هذه الآيات الكريمة (قرآن مثله)، أى أن يأتوا بقرآن يشبه هذا الذى جاءهم به محمد رسول الله، والذى زعموا أنه افتراه وتقوله على الله، كما ورد التحدى بالقرآن كله في سورة القصص فى قوله تعالى : ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ۝٤٩﴾ [القصص]، فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته، فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوى، ويسيرون على غير هدى الله .

أما التحدى الجزئى، فقد ورد فى قوله تعالى : ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ۝١٣﴾ [هود].

كما ورد التحدى بأقل من ذلك [2] ، تحداهم «بسورة» واحدة من أقصر سور القرآن، وجاءهم هذا التحدى مقرونا بالتعجيز الفاضح، فى الحاضر والمستقبل، مسجلا عليهم ذلك العجز، بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة، لا سيما بعد قولتهم القبيحة ودعواهم الكاذبة حين قالوا : ﴿... **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ۝٣١﴾ [الأنفال].

وقد جاءهم التحدى فى قوله تعالى : ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ۝٢٣ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ۝٢٤﴾ [البقرة].

ومن إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل، ثم يظل أبدا

---

(١) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق ، ص٩٣.

رحب المدى، سخى المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمع، عاليا يتجاوز طاقة الدارسين[1].

ففى القرن الثالث للهجرة، كانت البيئة الإسلامية تموج بأقوال فى الإعجاز أخذت وضعا حادا فى صراع القرون الإسلامية، فانتصر أعلام كل فرقة لرأيهم فيه، وتصدوا لنقض آراء مخالفيهم .

ولم تنفرد قضية الإعجاز فى أول الأمر بالبحث والنظر، وإنما عولجت مع غيرها من القضايا التى نشط فيها الكلام وتجادلت الفرق، وبخاصة تلك التى تتصل بالنبوة والمعجزة، كالذى فى « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة، و« مقالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى، و « حجج النبوة » للجاحظ، و « الانتصار» لأبى الحسين الخياط الذى نقض كتب ابن الراوندى فى نظم القرآن .

أو تناولها المفسرون فى سياق التفسير كالذى فى « جامع البيان » للطبرى و«مجاز القرآن » لأبى عبيدة .

على أن القضية لم تلبث أن استقلت بالتأليف المفرد : ففى القرن الثالث ظهرت كتب فى الإعجاز تحمل فى الغالب عنوان « نظم القرآن »، وللجاحظ « ت ٢٥٥هـ» كتاب بهذا الاسم لم يصل إلينا، وإن كان الجاحظ أشار إليه فى كتاب « الحجج »، كما أشار إليه الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » .

وربما يكون أول كتاب حمل عنوان « إعجاز القرآن »، فى نظمه وتأليفه، هو الذى ظهر فى أواخر القرن الثالث الهجرى، لأبى عبد الله بن يزيد الواسطى المعتزلى (ت ٣٠٦هـ)[2] .

وتوالت بعد ذلك الدراسات والبحوث فى إعجاز القرآن. . .

ويمكن أن نقسم وجوه الإعجاز فى القرآن إلى قسمين [3] :

أولهما : ما يتعلق بالمنهج البيانى، وهذا النوع أول ما يخاطب به العرب .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص١٩.

(٢) المرجع السابق ، ص٢٠.

(٣) أحمد إبراهيم مهنا : من علوم القرآن : الإعجاز ، مجلة الأزهر ، جـ١ ، السنة ٥٧ شوال ١٤٠٥ (١٩٨٥) ، ص١٦١٢.

ثانيهما : الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ولأخبار مستقبلة وقعت كما ذكر، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة فى عصر محمد ﷺ، وكذلك ما اشتملت عليه آياته من شرائع أثبت الوجود الإنسانى أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة، وإن هذا النوع معجزة للأجيال كلها وهو يحتاج إلى مجلدات ضخام .

وقد تعددت الكتابات حول وجوه إعجاز القرآن، ونستطيع أن نلخصها فى الآتى[1] :

(أ) هناك من يحصر ذلك فى البيان القرآنى، والقرآن نزل بلغة العرب، فالتحدى عند هؤلاء موجه للعرب، بل لمن بلغ منهم منتهى البلاغة والفصاحة يرى وجه الإعجاز ويحسه، وأما غيرهم من الجماهير العربية ومن الأعاجم الذين لا علم لهم بلغة القرآن فعجزهم تابع لعجز من تحدوا، لأنهم إذا عجزوا فغيرهم أعجز .

(ب) وهناك من يرى تعدد وجوه الإعجاز، إذ تشمل البيان وغيره من إخبار بالغيب ماضيه ومستقبله، ومن اشتماله على أنواع العلوم والمعارف والتشريعات الصالحة الدائمة . . إلخ، والتحدى عند هؤلاء موجه للعرب ولغيرهم على السواء .

(جـ) وهناك من يرى تعدد وجوه الإعجاز، ولكن على التقسيم، فما يتصل بالبيان واللسان العربى، التحدى فيه موجه إلى العرب، وما يتصل بالوجوه الأخرى يشملهم ويشمل غيرهم .

ولابد لنا هنا من تأمل مترو فى آية التحدى العام ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

وإن قواعد اللغة العربية تقرر وجوب حمل النص على ظاهره إلا إذا تعذر ذلك . وإعمالا لهذه القاعدة نجد أن التحدى موجه إلى جميع أفراد الإنس بأجناسهم المختلفة وألوانهم المتباينة وألسنتهم المتعددة، وأن هذا التحدى بدأ منذ نزول القرآن الكريم وممتد إلى أن يأذن الله بفناء هذا العالم . وكما أن التحدى موجه إلى جميع أفراد الإنس، فهو موجه إلى جميع أفراد الجن، أى موجه إلى كل من ينطبق عليه لفظ الجن فى علم الله

---

(١) المرجع السابق، ، الصفحة نفسها.

وليس لنا أن نذهب أبعد من هذا، فالجن من عالم الغيب وعلمنا بأحواله وما يتعلق به يتوقف على ما يأتينا به ﷺ[1].

على أنه مما يلفت النظر، ذلك التركيز الواضح على الإعجاز البياني للقرآن الكريم مما يقتضى تفسيرا بالنظر السريع إلى نوعية ثقافة الأمة الأولى التى تلقت القرآن.. أمة العرب.

فلقد أجمع المؤرخون فى القديم والحديث، على أن العرب لهم مآثر فى البيان، وذوق الكلام، والتفريق بين كريمه وسقيمه، وجميله وهجينه.

لكنهم مع علو الشأن فى البيان كانوا فى الدرك الأسفل من ناحية العقيدة؛ لذلك كان من المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله ﷺ وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة، فالمعجزة بلا شك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزمانها وخلودها إلى يوم القيامة، فإذا كانت معجزة النبى ﷺ من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس، فإنها تكون مناسبة لمن تلقوها فى أول أمرها ومناسبة لخلودها[2].

وقد التقى فى المعجزة الكبرى للنبى، وهى القرآن المبين، معنيان أصيب بهما هدفان:

أولهما: أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشىء الخارق لما عرف، أو الخارج عن طاقتهم، فإنه لا يدرك أثر ذلك إلا هم، ولا يعرف مقامه إلا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول، ومنزلة البيان.

وثانيهما: أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى، ووعد بحفظه إلى يوم القيامة كما تلونا من قبل ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ ﴿٩﴾ [الحجر] وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الإلهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين بصريح القرآن الكريم[3].

ونظرا لمعرفة كفار قريش بما للقرآن من إعجاز بيانى حرصوا على أن يحولوا بين العرب وبين سماع هذا القرآن، فكانوا إذا دنا الموسم وآن وفود قبائل العرب للحج،

---

(١) أحمد إبراهيم مهنا : من علوم القرآن : الإعجاز ، ص ١٦١٤.

(٢) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، القرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٠ ص ٦٤.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥.

ترصدوا لهـا عند مداخل مكة، وأخـذوا بسبل الناس، لا يمر بهم أحـد إلا حذروه من الإصغاء إلى ما جـاء به «محمد بن عبد الله» من كلام قـالوا إنه السحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه، وبين المرء وزوجه وولده وعشيرته[١].

وربما وصلت آيات منه إلى سمع أشـدهم عداوة للإسلام فـألقى سلاحه مصـدقا ومبايعا، عن يقين بأن مثل هذه الآيات ليست من قول البشر.

حدثوا أن «عمر بن الخطاب» خرج ذات يوم مساء متوشحا سيفه يريد رسول لله صلى الله عليـه وسلم، ورهطا من أصحـابه، فى بيت عـند «الصـفـا» سـمع أنهم مجتمعون فيه، فلقيه فى الطريق نعيم بن عبد الله، فسأله[٢].

- أين تريد يا عمر؟ أجاب:

- أريد محـمدا، هذا الصـابىء، الذى فرق أمر قـريش وسفـه أحلامهـا، وعاب دينها، وسب آلهتنا، فأقتله.

فقال له نعيم:

- والله لقد غرتك نفـسك من نفسك يا عمر. أترى بنى عـبد بن مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا! أفلا ترجع إلى أصل بيتك فتقيم أمرهم؟

فلما سأل عمر: وأى أهل بيتى؟ أجاب نعـيم: أن صهره وابن عمه سعيد ابن زيد بن عمرو، وأخته فاطمة قد أسلما، وتابعا محمد على دينه.

وأسرع عمـر إلى أخته وهو مستشاط غضبـا، فلما دخل عليهمـا كانا يقرآن فى سورة طه، فطلب عمر النسخة التى كانا يقرآن منهـا، فلما قرأ فيها حدث تحول جذرى فى تفكيره وطلب أن يقابل رسول الله فأسلم على يديه!

وفى ترجمة الصـحابى «جبير بن عدى الـقرشى» رضى الله عنه، أنه أتى رسول الله ﷺ فى بعض أسارى بدر، وجبير وقتئذ مشرك، فدخل على المصطفى وهو يقرأ فى المغرب بسورة الطور، فلما انتهى رسول الله إلى آيات منها، كاد قلب جبير يطير، ومال إلى الإسلام[٣].

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى للقرآن، ص ٤٠.

(٢) السيـرة النبوية لابن هشام، تحـقيق مصطفى السـقا وزملائه، مكـتبة مصطـفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٥، القسم الأول، ص ٣٤٤.

(٣) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البيانى للقرآن، ص ٤٢.

وقد روى محمد بن كعب القرظى قال: «حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا حليما - قال يوما : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ - وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه-، ورأوا أصحاب النبى ﷺ يكثرون[1]. قالوا بلى يا أبا الوليد . فقام إليه وهو ﷺ جالس وحده فى المسجد . فقال : يا ابن أخى . إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر منها لعلك أن تقبل بعضها، فقال رسول الله ﷺ : قل . قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت من هذا القول، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى بك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو لعل هذا شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمرى بنى عبد المطلب تقدرون من ذلك مالا نقدر عليه .

فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ : أوقد فرغت ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى، قال : قل . قال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت]، ثم مضى فيها يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما، يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك ».

ثم قام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس قالوا : ما وراءك، فقال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعونى، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعته نبأ فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به، قالوا : سحرك بلسانه، قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم[2].

---

(١) عبد الله محمود شحاته : علوم التفسير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية (٣١٦)، ١٩٧٥ ، ص ١٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦.

ومن هنا جاء قولهم ـ أى العرب ـ «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه»، وجعلهم ينطلقون إلى معلقاتهم فى جوف الكعبة ـ تلك القصائد التى كانوا يتيهون بها فخرا لعلو قدمها فى الفصاحة والبلاغة ـ فيقطعونها خجلا أمام بلاغة القرآن وفصاحته، فيروى أنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود] أسرع العرب إلى معلقاتهم فأنزلوها[1].

ويرى السيوطى إعجاز القرآن متعلقا بفصاحته وبلاغته، والفصاحة ليست فى ألفاظ القرآن، فإن ألفاظه هى ألفاظ العرب، ولكن الإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بالنظم المخصوص، وحسن التأليف، والتئام الكلمات، فجاء أسلوبه الفريد مخالفا لأساليب كلام العرب، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له.

وهذا الوجه من الإعجاز لا يتسرب إليه الطعن لأن بلاغة القرآن وفصاحته لا تخلو منها سورة من سور القرآن ولا آية من آياته، وإذا كان التحدى قد وقع بأن يأتوا بسورة من مثله، فهذا ينطبق على القرآن الكريم بأسره، ليست فيه سورة بليغة دون أخرى، ولا سورة اتسمت بجمال النظم وحسن التأليف بينما خلت منه سورة أخرى[2].

والحق أنه لا تزال مناحى الإعجاز القرآنى تجل عن الحصر مهما أوتى الإنسان من غزارة فى العلم، وسطوع فى التفكير، ودراية فى اللسان، وأنىّ للإنسان بعلمه الممنوح له من الله أن يحصى مناحى الإعجاز فى كتاب الله؟ وكل يوم يمر، إلى أن يقف الزمان عن الكر، تومض ومضات باهرة تدل على حكمة الله القادرة، وتكشف أمام التالين لكتاب الله أسرارا فى إعجاز أسلوبه وتفرد تركيبه، وتلقى الضوء على الحكمة البالغة من وضع لفظ بجوار آخر، أو ذكر حرف يظن أول وهلة أن الكلام يستغنى عنه، أو استعمال كلمة فى معنى ونسق الكلام يوهم ـ قبل التدبر ـ استعمال غيرها مكانها، أو حذف حرف لأن الجو النفسى، أو المجال الحوارى يقتضى حذفه، وهنا لا نقبل ما يتذرع به المفسرون أو النحويون من أن الحذف للتخفيف، فذلك هروب لطيف[3].

---

(١) عبد الله الفاوى : الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد/١٨٨ ، شعبان ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م)، ص ٣٣.

(٢) عبد القادر حسين : من بلاغة القرآن، مجلة منار الإسلام، أبو ظبى، العدد ٧ ، رجب ١٤٠٠هـ (١٩٨٠) ، ص ١٧.

(٣) عبد الغنى أحمد ناجى : من صور الإعجاز فى أسلوب القرآن الكريم، مجلة الوعى الإسلامى، الكويت، العدد ٢٤٧، رجب ١٤٠٥هـ (١٩٨٥) ، ص ٨.

ويرى العقاد أن بلاغة القرآن وما انتظمت عليه من القوة البيانية ليست هى التى تقطع لنا وحدها بإعجاز القرآن، فعنده أن وجه الإعجاز فى كتاب رب العالمين يرجع إلى خلود الرسالة التى جاء بها هذا الكتاب وما فيه من هدى ونور وصلاح وإصلاح للبشرية جمعاء فى إسعاد الفرد والجماعة[1].

ووجه الإعجاز فى الكتاب الكريم، يرجع أيضا إلى ما أحدثه فى حياة العرب من رقى ورفعة، وإلى ما أحدثه فى حياة المسلمين من ثورة، وأنه لم يقف فى سبيل العقل الإنسانى، بل حثه على النظر والفكر والتدبر واستجلاء الأسرار والعمل لما فيه الخير فى الدنيا والآخرة، وهذا الإعجاز يرجع إلى ما أوجده من ترق للأمة العربية على عهد الرسول الحبيب، والأمة الإسلامية فى إبان نشأتها وظهورها وعلى مدار العصور والأزمان[2].

وأكد الشيخ محمد أبو زهرة أن إعجاز القرآن يتمثل فى الأحكام الشرعية، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد ﷺ، بل هى من عند الله[3].

وقد كتب أبو زهرة فى هذه عدة بحوث فى إحدى المجلات الإسلامية، بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية فى رسالة ونشرتها وترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية . وقد أقام الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتى بها أمى لا يقرأ ولا يكتب، وقد نشأ فى بلد أمى ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة، وهى فى أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى.

كذلك كتب أبو زهرة بحثا وازن فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان فى الملكية بالخلافة، وذكر أن قانون الرومان قد تكون فى نحو ثلاثة عشر قرنا، ومع ذلك هو فى الملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار، فلا يمكن أن يأتى به محمد من عنده، بل هو من عند الله تعالى .

والأوربيون القانونيون يرون فى قانون الميراث فى القرآن أن العقل البشرى لم يصل إلى الآن إلى خير منه .

وإذا كان التحدى للعرب جاء ابتداء بالمنهج البيانى، فلأنه هو الذى استرعى

---

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، (٢٣٧) نوفمبر ١٩٧٠ ، ص ٢٣٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣١.

(٣) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، القرآن ، ص ٩١.

ألبابهم، ولعله لم تكن قد بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما فى أحكام القرآن من تنظيم سليم للمجتمع، فيه المصلحة الإنسانية العالية التى تعلو على تفكير البشر، وإن كان فيهم ذوق بيانى يذوقون به الألفاظ الفخمة القوية فى رنينها، المصورة للمعانى فى أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ومرامى عباداتها، ويدركون فى ذلك المعنى السليم من غير إجهاد فيدركون ما هو جيد المعنى فى ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة قانونية أو عقلية أو كونية، وفى القرآن ما يرضيهم ويملأ نفوسهم، ويعجزون عن أن يأتوا بمثله[1].

لكن ربما سأل سائل : وكيف يجىء القرآن بإعجاز فى تشريعه والأمة التى تلقته أمة أمية ؟

ويجيب محمد الغزالى عن هذا السؤال بأن أمية العرب عند ظهور الإسلام لا يعنى أن تظل دائمة [2] ! ذلك أن القرآن علم، بل هو العلم، والتعبير عن أنه العلم موجود فى آيات كثيرة : ﴿ ... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

فالعلم هو صفة القرآن، وصفة المشتغلين به[3] .

كذلك فإن الخطاب لم يكن للعرب وحدهم ولكنه للناس أجمعين ـ المتعلم وغيره ـ كما أنه ليس لزمان واحد فقط . مادام الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن ينفع أصحاب الكسب العلمى والمعارف العلمية، فى المستقبل، إذا اعتبر خطابا أميا للأميين ؟!

إن أمة تستقبل القرآن لابد أن تكون أميتها قد زالت بهذا القرآن نفسه، فإذا كان القرآن يدل على مصادر معرفة فى أساس المنطق الحديث، وأساس حضارة أوروبا، فكيف تكون الأمة أمية ؟[4].

وإذا كان عجبا أن يظل القرآن منفردا بطابعه الخاص فى عصر النبوة حين تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة مثله، فإن بقاء هذا التفرد مستظلا بأسلوبه المتميز إلى يومنا هذا أعجب وأغرب، إذ وجد من أساطين البلاغة دائمة البيان على توالى القرون من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢.

(٣) محمد الغزالى : كيف نتعامل مع القرآن ؟ المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيردن، فرجينيا ، الولايات المتحدة ، ١٩٩١ ، ص ٢٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٥٦.

ورثوا شتى الثقافات العالمية من يونانية وفارسية وهندية فى القديم- وإنجليزية وفرنسية وألمانية فى الحديث مضافة إلى مواهبهم اللغوية العربية ذات النفاذ والقوة وما انكبوا عليه من دراسة أساليب البلغاء فى الفصحى ودراسة خلقت منهم جهابذة البيان وأعلام القول، ثم ما استطاعوا بعد ذلك كله أن يحاكوا القرآن فيما يقولون، أو أن يأتوا بعشر آيات مثله[1].

نزوله :

جاء فى رواية عائشة أن الرسول ﷺ كان قد بدأ يميل إلى الخلوة والوحدة، فاختار مكانا لخلوته فى جبل حراء أو جبل النور فى شمال مكة. وهناك بعيدا عن مجتمع مكة الوثنى الفاسد، وبعيدا عن المشاغل الدنيوية، كان يحب أن يخلو إلى نفسه[2] ، فى غار يطل على الكعبة وعلى الأفق المترامى خلفها على مدى البصر، وفى إحدى الليالى ووسط السكون المطبق من يوم ١٧ من شهر رمضان كما يقول ابن سعد (فبراير عام ٦١٠ من التقويم الميلادى) دخل محمد ﷺ فى أول اتصال مع ما وراء الكون. فمر بأول تجربة له مع الوحى الحقيقى [3] . وقد نقل إلينا بنفسه أطوار ما حدث على شكل حوار بينه وبين جبريل، بين التابع والمربى، قال جبريل: «اقرأ»، قال محمد مندهشا : ما أنا بقارئ، فكرر جبريل قوله « اقرأ » بعد أن ضمه إليه ضمة شديدة، قال محمد : ماذا أقرأ ؟ ولقد تكرر نفس الأمر على ضمة أشد من الضمة الأولى، كما لو كان المقصود منها إثارة انتباهه والتمكين من نفسه لمعانى الجدية التى تتطلبها التبعة الثقيلة التى سيكلف بها، ولكن صاحبنا المتبتل يتساءل فى هلع: «كيف أقرأ ؟» وهنا يقرأ عليه الملك :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق].

---

(١) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، الكتاب الواحد والثلاثون، ربيع الثانى ١٣٩١ هـ / مايو ١٩٧١ ، ص ١٩.

(٢) لا تحدد رواية البخارى مدة هذه الخلوة، وإنما أوضحت أن محمدا فى وحدته كان يتحنث الليالى ذات العدد وكلما نفد طعامه يرجع إلى أهله ويتزود، أما ابن إسحاق فيذكر أن مدة الخلاء المتقطعة كانت شهرا .

(٣) محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم، ترجمة محمد عبد العظيم على، الكويت، دار القلم ، ١٩٧٤ ، ص ٢٨.

فكانت هذه أول آية نزلت من القرآن العظيم، وكان هذا إيذانا بأن العلم وجب تبليغه، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيله، وأن إعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وفيه إيماء إلى أن الإسلام والعلم يجتمعان، ولا يتناقضان أبدا[1]. وفيه تنبيه إلى الوظيفة التربوية للإسلام بصفة عامة، وللقرآن بصفة خاصة.

وقال بعضهم أن أول ما نزل سورة المدثر، وقد استدلوا بما روى أبو سلمة أنه قال: سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر . قلت : أو اقرأ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت[2] بطن الوادى، فنوديت فنظرت فلم أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء، يعنى جبريل عليه السلام، فأخذتنى رجفة شديدة، فأتيت خديجة ، فقلت : دثرونى، فدثرونى . فصبوا عليّ ماء،[3] فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر].

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث، نراه يعارض حديث عائشة[4] ولكننا لو رجعنا إلى الرواية الأخرى التى رواها مسلم عن جابر هذا ـ فى نزول المدثر ـ نجده يروى فيها عن رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى، أنه قال«ثم فتر الوحى فترة، فبينا أن أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض، قال رسول الله ﷺ: فجئثت منه فرقا[5]، فرجعت فقلت: زملونى فدثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلخ.

فهذه الرواية تدل على أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحى، فتحمل عليها الأولى وحديث عائشة يحدث عما كان قبل فترة الوحى. وإذن لا تعارض بين حديث جابر، وحديث عائشة . أما استنكاره فى بعض الروايات لقول من قال له: أو اقرأ ؟ فيدفع بأن هذا الاستنكار كان يقصد منه نفى أن تكون اقرأ نزلت كلها قبل سورة المدثر التى نزلت جملة واحدة فى الوقت الذى ذكره حديث جابر . وقال بعضهم غير ذلك،

---

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، القرآن ، ص ٢١.

(٢) صرت فى وسطه.

(٣) صحيح مسلم ، جـ٢ ، ص ٢٠٧ـ٢٠٨ ، المطبعة المصرية .

(٤) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث ، ص ٧٤.

(٥) جئثت : فزعت.

ولكن الأرجح الذى قام رجحانه على روايات عدة هو الأول، فهو المعتمد عند أولى النظر من أهل الحديث[1].

أما بالنسبة لآخر ما نزل من القرآن، فقد اختلف الرواة فى ذلك .. وسبب اختلافهم اختلاف أزمان لقاء من سمعوا منه فى آخر حياته، فبعضهم كان لقاؤه آخر لقاء ممن سمعوا، ومن ثم تباينوا فى معرفة آخر ما نزل من القرآن إلى أقوال، منها :

١ـ روى البراء بن عازب أن آخر آية : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ... (١٧٦) ﴾ [النساء] وقال بعض العلماء أن المقصود بالآخر هنا، آخر ما نزل من الفرائض «المواريث».

٢ـ وروى البخارى منتهيا بسنده إلى ابن عباس، وروى أبو سعيد الخدرى نقلا عن عمر، والبيهقى نقلا عن عمر، وروى ابن ماجه عنه كذلك، وعن سعيد ابن المسيب، أن آخر آية نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ [البقرة] ولعل المقصود أن هذه آخر آية نزلت فى الربا .

٣ـ وروى النسائى عن ابن عباس والضحاك عن ابن عباس وأبى صالح عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن آخر آية نزلت، قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ... (٢٨١) ﴾ [البقرة].

٤ـ وروى أبى بن كعب وأخرجه ابن مردويه عن أبىّ أيضا وأخرجه ابن الأنصارى، وروى يوسف المكى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] إلخ السورة .

٥ـ وروى مسلم عن ابن عباس والترمذى والحاكم عن عبد الله بن عمر أن آخر آية نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر].

٦ـ وقيل إن آخر سورة نزلت بمكة «المؤمنون» وقيل « العنكبوت».

٧ـ وآخر ما نزل بعرفة فى حجة الوداع ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا... (٣) ﴾ [المائدة]. وقيل المقصود بإكمال الدين، جميع فرائضه وأحكامه . وقيل نزل بعد ذلك آية الربا والدين والكلالة[2] .

---

(١) محمد الزفزاف ، ص ٧٥.

(٢) محمد محمد خليفة ، مع نزول القرآن ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ ، ص ٢١ـ٢٢ والكلالة أن يموت المرء وليس له والد أو ولد يرثه.

وهناك روايات أخرى عديدة فى آخر ما نزل من القرآن، هذه الروايات يمكن إثبات عدد من الملاحظات عليها[١]:

(أ) إن صحت نسبة هذه الأقوال حقا إلى أصحابها فإن كل واحد منهم أجاب بما عنده من علم، وذلك أنه ليس فى هذه الأقوال كلها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ، إنما هى أقوال منسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين . وعلى فرض صحة الرواية عنهم جميعا فإنه يحتمل أن الصحابى الذى روى عن النبى مباشرة قد أخبر عن آخر ما سمعه بنفسه منه قبيل وفاته، أو قبيل مرضه الذى مات فيه بقليل، وغيره من الصحابة سمع من النبى بعد ذلك ولم يسمعه الراوى الأول معه، فظن كل منهم أن آخر ما سمعه هو من النبى بنفسه هو آخر ما نزل من القرآن، مع أنه نزل قرآن بعد ذلك لم يسمعه بعض من روى عنهم ذلك .

(ب) وهذا كله على فرض صحة جميع الروايات المروية، ويشكك محمد بلتاجى فى نسبة هذه الأقوال إلى أصحابها المروية عنهم، فلا يعقل مثلا أن يكون ابن عباس قد قال خمسة أقوال مختلفة فى هذه القضية[٢] .وهنا تصوران محتملان لنشوء الخطأ والتعدد:

الأول : أن المروى عنه كان يتحدث عن آخر آية فى موضوع معين، لا فى القرآن كله، فظنها السامع آخر آية على وجه الإطلاق .

الثانى : أن المروى عنه كان يقول أو يقصد أن هذه الآية أو تلك (من آخر ما نزل من القرآن) فظنها السامع (آخر ما نزل) .

(جـ) وعلى ضوء الملاحظتين يمكن الموازنة بين الروايات المتعددة .

أما القول المشهور فى (اليوم أكملت لكم دينكم . . .) فليست هناك رواية تذهب إلى القول بأن هذه آخر ما نزل من الوحى بإطلاق[٣] .

وقد يسأل سائل : إذا كان الأمر كما نقول، فبم نفسر إذا إكمال الدين وإتمام النعمة ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل هناك رأيان[٤]:

---

(١) محمد بلتاجى : مدخل إلى الدراسات القرآنية ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٤) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم ، القاهرة ، د.ن ، د.ت ، ط٢ ، ص١٢٦ .

الأول : أن المراد بإكمال الدين يومئذ، هو إنجاحه وإقراره وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون، بفتح مكة، وإتمام حجهم الأكبر. ولا شك أن الإسلام فى حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته، وعلت كلمته، وأذل الشرك وأهله، وأجلى المشركين عن البلد الحرام، وانفرد المسلمون بالحج، والطواف بالبيت ولم يشاركهم فيما مشرك! فأى كمال بعد هذا ؟ وأى نعمة بعد تلك النعمة ؟ وإلى هذا الرأى ذهب «ابن جرير الطبرى» فى تفسيره حيث قال : «الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجه المسلمون، لا يشاركهم المشركون»، ثم أيده بما رواه عن ابن عباس، قال «كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا، فلما نزلت «براءة » نفى المشركون من البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين، فكان من تمام النعمة وأتممت عليكم نعمتى . وهذا الرأى فى تفسير الآية لا ينفى نزول آيات بعدها فى الحلال والحرام والوعظ والتذكير .

الثانى : أن المراد بإكمال الدين إكمال الأحكام، والحلال، والحرام، فلم ينزل بعدها شىء من الفرائض، والتحليل والتحريم .

وعلى هذا فلا مانع من نزول آيات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة، بل مقررة لما سبق من الأحكام كآية الربا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة]، وذلك عند من يرى أنها آخر آية نزلت من القرآن، فإنها ليست منشئة لتحريم الربا إذ التحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران]، وآية البقرة التى هى من قبل ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا .... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة].

وينتهى بلتاجى من مراجعته لكل ما ورد من روايات فى (آخر ما نزل من القرآن) إلى تأييد أن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة]، هو آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن، وكما يدل على ذلك معناها فهو مناسب تماما لختم الوحى به، وتذكير الناس بيوم لا مفر منه تحاسب فيه كل نفس عما قدمت وأخرت[1] .

ولقد شاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحى متجاوبا مع الرسول يعلمه كل يوم

---

(١) محمد بلتاجى : مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

شيئا جديدا، ويرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئنانا، ومتجاوبا مع الصحابة يربيهم ويصلح عاداتهم ويجيب على وقائعهم ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجما[١] ، بحسب الحاجة[٢] . ليقرأه النبى على مكث، وذلك من خلال ثلاثة وعشرين عاما على الأصح تبعا للقول بأن مدة إقامته عليه الصلاة والسلام فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، أما إقامته فى المدينة فهى عشر سنين اتفاقا، فعن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين[٣] .

وقد كان صلوات الله عليه يعانى عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شىء منه، فأمره تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، وطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظا فى صدره، فلا يتعجل في أمره، ولا يجهد نفسه فى تلقيه ﴿ ... **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]. وأما تكفل الله تعالى له بالحفظ فقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴿١٦﴾ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة].

وكان جبريل يدارس النبى ﷺ القرآن فى رمضان، فينزل جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه، وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبى يستمع، وهكذا يدارسه فى كل رمضان ما نزل من القرآن مرة واحدة[٤]، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرتين فى رمضان فدارسه القرآن حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام من نزول جبريل مرتين عليه بدنو أجله، وقال لعائشة رضى الله عنها : « إن جبريل كان ينزل علىّ فيدارسنى القرآن مرة واحدة فى رمضان، وقد نزل علىّ هذا العام مرتين، وما أرانى إلا قد اقترب أجلى » وقد كان الأمر كذلك، فقد انتقل إلى جوار ربه صلوات الله عليه وسلامه وانقطع بوفاته نزول الوحى[٥].

---

(١) أى لم ينزل دفعة واحدة وإنما مفرقا .

(٢) السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن):الإتقان فى علوم القرآن ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٥١ ،جـ١ ، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) صبحى الصالح : مباحث علوم القرآن ، ص ٥٠.

(٤) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، ص ٤٢.

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وقد يسأل سائل : وهل ترتيب الآيات فى السور، وترتيب السور فى المصحف من عمل النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه، أم أن الله تعالى قد انفرد به وحده ولم يشرك فيه أحدا غيره ؟[1].

والإجابة أن هذه القضية اختلفت فيها المذاهب وتعددت المناحى والمشارب، وأقرب الأقوال فيها إلى الصواب هو أن ترتيب الآيات فى السور عمل من أعمال الله تعالى وحده .

لقد عرفنا أن جبريل قد هبط بالقرآن على النبى صلوات الله عليه وسلم، مجزءا فى ثلاث وعشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث والآية جوابا لمستخبر يسأل. وكان جبريل عليه السلام يوقف رسول الله على موضع السورة والآية .

والدليل على هذا ما رواه ابن عباس من أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة]، قال جبريل : يا محمد ضع هذه الآية على رأس ثمانية ومائتين من البقرة، وهكذا فى كل مرة[2] .

ودليل ثان، وهو أن المجاز القرآنى ليس مقصورا على مبانيه ومعانيه وحسب وإنما هو شامل لترتيبه وتنسيقه كذلك، يقول الله تعالى :﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود].

فإذا سألت : وكيف يستقيم هذا على تضافر الروايات على أن مصاحف الصحابة قد كانت مختلفة فى ترتيب السور[3] .

والجواب : أن هذا الاختلاف قد كان من قبل أن يعرض جبريل القرآن على الرسول ﷺ فى المرة الثانية، أما بعد هذا العرض فإن ترتيب السور قد صار واحدا .

إن لكل سورة من سور القرآن هدفا تسعى إليه وغاية تجرى إلى تحقيقها ! وهذا الترتيب والتنسيق هو أحد الوسائل التى لابد منها لبلوغ هذا الهدف، وإدراك هذه الغاية، والأمر كذلك بالنسبة للسور، فإن لها هى الأخرى هدفا تسعى إليه وغاية تجرى

(١) عبد العزيز غنيم عبد القادر : القرآن وحفاظه فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧.

لتحقيقها، وإن هذا الترتيب الذى هى عليه هو أحد الوسائل الفردية لبلوغ هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية أيضا[١].

وكان نزول القرآن منجما، سببا فى أن بعضه نزل بمكة بعضه نزل بالمدينة، فكان منه المكى ومنه المدنى، فالمكى ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة يسمى مدنيا، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكيا، فالتقسيم زمانى وليس بمكانى، ليست العبرة بمكان النزول، وإنما العبرة فيه بزمانه[٢].

والسبيل إلى معرفة المكى والمدنى هو النقل الصحيح عن الصحابة، حيث لم يرد عن النبى ﷺ فى ذلك قول، لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة[٣].

وقد وضع العلماء السابقون علامات يمكن بموجبها معرفة كل من المكى والمدنى، ويمكن تقسيمها إلى قسمين :

أ ـ ما يطرد على الدوام ب ـ ما هو غير مطرد على الدوام

أما علامات المكى المطردة فمثل[٤] :

ـ وجود لفظ « يا بنى آدم » فى السورة .

ـ وجود آية سجدة فى السورة .

ـ وجود لفظ « كلا » فى السورة .

ومن أمثلة علامات المكى غير المطردة .

ـ اشتمال السور على آية مصدرة بلفظ «يا أيها الناس »، وهذا فى الغالب، لأنه وجد هذا فى سور مدنية .

ـ ذكر قصة آدم وإبليس فى السورة، باستثناء سورة البقرة.

ـ افتتاح السورة بحروف التهجى مثل :

ألم ـ الر ـ طس ـ طسم ـ حم ـ ق ـ ن ـ ص ـ إلخ.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦.

(٢) محمد أبو زهرة ، القرآن ، ص ٢٤

(٣) محمد سالم محيسن : تاريخ القرآن ، مكتبة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د.ت ، ص ٥٦.

(٤) المرجع السابق . ص ٥٧.

وذلك باستثناء سورتين : البقرة ، آل عمران

- اشتمال السورة على ذكر أنباء الرسل وأحوال الأمم السابقة[1]، باستثناء سورة البقرة .

- قصر الآيات . وهذا فى الغالب، إذ قد يوجد قصر الآيات فى سور مدنية، مثل سورة « النصر» .

أما علامات المدنى المطردة، فمثل :

- اشتمال السورة على آية مصدرة بلفظ «يا أيها الذين آمنوا ».

ومن علامات المدنى غير المطردة، مثل[2] :

- طول أكثر سوره وآياته .

ولعل ذلك يرجع إلى أن أهل المدينة كانت حالهم وطباعهم وخصالهم تستدعى الإسهاب، لأن قلوبهم كانت على استعداد لتلقى الدعوة الإسلامية .

وهى غير مطردة لأن سورة «الأنعام » طويلة وهى مكية، وسورة « النصر » قصيرة وهى مدنية[3] .

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الإسلامية، وبطلان عبادة الأوثان ومجادلة المشركين والدعوة إلى التوحيد ومخاطبة العرب، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا إلى بلاد العرب ولهم آثار فى أجزائها تنادى بما صنع أقوامهم، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من خسف جعل عالى ديارهم سافلها، ومن ريح صرصر عاتية. ولم يكن فى الآيات المكية أحكام للمعاملات، وإن كان فيها إشارات إلى المحرمات كالخمر والربا وما نزل من القرآن بالمدينة، قد اشتمل على الأحكام الخاصة بتنظيم العلاقات الاجتماعية المختلفة والعلاقات الدولية . والسبب فى نزول الأحكام بعد الهجرة أنه بعد الهجرة تكونت دولة إسلامية لها سيادة كاملة، بحيث تستطيع تنفيذ الأحكام، وقبل الهجرة لم يكن المسلمون إلا مستضعفين فى الأرض، فلم يكن ثمة جدوى فى هذه الأحكام، إذ السلطان فى مكة فى سنى الدعوة الأولى كان للمشركين لأنهم كانوا هم المسيطرين، فلم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠.

يكن للتنظيم الإسلامى مظهر عملى، ولكن كان المظهر لهذه الأحكام بعد الهجرة حيث تكون الدولة فجاءتها الأحكام المنظمة فى إبانها[1].

وقد نزل القرآن على النبى الأمى، فكانت همته منصرفة إلى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه، ضرورة أنه نبى أمى بعثه الله إلى العرب ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ... ② ﴾ [الجمعة]. ومن شأن الأمى - فى العادة - أن يعتمد على حافظته وذاكرته، لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن تتمتع بخصائص العروبة الكاملة، التى فيها قوة الذاكرة وسرعة الحفظ وسيلان الأذهان، وكان العربى يحفظ مئات الآلاف من الأشعار ويعرف الأحساب والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ، وقل أن تجد منهم من لا يعد لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ المعلقات العشر، على كثرة أشعارها وصعوبة حفظها[2].

تلك كانت الصورة الأولى لجمع القرآن فى الصدور . .

وهناك صورة ثانية، هى جمعه فى سطور. . . .

فقد كان لرسول الله ﷺ كتاب للوحى، كلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة فى تسجيله وتقييده، وزيادة فى التوثق والضبط، والاحتياط الشديد فى كتاب- الله عز وجل- حتى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد التسجيل المسطور، ما أودعه الله فى الصدور . . وكان هؤلاء الكُتَّاب من خيرة الصحابة، اختارهم رسول الله من المجيدين المتقنين ليتولوا هذه المهمة العظيمة، وقد اشتهر منهم زيد بن ثابت، وأبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبى سفيان، والخلفاء الراشدون، وغيرهم من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم أجمعين[3].

روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أنه قال : «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة من الأنصار : أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قيل لأنس من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى»، وهؤلاء هم مشاهير كُتاب الوحى

---

(١) محمد أبو زهرة ، أصول الفقه ، ص ٢٤

(٢) محمد على الصابونى ، مرجع سابق ، ص ٤٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨.

وإلا فهناك من الصحابة الجمع الكبير الذين كانوا يكتبون القرآن، وكثير منهم له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ كمصحف ابن مسعود، ومصحف على، ومصحف عائشة وغيرهم[١].

ويحدثنا التاريخ بأن النبى ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله كان مكتوبا، غير أنه لم يكن مجتمعا فى مصحف واحد، ولا موجودا فى مكان واحد، بل كان مفرقا لدى الصحابة عليهم رضوان الله، وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ما لديهم من القرآن حفظا وكتابه[٢] .

ولم يأمر النبى ﷺ بجمع القرآن فى مصحف واحد لأحد أمرين:

١ـ أن اهتمام الصحابة إنما كان بحفظه واستظهاره عن ظهر قلب،وقد حفظ القرآن الكريم كله عدد من الصحابة .

٢ـ ما كان يترقبه الرسول من ورود زيادة أو ناسخ لبعض آياته، ولأن كتابته فى مصحف واحد والحالة هكذا، كان سيفضى بلا شك إلى تغييره فى كل وقت، ولهذا تأخرت كتابته وجمعه فى مكان واحد إلى أن تم نزوله، ولم يعرف ذلك إلا بوفاته عليه الصلاة والسلام[٣] .

ويحدثنا التاريخ أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن على الوسائل الآتية[٤] :

١ـ العسب : جمع عسيب، وهو جريد النخل، فكانوا يكشطون الخوص ويكتبون على الطرف العريض منه .

٢ـ اللخاف : جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء، وهى الحجارة الرقاق .

٣ـ الرقاع : جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو غيره .

٤ـ الكرانيف : جمع كرنافة، وهى أصول السعف الغلاظ .

٥ـ الأكتاف : جمع كتف، وهو عظم عريض فى كتف الحيوان كانوا يكتبون عليه بعد أن يجف .

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٩.

(٢) محمد سالم محيسن : فى رحاب القرآن الكريم ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨٠، جـ١ ، ص١٣٧.

(٣) المرجع السابق ، ص١٣٨.

(٤) المرجع السابق ، ص١٣٦.

٦ـ الأقتاب : جمع قتب، وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.

٧ـ الأضلاع : جمع ضلع، وهو عظم الجنبين .

وكل ذلك لأن صناعة الورق لم تكن قد عرفها القوم بعد .

وعلى هذا فإن ما نخرج به من قضية نزول القرآن هو أن وظيفته التربوية، قد بدأت منذ بداية نزوله . ذلك أن الجانب الفكرى والسلوك الشخصى لا يقتضى سيطرة على مقدرات المجتمع وإمساك بالسلطة، ومن هنا فقد استطاع المسلمون، وهم يعيشون بين كفار مكة أن يؤمنوا بالإسلام وأن يقتنعوا بالعديد من أفكاره، وأن يسلكوا مع أنفسهم ومع من هم أقرب إليهم سلوكا يتسم بالروح الإسلامية التى تحددت معالمها الرئيسية فى هذه الفترة، ثم زادت رسوخا وانكشف الكثير من أبعادها بعد ذلك عندما صارت لهم الكلمة العليا بعد الهجرة، فاجتمع لهم بذلك جانبان مهمان يمكنان التربية تمكينا راسخا، جانب السلطة يستعينون بها فى إقامة وتنظيم المعاملات وسن التشريعات وتهيئة المناخ الصحى والملائم، والممارسة الجماهيرية لأساليب التربية ومناهجها وقيمتها .

محتوياته :

وباعتبار القرآن دستور حياة المجتمع الإسلامى، كان من الطبيعى أن نلمس فيه ثراء واسعا بحيث يشمل جوانب متعددة من هذه الحياة، ومن هنا فإننا يمكن أن نشير إلى التصنيف الآتى لمجمل آياته والمحاور التى اخترناها لهذا التصنيف :

١ـ **عقائد يجب الإيمان بها** ، كالإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهى الحد الفاصل بين الإيمان والكفر .

ونحن إذا استقرأنا القرآن، فسوف نجد أن هناك ٣٦ عنوانا لسور تلتمس صفات الغيب وظواهره العجيبة وما يتصل بالنبوة، وهذه السور هى[١] : الفاتحة، ص، ق، الرحمن، الإخلاص، فاطر، الأعلى، الأنبياء، المرسلات، نوح، آل عمران، ومريم، يوسف، هود، يونس، لقمان، إبراهيم، طه، يس، الواقعة، النبأ، القيامة، الحشر، القارعة، الحاقة، الجن، البينة، القدر، الملك، المعارج، الإسراء، السجدة، الأعراف، الكوثر، المائدة .

والعقيدة فى الإله، رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، من عرف عقيدة قوم

(١) خليل أحمد خليل : جدلية القرآن ،بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١ ، ص ٨٢.

فى إلههم فقد عـرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صـحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر، وتقدر بها الحسنات والـسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته فى الإله عاليـة، ولا يعلو دين وعقيدته فى الإله هـابطة ليست ما يناسب صفـات الموجود الأول الذى تتبعه جميع الموجودات[1].

ولقد كـان النظر فى صفـات الله مجال الـتنافس بين أكبر العـقول من أصـحاب الفلسفة الفكرية وأصـحاب الحكمة الدينية، وقد كانت مـهمة الفلاسفة أيسـر من مهمة حكماء الأديان، لأن الفـيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيـره وتقديره غيـر مقيـد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيد بها من يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة، فظهر بين الفلاسفـة النظريين من سما بالتنزيه الإلهى صعدا إلى أوج لا يلحق به الخيال، فضلا عن الفكر والإحساس .

وجاء الإسـلام من جوف الصـحراء العـربية بأسـمى عقـيدة فى الإله الـواحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ فى جانب النقص منها ـ لأعظم المعـجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله[2] .

ونعتقد أن نقطة الانطلاق والنواة التى يدور حـولها نظام الإقناع القرآنى، تنحصر فى هذه الفكرة الرئيـسيـة، وهى أن صانعـا يتصف بالكمـال المطلق خلق كل شىء فى الوجود وأخضعه لإرادته خضوعا مطلقا :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران].

والله العلى فى التصوير الإسلامى تبينه النصوص فتقول :

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، (١٦٩) ، إبريل ١٩٦٥ ، ص ٣٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧.

﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى].

﴿ ... هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر].

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

﴿ ... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل].

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد].

والإيمان بالله ليس قولا يعلن ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده، ولا آيات من القرآن تتلى فى مقام الاستشهاد بالارتباط بالإسلام[1] .

وهو كذلك ليس نصائح يوردها الناصح لغيره، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها ولا وظيفة خاصة يتعيش بها محترف :

- ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات].

أى إنكم لم تقروا حقيقة بالإسلام ولم يستقر الإيمان بعد فى قلوبكم، وكل ما فى الأمر أن أعلنتم فحسب رضاكم بالإسلام أمام الملأ، إما خوفا ووقاية أو طمعا فى دنيا، فإن قلتم : أنكم أعلنتم الإسلام دينا لكم كنتم صادقين فيما تقولون، ولكن قولكم : أنكم آمنتم به غير صحيح، لأن للإيمان به مقتضيات تستوجب التضحية . إما بالنفس أو بالمال، أو بهما معا، وكذلك بالولد إن كان هناك ولد، ولم يكن الإيمان لحظة ما سبيلا إلى النفع والمغانم ولا طريقا إلى الحياة ومتعها[2] .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات].

(١) محمد البهى: من توجيه القرآن الكريم: الإيمان، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، أغسطس، ١٩٦٩، ص ٩.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

ذلك كان رد القرآن على من ادعى الإيمان دون أن يكون مؤمنا فى حقيقة الأمر، وهو رد يجعل من الإيمان رسالة وصدقا، وليس وسيلة وطريقا إلى غاية أخرى، ورسالته رسالة شاقة لأنها تقوم على التنازل عن المال الذى تسعى النفوس عادة إلى جمعه، وقد تسعى إلى اكتنازه، كما تقوم على إيثار الموت على الحياة نفسها، وهى أعز ما يحرص عليه وأكثر ما يجبن بسببه[1].

ثم إن إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس، يعتبر بحق لطفا منه بهم، ليكون هذا داعيًا قويا لهم لأن يؤمنوا بما وصلت إليه العقول وأيدته الرسالة الإلهية وليعرفوا الحقائق الأخرى التى يعجز العقل الإنسانى وحده عن معرفتها[2].

- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

وإن من يؤمن بالقرآن وأنه وحى من الله العليم الحكيم إلى رسوله المصطفى الذى لا ينطق عن الهوى، يؤمن بلا ريب أن لنا بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى خالدة، حياة أخرى يجزى كل إنسان فيها عما عمل، إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشر[3].

تلك أمور بديهية لا تحتاج إلى بيان أو دليل بعد كتاب الله، فهو مليء بالآيات الدالة على البعث والحساب، ونذكر منها:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

٢- الأخلاق الفاضلة التى تهذب النفوس، وتصلح من شأن الفرد والجماعة وتحذر من الأخلاق الفاسدة التى تودى بمعانى الإنسانية الفاضلة وتسبب الشقاء فى الحياة، من ذلك دعوته إلى:

---

(١) محمد البهى، من توجيه القرآن الكريم، ص ١١.

(٢) محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص ١٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥.

ـ طهارة النفس : ﴿ ... وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

ـ العفة والاحتشام وغض البصر : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

ـ الصدق :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

ـ الرقة والتواضع : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان].

وسوف نفصل القول بعض الشىء فى هذه القضية فى الفصل التالى.

٣ـ الإرشاد إلى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء لنعرف أسرار الله فى كونه، وإبداعه فى خلقه، فتمتلئ القلوب إيمانا بعظمته عن نظر واستدلال لا عن تقليد ومجاراة، وقد نعى القرآن كثيرا على الذين يقلدون الآباء والأجداد فى عقائدهم ودينهم وعاداتهم السيئة، كما أنه فتح للناس بهذا الإرشاد باب البحث عن خواص الأجسام فى أرضه وسمائه وهوائه ومائه فينتفعون بها فى حياتهم ويستخدمونها فى مقاصد التعمير والإنشاء[١]. وعلى الرغم من الإرشادات المتكررة فى هذه الناحية، فقد أهمل المسلمون هذا الجانب، ولم ينتفعوا بدعوة القرآن إليه، بينما انتفع به غيرهم ممن خاضوا غمار هذا الكون، وعرفوا أسراره، واستخدموها فى نواحى هذه الحياة بعد أن كانوا فى عماية وضلالة .

إن هذا الكون، هو المسرح الأول لفكرنا، وهو الينبوع الأول لإيماننا والذهول عن الكون سقوط إنسانى ذريع، وحجاب عن الله غليظ، وفشل فى أداء رسالتنا التى خلقنا من أجلها، وعجز عن التجاوب مع وصايا القرآن التى تكررت فى عشرات السور[٢] .

ـ ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠٧.

(٢) محمد الغزالى : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، القاهرة ، ص ٦٠.

دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية].

وهذه الآيات، قليل من كثير مما نزل بمكة وتأكد بالمدينة لإيقاظ العقول النائمة وتبصيرها بالدلائل المبثوثة فى كل شىء تدل على الله، وتشرح أوصافه الجليلة .

. إن التفكير فريضة إسلامية كما قال العقاد، والمجال الأول للفكر مادة هذا الكون، كما أبان القرآن الكريم، وإن عجبنا لينقضى من تلكؤ الفكر فى هذا السبيل، ولنذكر فى صراحة أن وثبات العلم الحديث إنما تمت مع إمعان النظر فى الكون، والاغتراف من الأسرار والقوى المودعة فيه، وهذا نهج القرآن الواضح من آيات النظر الكثيرة .

إن الكون ـ فى الفلسفة القرآنية ـ نفيس القيمة، غال عند صانعه، لا لأنه بذل فيه جهدا، أو دفع ثمنا، كلا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]. إن غلاءه راجع إلى دلالته على خالقه، فقد بنى لبنة لبنة بالحق، وانتظمت أرجاءه قوانين محكمة، تجلى فيها المجد الإلهى فى أبهى صورة : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف]. ولن يحسن معرفة الله امرؤ يعمى عن سنن الحق، ولن يخدم رسالات الله جاهل بهذه السنن، وإنه لمن المؤسف أن يعيش سواد المسلمين فى هذه السنين العجاف مسخرا فى الأرض، والمفروض أن الله سخر له ما فى السموات وما فى الأرض»[1] .

وفى سورة آل عمران تفتح آيات منها أبواب العظة والاعتبار، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات، وتحكم التقاليد الباطلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

ثم تصف أولى الألباب بصفتين، هما الحبل المتين الذى يصل الإنسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ... ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران] أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم وفى جميع شئونهم، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والأرض وما فيها من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار، فليس ذكرا ينطلق به اللسان، ولا يدفع إليه الجنان، إنما هو ذكر من القلب إلى سماء الرب، فيرفع همة صاحبه، فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه

(١) محمد الغزالى : المحاور الخمسة ، ص ٦٢.

بين الخوف والرجاء ﴿ ...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران] ، تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك ، فقنا عذاب النار بدوام توفيقك وعنايتك[1] .

ثم يذكرون غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته، فيكون دعاؤهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [آل عمران]. ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه، ويلتمسون منه المغفرة والإنعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران].

هذا هو موقف الذاكرين لربهم المفكرين فيما خلق ودبر، عرف منهم الصدق فى الإيمان والذكر والتفكير والتنزيه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ... ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ومن الآيات القرآنية أيضا :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان].

فهذه الآيات وأمثالها من الآيات المتعلقة بالكون، هى التى يعتمد عليها القرآن دائما فى الاستدلال على الخالق وقدرته، وعلمه، وتفرده بالإيجاز، واستحقاقه للعبادة، وفى الحق فإنه لا يوجد شيء غيرها يمكن أن يقنع، وإذا انحرفت الأدلة عنها أضلت وأظلمت البصائر، وكل ما فى كتب الكلام والفلسفة لا يمكن أن يهتدى به جمهور المسلمين ونحن فى شك من أن العلماء اهتدوا به[2] .

٤ـ **قصص الأولين أفرادا وأمما** ليرشد إلى سنن الله فى معاملة خلقه الصالحين منهم والمفسدين، وهذا هو قصد القرآن من ذكر القصص، فلم يذكره على أنه تاريخ محدد الزمان والمكان والأشخاص، وعلى الرغم من هذا، فقد شغل المفسرون أنفسهم

---

(١) محمود شلتوت : إلى القرآن الكريم، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (١٥٤)، يناير ١٩٦٤ ، ص ٤٤.

(٢) محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، القاهرة ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال (١٤)، مايو ١٩٥٢ ، ص ٦٠.

وشغلوا الناس معهم بتحميل الآيات القصصية ما لم يرده الله منها، وبذلك صرفوا الناس عن مقصد العظة والاعتبار فحرموا فائدتها وبقيت آيات تتلى لا ينتفع بها مؤرخ فى تحقيقه، ولا مؤمن فى اتعاظ واعتبار .

وأكثر القصص التى وردت فى القرآن الكريم، من قصص الأنبياء، فى جهادهم لتبليغ رسالتهم ونشر دعوتهم ومقاومة خصومهم من ذوى السلطان الذين أنكروهم وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم، وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك، فإنما جاء فى سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها، إلا أن يكون الأنبياء ملوكا كما اتفق لداود وابنه سليمان عليهما السلام، ففى هذه الحالة تروى أخبارهم لأسبابها المذكورة فى قصصهم لأنهم كانوا فى سلطانهم فى غنى عن مقاومة خصوم الدعوة كما قاومها الأنبياء الذين توجهوا بدعوتهم إلى الأمم فحال بينهم وبينها ملوكها وأمراؤها [(١)] .

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة حقيقية تبين للناظر فى مضامينها أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح، إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن ينتدب من الأمة طائفة ﴿ ... يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وكان من الأقوال الواردة فى الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء، فلا يخلو مكان الدعوة فى الأمم بعد الأنبياء، ويستغنى هداتها عن الأسوة الماثلة أمامهم فى جهاد الهداية والإصلاح .

ويطرح الشيخ الغزالى تساؤلا يتردد بين البعض وهو: هل القصص التى رواها لنا القرآن الكريم، متشابهة فى سياقها وأحداثها وإفادتها ؟ نعنى: هل هى لون من التكرار الذى يغنى قليله عن كثيره ؟[(٢)] .

ويجيب شيخنا بالنفى، فلكل قصة فى موضعها إيراد مقصود، وأثر مغاير يحتاج إليه السامع لتكتمل به الحقيقة التاريخية والعناصر التربوية، وقد دفع شيخنا إلى مناقشات هذه القضية أن نفرا من المستشرقين زعم أن هذه القصص ـ وخاصة تلك المتعلقة بآدم التى تكررت سبع مرات ـ متناقضة .

وسوف نناقش بشىء من التفصيل فى الفصل التالى موضوع القصص القرآنى، ويكفينا هنا الاستشهاد بتشبيه للعقاد بصدد التكرار المزعوم، فالصور تختلف للمكان الواحد عندما يتم التقاطها من زوايا مختلفة، فصورة القاهرة من الجو غير صورتها من المقطم ، غير صورتها من النيل، غير صورتها من الأهرام .

---

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، ص ٢١٦.

(٢) الغزالى ، المحاور الخمسة ، ص ٩٧.

القاهرة هى القاهرة، وما يراد إبرازه هنا غير ما يراد إبرازه هناك .

٥ـ أحكام عملية تتصل بما يصدر عن الإنسان من قول أو مثل أو أى تصرف من التصرفات . وهذا النوع من الأحكام المتعلقة بالصلاة والصوم والزكاة والحج ونحو ذلك، مثل :

ـ فى الصلاة : ﴿ ... **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** (١٠٣) ﴾ [النساء].

ـ الحج : ﴿ ... **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ... (٩٧) ﴾ [آل عمران].

ـ وإما أحكام تتعلق بالمعاملات وهى التى تنظم علاقة الإنسان مع مثله وعلاقته بالمجتمع وعلاقة الأمم بالأمم ، مثال ذلك :

ـ معاشرة الزوجات بالمعروف : ﴿ ... **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** (١٩) ﴾ [النساء].

ـ قتل الإنسان : ﴿ ... **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** ... (١٥١) ﴾ [الأنعام].

ـ مراعاة العدل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** (٥٨) ﴾ [النساء].

وأما فى اصطلاح العصر الحديث، فقد تنوعت أحكام المعاملات بحسب ما تتعلق به وما يقصد بها إلى الأنواع الآتية[(١)] :

أـ أحكام الأحوال الشخصية، وهى التى تتعلق بالأسرة من بدء تكوينها، ويقصد بها تنظيم علاقة الزوجية والأقارب بعضهم ببعض، وآياتها فى القرآن نحو السبعين.

ب ـ الأحكام المدنية، وهى التى تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة ووفاء بالالتزام، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية وحفظ حق كل ذى حق، وآياتها فى القرآن نحو السبعين.

---

(١) عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع الإسلامى ، دار القلم ، الكويت ، د.ت ، ط٨ ، ص ٣٢.

جـ- الأحكام الجنائية، وهى التى تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم وما يستحقه عليها من عقوبة، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم وتحديد علاقة المجنى عليه بالجانى وبالأمة، وآياتها فى القرآن نحو الثلاثمائة.

د ـ وأحكام المرافعات، وهى التى تتعلق بالقضاء والشهادة واليمين، ويقصد بها تنظيم الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس، وآياتها فى القرآن نحو ثلاث عشرة.

هـ- والأحكام الدستورية، وهى تتعلق بنظام الحكم وأصوله، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، وتقرير ما للأفراد والجماعات من حقوق، وآياتها نحو عشرة.

و- والأحكام الدولية، وهى التى تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول فى السلم وفى الحرب، وتحديد علاقة المسلمين بغيرهم فى بلاد الدول الإسلامية، وآياتها نحو خمس وعشرين.

ز- الأحكام الاقتصادية والمالية، وهى التى تتعلق بحق السائل والمحروم فى مال الغنى، وتنظيم الموارد والمصارف، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء وبين الدولة والأفراد، وآياتها نحو عشر [١].

ومن استقراء آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدى ولا مجال للعقل فيه ولا يتطور بتطور البيئات. وأما فيما عدا العبادات والأحوال الشخصية من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية، فأحكامه فيها قواعد عامة ومبادئ أساسية، لم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا فى النادر لأن هذه الأحكام تتطور بتطوير البيئات والمصالح، فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادئ الأساسية ليكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن[٢] .

وإذا تأملنا فى القضية بصفة خاصة، فسوف نجد أن من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من يسلم لعقائد الدين سموها ونزاهتها، ولكنه مع هذا يعيب الدين نفسه بشرائعه، وأحكام معاملاته، إما لأنه يرى أن الأديان ينبغى أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التى تصطدم بالحوادث العملية وتجرى مع تقلبات الأحوال فى البيئات المختلفة والأزمنة المتعاقبة على سنن شتى، ولا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

تخضع للنص الواحد فى جميع أطوارها وملابستها، هذا أو لأنه يعيب المعاملات ذاتها ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادئ العدل وأصول الأدب المرعية بين أمم الحضارة[١] .

والذى نراه من العقائد من مراجعة النقد الدينى أن المنكرين لتعرض الأديان لشئون المعاملات مخطئون لا يجشمون عقولهم مؤونة الرجوع إلى نشأة الشرائع الدينية فى أوقاتها ومناسباتها، وإلا لعرفوا أن هذه الشرائع لازمة للعاملين بها لزوم العقائد والوصايا الأخلاقية، وإن العقائد تصطدم بالواقع كما تصطدم به أحكام الشرائع، فلا معنى لاختصاص أحكام الشرائع وحدها بالنقد إذا كانت العقائد معها معرضة للامتحان مع تقلبات الأحوال وتجدد الطوارئ والضرورات[٢] .

والواجب أن يكون النقد كله موجها إلى المعاملات لذاتها إذا كان فيها ما يجافى مبادئ العدل وأصول الأخلاق، ويحول دون مجاراة الآخذين بها لسنن التطور والتقدم وضرورات الحياة العملية جيلا بعد جيل .

وعلى سنة المساواة بين حق الدين فى نشر العقائد وحقه فى فرض الشرائع والمعاملات ننظر إلى معاملات الدين الإسلامى كما ننظر إلى عقائده فلا نرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الإنسانية التى توافرت له بدعوته إلى إله واحد هو رب العالمين أجمعين وخالق الأمم بلا تمييز بينها فى الحظوة عنده غير ميزة التقوى والصلاح: رب المشرقين والمغربين، يصلى له المرء حيث شاء ، فأينما تكونوا فثم وجه الله[٣] .

فما منع الإسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والغبن على فريق منهم، وأساس التحريم كله فى الإسلام أن يكون فى العمل المحرم ضرر أو إجحاف أو حطة فى العقل والخلق، وما فرض الإسلام من جزاء قط إلا وهو فى «حدود» مقدرة بشروط وقيودها صالحة على موجب تلك الشروط والقيود للزمان الذى شرعت فيه، ولكل زمان يأتى من بعده، لأنها لا تتجمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئا غير مصلحة الفرد والجماعة، وكفى باسم «الحدود» تنبيها إلى حقائق الجزاء والعقاب فى الإسلام، فإنها «حدود» بينة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها وتحققت حكمتها وموجباتها، وإلا فهى لا يقربها حاكم ولا محكوم إلا حاقت به لعنة الله .

ويؤكد علماء الأصول أن من أصول الإسلام «تقدير كثير من الأحكام بما تعورف بين الناس ». ولا يخفى أن هذا الأصل قد وسع دائرة الأحكام الشرعية حتى وسعت

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ١١٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧.

تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية، فإنه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين، فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى، وقد كثر التعبير بكلمتى «المعروف» و «العرف» فى القرآن العزيز، وعلق عليها تقرير كثير من الأحكام، ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف إلا ما كان متعارفا غير مستنكر، كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف وألفة، فمن الآيات المحتوية عليه قوله تعالى «طاعة وقول معروف » ، وقوله «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »، وقوله « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس »، وقوله «وعاشروهن بالمعروف ».. فترى فى هذه الآيات وفى كثير غيرها، أن الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات إلى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما، بل أطلق الأمر إطلاقا[1].

أساليبه

جاء القرآن بأساليب متنوعة فى توجيهاته، ووجوه خطابه، نظرا لاختلاف المخاطبين فى أحوالهم ومستوياتهم وتعدد الأغراض التى تصدر إليها والمواضيع التى عالجها والحقائق المختلفة التى كشف لهم عنها .

وأنسب ما قيل فى تعريف أسلوب القرآن أنه : هو الطريقة الخاصة التى انفرد بها القرآن فى إفادة المعانى بالألفاظ[3] . وحول هذا المعنى ذكر الرافعى أن القرآن إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعا إنسانيا البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد .. ولقد أحس العرب بهذا الكلام واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم فى معارضته طبيعة غير مخلوقة ؟[4].

وتنوع أساليب القرآن يرجع إلى تنازع موضوعاته، إذ لكل موضوع طبيعته الخاصة به التى تميزه عن غيره من الموضوعات، كما أن له أصولا وقوانين يجب التزامها ومراعاتها .

أما أن لغاية الكاتب ومقصده من كلامه أثرا فى اختلاف الأسلوب، فواضح أن أسلوب من يقصد إلى بث الحماس فى النفوس وإلهاب المشاعر ومن يقصد إلى إثارة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢.

(٢) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة والحرية ، ص ٥٨.

(٣) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن ، ص ٢٨٩.

(٤) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٥٦ ، ص ٣٣٢.

العواطف وإظهار إعجاب السامعين له، غير أسلوب ومن يقصد إلى الإقناع وشرح دقائق العلم وخفاياه. والقرآن قد جاء بأجل المقاصد وأسماها؛ تلك التى لم يجتمع فى كتاب آخر سواه، فترتب على ذلك أن يكون أسلوبه مخالفا لأسلوب أى كلام سواه[1].

ومن المعلوم كذلك أن الناس مختلفون فى طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم، فمنهم الجاهل والعالم، والأمى، والمتعلم، والمؤمن والكافر، ومنهم البدائى والمتحضر، إلى غير ذلك، وعلى هذا فالذى يحسن لمخاطبة طائفة قد لا يحسن لأخرى، ولهذه الناحية أثر كبير فى اختلاف الأساليب، فإذا نظرت إلى القرآن الكريم، ترى تنوع أسلوبه فى عهدى نزوله[2]، فبينما يمتاز العهد المكى بقصر العبارة غالبا وقوتها لأنه كان يخاطب قوما كفروا بربهم، واشتدوا فى عنادهم ومحاربتهم لنبيهم، وكثر فيه إيراد الحجج القوية والبراهين الساطعة، نجد أسلوبه فى مخاطبته للمؤمنين فيه من الرقة والعذوبة ما يضىء جوانح النفس ويملؤها بهجة وسرورا، وقد امتاز العهد المدنى بسلامة العبارة ونعومتها وخلوها من القسوة والشدة، إذ إن حاجة المخاطبين بعد قيام الدولة الإسلامية إلى التنظيم وتقرير الأحكام وتفصيلها استدعت كل ذلك، وحتى فى خطابه للمنافقين وكشف نواياهم السيئة قد تنوع أسلوبه واختلفت لهجته عما كان عليه أول العهد بالنزول.. وهكذا..

ويصنف عبد المجيد النجار أساليب القرآن إلى ثلاثة أنواع أساسية مترددة فى الإرشاد إلى الحقيقة بين التفصيل، وبين الكلية والتعميم، وفى تنظيم دوائر متواسعة، يندرج الأصغر منها فى الأكبر، فثمة أحكام نزع فيها إلى التفصيل فى البيان، والضبط المفيد لكيفية الفعل حتى يكون جاريا بحسب الهدى الدينى، وثمة أحكام أخرى نزع فيها إلى التعميم فتناولت بالأمر والنهى أجناس الأعمال دون تفاصيلها وكيفياتها، وهى، بصفة جملية، تشمل النوع الأول، وتنفسح لغيره مما لم يقع تفصيله، وثمة أحكام ثالثة، بلغت من التعميم بحيث إنها لا تتناول أفعالا بأعينها وتوفى مستوى أجناسها، وإنما هى تحدد المقاصد العامة لما ينبغى أن تكون عليه أعمال الإنسان عامة، وهى بذلك تعم النوعين الأولين من الأفعال، وتنفسح إلى غيرهما مما لم يرد فيه حكم لا على سبيل الضبط ولا على سبيل التعميم[3].

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن، ص ٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٣) عبد المجيد النجار : فى فقه التدين، جـ١، ص ٥٤.

وعلى سبيل التمثيل، فإن من أسلوب الضبط والتحديد ما جاء فى تحديد الميراث فى قوله تعالى: ﴿ ... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ... ﴿١١﴾ ﴾ [النساء] فهو بيان مفصل لكيفية ميراث الأبناء .

ومن أسلوب التعميم، ما جاء من أمر بالعدل فى التعامل بين الناس إذ يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]، فالعدل المأمور به هو وصف ضابط لجنس واسع من أعمال الإنسان، وهو يشمل الميراث الذى فصلت كيفيته فى الأسلوب الأول ويشمل غيره من سائر الأعمال التى يكون فيها تعامل بين الناس .

ومن أسلوب البيان المقصدى ما عبر عنه رسول الله ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» فإنه بيان لمقصد من مقاصد الشريعة التى تندرج تحتها كل الأفعال عيانا وأنواعا وأجناسا، ما كان منها مبينا بأسلوب التفصيل مثل ميراث الأبناء، أو مبينا بأسلوب التعميم كالأعمال التى تحقق العدل، أو ما لم يتناوله بيان بذينك الأسلوبين مما يمكن أن يستجد فى حياة الإنسان عبر الزمان[1] .

ونسوق فيما يلى بعض التفصيل لجوانب خاصة بالأسلوب القرآنى :

١ـ ليس القرآن مجرد كتاب يلتزم منهجا واحدا لبيان تشريعاته، وليس مجرد كتاب أدب يبغى هز المشاعر والأحاسيس وإثارة الأخيلة، وإنما هو كتاب لتربية الناس، ينوع من أساليب باختلاف المواقف والموضوعات، فلم يعبر فى كل ما كان واجبا بمادة الوجوب ولا فيما هو محرم بمادة الحرمة، بل يعبر طورا عن الواجب بصيغة الأمر بالفعل كما فى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]. وطورا يعبر عنه بأنه الفعل المكتوب، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة]. وتارة يدل على الوجوب بما يترتب على الفعل فى الدنيا أو الآخرة من خير. أما ترتب الخير على الفعل فى الدنيا، فمثل قوله تعالى : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق]. وقوله : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]. فدفع السيئة بالحسنة واجب، وهذا الوجوب لم يعبر عنه

(١) عبد المجيد النجار : فى فقه التدين ، ص ٥٥ .

(٢) محمد زكريا البرديسى : أصول الفقه (١٩٦٩) ، ص ١٨٦ .

بمادة «وجب» وإنما دل عليه بما رتبه على الفعل فى الدنيا من خير، وهو صيرورة العدو صديقا حميما[1].

وإنما ترتب الخير على الفعل فى الآخرة، فمثل قوله تعالي : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾ [غافر] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧)﴾ [الكهف] .

وكما نرى القرآن الكريم يعبر عن الواجب بغير مادة الوجوب، نراه يعبر عن المحرم بصيغة النهى، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء]. وتارة يعبر عن المحرم بأنه شر وليس من البر كما في قوله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... (١٨٠)﴾ [آل عمران]، وتارة يدل على المحرم بما يرتبه على الفعل الآجل أو العاجل من شر، مثل قوله : ﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة].

ولهذا الأسلوب قيمته التربوية الكبرى. فالإنسان ـ كما نعلم ـ لا يميل إلى الأسلوب المباشر فى النصح والإرشاد؛ لأنه يحب دائما أن يشعر أنه عندما يأتى فعلا طيبا، فإنما يفعل ذلك بدافع داخلى لا بناء على أوامر ونواه، ومع أن المربى هنا هو الله سبحانه وتعالى مما يوجب على الإنسان أن يستمع إليه وينقاد لما يأمره به وينهاه سبحانه عنه، إلا أنه يخاطبه بما هو مفطور عليه بغير قهر أو قسر، فكأنه بذلك يبين للإنسان أيضا ضرورة أن يسلك مثل هذا السلوك فى دعوته لغيره من الناس وفى تربيتهم وتعليمهم حتى يأتى بأحسن النتائج .

وقد تعددت صور الأمر والنهى فى القرآن الكريم، ويمكن أن نسوق لها الأمثلة التالية[1] :

ـ الدعاء : كقوله تعالى : ﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ... (١٩)﴾ [النمل].

---

(١) السيد عبد الرحيم عطية: بلاغة الأمر والنهى فى النسق القرآنى، السلام العالمية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٨٥.

﴿ ... توفَّني مُسلماً وأَلْحقْني بالصَّالحين ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف].

﴿ ... ربِّ نجِّني من القَوْمِ الظَّالمين ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص].

- الالتماس، كقوله تعالى: ﴿ وقَالَت طَّائفَةٌ مّنْ أَهْلِ الْكتَاب آمنُوا بالَّذي أُنزِلَ عَلَى الَّذين آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ واكْفُرُوا آخره... ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران]، فأهل الكتاب يخاطب بعضهم بعضا، فالأمر هنا التماس لأنه من المساوى.

﴿ ...فلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف]، قال الجن بعضهم لبعض.

﴿ ...وقَالَ مُوسَىٰ لأَخيه هَارُونَ اخْلُفْني في قَوْمِي وأَصْلِحْ... ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف].

- الإرشاد، مثل قوله تعالى: ﴿ ... ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فَإذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ وإِمَّا ينزَغَنَّكَ منَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعذْ باللَّه ... ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف].

- الاستهانة وعدم المبالاة، مثل قوله تعالى: ﴿ ...فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذه الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه].

﴿ فَأَجْمعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه].

﴿ فَإن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكيدُون ﴿٣٩﴾ ﴾ [المرسلات].

- التهديد: مثل قوله عز وجل: ﴿ ... اعْمَلُوا مَا شئْتُمْ إنَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ وذَرْني والْمُكَذِّبين أُولي النَّعْمَة ومَهِّلْهُمْ قَليلاً ﴿١١﴾ ﴾ [المزمل].

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شئْتُم مّن دُونه ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر].

- التعجيز والتحدى: مثل فى قوله تعالى: ﴿ ... فَأْتُوا بسُورَةٍ مّن مّثْله وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مّن دُون اللَّه إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ...ائْتُوني بكتَابٍ مّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مّنْ علْمٍ إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف].

﴿ ... فتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجمعة].

ـ الإباحة : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ ... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ... وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ... ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ ... وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة].

ـ التسوية، مثل فى قوله عز وجل : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة].

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك].

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ... ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء].

ـ الإكرام، مثل قوله عز وجل : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر].

﴿ ... سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف].

ـ الوعد، مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٧].

﴿ ... فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس].

﴿ ... قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران].

ـ الإهانة والتحقير : مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ ... قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

ـ التهكم والسخرية : ﴿ ... فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ ... فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة].

﴿ ... فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

ـ الاعتبار : ﴿ ... انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ... ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم].

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس].

ـ التعجب : ﴿انظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ... ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء].

﴿... انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ... ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام].

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ... ﴿٥٠﴾﴾ [النساء].

٢ـ ولفصاحة اللغة دورها فى تسهيل وصول المعانى إلى المتعلم، ولا غرابة فى ذلك؛ فاللغة هى أداة الاتصال الرئيسية فى التواصل الاجتماعى والتواصل الثقافى، وقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها وجودة تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحدا من البلغاء قولا يمتنع عليه لا تأتيه فصاحةَ هذه اللغة متى أرادها ولكنه مهما بلغ لا تقع له مثل ألفاظ القرآن فى كلامه وإن اتفقت له نفس الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأن للقرآن فى استعمال لغته طرائق، ووجوها يعجز البشر عن الإتيان بها[1]، فقد تكون اللفظة مثلا ثقيلة، فإذ بالقرآن يستعملها فى موضع وسياق فتأتى أخف ما تكون، وأعذب ما تكون، خذ مثلا لذلك كلمة « النذر »، وفيها من الثقل ما لا يخفى، انظر إلى القرآن كيف أتى بها فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ [القمر]خفيفة سهلة .

وفى القرآن كذلك كلمات طويلة فى حروفها ومقاطعها مما يجعلهما مستثقلة بطبيعة وضعها أو تركيبها، ولكنها خرجت فى القرآن مخرجا عذبا كقوله تعالى: ﴿... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٥٥﴾﴾ [النور]، فكلمة «ليستخلفنهم» مكونة من عشرة حروف جاءت هنا من أخصر الألفاظ وأعذبها منطقا وأخفها تركيبا، وكذلك كلمة «فسيكفيكهم» من قوله فسيكفيكهم الله ، جاءت مكونة من تسعة حروف لم تر فى موضع أعذب أو أخف من موضعها هنا . وقل مثل هذا فى كلمات أخرى[2] .

وترى أيضا من تصرف القرآن وتفننه فى استعمال الكلمات، إتيانه بالكلمة جمعا وهجر مفردها لما فيه من الثقل، فإن اضطر إلى استخدام المفرد أتى بمرادف له أخف منه وأعذب، فهو يستعمل مثلا كلمة «الألباب» كثيرا ولكنه لم يستعمل « اللب » قط لثقله، وعندما اضطر إليه استعمل مرادفه وهو « القلب »، ومثل هذا نجده فى لفظة «الأكواب» و «الأرجاء» حيث لم يستعمل مفردات منهما لمكان الثقل فيهما .

وقد يجىء الأمر بالعكس فيستعمل المفرد دون جمعه مثل لفظة «الأرض» فقد

---

(١) عبد الفتاح الفاوى : الإعجاز اللغوى للقرآن ، ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥.

جاءت فيه مفردة ولم تأت مجموعة لثقل الجمع فيها، وعندما اضطر إلى جمعها تصرف في ذلك تصرفا لا نظير له فى قولـه تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق]، فـانظر كيف جـاءت « ومن الأرض مثلهن »، أعـذب وألطف مـن كلمة الأرضين !

وللقرآن دقة فى التـعبير واضحة لا تخطئهـا عين دارس، وتحقق هذه الدقة بطرق عـديدة ترتبط ببناء العـبارة سـواء أكان منهـا ما يتـصل بالمفـردات أو المعنى أو النظم . والقـرآن يهتم دومـا فى تعبيـره بما هو أهم فى المعنى، والصق بالنفس وأكـثر تحـريكا للذهن، وذلك لكى تأخـذ العبارة مـنفذها إلى النفس، ويكون طابع تعـبيـرها مع دقة متناهيـة، فالدقة تحـدد الذهن والمعنى، وتضع العبارة واضـحة لا غمـوض بها، وذلك لتمكن الوجدان من التفاعل بها، والعقل من استساغتها[1].

ويتجلى اهتمام القرآن بالمعانى، فى تقديمه الأهم على المهم، والذى هو أقرب إلى النفس والوجـدان كـقوله تعـالى : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية].

إن من مهام الدقة فى التعبير، الأداء الأمين لمغزى العبارة، فهى تجمع وتلم شتات الفكرة وتضعه فى وحدة متكاملة، فلفظة « بصائر وهدى » و « رحمة ويوقنون » تشترك جميعا، لتأدية المعنى بقوة ووضوح، وبصورة طبيعية ومنطقية . فلفظة «بصائر» تفيد من صيغتها الوضوح والنصاعـة، وتستمد ذلك من فطرة القرآن وفطرة القلوب الزكية، وقد ذكرت جمعا لتبصر القارئ بشمـول القرآن لأبعاد البصائر بضيائها ونورها وهداها، وقد فسرها ابن عباس بأنها « بيان » وقال الزمـخشرى فى تفسيره «بصائر للناس» وإنه «جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب »[2] .

وأن لفظة «وهدى » تشع بالنور والـسيـر فى الطريق الطبـيعى للحـياة حـيث إن القـرآن «هدى من الضلالة » يهدى القلب والعقل «وبصـيرة » سبقت الهدى لأن الهدى لابد أن يسبقه نور، وإن لفظة «رحمة » لتشع أيضا بالابتـهاج والاستبشار النفسى، فهى «رحمة من العذاب »[3] .

ونلاحظ بصفة عامة : تقـديم بصائر على هدى ، وهذه على الرحمة، وهذه دقة فى المعنى على حسب التسلسل المنطقى، فـالقرآن نور، ويتلو النور هداية، ويتلو الهداية

---

(١) عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ، ص ١٠٩.
(٢) الكشاف ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩.
(٣) عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ، ص ١١٥ .

الرحمة . إن كون القرآن بمثابة بصائر الناس وهدى ورحمة لا يعنى ذلك العموم، بل هناك خصوص هو لباب هذا العموم، توضحه الآية بقولها «لقوم يوقنون» أى «يصدقون بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن » إن لفظة « يوقنون » تشع باليقين والجزم وتتصل مباشرة بالقلب الطافح بقوة الإيمان .

إن تشخيص المعنى وتحديد أبعاده ، يستلزم دقة فى التعبير، وأداء محكما لمغزاه، وعناية بمواطن الإثارة التى يقوم بها التعبير، يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء]. يقول الزمخشرى «وقيل : ومن يعمل سوءا من ذنب دون الشرك، أو يظلم نفسه بالشرك»[1]. وهذا التفسير يحدد دقة معنى كل من السوء وظلم الناس، فالسوء مطلق ذنب ما عدا الشرك. وشرك النفس، عبر عنه القرآن بظلم الناس وهنا تتمثل الدقة، ففى هذا التعبير ما يشير إلى أن النفس البشرية مطبوعة بفطرتها على عدم الشرك؛ فإذا أشركت فقد ظلمت نفسها، وقد أحسنت العبارة حين صاغت هذا المعنى بهذه الصيغة « . . .أو يظلم نفسه »، ومن يحاول ظلم نفسه ؟ إن الانحراف عن طبيعة النفس وفطرتها، محاولة لظلمها والجناية عليها[2].

ويختلف أسلوب القرآن فى التعبير عن حقيقة التوحيد والدعوة إليها عن مناهج المتكلمين والفلاسفة ومن تابع طريقتهم من المفسرين، ولننظر فى الآيات التالية كيف عبر القرآن بعدد من أساليب العطف عن حقيقة التوحيد ودعا إليها فى إطار صيغة عطف كلية تتضمن معنى الشكر بصفة عامة، كما تتضمن معنى البر بالوالدين بصفة خاصة، وذلك بصورة نمطية شبه مطردة، وفى كل صيغة من هذه الصيغ الكلية، يتم التراسل بين ماهيات المعنيين المتعاطفين فى سياق لغوى خاص يعبر عن حقيقة الإسلام[3] . يقول تعالى:

- ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء].
- ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].
- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء].

---

(١) الكشاف ، جـ١ ، ص ٥٦٣.

(٢)عمر السلامى : الإعجاز الفنى فى القرآن ، ص ١٢٣.

(٣) عفت الشرقاوى : بلاغة العطف فى القرآن الكريم ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص ١٩٧.

- ﴿ ووصَّيْنَا الإنسَانَ بِوالديْهِ حُسْنًا وَإن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ... ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة].

وفى هذه النصوص تمثل بنية التعاطف نسقا تعبيريا مطردا يجمع بين فكرة الأمر بالتوحيد والحث على البر بالوالدين، وفى كل نسق من هذه الأنساق يتم تراسل ماهيات المعانى بين هاتين الحقيقتين، عن طريق إنشاء بنية عطفية تجمع بين الأمر بعبادة الله الواحد والإحسان إلى الوالدين فى نسق كلى عام[1]. والعبادة كما يقول الفقهاء عبارة عن كل فعل وترك يؤتى به لمجرد أمر الله تعالى بذلك، وهذا يدخل فيه - كما هو معروف - جميع أعمال القلوب وجميع أعمال الجوارح، وذلك يتضمن التوحيد وما يقتضيه من الإخلاص فى العبادة والبعد عن الشر. أما الإحسان إلى الوالدين، فهو أن يقوم بخدمتهما، وألا يرفع صوته عليهما، ولا يخشن فى الكلام معهما، ويسعى فى تحصيل مطالبهما. والإحسان، كما يقول اللغويون، فوق العدل وذلك أن العدل هو أن يعطى الإنسان ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له[2].

٣- ومن أساليب القرآن « النفى »، والنفى فى أصله يقتضى معنى السلب والإنكار، كما أن الإثبات يفيد معنى الإيجاب. والنفى فى مواضع كثيرة أهم وأصعب من الإثبات، والدليل على ذلك :

أنه من السهل إثبات أمر محسوس بإبرازه والدلالة عليه، كقولنا : هذا قلم، إذا كان القلم بين يدينا، أما أن ننفى وجود شىء ما فى العالم كله فيحتاج إلى جهد كبير، ولذلك فإننا نجد أن النفى فى معظم الأحوال أصعب تصديقا من الإثبات، ولهذا كانت كلمة «لا إله إلا الله » فى الإسلام كلمة جامعة، فكأننا درنا فى خلايا الوجود بأرضه وسمواته، وبحثنا عن الإله الآخر فلم نجده، فهذا النفى مبدأ العلم بحقيقة كبرى، ولا يتأتى ذلك إلا بالإيمان والعقل معا . وإذا قرأنا القرآن الكريم بعناية وتدبر وجدنا أنه يستعمل أنماطا من النفى استعملها العرب، وأنماطا أخرى لم تمر بخلدهم، هذا فضلا

---

(١) عفت الشرقاوى : بلاغة العطف ، ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

عن الأغراض النبيلة السامية التى جاء القرآن الكريم يحققهما بأساليبه المتنوعة فى النفى، والتى دونها أغراضهم وأساليبهم فيها[١].

وقد جاء النفى فى القرآن الكريم لينزع من العقول والنفوس، الكثير من العقائد الفاسدة، والأوهام والخرافات الباطلة، ويرسم للحق الصورة الصحيحة، ويثبتها فى القلوب والعقول بأسلوبه الأخاذ، وطريقته المثلى فى التركيب، ومن أغراض النفى فى القرآن[٢] :

١ـ نفى الشرك عن الله سبحانه وتعالى، بنفى وجود آلهة كثيرة، أو نفى صفات معينة عن الله وتنزيهه عنها، كتنزيهه عن الصاحبة والولد، وتنزيهه عن الاعتماد على غيره فى تصريف الوجود، ومن الآيات المتضمنة بعض ذلك :

- ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى].
- ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الزخرف].
- ﴿ ... لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

٢ـ نفى الصفات السيئة عن الأنبياء بصفة عامة وعن محمد رسول الله ﷺ بصفة خاصة، ويتبع تنزيه الأنبياء عن الصفات الشائعة التى وصفها بهم الكفار، تنزيه ما جاءوا به من البينات والهدى عن كلامهم المذموم ودعاويهم الباطلة[٣].

وذلك كما نرى فى قوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

٣ـ ذم الحياة الدنيا عند التكالب عليها واعتبارها هدفا فى حد ذاته، فعند ذلك نجد الله عز وجل يكشف حقيقتها لينزع من القلوب التعلق بها، والحرص الشديد عليها وكذلك ذم أهلها ونفى تصوراتهم الباطلة نحوها، وذلك مثل قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون]، فقال تعالى فى ذم الدنيا وطلب الإعراض عن أهلها :﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت].

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص ٢٧٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٤.

ويأتى النفى فى القرآن الكريم لأغراض كثيرة يصعب حصرها[1]. فقد جاء يبطل تصورات المشركين الباطلة، عن العالم الآخر، ويبين ما للبشرية من حدود يجب ألا تتجاوزها، ويسقط من الحسبان كل القيم الفاسدة، ويلفت النظر إلى حقائق جمة كثيرا ما يغفلها الإنسان، ويطمئن المؤمنون بما ينفيه عنهم من عوارض الخوف والحزن، فكثيرا ما نفى القرآن الكريم صفات القوة والقدرة فى الناس، وقد ركز أحيانا نفى أشياء محسوسة لعدم اتصافها بالمعانى التى خلقت من أجلها، مثل قوله سبحانه تعالى : ﴿ ...لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

٤ـ ومن أساليب القرآن الكريم اجتماع «الجزالة» و «الرقة» بما يكون له أثره النفسى بعيد المدى، ولعل ما يوضح معنى هاتين الكلمتين تعريف ابن الأثير الذى يقول فيه [2]: «والألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل فى مواقف الحروب، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة . بل أعنى بالجزل أن يكون متينا على عذوبته فى الفم ولذاته فى السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس».

والجزالة جزالة موضوع لا جزالة كلمة أو بيت أو آية، فالذين يقفون عند الكلمة وحدها فى النص الأدبى أو يتجاوزونها إلى البيت الواحد أو الآية المفردة يبترون السياق بترا . وكذلك الرقة لا تكون فى لفظة منقطعة من سياقها، كما نعرف أن التماسك الآسر لا يكون بقوة الألفاظ وحدها، بل بما تعبر عنه من مواقف قوية تتطلب التلاؤم بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون[3] .

ولعل من أبرز النصوص القرآنية التى تتضح فيها الجزالة الآيات من ١ـ٣٧ من سورة الحاقة، فبتأمل هذه الآيات نجد أن المشهدين اللذين يتكفل بعرضهما هذا النص الكريم من أقوى المشاهد الإنسانية روعة وإدهاشا وأخذا بالألباب والأحاسيس، مشهد الماضى وقد عرفت أخباره من قراءة التاريخ ورواية الأخبار واستطلاع الآثار، ومشهد

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص ٢٧٥ .

(٢) عن : محمد رجب البيومى : البيان القرآنى ، ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

الآتى وقد جاءت به النذر فى الكتب المنزلة من توراة وإنجيل وقرآن، وهما معا يتشابهان، دهشة وقوة وأخذا بالنفوس والألباب، وإن كان مشهد القيامة من الروعة والإدهاش بحيث لا تقاس به مصارع المكذبين من عاد وثمود وآل فرعون والمؤتفكات ! هذه القوة العاتية فى الموضوع تتطلب مثيلتها فى العرض فكرة وتصويرا وتعبيرا، بحيث تكون عناصر الأسلوب وحدة متلائمة اللون والمنحى والإيقاع، متجهة إلى إبراز هذه الصلابة الحية فى معرض آخذ من معارض البيان الصلب القوى[1].

أما المثال الدال على «الرقة» فنجده فى الآيات من ٢٦-٤٥ من سورة غافر، فهذا النص يعرض حوارا هادئا فى جلسة رسمية، يقف فيها فرعون موقف الجريح الحائر، بعد أن ظهرت نبوة موسى مؤيدة بالمعجزات الخارقة، إذ آمن به السحرة مصدقين، وكانوا عدة فرعون على تكذيبه، فهو مضطر إلى الملاينة مع أنصاره بعيدا عن جبروته السابق[2].

وهذه الملاينة من جانب فرعون الطاغية، تستدعى ملاينة مسرفة اللين من جانب رجل مثالى يؤمن بموسى سرا فى حاشية فرعون، ليقوم بدور إيجابى فى إزاحة الشر عن نبيه .

٥- ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم أنه يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا، فهو فى معمعان إقامة الدليل العقلى على البعث والنشور فى مواجهة المنكرين والمكذبين، يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويمتع العاطفة امتاعا، بما جاء فى طىّ هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ يقول تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)** ﴾ [فصلت]. وكذلك نجده عز وجل يقول فى سورة أخرى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)** ﴾ [ق].

ولو تأملنا هذا الأسلوب البارع، نجده يقنع العقل، ويمتع العاطفة فى آن واحد،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

حتى فى الجملة التى بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال فى الآية الأولى إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، وفى الآيات الأخيرة قال «كذلك الخروج » ، أى الخروج من القبور، والبعث والنشور .

ولو نظرنا إلى القرآن فى قصة يوسف، فسوف نجد كيف يأتى فى خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال فى فصل من فصول تلك القصة الرائعة:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف].

فبتأملنا فى هذه الآية نجد كيف قوبلت دواعى الغواية الثلاث بدواعى العفاف الثلاثة، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين « جند الرحمن » و « جند الشيطان » ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان !

وهكذا نجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية[1] .

٦ـ و«السخرية » أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم، وهى سلاح يوجهه الساخر نحو الشخص الذى يسخر منه، أو الموضوع الذى يوجه إليه بالسخرية. وهذا السلاح مصوغ فى أسلوب قد تشتد حدته وقد تلين، ولكنه فى كل الأحوال محاط بهذا الغلاف المحبب إلى النفوس، وهو غلاف الفكاهة، أو التصوير الطريف الذى يجد طريقه إلى القلوب فى يسر وسهولة[2] .

والقرآن باستخدامه سلاح السخرية، يضع المؤمنين فى موضع قوة دائمة مهما تذبذبت قوتهم العسكرية أو الاجتماعية ويغرس فى نفوسهم أنهم هم الذين ينبغى أن يسخروا من أعدائهم .

وسخرية القرآن الموجهة إلى أعداء الله إنما هى تحقير واستهزاء واستخفاف بهم . إنها تلاحق هؤلاء الأعداء فى كل موقع، فيحط القرآن من قدرهم حطا مزريا من شأنه أن يحطم قوتهم المعنوية، فحينما يكون أعداء الله فى موقع العقيدة مثلا، فإن سخرية القرآن تصورهم فى صورة مزرية متنوعة التحقير، تنصب أساسا على الاستهزاء بعقولهم

(١) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، ص ١١٠.

(٢) عبد الحليم حفنى: التصوير الساخر فى القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥٢ ، ص ١١.

وأفكارهم . وإذا كانت أساليب القرآن فى بعض ألوانه يجعل من بعض أعداء العقيدة أعداء تحاورهم وترد على أفكارهم، فإن أسلوب السخرية فى القرآن لا يسمح لمن توجه إليهم بأن يرتقوا إلى درجة العداء، بل ولا إلى درجة الآدمية فى بعض الأحيان[1].

وقد تعرض الرسول ﷺ لاستهزاء أعداء الله، يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان]، فالإشارة فى لفظ (هذا) وما بعدها تتضمن قمة التحقير، وغاية الاستهزاء، فإن تعبير الآية يتضمن أنهم لا ينكرون الله ولا ينكرون إرسال الله الرسل، ولكنهم ينكرون صلاحية هذا الرسول لحمل رسالة الله إليهم، وكأنه لا مانع لديهم من قبول الرسالة والإيمان بها لو كان من يحملها ممن يرونه أهلا لها[2] .

والقرآن يكشف ما يجول فى نفس الرسول ﷺ من إحساس بالألم والضيق وما يحاول أن يكظمه ويخفيه عن الناس من هذه الإحساس فى مثل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر]. وحتى يمحو القرآن من نفس الرسول أثر سخرية الأعداء به، فإنه يؤكد له أن هذه السخرية ليس مقصودا بها هو لذاته، وإنما هى سنة اتبعها المشركون وأعداء الله عامة تجاه رسل الله : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام].

وتتعدد صور استهزاء القرآن بأعداء الله :

ـ فهو يكشف المزيفين المنافقين بتلك التفرقة الدقيقة بين المسلم الذى ينطق بالشهادتين بلسانه، وبين «المؤمن» الذى يتطابق ما يقوله لسانه مع ما فى قلبه : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات].

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة].

ـ وتتجه السخرية إلى عقول أعداء الله لتظهر درجة دنيا فى التحقير تعيش عندها :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢) التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، ص٤٦ .

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

- كذلك تمتد السخرية إلى أعمال الكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ... ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

- وعندما يتمسك الكافرون بأصنامهم يوجه الله سبحانه وتعالى إليهم سلاح التحقير والاستهزاء بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

٧- ولم ينهج القرآن منهج الكتب المؤلفة التى تذكر الجوانب المتعلقة بمسألة واحدة فى مكان واحد ثم لا تعود إليه إلا بقدر ما تدعو إليه المناسبة . وإنما فرق الآيات تفريقا وكأنه فى ذلك أشبه شىء ببستان فرقت ثماره وأزهاره فى جميع نواحيه حتى يأخذ الإنسان أنى وجد فيه، ما ينفعه وما يشتهى من ألوان مختلفة وأزهار متباينة، وثمار يعاون بعضها بعضا فى الروح العام الذى يقصد، وهو روح التغذية بالنافع والهداية إلى الخير . ولهذه الطريقة - فيما نرى - إيحاء خاص، هو أن جميع ما فى القرآن وإن اختلفت أماكنه، وتعددت سوره وأحكامه وأفكاره ونظرياته، فهو وحدة عامة لا يصح تفريقه فى العمل. ولا الأخذ ببعضه دون بعضه، وكأنه وقد سلك هذا المسلك يقول للإنسان وهو يحدثه عن شئون الأسرة مثلا : لا تلهك أسرتك وشئونها عن مراقبة الله فيما يجب له من صلاة وخشوع . ولا ريب أن لمثل هذا الإيحاء تأثيرا فى المراقبة العامة وعدم الاشتغال بشأن عن شأن، فيكفل للسلوك تهذيبه، وللعقل إدراكه، وللجسد صلاحه، وللمجتمع تماسكه وتطوره .

ومن جولات ابن قتيبة الموفقة من ناحية النظم القرآنى، وقوفه عند الإطناب وتكرار الكلام والزيادة فيه، فقد يتوهم بعض المارقين والمتزندقة وجود حشو فى القرآن، وفضول فى عباراته وتراكيبه . ولكنه بالبحث والمناقشة وإعمال الفكر، والرجوع إلى العرف اللغوى، والذوق الفنى أحيانا، استطاع أن يحدد ملامح الصورة، وأن يخرج من هذا الصراع العقلى بنتائج طيبة، فالتكرار فى القرآن يتناول نواحى معينة هى[1]:

(١) فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦، ص٤٢٩.

(أ) تكرار الأنباء والقصص، فكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن، فيكون ذلك كافيا لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، أو قصة عيسى إلى قوم أو قصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم[1]، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص فى أطراف ويلقيها فى كل سمع، ويثبتها فى كل قلب، ويزيد الحاضرين فى الإفهام والتحذير.

. (ب) تكرار الكلام من جنس واحد، وأما تكرار الكلام من جنس واحد، وبعضه يجىء عن بعض كتكراره فى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون]، وفى سورة الرحمن بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن]، فقد علمنا أن القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون، وخروجه عن شىء إلى شىء أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد[2] .

قال الله عز وجل :﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر]. وقال ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح] ، قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾ [القيامة]. وقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار]، كل هذا يراد به التأكيد للمعنى الذى كرر به اللفظ[3] .

(جـ) معان للتكرار وراء التوكيد، ومن اللمحات الأصيلة لابن قتيبة ذهابه إلى أنه لا موضوع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذى أنزلت فيه :«قل يا أيها الكافرون» لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون، ليعبدوا ما يعبد، وأبدءوا فى ذلك وأعادوا فأراد الله عز وجل حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم، فأبدأ وأعاد فى الجواب وهو معنى قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم] أى تلين لهم فى دينك فيلينون فى أديانهم .

وفيه وجه آخر، وهو أن القرآن كان ينزل شيئا فشيئا وآية بعد آية[4].

(د) تكرار المعنى بلفظين مختلفين، ويكون ذلك لإشباع المعنى، والاتساع فى الألفاظ، وذلك كقول القائل : آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر. والأمر بالوفاء هو النهى

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٣١ .

(٣) المرجع السابق ، ص٤٣٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص٤٣٤ .

عن الغدر . وكقوله سبحانه : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الرحمن] والنخل والرمـان من الفاكـهة فـأفـردهما عن الجـملة التى أدخلهـا فيـها، لـفضلهـما وحـسن موقعهما[1].

(هـ) الزيادة للتـوكيـد، كقوله تـعالى: ﴿ ... يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ... ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمـران]، لأن الرجل من يقول بالمجاز : كـلمت فلانا، وإنما كان ذلك كتابة أو إشارة على لسان غيـره، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم. وكذلك قوله ﴿ ...يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة] لأن الرجل قد يكتب بالمجاز وغيره يكتب عنه[2].

وقد عرض الفقيه المحدث «أبو سليمان الخطابى» ـ من أهل بست من بلاد كابل ـ (٣١٩ـ٣٨٨هـ) لهذه القضية، فكان مما قاله[3]:

«وأما ما عـابوه من التكرار، فإن تكرار الكلام على ضربين : أحدهمـا مذموم، وهو ما كان مـستغنى عنه غير مسـتفاد به زيادة معنى لم يستـفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلا من القول ولغواً، وليس فى القرآن شيء من هذا النوع .

والضرب الآخر مـا كان بخلاف هذه الصفـة، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقـتضـيـه، وتدعو الحـاجـة إليه أو بـإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحـاجة إلى الحـذف والاختصار، وإنما يحتـاج إليه ويحسن استعماله فى الأمـور المهمة التى تعظم العناية بها ويخاف بـتركه وقـوع الغلط والنسيـان فيـها، والاسـتعانة بـقدرها. وقد يقـول الرجل لصاحبه، بقصد الحث والتحـريض على العمل : عجّل عجّل، ارْم ارْم، كما يكتب فى الأمور المهمة على ظهور الكتب : مهم مهم مهم، ونحوها من الأمور، وكقول الشاعر:

هلا سألـت جموع كنـ ـدة يـوم ولّوا أيـن أينا ؟

وقول الآخر :

يال بكر انشروا لى كُلَيْبا يال بكر أين أين الفرار ؟

وقد أخـبر الله عـز وجل السبب الـذى من أجله كرر الأقـاصيص والأخـبار فى القرآن، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] ، وقال : ﴿ ... وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه] .

---

(١) فتحى أحمد عامر ، المعانى الثانية ، ص٤٣٧ .

(٢) المعانى الثانية ، ص٤٣٨ .

(٣) الخطابـى : بيان إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلـول سلام ، القاهـرة ، دار المعارف ، ط٣.

كذلك فقد لفت باحثون آخرون[1] النظر إلى ما يؤدى إليه تكرار بعض الجمل عن قصد، فالهدف من هذا : إيقاظ المشاعر، وإلفات العقول بهذا الخروج عن المألوف من الخطاب، وذلك لما يقتضيه الموقف من يقظة ووعى، وحذر من أن يفلت من بين يدى الإنسان ما ينبغى أن يلقى به هذا الموقف من استعداد نفسى، وعقلى، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة، ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف، فلربما غفل عنه كثير من الناس، ولربما التفت إليه من التفت منهم بنفس حائرة وعقل شارد .

وسورة الرحمن التى تكرر فيها لفظ : «فبأى آلاء ربكما تكذبان» ـ معرض كامل متكامل لنعم الله، ولقدرته ورحمته، ولجلاله وعظمته، فإذا طُوِّف بالإنسان فى هذا المعرض، ولم يكن معه الدليل الذى يشير إليه كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير، وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزود به من هذا الخير ـ فلربما طاف ما طاف، ثم خرج صفر اليدين، لم يحمل من المعروضات إلا صورا وخيالات لا تلبث أن تزول .

فكأن قوله تعالى : «فبأى آلاء ربكما تكذبان» هو الدليل الذى يصحب قارئ السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها، كلما عرضت آية من آيات الله، أو تجلت نعمة من نعمه طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم «فبأى آلاء ربكما تكذبان»، دون أن يتغير وجهه، أو صوته، حتى يكون ذلك آلف لقارئ السورة أو سامعها، فإنه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ولا صوته، وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى، واطمئنان قلبى، لا يجده المرء لو طلع عليه فى كل خطوة من رحلته تلك ـ وجه جديد، وصارخ جديد ![2] .

وهكذا نرى أن التكرار فى القرآن على اختلاف فنونه اقتضته البلاغة الرفيعة ورفع موقعه من الصناعة العربية الفخمة، وأساليبها العالية، فنزل التسليم والقبول من المزاج العربى والطبع العربى والذوق العربى[3] .

٨ـ واقعية التصوير . والتصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة،

---

(١) عبد الكريم الخطيب : القرآن ، نظمه، جمعه، ترتيبه، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٢، ص١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(٣) المعانى الثانية، ص٤٤٣ .

وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيرونها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استعدت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأولى الذى وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب. ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، أو هذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة[1].

إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة !!

والقول بأن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن، يؤكد أن القرآن ليس حلية أسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتفق، إنما هو مذهب مقرر، وخطة موحدة وخصوصية شاملة وطريقة معينة، يفنن فى استخدامها بطرائق شتى، وفى أوضاع مختلفة، ولكنها ترجع فى النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : قاعدة التصوير[2] .

ويجب أن نتوسع فى معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفنى فى القرآن، فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخيل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات ونغم العبارات، وموسيقى السياق، فى إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان .

وعندما نستعرض ألوان التصوير فى القرآن بالمعنى التقليدى من استعارة أو تشبيه أو كناية أو مجاز أو نبحث فى أنماطه الرفيعة من صور كلية، أو تشخيص لجماد أو استنطاق لصامت، أو تحريك لساكن، أو رسم لنموذج، أو استحضار لمشهد غيبى أو تاريخى، أو غير ذلك من فنون الإيحاء والدلالة، فسوف نجد واقعية تهجم علينا وتلاحقنا، وهذه الواقعية ترتبط بذهن العربى وبخياله، فمحال أن تخرج الصور الخيالية مهما أمعنت فى التصوير عن هذا النطاق[3] .. إلى حس العربى وتصوره وخياله وربما

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص٣٢.

(٢) المرجع السابق ، ص٣٣.

(٣) توفيق محمد سبع : واقعية المنهج القرآنى ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية (٧٠)، أكتوبر ١٩٧٣ ، ص٤٣٩.

وهمه أيضا، كل ذلك يتآزر ليعطى الإيحاء المطلوب والجلالة الرائعة، كما أن هذه الواقعية أيضا تتفق مع البيئة التى يعيش فيها العربى، تستمد منها، وتصدر عنها، وتعايشها، فالجمال الصفر، والعصف المأكول ، وحبل المسد، والسراب الخادع بالحقيقة، والعهن المنفوش، والرماد تذروه الرياح، والحمر تفر من قسورة، كل ذلك منتزع من بيئة العربى، وهى عناصر التشبيه، ومسائل للتصوير تعين على التأثير والتوضيح، وتعمل عليها فى حس العربى ووجدانه[1].

وقد يعمد القرآن إلى إخراج معنى ذهنى فى صورة حسية مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]. فهذا تصوير لأعمال الكفار التى يظنونها من البر وصنائع المعروف تكون يوم القيامة هباء متطايرا، وذرا متناثرا، هكذا يصور القرآن ويدع الذهن العربى يتصور معنى الضياع والتبديد والانتشار المؤكد والحاسم[2] .

إنها واقعية لا تغرب عن مخيلة العربى ولا عن أذهان الناس .

ومثله تماما ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ** ... ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران]. فيصور لنا صور الحرث تجرفه الريح الباردة المهلكة للزرع والثمر فلا ينال صاحبه منه إلا الندم، وذلك كالكافر الذى ينفق ماله ويرجو من ورائه الخير فيعصف الكفر بكل آماله، وهى صورة واقعية يراها العربى صباح مساء[3] .

ومن إبداع الأسلوب القرآنى أن يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج إنسانى واضح للعيان[4] .

فإذا أراد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا فى ساعة الضيق حتى إذا جاءه الفرج نسى ربه، لم يقل ذلك فى كلمات، وإنما فى صورة مشاهدة ملموسة قال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ**

---

(١) واقعية المنهج القرآنى ، ص٤٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٤٤.

(٣) المرجع السابق ، ٤٤٥.

(٤) عبد الله محمود شحاتة: علوم التفسير ، ص٢٠٠

دعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس].

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك، وتموج وتضطرب، وترتفع الأنفاس، مع تماوج السفينة وتنخفض، ثم تؤدى فى النهاية ذلك المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه .

وإذا أراد القرآن أن يبرز حالة (نموذجا) من الناس ظاهرهم يغرى وباطنهم يؤذى رسم لهم صورة كما يأتى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

فيستعيض عن الوصف الحركة والتصرف، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن فى نسق من الصور المتحركة فى النفس والخيال[1] .

* * *

(١) عبد الله شحاتة، علوم التفسير ، ص٢٠١.

الفصل الثالث

أساسيات تربوية

مقدمة

من أقدر من الله خالق كل شيء على تقديم الهداية الكاملة للبشر ؟ وأى منهج غير المنهج الإلهى يستطيع أن ينهض بحاجات النفوس البشرية ويفى بمطالبها ويغذى عواطفها ومشاعرها، ويتابع تطورها ونموها، ويستوعب قضاياها ويلاحق أزمانها ويلائمها فى تطورها الصاعد، ويقودها على طريق الكمال بتؤدة ورفق ؟ أى منهج يفى بذلك كالمنهج الذى ارتضاه الله وجعل فيه الشفاء من الأسقام والعلاج من الأوهام[1]؟

إن النفوس ـ وهي من صنع الله ـ لا يمكن أن تعالج إلا بعلاجه،ولا أن تروى إلا من نبعه ﴿ ... **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] .

إنه سبحانه وتعالى العالم بكل خلية من خلايا الجسم الإنساني، وبكل ذرة من ذرات تكوينه، وبكل خالجة من خوالج نفسه، وبكل خاطرة من خواطر حسه، فهو الأعلم بما يسعدها، وما يكفل لها من الأمن والسكينة والاستقرار. . . كما يعرف المهندس الخبير - ولله المثل الأعلي- جهازه الذى اخترعه، أو كما يعرف الطبيب المتخصص علة مريضه والدواء الذى يشفيه . . إنه فى هذه الحالات علاج علم وبصيرة، وليس مجرد اجتهادات عقلية تجعل من المريض « حقل تجارب » للأطباء والمدعين، وتبارك الله الذى خلق فسوى وقدر فهدى ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك].

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام، فركن الإسلام الأول، أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وشهادة أن لا إله إلا الله، معناها القريب إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية، وعدم إشراك أحد من خلقه معه فى خاصية واحدة من خصائصها، وأولى خصائص الألوهية، حق الحاكمية[2] الذى

---

(١) توفيق محمد سبع : نفوس ودروس فى إطار التصوير القرآنى، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية (٣٤)، أغسطس ١٩٧١، جـ١ ص ٧٧ .

(٢) سيد قطب : هذا الدين ص ١٧ .

ينشأ عن حق التشريع للعباد، وحق وضع المناهج لحياتهم وحق وضع القيم التى تقوم عليها هذه الحياة فشهادة « أن لا إله إلا الله » لا تقوم ولا تتحقق إلا بالاعتراف بأن الله وحده وضع المنهج الذى تجرى عليه الحياة البشرية، وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج فى حياة البشر، دون سواه، وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحياة جماعة من الناس، فقد ادعى لنفسه حق الألوهية عليهم بادعائه أكبر خصائص الألوهية، وكل من أقر منهم على هذا الادعاء فقد اتخذه إلها من دون الله، بالاعتراف له بأكبر خصائص الألوهية، وشهادة « أن محمداً رسول الله » معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذى بلغه لنا من الله، هو حقا منهج الله للحياة البشرية، وهو وحده المنهج الذى نحن ملزمون بتحقيقه فى حياتنا وفى حياة البشرية جميعاً[1] .

ولقد تنزل هذا الكتاب الكريم فى أمة عايشت حضارات اختلت فيها الموازين، واضطربت المثل وانحرفت عن النهج المستقيم، فلما أيقن أولو الألباب صدق وصحة ما جاء فى هذا الكتاب أصبح شغلهم الشاغل فى مدارسته وحفظه والعمل بما جاء به وتبليغه، فكانت نتيجة ذلك أن جعل من اضطرابهم ثباتا، ومن اعوجاجهم استقامة، ومن جهلهم علما مستنيراً، وأصبحوا بشهادة الله- تبارك وتعالى- خير أمة أخرجت للناس[2] .

ومن أعظم منن هذا الكتاب على الإنسانية عامة، والأمة العربية خاصة أن أصبحت بفضله تعرف للقلم حقه، وتقدر للمعرفة وتدوينها قدرها، إذ كان تدوين النص القرآنى وحفظه والحفاظ عليه- مع توجيهاته وأوامره فى هذا الباب- منطلقاً أساسيا لكل المعارف والعلوم التى نشأت فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية، وبه فجرت أهم وأعظم ثورة علمية فى تاريخ البشرية .

كما أن حفظ الله- تبارك وتعالى- لهذا الكتاب قد هيأ له العقول الثاقبة، والقلوب الواعية، والجهود المتضافرة، والتى تفتقت عن مناهج علمية، ووسائل منطقية جد دقيقة لتناقله جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، كما أنزل على النبى المصطفى دون خلل أو تحريف، فكان النص القرآنى يكتب أمام ناظرى الرسول بالأيدى الأمينة وتتشربه الأفئدة الواعية، وتتدبره الألباب الصافية، فتجعل من الأرض غير الأرض ومن الحياة غير الحياة .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨ .

(٢) أحمد بن شعيب النسائى : فضائل القرآن، تحقيق فاروق حمادة، الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٨٠، ص ٦ .

وبعد نزوله لم يكن يوم يمر إلا ويحظى بالمزيد من العناية والدراسة والتفصيل، وهكذا مع الأيام ومع الزمن، وسيبقى كذلك تحقيقاً لوعد الله سبحانه، تخدمه العقول، يبينه العلماء كل فى ميدان معرفته وتخصصه .

فاللغويون تناولوا جانب اللغة ـ وما زالوا ـ فالنحاة بحثوا جانب النحو والحركات الإعرابية، مما أدى إلى ضبط جميع حركات وسكنات حروف القرآن الكريم، والبلاغيون بحثوا فيه جانب البيان والمعانى والبديع وأبرزوا سموه وإعجازه، والصرفيون بحثوا تركيب الكلمات وبنيتها، وضبطوها، وآخرون بحثوا تاريخ اللغة وكلماتها ومواردها وبينوا ما فيه من لغات القبائل العربية وغيرها على اختلافها، وعلماء الرسم والخط أحصوا رسم كلمات القرآن واحدة واحدة، ووضعوا لذلك قواعدهم وأصولهم، والفقهاء والمشرعون استلهموا الآيات وفصلوا أحكامها، والأصوليون والوعاظ والمرشدون اهتدوا بالأسلوب القرآنى وجدله فى معالجة انحراف الفرد والمجتمع، واعتمدوا قصصه وجمعوها وصنفوها، وعلماء العقيدة والكلام جعلوا القرآن منطلقهم فى معرفة العقيدة الصحيحة المنجية، ومعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ومنه عرفوا الرسل ومميزاتهم . . والمحدثون جمعوا ما يتعلق بالقرآن الكريم فى نزوله وأسباب نزوله وتاريخه، وما جاء فى التنويه والإشادة به أو ببعضه والحض على تعلمه ونشره عن النبى صلوات الله عليه وسلامه (1).

وكان من الضرورى أن يتقدم نفر من الباحثين فى العلوم التربوية إلى هذا الكتاب العظيم كى يستلهموا منه المقومات الكفيلة ببناء الإنسان راسخاً قويا لا يلين ولا يتزعزع أمام العواصف والأعاصير .

نزل كتاب الله تعالى لهداية إلى ما به صلاح حالهم، وحفلت آياته بالنص على ذلك، قال تعالى : ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿٦٤﴾﴾ [النحل]. وقال أيضاً : ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

إن الله تعالى أنزل علينا هذا الكتاب هدى ونوراً ليعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا ويعدنا لما يعدنا من سعادة الدنيا والآخرة، ولم ينزله قانوناً دنيوياً جافا كقوانين الحكام، ولا كتابا طبيا لمداوة الأجسام ولا تاريخا بشريا لبيان الأحداث والوقائع، ولا سفرا فنيا لوجوه الكسب والمنافع، فإن كل ذلك مما جعله باستطاعتنا، وهذا بعض مما وصف الله

(1) المرجع السابق . ص ٢٢٠ .

ه فى محكم آياته، وتدبرها سلفنا الصالح واهتدوا بها فأنجز لهم ما وعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة فى مثل قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

هدى الله بهذا القرآن العرب، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم، فكانوا به أئمة الأمم، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم: دولة الروم «الرومان» ودولة الفرس فهذه محوها من لوح الوجود بهدم سلطانهم وإسلام شعبها، وتلك سلبوها ما كان خاضعاً لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربا وألفوا فيها دولة عربية كانت زينة الأرض فى العلوم والفنون والحضارة والعمران[1].

ومن هنا لم نكن نتجاوز الحقيقة عندما جعلنا القرآن هو الأصل الأول، والأصل الرئيسى الذى ينبغى أن نستمد منه تربيتنا الإسلامية. ونحن لا نسوق هذا القول جزافا، وإنما نقف وقفة قد تطول بعض الشىء لنبين بعض الجوانب التى تجعل القرآن يتصدر مصادر التربية وأصولها، ونقول « بعض » لأن استقصاء حجيته التربوية لا يمكن أن نوفيها حقها الكامل فى هذا البحث، فعمل كهذا يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته بل إلى بحوث متعددة، فهى إذن « نماذج » وأمثلة يوجد غيرها بطبيعة الحال، من هذا الجوانب التربوية :

١- احترام عقل الإنسان :

فإذا كان الإنسان هو موضوع التربية، فإن قيمة المصدر التربوى يمكن أن تقاس بمدى احترامه لعقل الإنسان، حيث إنه هو الأداة التى بها يفهم ويتأمل ويتفكر ويتعلم، فالعقل هو ميزة الإنسان البشرى على الحيوان العجمى، وبه صار الإنسان أهلا للخلافة عن الله عز وجل. والعقل أصله الإمساك والاستمساك، وهو لغة، المنع من عقل البعير إذا منعته بالعقل وسمى بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل « ويقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل »[2].

---

(١) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار)، دار المنار، القاهرة، ١٣٧٣هـ، جـ١، ص٤.

(٢) محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم، د . ن . مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٢٠.

ولم يرد لفظ « عقل » فى القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما جاء النظر العقلى بمعنى استخدام العقل فى التعقل، لأن العقل ليس له ماهية قائمة بذاته، إنما هو عمليات عقلية صرحت بها الآيات الكريمة فى مواضع كثيرة[1].

فجاءت مشتقات « العقل » فى تسع وأربعين آية كلها بالصيغة الفعلية[2] :

- صيغة ﴿ عَقَلُوهُ ... ﴿٧٥﴾ ﴾[البقرة] مرة واحدة.
- وجاءت صيغة ﴿ نَعْقِلُ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك] مرة واحدة.
- وجاءت صيغة ﴿ ... يَعْقِلُهَا ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت].
- وجاءت صيغة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [البقرة] اثنين وعشرين مرة[3] .
- وجاءت صيغة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة] أربعا وعشرين مرة[4].

وحيث لم ترد كلمة «العقل» بالصيغة الاسمية فى القرآن فقد وردت مرادفات العقل بالصيغة الاسمية مثل : « اللب » وجمعت الألباب، و « الحلم » وجمعت الأحلام و « الحجر » و« النهى» و « القلب » و «الفؤاد»، وكلها جاءت بمعنى العقل.

ونسوق مثالا لما ورد فى القرآن من مرادفات للعقل، « اللب » حيث يأتى ذكره باعتباره مركز التذكر، ولولا أنه مركز استقرار المعرفة وميزان استخراج المعرفة بما أودع الله فيه من أصولها، والمقياس الصالح لقبول الحق ورفض الباطل بما لديه من أصول فطرية يتذكرها ويقيس عليها، لما كان مركز التذكر[5] . وفى كون اللب مركز التذكر وردت نصوص قرآنية نذكر منها :

---

(١) فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل : القرآن والنظر العقلى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤ .

(٣) البقرة / ٦٤، ١٧١،٧٠، المائدة / ١٠٣،٥٨، الأنفال / ٢٢، يونس / ٤٢، ١٠٠، الرعد / ٤، النحل / ٦٧،١٢، الحج / ٤٦، الفرقان / ٤٤، العنكبوت / ٦٣،٣٥، الروم / ٢٨،٢٤، يس / ٦٨، الزمر / ٤٣، الجاثية / ٥، الحجرات / ٤، الحشر / ١٤ .

(٤) البقرة / ٤٤، ٢٤٢،٧٦،٧٣، آل عمران / ١١٨،٦٥، الأنعام / ١٥١،٣٢، الأعراف / ١٦٩، يونس / ١٦، هود / ٥١، يوسف / ١٠٩،٢، الأنبياء / ٦٧،١٠، المؤمنون / ٨٠، النور / ٦١، الشعراء / ٢٨، القصص / ٦٠، يس / ٦٢، الصافات / ١٣٨، غافر / ٦٧، الزخرف/ ٣، الحديد / ١٧ .

(٥) عبد الرحمن حسن حبنكة : الأخلاق القرآنية، جـ١، ص ٢٩١ .

- ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة].

فحصر الله التذكر التابع لصاحبه، وهو الذى يمده بالحكمة فى السلوك، بأولى الألباب، والحكمة فى السلوك هى وضع الأشياء فى مواضعها، وهذا لا يكون إلا إذا استندت الإرادة العاقلة إلى ما يقدمه اللب لها من تذكر للمعرفة .

- وقوله تعالى كذلك :﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

فهذا القرآن بلاغ للناس ليؤمنوا بربهم، وبما جاء فيه من عقائد ومبادئ وشرائع وأحكام، وليكون لهم من آياته وما اشتملت عليه من دلائل فكرية وخبرية إنما الله إله واحد لا إله إلا هو، وليحفظ ما جاء فيه أولو الألباب، ويتذكروا أحكامه ونصائحه ووصاياه، عند كل سلوك يريدونه فى حياتهم[1] .

ولما كانت الألباب هى مراكز الدوائر العلمية الفكرة فى الإنسان كانت أساسا لخطاب الناس فى قضايا المعرفة[2] . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

ولما كانت الألباب هى المراكز الإرشادية لدوائر الوعى الإنسانى، كانت أساسا لخطاب الناس بأوامر التقوى والاستقامة على منهج السعادة الذى أمر الله عباده بالاستقامة عليه، قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة].

وقبل أن نمضى لبيان الدور المنوط بالعقل فى القرآن نشير إلى بعض الحقائق[3] :

١-أن الله حين طلب إلى العقل النظر فى الكون للتعرف عليه - إنما كان ذلك من إيحاء أو إشارة بأن العقل البشرى من القدرة بحيث يدرك - ولو بالتدريج - أبعاد هذا الكون بمن فيه وما فيه من كائنات .

---

(١)عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية، جـ١، ص ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤ .

(٣) محمد أحمد خلف الله : الأسس القرآنية للتقدم، حزب التجمع الوطنى، القاهرة، كتاب الأهالى، العدد الثانى، يونية ١٩٨٤، ص ٤٧.

٢-أن العقل البشرى سوف يدرك فيما يدرك من حقائق هذا الكون مقاصد المولى- سبحانه وتعالى- من خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه . كما سوف يدرك من كيفية بناء الله لهذا الكون السنن والقواعد التى أقام الله عليها هذا البناء المحكم من حيث هو صنع الله الذى أتقن كل شىء.

وإذا كانت سنن الله لا تتغير، والقواعد التى أقام الله عليها هذا البناء ثابتة أبد الدهر، فقد أصبح فى إمكان العقل البشرى الاهتداء إلى هذه القواعد وممارسة الحياة على أساس منها .

٣-أن العقل البشرى لن يدرك كل حقائق الكون بمن فيه وما فيه دفعة واحدة، وإنما سوف يدرك هذه الحقائق فى مراحل مختلفة من الحياة. ومعنى ذلك أن العقل البشرى لن يكف عن البحث والدراسة ما دامت هناك أشياء لا تزال مجهولة، ولا يزال هو يجد فى البحث عنها .

ومما يؤسف له حقا أن كلمتى « العقل» و « الدين » يرددهما البعض من شبابنا المعاصر مقرونتين إحداهما إلى أخرى، كخصمين عنيدين وكعدوين لدودين، فيقول - مثلا - هذا ما يدعو إليه الدين، ولكن العقل لا يقره ولا يقبله، بل يأباه ويرفضه. ويقولون : هذا ما يحتمه العقل، ولكن الدين على خلافه - وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن ليس فى نفوس هؤلاء الشبان وغيرهم ممن يرددون نفس المقولة، معان محددة واضحة[1] .

إنهم يطلقون كلمة « العقل » ويريدون منها « الحرية » بمعناها الواسع غير المحدود. ويفهمون الدين قوة متحكمة مستبدة، تتحيف من الحريات، وتنتقص من الحقوق، وتفرض على الناس الحجر والتضييق والإرهاب .

وعلى أساس من هذا الفهم، تبدى لهم العقل والدين خصمين متعادين. وعلى أساس من هذا الفهم أيضاً، انطلقوا فى شبه إباحية سموها الحرية، واتسم الدين بمعانى الكبت والحرمان . وكان من أثر هذه التصورات غير الصحيحة أن انحرف بمثل هؤلاء الشبان سلوكهم وأصبحوا على حال لا تؤهلهم لما ينتظره منهم الوطن فى غده .

والخطأ الأساسى فى هذه القضية هى وضع الدين مقابل العقل، كما يوضع الإيمان مقابل العلم، وكأنهما نقيضان لا يمكن أن يجتمعا فى الإنسان إلا من قبيل تصادم

---

(١) سليمان دنيا : الدين والعقل، سلسلة الثقافة الإسلامية، المكتب الفنى للنشر، القاهرة، فبراير ١٩٥٩، ص ٥.

الأضداد، وذلك ما ترفضه العقيدة الإسلامية التى حسمت الخصومة بين الدين والعقل، إذ هما عنصران جوهريان فى الإنسان، يتلازمان ولا يتناقضان[١].

ومن هنا تقدم علماء الإسلام فى طمأنينة وثقة من تأييد العقيدة الإسلامية للنظر العقلى وإكبارها للعقل، يدرسون الظواهر الكونية بعقلية متحررة، ويؤيدون النظريات العقلية بتجارب عملية، ودخلوا التاريخ العلمى روادا لآفاق غير مسبوقة، ومن شاء فليقرأ كتاب المستشرق الإيطالى « نالينو » فى (تاريخ الفلك عند العرب)، والمستشرق الروسى « كراتشكوفسكى » فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) وغيرهم[٢].

ومن المشهور أن الحيوان والإنسان يشتركان فى وجود مجموعة حواس للسمع والبصر واللمس والشم والتذوق، ورسل هذه الحواس ما تتلقاه من انطباعات حسية إلى كل من الحيوان والإنسان، فإذا بالأول لا يرى منها إلا أفقا محدودا لا يكاد يتعدى حاجاته البيولوجية، وإذا بالثانى يمررها على جهاز معجز حقا يترجم تلك الانطباعات الحسية ويقوم أفرادها بالعديد من الأدوار، لا سبيل لنا إلى التفصيل فيها وإنما نكتفى بثلاثة منها :

الأول : الفهم، يقول تعالى :﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

فهؤلاء الذين يشير إليهم- سبحانه وتعالى- لهم آذان تسمع آيات الله تتلى ولكنهم يمرون عليها كمن لم يسمع شيئا ألبتة، هذا إن لم يتخذوها سخرية!. ولهم أعين تبصر آيات الله تكرارا لا يتوقفون عندها وقد يعتبرون الناظر إلى مشهد كونى مستفهما كمن يستنطق الحجر الأصم . ! ولهم قلوب تستطيع أن تفقه ما يواجهها من حقائق ولكنهم أغلقوها بإحكام فغدت كالجدار السميك لا يتجاوزه شىء، كمن يعيش فى حفرة متجاهلا العالم من حوله[٣] .

هؤلاء إذن لم يستثمروا ما وهبهم الله تعالى من « عقل » وظيفته الأساسية هى «الفهم» فانحدروا بالتالى إلى مستوى الحيوان، لا . . بل إن الذين يعطلون عمل العقل للفهم أدنى من الحيوان، لأن الحيوان لم يوهب قوة الفهم، أما هؤلاء فهم يملكونها لكن يعطلونها!

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٥٩ .

(٣) شاكر عبد المجيد : المنهج العلمى للاعتقاد، مكتبة القدس، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٢٣ .

الثانية : التنظيم والتصنيف، فالإنسان يخرج إلى الحياة ولا علم له أو دراية بشيء من حوله، فلا يلبث العقل أن يشرع فى عمله من وراء الحواس، ومن خلال تزايد رصيد الخبرات يبدأ العقل فى عملية خطيرة فى تبين علاقات الشبه والمباينة بين الأشياء، فلا يزال يلحظ الصفات العامة التى تنظم أو تشمل أكبر أعداد ممكنة من هذا الخليط بحيث تقسم إلى فئات ويتم التصنيف(١).

الثالثة: الاحتفاظ بصور الأشياء، فالعين - مثلا - تنقل صور الأشياء إلى الذهن حسب قوانين الإبصار المعروفة، ولنا أن نقول إنها تنطبع على صفحته وتظل مطبوعة بها إلى ما شاء الله، إن العقل قد أدخل تلك الصورة، احتفظ بها واختزنها فى خزانته العجيبة، و إذا طلبنا إليه أن يعيد إلينا شيئا أعاده ومثله كأنما نشاهده على الطبيعة(٢) .

ولعل من الواضح أن خزانة العقل لم يتسن لها أن تحتفظ أو أن تسمع حقائق هذا العالم المائج الضخم، إلا لأنه - أى العقل - قد قام بعملية تجريد، جرد بها تلك الحقائق من قوامها المادى واحتفظ لها بكل جوانبها الوصفية، وحين يصبح الشىء مجرد أوصاف، فقد صار حقيقة عقلية كأنه ضرب من المعنويات(٣) .

من أجل هذا نجد آيات بالقرآن الكريم يدعونا من خلالها- سبحانه وتعالى- إلى استثمار قدرات العقل ووظائفه، فمن ذلك :

١-آيات تدعو إلى النظر، فلقد دعا القرآن الكريم إلى النظر فى مائة وتسع وعشرين آية، جاءت على معان مختلفة، منها النظر بمعنى نظر العين أى الرؤية، وبمعنى الانتظار، وما يهمنا هنا هو ذلك النظر الذى يقوم على الفحص والتأمل والروية والتبصر بحقائق الكون(٤) . قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس]. ويقول: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق].

٢-آيات تدعو إلى التبصر، كوظيفة من الوظائف العقلية، وهى توضح دعوة القرآن الكريم للنظر العقلى، وقد وردت فى مائة وثمان وأربعين آية، مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

فالنظر المطلوب هنا ليس البصر بمعنى العين، بل البصيرة العقلية(٥) .

---

(١) صابر طعيمة : المعرفة فى منهج القرآن، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨ .

(٤) فاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلى، ص٦٦ .

(٥) المرجع السابق، ص ٦٧ .

٣-آيات تدعو إلى التدبر: وعددها أربعة آيات، وكلها تتصل بتدبر القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص].

٤-آيات تدعو إلى التفكير، وهى ست عشرة آية تناولت التفكير فى جميع مظاهر الوجود، سواء الآيات الكونية أو آيات الأنفس أو الدلائل على التوحيد وصدق رسالة محمد ﷺ والبعث(١).

ومن هذه الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)﴾ [النحل].

وعندما نزلت هذه الآية التى يقول فيها عز وجل:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران]، روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن رسول الله بكى، وقال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»(٢).

٥-آيات تدعو إلى الاعتبار، وذلك فى سبع آيات، من ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر].

٦-آيات تدعو إلى «التفقه»، وقد وردت مادة «فقه» فى القرآن الكريم فى عشرين آية، منها قوله عز وجل: ﴿...انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ [الأنعام].

٧-آيات تدعو إلى التذكر، وهو من العمليات العقلية العليا، ومن آياته سبحانه فى هذا من بين (٢٦٩) مرة وردت فيها مادة «التذكر»(٣): ﴿... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ [البقرة].

---

(١) فاطمة إسماعيل / ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٩

(٣) المرجع السابق، ص ٧٢.

لقد وهب الله سبحانه الإنسان عقلا به يميز ويدرك ويفكر ويفهم ويختار ويريد ويقف على الأمر أمرا والنهى نهيا . ويستطيع تطبيق أوامر الشرع ونواهيه تطبيقا يقوم عليه نظام المجتمع وصلاح أحواله واستقامة أموره، والإنسان لا يعد مسئولا ومكلفا فى الإسلام إلا إذا بلغ وكمل عقله وأصبح رشيدا، والرشيد يقصد به من بلغ سن الرشد وأصبح أهلا لتحمل مسئولية التكليف ورعاية الأمانة[1] .

ولقد جعل القرآن الكريم سن الرشد هو سن اكتمال العقل الإنسانى وقدرته على الإدراك والاختيار الذى به يتحمل تبعة أعماله ويدرك به معرفة النتائج المترتبة على الأفعال وهو سن الرشد المقترن بالتكليف وتحمل المسئولية، وهو أن يبلغ الصبى ويستقل بتصرفاته وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ... (٦) ﴾ [النساء].

فقوله : « حتى إذا بلغوا النكاح» « حتى » ابتدائية و « إذا » شرطية، وفعل الشرط قوله : « بلغوا » وجوابها « فإن آنستم منهم رشدا »، فشرط إعطاء الولى المال لليتيم، بلوغ النكاح وعلم المرشد[2] .

ولذلك نجد أن الإسلام فى تشريعه الحكيم لم يحمل من لم يكتمل عقله أو من حصل فى عقله خلل أو مرض يجعله لا يستطيع فهم خطاب الشرع وأوامره ونواهيه، فالطفل لا مسئولية عليه وليس مطالبا بأى أمر من أوامر الدين، لأن عقله لم يكتمل بعد لأنه يمر بمرحلتين قبل بلوغه سن الرشد، المرحلة الأولى التى يسمى فيها طفلا غير مميز لفقده التمييز الذى يعرف به النافع له من الضار به . والمرحلة الثانية : التى يسمى فيها طفلا مميزا، وذلك بحصول التمييز فيه، يعرف النافع من الضار، وهو فى كلتا الحالتين غير مكلف، وليس مسئولا لأنه لم يكتمل عقله ونضوجه نضوجا يؤهله لفهم خطاب الشرع، يقول الشيخ البخارى « والصغير فى أول أحواله مثل المجنون. والتمييز معنى يعم جميع الحيوانات به تعرف ما تحتاج إليه من المنافع والمضار التى يتعلق به بقاؤها، ركبه الله فى طباعها »[3] .

ومن أهم ما نلفت إليه الانتباه فى أهمية العقل التربوية أن الإنسان يميل إلى التأمل

---

(١) محمد إبراهيم الشافعى، مرجع سابق، ص ٢٢٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٥.

والتفكير مهما ضعفت ثقافته، وقلت خبرته، فالطفل الصغير يحاول أن يعلل ما يشهد، والهمجي المتوحش يفكر فى أسباب ما يحدث، وإن كان تفكيرهما معا لا يسير على طريق صحيح، فإن كل إنسان كائنا ما كان فيلسوف صغير، يجب أن يكون له فهمه الخالص وتفكيره الذاتى؛ لذلك كان الأسلوب البليغ فى أرقى مجاليه يحمل طابع الفكر الرصين لتصغى إليه الإنسانية المفكرة بطبيعتها الأصيلة، وما خلدت روائع الأدب فى شتى العصور إلا بما تحمل من أفكار جيدة قوية، صيغت فى صور جميلة مطبوعة، ولو بحثنا عن بواهر الخالدات من الآثار فسنرى أن الخلود كان نصيبها الدائم لما تحصله من بوارق تضىء العقل وهزات ترنح الإحساس. والقرآن الكريم كتاب البشرية الخالد، قد بلغ قمة تأثيره بما أتاحه من النظر الفسيح فى ملكوت السموات والأرض وبما هدى إليه من عناصر الصدق والجمال والحق التى تنعقد على الفطرة الإنسانية الخالصة، فكان ذلك مصدرا حيا لقوته، حيث خاطب الإنسانية بما جبلت عليه أن ترين عليها غشاوات الجهل، والأنانية، فأقنعها كل الإقناع بما أتى به من نظم، وبدد شبهات المرتابين بما ضرب من مثل، وكان فى إقناعه البليغ سادا ثغرات الشك لدى من أخلص للحق قلبه، فانقادت إليه ملايين البشر عن حب وإيمان[1] .

ومن مزايا القرآن الكثيرة، مزية واضحة، تلك المزية، هى التعويل على العقل فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية، بل هى تأتى فى كل موضع من ومواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه، ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها علماء النفس، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ومناسبتها[2] .

ومن الآيات التى تبين إشادة القرآن بالعقل والثقة به قوله تعالى :

﴿ ... آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف].

- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان]. أى آتيناه الفقه والعقل، وإصابة القول .

---

(١) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى، ص ٥٤ .٢

(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٥ .

- ﴿ ... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة].
- ﴿ ... وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الطلاق]. أى ذوى عقل .
- ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق]. أى عقل.
- ﴿ ... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم].
- ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ... ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٧٠]. أى عاقلا .
- ﴿ ... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل].

والإسلام حين دعا إلى التفكير ورحب به، إنما أراد أن يكون ذلك فى دائرة نطاق العقل وحدود مداركه، فدعا إلى النظر فيما خلق الله من شىء فى السموات والأرض، وفى الإنسان نفسه، وفى الجماعات البشرية، ولم يحظر عليه إلا التفكير فى ذات الله لأن ذات الله فوق الإدراك[1].

والذين يجحدون نعمة العقل ولا يستعملونه فيما خلق من أجله، ويغفلون عن آيات الله هم موضع الازدراء والتحقير، والله سبحانه يعقب عليهم، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف].

ويقول : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يس].

والتقليد هو المانع للعقل من الانطلاق، والمعوق له عن التفكير، ومن ثم فالله يثنى على الذين يخلصون للحقائق ويميزون بين الأشياء، بعد البحث والتمحيص، فيأخذون الأحسن ويدعون غيره، يقول عز وجل :

﴿ ...فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر].

ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم، ويجمدون على القديم المألوف ولو كان الجديد أهدى وأجدى لهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف].

---

(١) السيد سابق : إسلامنا، بيروت، دار الكتاب العربى، د.ت، ص ١٩.

وينعى القرآن الكريم على الكفار أنهم إذا دعوا للإيمان احتجوا بأنهم لا يستطيعون ذلك لأن آباءهم لم يفعلوه، فهم يستهدون بهم ويسيرون على منوالهم فيتساءل فى إنكار وتعجب: « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟» وفى هذه الآية استنكار واضح للتقليد دون تحكيم للعقل والتفكير : يقول الشيخ محمد عبده، تعليقا على هذه الآية الكريمة : «عقل الشىء معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه، وأقرب الناس إلى معرفة الحق، الباحثون الذين ينظرون فى الدلائل، بقصد صحيح ولو فى غير الحق، لأن الباحث المستدل إذا أخطأ يوما فى طريق الاستدلال أو فى موضوع البحث، فقد يصيب فى يوم آخر، لأن عقله يتعود الفكر الصحيح واستفادة المطالب من الدلائل، وأبعد الناس عن معرفة الحق، المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم، فهم لا يصفون بإصابة، لأن المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق، والمقلد إنما عرف أن فلانا يقول أن هذا هو الحق، فهو عارف بالقول فقط، ولذلك ضرب لهم المثل بعدما سجل عليهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم»[1].

وعندما طالبهم الله تعالى بالبرهان على دعواهم، قرر لنا قاعدة لا توجد فى غير القرآن من الكتب السماوية، وهى أنه لا يقبل من أحد قولا لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، ذلك أن الأمم التى خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها، ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ... (١٠٨) ﴾ [يوسف]. وقد فسر البصيرة بالحجة الواضحة[2] . ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية، وهى كثيرة فى القرآن وبالأدلة النظرية كقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (٢٢) ﴾ [الأنبياء].

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة، لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح، قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد، وأمر بالتقليد ونهى عن الاستدلال على غير حجة

---

(١) تفسير المنار، جـ ٢، ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص ٤٢٥.

التقليد، حتى كأن الإسلام خرج عن حده وانقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة فى الأمر، لا يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ولا يعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، وياليته كان الأخذ بقال الله وقيل فيما يروى عن الرسول ﷺ، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ... ﴿٢٣﴾﴾ [النجم].

ولا تكاد تمر بك آية فى المجادلات إلا وهى مختومة بمثل :«بل أكثرهم لا يعلمون» «قليلا ما تذكرون» «هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» «أنى تؤفكون» «لا تشعرون» «أفلا تسمعو» «إنما يتذكر أولوا الألباب»... وهلم جرا [١].

وتطبيقاً لهذه الفلسفة فى احترام العقل، نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بقولهم من غير معرفة دليلهم، ومن هنا قول الفقيه أبى الليث السمرقندى : حدثنا إبراهيم أبو يوسف عن أبى حنيفة أنه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين قلناه . وروى عن عصام بن يوسف أنه قيل له إنك تكثر الخلاف لأبى حنيفة، فقال : إن أبا حنيفة قد أوتى ما لم نؤت، فأدرك فهمه ما لم ندركه، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا، ولا يسعنا أن نفتى بقوله ما لم نفهم من أين قال[٢] .

إن جاليليو عندما وقف فوق برج بيزا المائل ممسكا بكرتين مختلفتى الوزن وأسقطهما فى وقت واحد أمام جمهرة من أساتذة جامعة بيزا بإيطاليا ليثبت لهم خطأ نظرية أرسطو القائلة : بأنهما لا يسقطان فى وقت واحد، عد ذلك ثورة معرفية أطلقت العقل البشرى من عقاله فانطلق يجوب الآفاق باحثا منقبا، فقلب الحياة الإنسانية رأسا على عقب .. وجوهر الثورة هنا أنه لم يفكر فى الإطار الذى رسمه أرسطو كما فعل سابقوه ومعاصروه وإنما استخدم عقله وفكره . وهذا هو القرآن .. قبل جاليليو يؤكد للمسلمين، بل للناس عامة خطر التقليد وميزة « التعقيل » .

ولو أشرنا مجرد إشارة لما يمكن أن يحدثه هذا المبدأ الهام من تغيير فى المفاهيم والتطبيقات التربوية، لوجدنا هذه الأمثلة :

١- عدم التقولب فى قوالب الفكر التربوى كما شكلها المفكرون السابقون حتى لا تكون قيدا يحد من حركتنا فى رؤية الاختلافات بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس .

---

(١) عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، ص ١٣٠ .

(٢) تفسير المنار، ص ٦٧ .

٢- الإيمان بسنة التغير وبأن الثقافة ما دامت غرس المجتمع فهى أيضاً متغيرة متطورة، ومن ثم يجب استخدام العقل ومزاولة التعقل بصفة مستمرة لمواجهة أمور كل يوم جديد.

٣- ضرورة ممارسة النقد بكل جرأة لا يصدنا عن ممارسته أن يصدر الكلام من أى موقع، ما دام صادرا من إنسان غير معصوم .

ومن القسمات التى يعنى القرآن بإبرازها خلال استثارته للفكر، حرية الاعتقاد، ومن الغريب أن هذه الفكرة - رغم صراحة القرآن وتشديده، وتكراره لها بعبارات قاطعة- لم تجد تجاوبا، بل نقول أنها نبذت تماما لأنها مخالفة حادة، ما يدعو إليه السدنة وذوو المصالح الذين نصبوا أنفسهم قضاة على الناس وحكاما فى شئون إيمانهم، ونجحوا فعلا فى إيجاد رأى عام يستبعد حرية الاعتقاد، وانقلبت الآية، فأصبح الحق باطلا والباطل حقا، وبدلا من أن يثير أى قيد على حرية الاعتقاد العجب والاستنكار أصبحت حرية الاعتقاد شيئا يعاذ منه ويتعجب له [1]، وذلك لأن الاعتقاد ما دام يقوم على الإيمان القلبى، فلابد أن ينشأ بفضل الحرية والمبادأة فى التفكير، ولا يمكن أن يؤمن الناس قسرا، وأى إيمان قسرى لا قيمة له لأنه يتجرد من النية، وهى أصل فى الإيمان والعبادات، ولأنه لا يقوم على تفكير ولأن صاحبه يكون مُكرها فلا عقاب ولا ثواب[2].

من أجل هذا كله، فإن القرآن يقرر فى آيات لا يتسع المجال لحصرها، حرية الاعتقاد وأن الأنبياء أنفسهم لا سلطان لهم على قلوب الناس :

- ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام].

-﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس].

-﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ

---

(١) جمال البنا: الإسلام والعقلانية، ص٨٠ القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ١٩٩١.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة].

. ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس].

ولا شك أن العارف بالله تعالى، والعالم بشرعه وبسننه فى خلقه لا يقصد بدعائه ربه إلا هدايته إلى الطريق والأسباب التى جرت سننه تعالى بأن تحصل الرغائب بها وتوفيقه ومعونته فيها، فهو إذا سأل الله تعالى أن يزيد فى علمه أو فى رزقه فلا يقصد أن يكون العلم وحيا يوحى ولا أن تمطر السماء له ذهبا وفضة، وكذلك إذا سأل الله شفاء مرضه أو مريضه الذى أعياه علاجه، فإنه لا يريد بذلك أن يخرق الله العادات، أو يجعله مؤيدا بالمعجزات (الآيات) وإنما يريد المؤمن العارف بالدعاء ما ذكرناه من توفيق الله إياه إلى العلاج أو العمل الذى يكون سبب الشفاء سواء كان ذلك بإرشاد مرشد أو بإلهام إلهى، فكم لله من عناية بالمتوجهين إليه، الداعين له بعد ما اجتهدوا فى الأخذ بالأسباب فلم يفلحوا. ومن عناية الهداية إلى سبب جديد، وإلهام النفس العمل المفيد، وتقوية المزاج على المرض. ولا دليل فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]، على أن كل دعاء يجاب، بل هى نفسها دليل على أنه لا يجيب الدعاء إلا الله ، فيجب ألا يدعى سواه :﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن]. وانظر كيف لم يقل فى آية البقرة (١٨٦) أنه يجيب دعوة الداعى حتى قيدها بقوله « إذا دعان » .

قال الإمام محمد عبده ما مثاله: « إن الداعى شخص يطلب شيئا، وهو يصدق على أكثر الناس الذين يطالبون كل يوم أشياء كثيرة، وليس كل واحد منهم متحققا بالدعاء والتجأ إليَّ التجاء حقيقيا بحيث ذهب من نفسه إليَّ، وشعر قلبه بأنه لا ملجأ إلا إليَّ، ومثل هذا أيطمع فى غير مطمع، ولا يطلب ما لا يصلح أن يطلب، وإنما يمتثل لأمر الله تعالى باتخاذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة، وهى لا تتحقق إلا

بالعلم والعزيمة والعمل، فإن للعبد ما يريد بذلك، فقد أعطاه الله تعالى من خزائنه التى يفيض منها على جميع متبعى سننه فى الخلق، وإن بذل جهده ولم يظفر بسؤاله، فما عليه إلا أن يلجأ إلى مسبب الأسباب وهادى القلوب إلى ما غاب عنها وخفى عليها، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت كل شيء »[1].

٢- تكريم الإنسان:

تناولنا فى الفصل الأول « الإنسان » باعتباره ركنا من أركان البيئة الفكرية الإسلامية الأساسية من حيث : الدلالة اللغوية . .عملية الخلق. . غاية الخلق . . طبيعة التكوين، أما فى الجزء الحالى فنقتصر على مظاهر تكريم الإسلام للإنسان كما تتبدى فى آيات القرآن الكريم على أساس أن الإنسان هو موضوع التربية، وبقدر ما يعطيه المذهب أو العقيدة للإنسان من قيمة وتكريم بالقدر الذى يحتم أن تجيء العملية التربوية فلسفة وأهدافا وأساليب على نفس القدر من «التقدير» و«علو المكانة» والتكريم .

ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من القرآن الكريم، ولقد بدأ القرن العشرون يطوى صفحته الأخيرة بما استحدث من مبادئ ومذاهب و«أيديولوجيات» ولم ينته- ولن ينته- ما يتعلمه أهل القرآن من القرآن[2] .

وقد استمع الناس إلى المادية التاريخية، فقالت لهم إن الإنسان عملة « اقتصادية» فى سوق الصناعة والتجارة، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد. أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية، فقالت لها أنها شيء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس إلى الفاشية فقالت: إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود، وأن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى مذاهب أخرى، فقال لهم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان، وأن الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد، وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث[3] .

---

(١) تفسير المنار، للآية ١٨٦/ البقرة.

(٢) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، ص ٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

وغير جديد ما استمعوه من أصل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ومكانه من إخوته فى آدم وحواء .

وسمعوا من القرآن غير ذلك، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع، و« الإنسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسن وأتقنه[١] .

والإنسان كائن كريم على الله، ذو مركز عظيم فى تصميم الوجود - على الرغم من كل ما فى طبيعته من استعدادات للضعف والخطأ، والقصور والتردى - ولكن استعداده للمعرفة ولحمل أمانة الاهتداء، وللتبعة، يجعله كائنا فريدا، يستحق تلك العناية الإلهية به بإرساله رسله ورسالاته، وهو أكرم من كل ما هو مادى، لأن كل ما هو مادى مخلوق له .

وهو كائن يتعامل مع الكون كله ومن فيه وما فيه . وهو يتعامل مع ربه كما يتعامل مع الملأ الأعلى من الملائكة، ومع الجن والشياطين، ومع نفسه واستعداداته المتنوعة ومع سائر الأحياء الكونية، ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية، ومع مادة هذا الكون وأشيائه، والكون مهيأ للتعامل معه، كما أنه مجهز بوسائل التعامل مع الكون، ومع رب الكون، بما ركب فيه من روح وعقل وحواس وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه[٢] .

وهو مصمم على قاعدة الازدواجية التى هى خاصية كونية وحيوية، وعلى قاعدة التكامل بين الزوجين، لا التماثل - وهى كذلك خاصية كونية وحيوية - وقبل ذلك : على أساس التناسق مع الكون والقربى فى الماهية المادية، بزيادة ذلك العنصر الفريد فيه - النفخة من روح الله - وهى أمر غير مجرد الحياة الحيوانية، وهو العنصر الذى خط له طريقه الخاص الذى يعترف الآن بخصوصيته حتى أصحاب المذاهب المخالفة .

وقد تبارى فلاسفة الإسلام ومتصوفوه ومفكروه فى الإشادة بتكريم الله وفى شرح معناه وفى تنظير مغزاه[٣] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠ .

(٢) سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى، ص ٣٦٢ .

(٣) حسن صعب : الإسلام والإنسان، ص ٨٣ .

فقد استخرج محمد إقبال نظرية حول الإنسان فى الإسلام دعاها مريدوه «الفلسفة الإسلامية للذات» وجاءت هذه الفلسفة فى كتابه « أسرار الذات »، ومدار هذه النظرية أن الله هو ذات فريدة، إنه الذات الخلاقة، وعملية خلقه للكون ما تزال مستمرة، ويشترك الإنسان معه فى صورة من صور الخلق، بتحمله مسئولية إحلال النظام محل الفوضى، وقد اختار الله الإنسان ليكون مشاركا له فى مستوى من مستويات الخلق، وأشار إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

فللآية دلالتها على أن هنالك خالقا غير الله، ولكن الله هو أحسن الخالقين. ولا يمكن أن يكون الخالق الآخر إلها آخر لأن التوحيد ينفى أى إله إلا الله، فلابد أن يكون الإنسان وحده هو الذى يقدر على مستوى من مستويات عملية الخلق لا بمعنى الإيجاد من عدم - فهذا ما يتفرد به الله - ولكن من حيث التأليف الجديد من بين ما سبق لله أن خلقه . والإنسان القادر على هذا هو الإنسان المتطور تطورا مطردا فى معراج المثل الأعلى الإلهى، والمتحول تحولا دائما كائنا فريدا [1].

ولقد أفاض القرآن الكريم - وكذلك السنة النبوية - عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام فى معرض الوصف والإخبار، وفى معرض المنة والتفضيل والاعتبار، وهو الأمر الذى لم يحظ به أى مخلوق آخر دلالة على علو الشأن وجلالة القدر، فإن الاحتفال بميلاد المولود، وإعادة ذكراه باستمرار علامة على رفعة قيمته الذاتية[2] .

ومع هذا الاحتفال القرآنى بخلق الإنسان من بين سائر المخلوقات، فإن هذا الخلق، جاء متميزا لخصوصية هامة تمثلت فى العناية الإلهية المباشرة به، حيث جاء كثير من نصوص القرآن والحديث تصور الخلق الإلهى للإنسان بصورة تبدو فيها العناية المخصوصة من الله تعالى لهذا المخلوق فى مباشرة خلقه، وفى تصويره وتكوينه، حيث جاء كل ذلك على معنى من الحدب والإيثار والقربى لا نجد له نظيرا فى سائر المخلوقات.

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص].

فالآية تشير إلى أن الإنسان خلق بيدى الله علامة على التشريف والتعظيم له، إذ أن العظيم الشأن المقدر للأمور والمسيطر عليها لا يتولى بيديه إلا الأمر الكبير القدر

---

(١) حسن صعب : ص ٨٤ .

(٢) عبد المجيد النجار : عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوى، مجلة المسلم المعاصر، العددان ٧٣-٧٤، ص ١١٤.

الرفيع القيمة، وهذا المعنى متحقق فى الآية إذا حملت على التأويل كما هو الأرجح فى ميزان تنزيه الله عن مشابهة الخلق بالأعضاء، حيث يحمل الخلق باليدين على العناية الشديدة .

قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

لقد جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك - وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أى الشرعية لأن الشرع وضع إلهى)، كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات، نطق الوحى ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشيء محدود معين لا يتعداه . فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحى كالملائكة فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة[1]. قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الصافات] ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات]. على قول من قال أن المراد بها الملائكة . إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة .

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل . وحال النبات، وإنما تأثير حياته فى نفسه، فلو فرض أن له علما وإرادة فهما لا أثر لهما فى جعل النبات مبينا لحكم الله وسننه فى الخلق ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها . فكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعدادا، وعلما إلهاميا محدودا، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذى لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه، ولا نهاية لأعماله وتصرفه[2].

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال فى قرآنه المجيد : ﴿ ... وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء]، وخلقه جاهلا كما قال عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم

---

(١) تفسير المنار، جـ١ ، ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

الإنسان ضعيفا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء]، وخلقه جاهلا كما قال عز وجل: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه على ضعفه وجهله، عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب، لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء، ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء، يولد الحيوان عالما بالإلهام ما ينفعه وما يضره، وتكمل له قواه فى زمن قليل، ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطىء بالنسبة إلى غيره من الحيوان، ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة، وهى التى يسمونها العقل، ولا يعقلون سرها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها .

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه فى الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الأرض وسخر له عوالمها وأعطاه أحكاما وشرائع فيها حد لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض[1] .

يقول جل وعلا فى كتابه الكريم : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣٤] . إنه لتكريم فى أعلى صورة لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة . . لقد وهب سر المعرفة، كما وهب الإرادة المستقلة التى تختار الطريق[2] ، ومن هنا فإن أجلَّ تكريم كرم الله به الإنسان هو أنه سبحانه منحه أدوات التعلم والتعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها، وذلك ليتابع فى حياته بحثه العلمى السليم ليكتشف أسرار هذا الكون، وحتى يحسن الانتفاع مما بث الله له فى هذا الكون من قوى وخيرات. أما الذين يعطلون أدوات المعرفة التى وهبهم الله إياها، أو يستخدمونها فى حدود ظواهر الحياة الدنيا فقط، ثم لا يتنقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم يؤمنون به، فأحرى بهم أن يقال عنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون، وذلك لأنهم قد عطلوا هذه الأدوات التى منحهم الله إياها عما خلقت من أجله، فهم وفاقدوها سواء، أولئك شر الدواب عند الله[3] .

---

(١) تفسير المنار، جـ١، ص٢١٧.

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن، جـ١، ص٦٧

(٣) عبد الرحمن حبنكة : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها . الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ص٢٨٩.

وقد تكرر الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم فى آيات البقرة / ٣٤، الأعراف / ١١،الحجر / ٢٩، الإسراء / ٦١، الكهف / ٥٠، طه / ١١٦، ص/ ٧٢ .

ويلفتنا منها بوجه خاص، آية الأعراف :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف].

. بما يتيح لنا الاطمئنان إلى أن نعتبر أبوة آدم للإنسان هى موضع هذا التكريم، إذ إن الخطاب فى صدر الآية لبنى الإنسان، وهذا العموم مستفاد من ضمير الجماعة للمخاطبين :«خلقناكم ثم صورناكم» .

والسجود إذا كان لغير الله، فليس معناه العبادة بالمصطلح الدينى لمعنى السجود، وإنما هو الخضوع، على أصل الاستعمال اللغوى للمادة. وبهذا المعنى تفسر آيات السجود لآدم، أو للنوع الإنسانى فيه .

ويفرق اللغويون[1] بين ضربين من السجود لله : سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، وسجود بتسخير، وهو عام فى المخلوقات : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل][2].

وهذا السجود الاختيارى، مظهر من مظاهر الإرادة الحرة إلى يحتمل مسئوليتها فيما يحتمل من أمانة إنسانية .

وهكذا نستخلص من آيات البقرة فى خلافة آدم فى الأرض وأمر الملائكة بالسجود له أمرين[3] :

أولهما : أن تكريم الإنسان الأول، الذى تمثل فى الأمر الإلهى بأن يسجد الملائكة له، كان التبرير الظاهر له فى سياق الآية هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة الذى لا مجال فيه لميزة الكسب : ﴿ ...سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ... ﴿٣٢﴾ ﴾[البقرة].

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان، ص٤٠.

(٢) وانظر أيضا : الرعد / ١٥، الحج / ١٨ .

(٣) مقال فى الإنسان، ص٤١.

الثاني : أن الخلافة فى الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمى من أمانة إنسانيته ومسئولية عمله وكسبه، وتبعة الابتلاء التى أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق .

والقرآن يقرر أن الله خلق الإنسان مستعدا لأن يسعد نفسه بالخير أو يشقيها بالشر، والخير هو ما ينفعه وينفع جماعته فى الدنيا ويرضى الله عنه فى الآخرة، والشر هو ما يؤذيه فى حياته ليغضب الله عليه فى آخرته . ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** (١٠) ﴾ [البلد]، ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (٣) ﴾ [الإنسان]، والإنسان بذلك كان صالحا بعقله وعمله ومسلكه فى الحياة لدرجات القرب من الله ولدرجات البعد عنه، وما كانت هداية الوحى إلا لتقوية الخير فيه، وللأخذ بيده من نزعات الطغيان والهوى إلى ما قدر له من كمال فى دنياه وأخراه .

ويقول تعالى : ﴿ ... **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** (٧٨) **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** (٧٩) ﴾ [النساء].

فقد كان بعض القوم بطرا جاهلا، إذا أصابه خير ونعمة يقول : إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك، وأصدره من لدنه، وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته، وإذا وصل إليه شر، وهو المراد من السيئة، يزعم أن منبع هذا الشر هو النبى ﷺ، وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور، فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة يتناوبانهم قبل ظهور النبى وبعده كانوا يفرقون بينهما فى السبب الأول لكل منهما، فينسبون الخير أو الحسنة إلى الله تعالى على أنه مصدرها الأول، ومعطيها الحقيقى، ويشيرون بذلك إلى أنه لا يد للنبى فيه وينسبون الشر أو السيئة إلى النبى، على أنه مصدرها الأول ونبعها الحقيقى كذلك، وأن شؤمه هو الذى رماهم بها، وهذا هو معنى «من عند الله »، أو « من عندك »، أى من لدنه، فرد الله عليهم هذه المزاعم بأنه هو السبب الأول والفاعل الأول الذى يرد إليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر[1] .

كذلك فإن قولهم يعنى أنه لا دخل لاختيارهم فى الأولى ولا فى الثانية . هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى فى الخير والشر والنعم والنقم، أما ما يتعلق بسنة الله فى طريق كسب الخير والتوقى من الشر، والتمسك بأسباب ذلك، فالأمر على خلاف ما

---

(١) محمد عبده، دروس من القرآن الكريم، ص١٤٣ .

يزعمون، كذلك فإن الله سبحانه قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا فى توفير أسباب سعادتنا، فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله، وصرفنا الحواس والعقل فى الوجوه التى ننال منها الخير، فلا ريب أننا ننال الخير والسعادة، ونبعد عن الشقاء والتعاسة، وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية، فهى من الله لأنك لم تأت بشيء سوى استعمال ما وهب الله[1]. ونفس الشيء يصدق على إساءة التصرف مما ينتج عنه الشر ونسبة الشر هنا تكون لنا نحن عندما لا نحسن استخدام ما وهبنا الله لفعل الخير[2].

والقرآن حين يضع الإنسان فى تلك المنزلة، لا ينظر إلى ما بين أفراده من فوارق شخصية من ذكورة وأنوثة، وسواد وبياض، فالذكر والأنثى، والأسود والأبيض فى التصور القرآنى بالنسبة إلى الخالق، وبالنسبة إلى الكون، سواء . فالكل عباد مطالبون بالعقيدة وما أنزل الله من شرع، وأكرمهم عند الله أتقاهم، وكلهم أناس ينظرون ويفكرون ويعلمون، لا حجر على أحد فى أن ينظر ويعمل، ولا حجر على أحد فى أن ينتفع، وأسعدهم فى الدنيا العاملون المخلصون، المؤمنون[3].

ويقرر الإسلام وحدة الإنسانية بتقرير وحدة أصل التكوين، يقول عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾ [يونس]. ويقول سبحانه : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة].

فكان الاتحاد فى أصل التكوين من حيث اتحاد الغرائز والاتجاهات الإنسانية سببا فى الاختلاف، لأن الآحاد يتنازعون استجابة لغرائز كل واحد منهم، إذ إنه حيث استجاب كل واحد لغرائزه تصطدم إرادته مع إرادة الآخر الذى استجاب هو أيضا لغرائزه، فيكون التناحر حيث تصطدم الشهوات وتتنازع الإرادات، وكل يحب لنفسه الاستيلاء على أكبر قدر من المطالب والوصول إلى أقصى ما يحب من الغايات؛ ولذلك كان لا بد من فاصل يرسم الحدود ويقيد الغايات، للتلاقى فى خط مستقيم من غير

(١) المرجع السابق، ص١٤٤ .

(٢) المرجع السابق، ١٤٥ .

(٣) محمود شلتوت : الإسلام، عقيدة وشريعة، ص٤٥ .

انحراف ولا تقاطع، بل يكون لكل واحد خط مواز لخط أخيه، وكل الخطوط تنتهى إلى خدمة الجماعة الإنسانية، وبذلك تتحدد الغايات والأهداف، وكأنها النهيرات تنتهى عند مصب واحد[1].

ولقد قرر المفسرون أن كل نص قرآنى ابتدأ النداء فيه بـ « يا أيها الناس»، يكون الخطاب فيه للناس جميعا غير مختص بقبيل دون قبيل، لأن العنوان فيه للإنسانية كلها، فكل من يتصف بها داخل فى الخطاب[2].

وإذا كانت الرسالة المحمدية لها ذلك العموم فإنها لإصلاح الجميع، ولقد عاملت الأجناس كلها وعممت فيهم أحكامها، فليست هناك أحكام للبيض وأخرى للسود، ولا أحكام لشرق الأرض وأخرى لغربها[3].

ولا يصلح لهذا أن يحقر إنسان للونه ولا لإقليمه ولا لأنه غير متحضر، بل إنه لا يحقر الإنسان أخاه الإنسان أبدا، وإن التفاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة وبالعمل الصالح، وأن يكون فى الإنسان الاستعداد للخير أو الشر، فذلك معناه بروز مبدأ «المسئولية الأخلاقية»، فالإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ بوزر واحد، ولا أمة بوزر أمة: ﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]. ويقول أيضا: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة].

إن القرآن الكريم يقرر ويؤكد بكل أساليب التقرير وبجميع أنواع التأكيد أن كل إنسان يحمل مسئولية نفسه كاملة عما يقوم به من عمل خير أو شر، وأن الكتاب العزيز ليجعل مسئوليته الشخصية قاعدة كلية ومبدأ عاما يناط به كل تكليف من تكاليف الإسلام وكل فرع من فروع مسئوليته التى حملنا الله تعالى إياها.

وتعنى شخصية المسئولية، أنه لا يعاقب أحد بجرم غيره، ولا تقع عليه جريرة أحد سواه، فكل ما ينال المرء من عقاب إنما يكون جزاء له على ما باشره أو تسبب فيه من شر، وكل ما يسبغ عليه من ثواب لا يكون إلا نتيجة لسعيه الشخصى وعمله الفردى الذى باشره أو تسبب فيه، وقد جاءت آيات القرآن الكريم تدعم هذا المبدأ وتثبته تثبيتا حتى صار أصلا من أصول الإسلام العامة، بل أثبت القرآن الكريم أنه أصل لكل

(١) محمد أبو زهرة: المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام)، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٢، جـ٢، ص٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣.

الرسالات السابقة التى جاءت بالهدى ودين الحق، وذلك ليحققه الله- عز وجل- ويؤصل العدالة التامة الشاملة التى هى هدف الإسلام وغاية جميع الشرائع السماوية[1].

وتطبيقا لهذا المبدأ نجد أن الأبناء لا ينتفعون بعمل الآباء ولا العكس إذا كان أحدهما صالحا والآخر طالحا، وإلا لا نتفع ابن نوح بصلاح أبيه وهدايته ونبوته، وإنما قطع الله وشائج صلته وأهليته بأبيه : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]. فمع سؤال نوح ربه أن يجعل ابنه من أهله لعله ينال شيئا من ثوابه حتى ينجو من العذاب، لم يستجب الله له، وذلك لأنه خالفه فى الاعتقاد والعمل والنية، وهو عمل غير صالح، وبذلك أزال الإسلام رواسب الجاهلية وعاداتها من مؤاخذة الرجل بذنب أبيه أو ابنه أو حليفه[2] .

ومن هنا محيت خطيئة آدم وقرر القرآن أنها لا تنسحب على ذريته، ذلك أن آدم لم ينقد للخطيئة لخبث فى طبيعته، أو سوء فى إرادته. وليس يكفى أيضا أن يقال، أنه انقاد لإغراء قوى، بل يجب أن نضيف - تبعا للقرآن - أن هذا الإغراء لم يكن فى جوهره ذا طابع مادى، فإن جدنا الأول قد خدعته كلمات عدو أقسم له، تأكيدا لكلامه، وزعم أنه ينصحه، فاعتقد بسذاجته أنه حين يأكل الفاكهة المحرمة فربما يصبح نقيا كنقاء الملائكة، خالدا كخلود الإله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف]. وعلى الرغم من أن آدم كان منذ البداية محصنا ضد المكائد المحتملة من عدوه، فقد نسى الإنسان الأول، وجاءت اللحظة التى لم يجد لنفسه فيها إرادة صامدة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه]. ومع ذلك فهذا النسيان لا يعتبر بالنسبة إليه عذرا مقبولا، كما أن النية الطيبة لا تشفع له كذلك ، لأن النسيان لم يكن للأمر فى ذاته، بل للهدف منه، وأيا ما كانت الدوافع النبيلة وراء المخالفة، فإنها لا يمكن أن تعفينا من التزام مطلق واضح المعالم والحدود[3] .

---

(١) محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٣) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن، تعريب عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٧٣، ص١٥٠.

فخطيئة آدم كانت إذن أثرا من آثار ضعف عارض، وجهد قاصر فى مراعاة الواجب، ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول، بحيث تستلزم تدخل « مخلص » غيره نفسه، إذ كان يكفيه أن يعترف بخطيئته، ويظهر ندمه، لا ليغسل دنسه، وتعود إليه سريرته النقية، كما كانت فحسب، ولكن ليربى هذا التائب الجديد أو يرفع إلى درجة المصطفين الأخيار: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه].

والفطرة الإنسانية على خلاف ذلك بصفة عامة، حتى أن القرآن يصفها فيقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين].

فمن هذه الآية تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء فى أحسن تقويم، والله سبحانه - أحسن كل شىء خلقه، فتخصص الإنسان هنا وفى مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق - على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنا عند الله، ووزنا فى نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء فى تكوينه الجثمانى البالغ الدقة والتعقيد، أو فى تكوينه العقلى الفريد، أو فى تكوينه الروحى العجيب .

والتركيز فى هذا المقام على خصائصه الروحية، فهى التى تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين(1) .

وفى هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنسانى، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين، كما تشهد بذلك قصة المعراج، حيث وقف جبريل - عليه السلام - عند مقام، وارتفع محمد بن عبد الله - الإنسان - إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ - حين ينتكس - لأن يهوى إلى الدرك الذى لا يبلغ إليه مخلوق قط : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [التين] . . حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها وأداء وظيفتها فى الأرض على هدى، بينما هو المخلوق فى أحسن تقويم، يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

---

(1) سيد قطب : فى ظلال القرآن، م٦، جـ٣٠، ص٣٩٣٣.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ .. فطرة واستعدادا، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ .. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليه، وبينه له، وتركه ليختار أحد النجدين .

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .. فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا إلى الكمال فى دار الكمال ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ دائم غير مقطوع .

فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين، فيظلون ينحدرون بها فى المنحدر، حتى تستقر فى الدرك الأسفل، هناك فى جهنم، حيث تهدر آدميتهم(١).

وأن القرآن ليصور لنا أن أخذ البرئ بالمذنب، لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية:(٢) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف].

إن مناط المسئولية فى القرآن، جامع لكل ركن من أركانها(٣) ، يتغلغل إليه فقه الباحثين، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ، وعلم، وعمل . فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس].

وأول فاتحة خلق الإنسان، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات، وهو ما سبق أن فصلناه فى مواضع عدة، ولعل هذه الحاجة المستمرة إلى هذه الناحية بصفة خاصة فى عدة مواقع ومناسبات تؤكد محوريتها وتبرز جوهريتها، فما من جانب، وما من قضية نتعرض لمناقشتها إلا ونجد أنفسنا بحاجة إلى التأكيد على «العلم» وما يتصل بتحصيله من تعلم وتعليم .

وأما العمل، فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة٢].

وقد قام المفكر الإسلامى المعروف « محمد إقبال » بشرح هذا الجانب، فهو يعنى بتقرير صدق الإدراك الباطنى للإنسان وطهره، ويرتب على هذا تأكيد المسئولية الأخلاقية المستقلة لكل كائن إنسانى. وهكذا فالذات الإنسانية خامة فريدة، تميزه عن سائر الذوات

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩٣٤.

(٢) دستور الأخلاق فى القرآن ص١٥١ .

(٣) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، ص١٢ .

من حيث استقلال الإرادة والمسئولية، وملذات كل إنسان وآلامه خاصة به وحده، نعم قد يسر غيره بسروره، ويألمون لألمه، ولكنهم لا يأخذون بنصيب من هذه الملذات والآلام بأى حال من الأحوال . وهذه الطبيعة التوجيهية للذات مشتقة من قدرة الله التوجيهية ونابعة منها . فالله عندما نفخ فى الإنسان من روحه، وضع ظلا من هذه الخاصية الجوهرية الفريدة التى تتصف بها طبيعته هو[1].

أما من حيث ما انفرد به الإنسان من « حرية للإرادة»، فينبغى أن نتذكر أولا أن هذا الكون خاضع لقانون فيه طبيعى، فهو عالم المتتابعات من الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات، وكل ما فيه مرتبط بعضه ببعض ارتباط الأسباب بالمسببات، فما يحدث الآن يكون حادثة نتيجة لما سبقه وسببا لوجود ما بعده، وهذا هو قانون الطبيعة الذى جعله الله فيها لتخضع له، وتسير عليه باطراد، ونظن أنه من الهين أن نتبين أن كثيرا من الآيات الدالة على الجبر لا تشير إلا إلى هذا القانون الطبيعى، فالأفلاك والنجوم، وسائر أنواع الخليقة لها طريقها المرسوم، وحركات هذه الأفلاك وحوادث الطبيعة وكثير من مجرياتها - فى الإنسان وعليه - خاضعة لهذا القانون . وأما الآيات الأخرى التى تشير إلى الإنسان بنوع خاص، فينبغى أن تفهم أو هى مفهومة من غير تكلف على ضوء الآيات الأخرى التى تؤكد فاعلية الإنسان، وعلى ضوء ما عرف بالضرورة فى الإسلام، من أن الإنسان مسئول عن كل أفعاله الاختيارية[2] .

والآية التى يقول فيها سبحانه : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد] مثل طيب لهذا النوع، فهى تدل على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يوجبوا هم حالات تؤدى إلى هذا التغيير، فالفعل المنسوب فيها إلى الله، مسبوق بفعل الإنسان، ولكن تنص الآية بعد ذلك على ﴿ **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] وهنا قد يظن التناقض، غير أن هذا الشطر الأخير من الآية لا يناقض صدرها بحال، لأنه ليس إلا تصريحا بالمطوى وكأن الآية فى جملتها تقول : إذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء مثلا، فلا بد أن يحل بهم الهوان، ولا يملك أحد أن يدفع عنهم هذا المصير لأن خالق الكون وخالق قوانينه، جعل هذه القوانين مؤدية إلى نتائجها، فالتتابع إذن هو تغييرات يحدثها الإنسان بإرادته، فتؤدى إلى تغييرات أخرى فى حياة الإنسان، بحكم هذا القانون العام .

وتحرير الإسلام لإرادة الإنسان استلزم أن يحرره من عبادة الأوثان والأصنام التى

---

(١) هارولد . ب.سميث: مذهب الإسلام فى الإنسان، ضمن بحوث (الثقافة الإسلامية)، ص٦٦ .
(٢) محمد خلف الله (محرر) : الثقافة الإسلامية، ص٣٣.

لاتحس ولا تملك لأحد نفعا ولا ضرا، ومما كان عليه الآباء والأسلاف من ضلالات وتقاليد ليست من الحق فى شىء، ولا تتفق والتفكير الحق للعقل السليم[1].

وبعد هذا نجد الإسلام يوجهنا إلى أنه ليس من العقل أن يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، وفى ذلك يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للكتابيين الذين صموا آذانهم عن دعوته: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وتطبيقا لذلك قال الفقهاء بأنه إذا وجد صبى غير معروف نسبه مع مسلم وكافر، فقال الكافر هو ابنى، وقال المسلم هو عبدى، يحكم بحريته وبنوته للكافر. وذلك لأنه بهذا ينال الحرية حالا، والإسلام فيما بعد، حين يكبر ويفهم الدلائل على وجود الله وبعثه الرسول المصطفى بالإسلام[2] .

ومن أجل هذا ركز خالد محمد خالد على أهمية أن تتمسك الجماهير بحقها فى النقد والمعارضة؛ ذلك أن الله أودع فى كل إنسان قدرة على التمييز، وجعل له عقلا يلهمه ويهديه وتفاوت العقول يقتضى بداهة تفاوت الآراء . وإنا لنستطيع أن نقول : إن رسل الله جميعا بدأوا زعماء معارضة وقادة مقاومة، وحين يقص الله علينا من أنبائهم، يفتح أعيننا على الظروف التى اقتضت إرسالهم، وهى فى مجموعها تعطيهم صورة الثائر المنقذ الذى جاء ليقول «لا »، وليقود الجماهير ضد الجهل وضد الظلم وضد الانحطاط حتى لو كان الجهل جهلها، والظلم ظلمها، والانحطاط انحطاطها[3] .

فهذا إبراهيم - عليه السلام- يسأل سادة قومه: ﴿ ... **مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴿٥٢﴾ **قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** ﴿٥٣﴾ **قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء]. وحين تبلغ المعارضة مداها دون أن تردع قوى التعصب والعناد ينتقل إبراهيم إلى طور آخر من أطوار الصراع، وهو طور المقاومة ﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ** ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء] ثم يحمل معوله وينهال عليها.

فبحسن استخدام حق المعارضة وحرية الإرادة يتم التغيير الثقافى !

---

(١) محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص٤٦.

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية، ص٥.

(٣) خالد محمد خالد : الدين فى خدمة الشعب، القاهرة، الأنجلو المصرية، ط٣٢، د.ت، ص٢٧.

واتجاه « التكريم » هذا خطير الشأن فى أثره التربوى حينما يتبناه الإنسان بالإيمان بعد استيعابه بالتمثل والوعى، فإن له فعلا بالغ الأهمية فى موقف من يتبناه سواء موقفه الداخلى إزاء الله تعالى وإزاء نفسه، أو موقفه الخارجى إزاء المجتمع الإنسانى وإزاء البيئة الكونية[1].

إن من يؤمن بأنه الكائن المكرم الذى أحاطت به العناية الخاصة، ومن يتمثل ذلك التكريم فى نفسه بما يقف عليه فى وجوهه، ويعرف أن ذلك كان على وجه القصد والحكمة، ثم يقارن نفسه فيما خص به من وجوه العزة الآنفة الذكر بأضداده من المعانى مما هو عليه كثير من البهائم والموجودات من حوله، فإنه لا يملك إلا أن يحمد المنعم بتكريمه ويتوجه إليه بالشكر لما أنعم عليه، ويتخذ الأسباب للاقتراب منه وتحصيل مرضاته، فيكون هذا الاتجاه سببا دائما فى الصلة بالله لأن الإنسان يستشعرها لما يصبح اتجاها استشعارا دائما إذ هو فى حالته الوجودية المستمرة .

ولاتجاه التكريم دور مهم فى إقرار التوازن فى ذات الإنسان، وإشاعة الشعور بالقوة فى نفسه؛ ذلك لأن اتجاه الرفعة والعزة يؤدى إلى قوة الإحساس بالوجود، وينمى الشعور بالذات، ويثمر بالتالى الإيمان بالنفس الذى هو مفتاح التوازن فى الشخصية، ومعقد الفاعلية فى المحيط .

إن شعور الإنسان بأنه كائن ذو رسالة أخلاقية، واعتقاده بأنه متحرر من كل هيمنة سوى هيمنة الله يجعله يقبل على الله عبر إنجاز الخلافة على الأرض، فيباشر هذه الأرض بالفعل، وهو يبغى بها التوجه إلى الله، فيكون فعله فيها إنشاء وتعميرا واستثمارا فعلا عميق الأثر، لأنه يهدف إلى غاية بعيدة هى الله، إذ الفعالية تستمد زخمها من الهدف المقصود بعدا وقربا[2] .

إن من شأن تصور للإنسان على هذا التكريم حينما يصبح اتجاها واعتقادا أن ينشىء فى المؤمن به عزة وقوة وأملا تشيع فيه الأمن والطمأنينة، وتدفعه إلى التعمير فى الأرض سعيا إلى النعيم فى حياة الخلود، وأين من هذا الاتجاه تصور للإنسان على أنه من بداية وجوده صدفة عمياء، أو أنه فى حياته عابث لا غاية له، أو أنه فى علاقته بالكون مستذل لقوى معلومة أو مجهولة ؟. إنه تصور يفضى لا محالة إلى ضروب من اليأس والخوف والقلق، وهذا من شأنه أن يبذر فى الأداء الحضارى بذور خلل وتحلل وفساد[3].

---

(١) عبد المجيد النجار : عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوى، ص. ١٣٣

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥ .

٣- النظرة الواقعية للفطرة البشرية :

ولسنا نقصد بالنظرة الواقعة هنا أن القرآن الكريم يساير (واقع) الإنسان من حيث رغباته وميوله وغرائزه وانفعالاته، وإنما نقصد أنه اعترف بهذا الواقع ولم يضع من المبادئ والقواعد ما يقهره ويكبته، ووضع هذا الواقع فى إطار يسمو بالإنسان عن الرتبة الحيوانية.

وأهمية هذا الجانب فى المجال التربوى تتبدى فى تلك الحقيقة الأولية التى تقول إنك إذا أردت أن تغرس غرسا فى أرض، فلابد لك من معرفة نوعيتها وغرس البذور التى تتناسب مع هذه النوعية، كذلك فإن أية فكرة أو قيمة لا نستطيع أن ننجح فى إكسابها للإنسان، ما لم نكن على دراية طيبة بطبيعته وواقعه، واختيار الأفكار والقيم التى لا تتناقض تماما مع هذه الطبيعة وهذا الواقع، فإذا كان من طبيعته الميل إلى الجنس الآخر، فمن سوء الفهم التربوى أن نهمل الجانب الجنسى فى الإنسان ونضع له من القواعد والإجراءات ما نحاول أو ما نتوهم أنه وسيلة لاقتلاع هذا الجانب .

إن مراعاة الميول والحاجات الخاصة بالمتعلمين، أصبح الآن من أوليات العلم التربوى . وقد مرت بالتربية فترة جنح فيها المربون إلى « مسايرة » هذه الميول والحاجات كرد فعل عكسى لما كان سائدا فى الحقل التربوى من اتجاهات تقوم على الكبت والإرغام والإملاء، فسرعان ما ظهرت نتائج ربما فاقت فى سوئها ما كان من نتائج ترتبت على التربية التقليدية، فإذا بالجمهرة الكبرى من المربين تؤكد الآن ما سبق أن أكده الإسلام من أنه لابد بالفعل من وضع « واقع » الإنسان فى الاعتبار، ولكن لابد أيضا من إطار يتجاوز به المرتبة الدنيا .

ومن مظاهر واقعية النظر الإسلامى للفطرة البشرية أن آيات القرآن الكريم تتعامل مع الإنسان بفطرته المزدوجة، لكن فى كيان واحد متكامل[١] :

فهناك جسم وروح، ونشاط للجسم ونشاط للروح، ولكنهما فى النهاية يلتقيان. .

وهناك دنيا وآخرة، وعمل للدنيا وعمل للآخرة، ولكنهما طريق واحد لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل، ما دام كلاهما موجها إلى الله. . .

فالإنسان يأكل ويشرب، ويقوم بنشاطه الجنسى. . . إلخ ليرضى جانب الجسد من كيانه، ولكن الإسلام يوجهه ألا يقضى ضروراته بجسده وحده، وإنما بالمزاج المترابط من

(١) محمد قطب : دراسات فى النفس الإنسانية، ص ٢٣٦ .

الجسم والروح وإن برز فيها الجانب الجسدى، فيجعل الكل عبادة والجنس عبادة، إذ يربطهما باسم الله، وبالقيم المستمدة من التوجه إلى الله، قيم النظافة والطهارة والترفع عن مستوى الحيوان، فلا يصبح شيء من هذا النشاط ضرورة غليظة، يقضيها الإنسان بعيدا عن إشراقة الروح التى تلطفها وتمنحها معناها الإنسانى اللطيف الشفاف .

ويعيش الإنسان حياته، ويعيش للآخرة، ولكن الإسلام يوجهه أنهما طريق واحد وطريقة واحدة، ليست هناك أعمال خاصة بالدنيا ينعزل فيها الإنسان عن الآخرة، حتى الطعام والشراب والجنس والقتال والبروز والملك . . إلخ . وليست هناك أعمال خاصة بالآخرة ينعزل فيها الإنسان عن الدنيا، حتى العبادة والتهجد . وإنما العمل الواحد - وكل عمل - هو للدنيا والآخرة فى آن واحد : يأكل بنظافة واعتدال وطهارة وباسم الله، فيأخذ نصيبه من الدنيا، وهو فى الوقت ذاته متوجه بهذه « المعانى » كلها للآخرة فى ذات العمل وفى ذات اللحظة. ويمارس نشاطه الجنسى بنظافة وطهارة، وباسم الله، فيأخذ متعته الدنيوية، وهو فى الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة بما التزم فى هذا النشاط من طهارة ويسعى إلى الملك أو البروز أو القتال، بنظافة واعتدال وطهارة باسم الله وفى سبيل الله فيمارس نشاطه الدنيوى كله، وهو فى الوقت ذاته متوجه إلى الآخرة عامل لها شاعر بها ملء كيانه فتلتقى الدنيا والآخرة فى كيانه المزدوج الطبيعة الموحد الاتجاه[1] .

لقد شاع فينا أن الإسلام يريد للمؤمنين أن يقهروا بشريتهم المادية، ويروضهم على التجرد الروحى والزهد فيما تتعلق به فطرة الناس من متع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق، لكن استقراء القرآن يؤكد لنا أن الإسلام لا يشق على أمته بهذا التجرد الصارم يتحدى الطبيعة البشرية فينا، والزهد يعزل الأمة عن صراع الوجود والبقاء[2] .

ومن هنا يبطل الإسلام الرهبانية التى عزلت عن الحياة، وما كتبت على من قبلنا إلا ابتغاء وجه الله .

والإسلام عدو الترف والسرف والبطر والخيلاء، ولقد أعطى أمته العبرة بمعايير أمم قبلها أفسدها الترف وكان فيها ذريعة فسق وفجور وضلال وهلاك .

لكن الإسلام إذ يحمينا من ضراوة الشره وعبودية الشهوات ووثنية المادة، يوسع علينا فيما أحل الله لنا من طيبات الدنيا وزينتها الحلال[3] .

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧

(٢) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧١.

وتكرر هذا التقرير لمبدأ الدين : تحليل الطيبات وتحريم الخبائث في عدد من الآيات المكيات(١)، مع الاعتبار بما ضرب الله لنا مثلا : ﴿ ... قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) ﴾ [النحل].

إن اللذة والألم قوانين نفسانية قديمة، وتجاهلها إغماض عن حقائق قائمة، والزعم بأن الإنسان قد يعلو على اللذة والألم، أو بتعبير أدق: يتخلص من كل إحساس مادى للسعادة والشقاء .. وهم بعيد(٢) .

نعم قد تزكو الروح وتنقد فيها معانى الكرامة العليا، فينبعث المرء إلى فعل الواجب عن حماس الخير وإلى ترك الرذيلة عن غضاضة من الشر . وقديما وصف الصحابى الطيب صهيب الرومى بهذه الكلمات الجميلة : (نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه) !.

بيد أن أصحاب هذه الأرواح الزاكية لا يمكن القول بأنهم فقدوا الطبيعة الآدمية فى التألم من الإيذاء والإيجاع والرضا بالسعادة والتكريم . ونحن لا نفهم من التلويح بالأجزية المادية والإسهاب فى ذكرها - على النحو الذى جاء به القرآن - لا نفهم من ذلك أن الأجزية الروحية مفقودة أو مؤخرة عن رتبتها، فقد قال عز وجل :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ [التوبة].

فانظر بعدما سبق الجزاء الموعود كيف أعقبته جملة منفصلة تنوه بقيمة الرضوان الإلهى وارتفاع درجته .. إن الإنسان يهش للعيشة السعيدة ويطيب مقامه فى كنفها، ويكره الحياة الضنكة ويود لو يفارقها فى أقرب فرصة، وكونه نبيا أو فيلسوفا أو رجلا من سواد الجماهير لا يغير من هذه الحقيقة الخالدة .

ونحن بالاستقراء لأصحاب الامتياز العقلى من ساسة وقادة ومفكرين ومخترعين نرى سوادهم الأعظم يحب أن يحصن مكانته الأدبية بضمانات مادية، ويؤثر أن يعيش

---

(١) الأعراف / ١٥٧ ، الأنعام / ١١٩ - ١٢١ ، ١٤٥ -١٤٨ .

(٢) محمد الغزالى : نظرات فى القرآن، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣، ص ٩٨ .

ى بيت رحب يتوسط حديقة نقية، وتتوافر لنفسه ولأسرته أسباب المتعة والراحة، فلماذا نكابر فى منطق الفطرة البشرية ونزعم أن الأجزية المادية سقوط أو هبوط بأقدار البشرية؟

فى أساطير الفرس القدماء قصة طريفة عن ملك من ملوكهم أراد أن يصعد فى جو السماء ويجوب أقطارها . وأدلى برغبته هذه إلى مشيريه الذين انطلقوا يتدبرون الأمر ويفكرون، وأخيرا اهتدوا إلى حيلة حسبوها بارعة، فقد لاحظوا أن النسر طير قوى جبار حتى أنه ليختطف الحمل أحيانا ويطير أحيانا به عبر الفضاء[1]. أفلا تستطيع نسور أربعة أن تحمل الملك إلى حيث يريد ..؟

وهكذا جلبوا أربعة نسور صغيرة ناشئة، وسهروا على تربيتها وشحذ قوامها، حتى إذا كبرت وصارت قادرة على العمل الذى ستكلف به جاءوا بخيمة مربعة، غرسوا فى كل ركن من أركانها عودا من الصلب يحمل فى رأسه قطعة لحم كبيرة، وفى كل ركن من هذه الأركان أيضا ربط نسر كبير، وجلس الملك وسط الخيمة، ولبث فى مكانه.

وبعد حين، ذاقت النسور مس الجوع، ورنت أبصارها إلى فوق، فوجد كل نسر تجاهه قطعة لحم شهى، فأخذت فى الطيران جميعا، وكانت كلما ازدادت جوعا ازدادت إصرارا على الصعود محاولة أن تبلغ قطعة اللحم التى كانت بطبيعة الحال تعلو، كلما علت النسور وارتفعت، وأخيرا أدركها الإعياء، وحطم الجوع والجهد المنزوف قواها، فلا هى تدرك اللحم فتأكل ولا هى هاجعة مستريحة من التعب، وهكذا هوت إلى الأرض مهدودة القوى وهوى معها الملك مدغدغ الأضلاع !

فما معنى هذه القصة[2] ؟

ألا إنه عبر الزمان الطويل، هم بعض دعاة الدين أن يجعلوا من الناس نسورا مخدوعة، إذ أغرقوا فى تحديثهم عن الزهد إغراقا، جعل منه، أعنى الزهد، قصة اللحم التى سترد عن أرواحهم حدة الجوع. كما أوغلوا فى حديثهم عن الآخرة إيغالا أنسى الناس أو كاد أن ينسيهم، حياتهم التى يعيشونها، وما كان الدين الصحيح ليفعل هذا ويرضاه !

لقد جرينا على تشبيه المؤمن التقى بالملائكة، ولا علم لنا بها سوى ما سمعنا عنها

---

(١) خالد محمد خالد : الدين فى خدمة الشعب، ص ٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

فى رسالات الدين، فآمن بها المتدينون سماعا وأخذت فى التفكير البشرى رمز مثل عال للخير والطهر والجمال، كما أخذ الشيطان رمز الشر والقبح . وكان أن تصورنا أن شخصية المسلم لا تتجلى إلا بمقدار ما تقرب من تمثيلنا للملائكة فى نقائها وطهرها ونورانيتها وامتثالها لأمر الخالق : ﴿ ... **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] .

ويصطدم هذا التصور بواقعنا على الأرض فيدعو إلى يأس وقنوط، وأبناؤنا يدركون استحالة تحقيق هذا الطهر الملائكى فى البشر، ويعطيهم العصر جرأة على التمرد، إن لم يدفع فيهم اليأس إلى سخرية وضلال(١) .

ومنهم من تتعقد شخصيته بصدمة المفارقة بين المثال والواقع، وأزمة الحيرة بين ملكوت الملائكة وجاذبية الأرض، سواء أكانت هذه الصدمة من سلوكهم الشخصى، أم كانت ممن يرون فيهم القدوة الصالحة والمثل الأعلى، فيخيب الرجاء، وتهتز الرؤية حين يشهدونهم يتعرون يزلون ويخطئون .

ومن هدى القرآن نعلم مع عائشة عبد الرحمن أننا لسنا ملائكة، وما ينبغى لنا أن نكون! نحن جميعا بشر آدميون، ليست لنا طبيعة الملائكة، ولا حيلة لنا فى أن خلقنا من مادة غير التى خلقوا منها، فهذه فطرتنا السوية التى يرانا الله عليها: ﴿ ...**لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم].

ولا بأس علينا من التشبه بالملائكة، إذا أريد به مجاهدة أهوائنا ومحاولة التسامى والتطهر، فالإنسانية فينا تظل كادحة أبدا إلى ما تتصوره مثلا أعلى، ونبقى مع هذا بشرا، أبناء هذه الأرض التى خلقنا منها وإليها نعود ، فلسنا نعرف سواها مهدا لنا ومثوى(٢) .

إن الإسلام وهو يحترم الطاقة الجسمية احتراما كاملا، لا يتركها على حالها، ويطلق لها العنان ! إنه ينظمها ويضبط متصرفاتها، لأنها - هكذا طبيعتها - إذا تركت وشأنها لا تقف عند حد وتدمر الكيان(٣) .

إن للحياة - كما خلقها الله - أهدافا حيوية لابد من تحقيقها لتستمر الحياة على وجه الأرض أهدافا تتمثل فى المحافظة على الفرد، والمحافظة على النوع عن طريق

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٣) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية، ص ١٣١ .

المحافظة على الفرد، وقد وضع الخالق فى الفطرة ضمانة التنفيذ، وضعها فى الأعماق، فى صميم البنية، فى « مادة الجسم»، فى تلك القبضة من طين الأرض المشتملة على عناصر الأرض وكيماوياتها ودوافعها .

فالجوع والعطش ضمان لإعطاء الجسم حاجته الدائمة من الطعام والشراب .

والألم اللاذع من البرد والحر وتقلبات الجو ضمان لإعطاء الجسم وقايته من كساء ومأوى وما إليه . والرغبة العنيفة فى الجنس ضمان لتحقيق التوالد المستمر الذى يحفظ النوع على ظهر الأرض . والرغبة الشديدة فى إمتاع النفس ضمان لاستمرار تزويد الإنسان بضروراته من كل نوع . وهكذا كل مطلب الحياة يحمل ضماناته فى يده . . فطرة لا تحتاج فى الإحساس بها إلى تفكير .

وليس « الألم » وحده هو الدافع، فذلك رباط من جانب واحد وفى الجانب الآخر رباط اللذة، فكل دفعة فطرة، أو كل مطلب من مطالب الحياة، مزود بضمانين فى وقت واحد : ضمان يدفع من الخلف، وضمان يجذب من الأمام أحدا الضمانين هو الألم الناشئ من عدم تحقيق الرغبة، والآخر هو اللذة الكامنة فى التحقيق .

إن مثل هذه الرغائب الفطرية ضرورية لبقاء الحياة واستمرارها، ولكنها فى الوقت ذاته معرضة للانطلاق العنيف الذى يعرض الإنسان للتحلل والهلاك[١] .

ذلك لأنها - أولا - تعطب جسده بالعلل والأمراض، والاستهلاك السريع قبل الأوان . .

وهى ثانيا، تشقيه ولا تتركه فى راحة، فمن شأنها - حين تترك لتنطلق - أن تظل منطلقة لا تشبع من الانطلاق، وحينئذ تنقلب اللذة إلى ألم، والمتعة إلى عذاب .

لقد كان الإنسان قمة الحياة فى الأرض . وهو أرقى كائناتها وأفضلها، ولكنه هو ذاته معرض للترقى الدائم والتقدم إلى الأمام، يرتقى بكل طاقاته وفى جميع اتجاهاته، وذلك يستلزم توفير الطاقة للتقدم، كما يقتضى عدم الهبوط إلى الحد الذى يعجز عن الصعود والانطلاق مع الشهوات يستنفد الطاقة المذخورة أولا بأول فلا يترك رصيدا للقوة الصاعدة، فضلا عن أنه يهبط بالإنسان إلى درجة من الشعور والتفكير والسلوك لا يصلح معها للارتفاع، إذ يشعر أن الارتفاع قيد للذة الهابطة وشاغل عن المتاع[٢] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥ .

وعندما نحذر من الاندفاع على طريق إشباع الطاقة الحيوية فى الجسم الإنسانى فإن هذا لا يعنى أننا ندعو إلى الكبت الذى يحذر منه علماء النفس، لأننا لا ندعو إلى كبت هذه الطاقة وإنما إلزامها حد الاعتدال ليسير بها الإنسان إلى الصلاح والخير . إنه فى الواقع نوع من التقويم والتهذيب يبرز السلوك المعبر عن القوة الفطرية فى صورة مقبولة يرضى عنها الدين ويقرها المجتمع[1].

والواقع أن أية فضيلة للنفس لا تتحقق إلا بنوع من المجاهدة والمثابرة، فكظم الغيظ فضيلة وهو يحتاج إلى مجاهدة، والصدق فضيلة ويحتاج إلى مجاهدة، والصبر فضيلة ويحتاج إلى مجاهدة . . وهكذا .

وهذه المجاهدة أمر ضرورى لتحقيق الفضائل، واجتناب الرذائل، بل لا يكون المسلم مسلما إلا بها، وعندما نطلق كلمة « كبت » فإنها تشكل عند بعض الناس عقدا نفسية تصور لهم كل مقاومة كبتا، ويجب أن يتحرر الكبت من هذا الظلم[2] . إن الكبت الحقيقى الذى يحذر منه الدين وعلم النفس هو المتمثل فى القمع وإعلان الحرب على الطاقة الفطرية، لكن المجاهدة التى تبذل فى تنظيم السلوك الحيوى وتهدئة آثاره فلا تسمى كبتا، لأنها تعد حقيقة « فضيلة » يقرها الدين ويوافق عليها علم النفس.

وهكذا يتعامل التصور الإسلامى مع « الإنسان » الذى هو كائن واقعى له خصائصه وله مشخصاته وله فاعليته وله انفعاله، وله تأثيراته . . لا مع معنى مجرد، أو فرض من الفروض لا رصيد له من الواقع .

إنه لا يتعامل مع «الإنسانية» كمعنى مجرد، ولا يتخذها إلها يتوجه إليه بالعبادة بينما هذا المعنى المجرد لا وجود له، أو لا ضابط له، فى عالم الواقع. . . ولا يتعامل مع «العقل المطلق» ككائن شخصى لأن العقل المطلق ليست له كينونة واقعية، وإنما هناك العقل المفرد، فى كل فرد على حدة . ومن ثم فليس هو الذى يخلق الكون أو يخلق الروح[3] .

إنه يختلف عن المثالية العقلية، التى تتعامل مع مقولات عقلية بحتة لا صلة لها بالموجودات المؤثرة والمتأثرة فى الكون والحياة . وفى الوقت نفسه يفترق عن « الوضعية الحسية » التى تتخذ من الطبيعة إلها يخلق العقل ! ويخلق المدركات العقلية، فالله -

---

(١) توفيق محمد سبع : نفوس ودروس، جـ١، ص ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٣) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٥، ص ٢٠٤.

فى التصور الإسلامى - هو خالق « الطبيعة »، وخالق « الإنسان »، والعقل الإنسانى يدرك نواميس الطبيعة ويتعلم قوانينها ويتعرف إلى طاقاتها ومدخراتها، ويؤثر فيها تأثيرا إيجابيا ويتأثر بها تأثرا حسيا . . فى توازن واعتدال .

وكأنما كان الإسلام - بل هو كان - ينظر من وراء القرون إلى هذه اللوثات التى ستصيب البشرية على أيدى بعض الفلاسفة المفكرين المحدثين، فصاغ تصوره فى هذا التوازن العجيب، الشامل المتكامل، ليستقر منه الضمير البشرى على قرار ثابت، وليعود إليه الإدراك البشرى بكل هذا الركام، وكل هذه البلبلة فيجد عنده الوزن الحق والقول الفصل، ويجد عنده الهدى والنور فى متاهات العقول والأهواء[1]. وصدق الله العظيم الذى قال : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت].

وهذا المبدأ واضح تماما فى الكثير من آيات القرآن الكريم فطابقت قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه مقتضى الفطرة البشرية، حتى لقد كان من أمهات أصوله - كما سنرى - فيما هو خاضع لتأثيرات عرضه لتعاقب التطورات أن يكون العرف فى كل أمة مقياس تقدير هام . ومن هنا كان لابد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص فى الشعوب والأقوام المختلفة، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته، ولا يتجاهل مبلغ سلطانه وآثاره فى الحياة الاجتماعية بجميع شعوبها[2] ، ويتضح لنا هذا فيما يأتى :

١- **الزينة والطعام** : يقول تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]، فى هذه الآية أمر باتخاذ الزينة عند العبادة، وأمر آخر بتناول الطعام والشراب؛ لأن ذلك جزء أساسى من الفطرة الإنسانية، فهو ضرورى للإبقاء على الحياة، ولكن بشرط عدم الإسراف، ويقول أيضا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف]. فى هذه الآية استنكار للذين يحرمون زينة الحياة الدنيا، وتصريح بأنها حلال، وأن الطيبات من الرزق حلال للذين آمنوا، وأما المحرمات، فإلى جانب

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٢) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة والحرية، ص ١٢٧-١٢٨ .

الإسراف المنهى عنه بعامة فى كل شىء، فقد نص الله على تحريمها بالنسبة لزينة الحياة الدنيا .

ولقد قال الله- سبحانه وتعالى- فيما جاء على لسان قوم قارون الذي طغى بماله وبغى عليهم : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]. وقال أيضا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ... ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء]، أى أن ما عند الله تعالى، وما شرعه لعباده فيه صلاح الدنيا والآخرة، كذلك فإن شريعة الإسلام ليست عبادة لمجرد تطهير الروح وإن كان تطهير الروح فى ذاته أمرا حسنا ولكنه غاية من الغايات وليس هو الغاية القصوى[1].

إن الإيمان بالروح، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الحلقتين: حلقة الإنسان روحا مجهول القوام، وجسدا معروف المطالب والغايات محسوس اللذات والآلام، فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح . لا يجوز أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد، ولا يحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك[2] .

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة].

والقرآن يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده، وأن ينفق منها غير مسرف فى إنفاقه، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ... ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة]. ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة].

ومن تمكين الإنسان فى الأرض أن يبتغى فيها معيشته ويسيم مطيته، وأن يتخذ منها زينة، ويتم بها عدته، ولا يزهد فى شىء من خيراتها يخرجه لنفسه أو تخرجه له

(١) محمد أبو زهرة : المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٠٦.
(٢) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، ص ٢٩.

الأرض من فضل ربه[1]. ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل].

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية، لا تناقض بين روح وجسد، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة، ولا فصام فيه للذات الإنسانية يحار فيه وتتمزق به أوصال الضمير، وقوامه في خطاب التبليغ للإنسان من بنى آدم كافة ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ... ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] .

٢- الجنس : وإذ ألقى الله فى قلب كل جنس هوى للجنس الآخر، فقد كان طبيعيا أن يسمح بالالتقاء الجنسى بينهما ولكن فى إطار الزواج، ذلك أن الأمر ليس مجرد أن يشبع الطرفان لذتهما الحسية فقط، ولكن لابد من إشباع الحاجة الاجتماعية أيضا . فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولا إلى إنتاج النسل وهو الوظيفة القريبة المباشرة. ولكن هذا جزء من تناسق أكبر، فهناك الأسرة التى تستجيب لمشاعر الألفة فى نفس الرجل والمرأة استجابة كاملة لا تتيسر لنوعيتها ومداها ودوامها فى أية علاقة أخرى يمكن أن تقوم بين فردين، وتستجيب فى نفس الوقت لمطالب الأطفال الذين أنجبتهم فى المرحلة السابقة - أو فى الجزئية التى سبقت هذه فى الترتيب . وفى الأسرة تتربى الطفولة على مشاعر الحب التى تخفف من شهوة الصراع الذى تدفع إليه طبيعة الحياة : ﴿ ... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ... ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة]، فيتحقق بذلك أكبر قسط من السعادة لهؤلاء الأطفال أنفسهم ولآبائهم من قبل وهم فى ذات الوقت نواة لمجتمع المستقبل[2] .

وعندما نتأمل موضوعات الجنس فى القرآن نخرج من ذلك بحقيقة هامة، وهى : المكاشفة والمصارحة، مع توخى الحياء ودقة الداء، وتخير الكلمات، مما يكفل التهذيب والأدب الرفيع[3] . يقول عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا

---

(١) العقاد / الإنسان فى القرآن، ص ٢٠.

(٢) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥٣.

(٣) توفيق محمد سبع : نفوس ودروس فى إطار التصوير القرآنى، جـ١، ص ٣٣١.

النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة].

وفى هذه الآية الشريفة أكثر من موضوع يرتبط بالمرأة : فالحيض وتفصيل أحكامه وضرر الجماع فيه موضوع لابد أن يوضح للمرأة بعناية ودقة وطريقة وقاع المرأة . وأنها لا ترتبط بوضع معين، بل هى متروكة للزوج مع زوجه بشرط أن يصادف المحل[1] . وكم فى قوله: «أنى شئتم» من إيحاء يترك تفصيله اكتفاء باللمحة الخاطفة التى لم تدع مجالا لتفصيل، وقوله: «من حيث أمركم الله » ، كناية عن « القبل » وهو تعبير مهذب رفيع، ثم لنتأمل قوله سبحانه: «نساؤكم حرث لكم»، قال صاحب الكشاف، أى مواضع حرث لكم تشبيها لهن بالأرض . وحقا ما أخصر التعبير وما أكثر ما يعطى من إيحاء فى دماثة وحياء وبلا إسفاف أو ابتذال . ثم ما أوضح الدلالة! ولاشك أن عملية الحرث التى يقوم بها الرجل، والأرض المحروثة هى مستودع البذرة، ومستقر الإخصاب والإنبات، والنمو ثم الثمرة والحصيلة، كل ذلك تعطيه الأرض الخصبة الولود ما دامت البذرة صالحة، وهذا الإنبات يتم بقدرة الله، فالزارع يلقى الحب وينتظر الثمار من الرب، وكم فى التعبير من إيحاء مهذب يثير الخيال ويمنح الدلالة[2] .

ومع أن الموضوع كما نرى « جنسى »، وحساس فإنك لا تلمح تعرية للفظ، ولا للإثارة ولا لكلمات من شأنها أن تجرح الشعور أو تخدش الحياء، إنه الإيجاز الدقيق الموحى .

ثم ما أروع قوله سبحانه :«وقدموا لأنفسكم»، وهو كناية دالة وإشارة بارعة لكل ما ينبغى توفيره للفراش من جو حالم وكلمات لطيفة وقبلات حتى تأنس المرأة وتتجاوب مع الزوج لا أن يهجم عليها كما يهجم الحيوان على البهيمة، والتعبير يوحى بالدماثة والأدب الذى يجب أن نلتزم به عندما نتناول مثل هذه الموضوعات .

٣- لا إكراه فى الدين : فمن الأوليات المسلمة، أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، فمنها البرهان العقلى، والخطابة والشعر والتقليد، ولكل من هذه الأنواع تأثير فى نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل، وإنما اعتبرنا التقليد هنا من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها

---

(١) توفيق سبع : نفوس ودروس، جـ١، ص ٣٣٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٣.

بمحض التقليد والاقتداء، ولو كانت غير معقولة، ومنافرة للعقل السليم، وأقرب دليل على ذلك ما عليه أهل بعض الكتاب . كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية إلى عقيدته على جهله، وعدم تحصيله وقصور عقله، وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم(١).

وما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر، ومن هنا جاء قول الله تعالى واضحا بينا : ﴿ ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]. وقال أيضا : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة].

إن وجود الحق والباطل معا على هذه الأرض إلى وقت قيام الساعة يفرض حرية الفرد فيما يؤمن به اليوم وغدا . وإلا لو آمن الناس جميعا بالحق واتبعوا الهداية وأعرضوا عن الباطل وغواية الشيطان، وجب أن تنتهى حياة الإنسان على هذه الأرض(٢). إن يشأ الله إنهاء هذا الصراع تنتهى الحياة كلها، وهذا ما تعطيه الآية الكريمة فى قوله تعالى :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ... ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس]، وعندئذ تنتهى الدنيا . ولكنه لم يشأ وإذن لايزالون مختلفين.

وأيضا يضاد الإكراه على الإيمان طبيعة الإنسان الخاصة، لأن هذه الطبيعة كرمت فى خلقها وتصويرها : ﴿ ...وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] من الله فزودها بخصيصة الإدراك والشعور: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان]. وإدراك الإنسان فى حكمه على ما يرى أو يسمع أو يفكر يقوم على الترجيح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أحسن(٣) .

فلو أكره الإنسان على الإيمان بشيء ما لكان فى هذا الإكراه مصادرة لطبيعته ولتعارض ذلك أيضا مع الخصيصة والميزة التى حباه بها الله فى خلقه وتصويره، وهى ميزة الإدراك والترجيح، وتعبير القرآن فى الخطاب الذى سبق أن أشرنا إليه، موجه إلى الرسول ﷺ، وهو تساؤل بصورة إنكارية، لا يوضح تعجبا واستغرابا أو إنكارا فحسب لمحاولة الإكراه على الإيمان، بل لمحاولة أن يدور بخلد إنسان، مهما قربت صلته بالله

---

(١) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة، ص ١٢٣ .

(٢) محمد البهى : من توجيه القرآن الكريم، ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

لأن الله ذاته لا يريد إيمان جميع الناس على هذه الأرض، فإرادته نافذة وفوق كل إرادة البشر[1].

وهنا ظاهرة الاختيار والمشيئة فى الاعتقاد والإيمان ظاهرة إنسانية طبيعية، وظاهرة إلهية كونية، ومحاولة أى إنسان صب الناس جميعا فى قالب واحد، لا تدل فى ذاتها على استحالة وقوعها فحسب، بل تدل فى الوقت نفسه على عدم استيعابه الخصائص البشرية فى طبيعة الفرد وفى تغير المجتمع، وعلى شغل نفسه وشغل فراغ الناس بما لا جدوى فى وقوعه.

٤- نقائص بشرية : وفى إنسانيتنا قصور وغرور ، فلا عصمة من ذنوب تقترفها فتندم عليها وتتوب إلى الله منها، ونحن البشر جميعا نخطئ وننسى ونغفل، وذلك من فطرة البشرية فينا[2] . وجل من: ﴿ ... لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]، ومن هنا نجد أن كل الرخص الشرعية فى العبادات والفرائض، منظور فيها إلى طاقتنا وأعذارنا. نسهو فى الصلاة، فينجبر سهونا بسجود السهو، ننسى فنأكل أو نشرب إذ نحن صائمون، ونفطر لعذر، فيقبل منا القضاء عدة أيام أخر، وتقبل منا الفدية عما نقصر فيه من شعائر العبادات إذا شق علينا قضاؤها، ولا جناح علينا فيما نضطر إليه، فالضرورات تبيح المحظورات: ﴿ ... فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة]، كما لا جناح علينا فى الخطأ غير المتعمد: ﴿ ... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ... ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب]. و﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة].

ومن أبرز عناصر المعونة الإلهية التى قدمت للإنسان فى كفاحه ضد ما يقف فى طريقه، ما يمكن أن نسميه بمعالجة الضعف النفسي في الإنسان وتعويضه عنه في جانبي الثواب والعقاب[2] . ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

ولو أن الله- سبحانه- عاملنا بمقتضى ذلك، فأثابنا على الحسنة بمثلها، وعاقبنا على السيئة بما يعادلها، لما كان لنا وجه لاعتراض أو إحساس بظلم، خصوصا بعد أن بين لنا السبيل على لسان رسله ووضح لنا حدوده فى كتابه الخالد، ولكنه وهو الرحيم بخلقه والعليم بالنفس البشرية، وما هى عليه من ضعف بالنسبة للتكاليف، والخبير بما

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ٤٨.

(٢) أحمد إبراهيم مهنا : مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم، جـ٢، ص ١٣١.

يتنازع الإنسان من نوازع الشر، كان كريما غاية الكرم وجوادا إلى أبعد حدود الجود حين قرر مضاعفة ثواب الحسنة ولم يحاسب على السيئة إلا بمثلها، يقول سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام].

ثم يعد الكريم بأكثر من ذلك، يعد بتكفير ما يقترف العبد من سيئات إذا هو تجنب الكبائر من الذنوب ولم يقارفها، ويزيد فيضفي عليه من إحسانه وفضله[1]، يقول عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء].

ثم يزيد كرما على كرم فيفتح أبواب رحمته لمن انتهك محارمه وتعدى حدوده بارتكاب الفواحش والسيئات إذا ذكره ورجع إليه وسأله مغفرته، بل جعل ذلك من صفات المتقين، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ [آل عمران].

وإذا كان غافر الذنوب وقابل التوب قد طالب عباده المؤمنين أن يتوبوا إليه ووعدهم - إذا فعلوا بتكفير سيئاتهم وإجزال الثواب لهم - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾ [التحريم].

إذا كان الرحيم قد فعل ذلك، فقد دعا سبحانه كل من أسرف على نفسه من عباده إلى الإنابة إليه والإسلام له مهما كان الذنب الذي اقترفه، فرحمته أوسع، ومغفرته أشمل[2]. وما أجمل قوله تعالى في ذلك: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ [الزمر].

ولنقف عند قوله سبحانه: «أسرفوا على أنفسهم»، ومعناه أكثروا من الآثام والذنوب، هل يُترك هؤلاء صرعى الآثام والخطايا أم أن هناك طبا لنفوسهم؟ وعلاجا لهبوطهم؟ إن العلاج هو فتح الطريق أمامهم حتى لا تسودّ الآفاق في وجوههم لأن

(١) مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، جـ٢، ص ١٣٣.

(٢) المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧.

رحمة الله أوسع من تلك الذنوب متى خلصت النوايا وصحت القلوب واستشعر الإنسان الأسى الممض على ما فرط فى جنب الله، وما أروع أن يسمع الخطاءون «وأنيبوا إلى بركم»، فهذا سبحانه يطلب إليهم أن يسرعوا بالعودة إلى رحابه، قبل أن يجندهم الشيطان فى ركابه وذلك فضلا منه وكرما .

إنه سبحانه وتعالى يطلب العصاة قبل أن يطلبوه، ويمد إليهم يده قبل أن يسألوه ويناديهم قبل أن يلجوا فى الشطط ويوغلوا فى التيه! فسبحان من وسع الخطائين بصفحه وعفوه « يتحبب إليهم بالنعمة وهو الغنى عنهم، ويتبغضون إليه بالمعاصى وهم أفقر شىء إليه . خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، من أقبل عليه منهم ناداه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب »[1].

روى ابن كثير فى سبب نزول هذه الآية أن رجلا جاء إلى رسول الله فقال : «إنى رجل كثير الغدرات والفجرات، فهل لى من توبة ؟ فسكت رسول الله حتى نزلت هذه الآية، ثم قال له : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال له الرسول : قد غفرت لك غدراتك وفجراتك. . . ويروى أنها نزلت فى قوم من أهل الشرك كانوا قد فسقوا فأكثروا وقتلوا فأكثروا، فجاءوا إلى رسول الله فقالوا: كل ما تدعونا إليه حسن لو أخبرتنا هل من توبة ؟ وهل لعملنا من كفارة ؟ فنزلت الآيات[2].

وتتعامل آيات القرآن مع جوانب سلبية أخرى فى الإنسان، فباعتبارها جزءا من واقع الفطرة، فلا جزع ولا هلع، وإنما هو إتباع الهدى القرآنى لتحويل بعض هذه الجوانب السلبية إلى إيجابيات، فالخوف على سبيل المثال يحمى الإنسان من الوقوع فى كثير من المهالك ويدفعه إلى ابتكار الأساليب والأدوات التى تبعد عنه ما يخفيه، لكنه إذا استبد بالإنسان وتحول إلى مرض يقعده عن الفاعلية، فإن الاتصال الدائم بالله يُجنبه هذا، يقول عز وجل :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج]، فالصلاة تقرب الإنسان من الله وتبذر الثقة فى العدل الإلهى وتدخل الطمأنينة فى قلب المؤمن .

وعلى نفس النهج يجىء قوله عز وجل : **﴿ ... فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾** [الجن].

---

(١) توفيق محمد سبع : نفوس ودروس، جـ٢، ص ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

وتمر على الإنسان لحظات يشعر فيها وكأنه قد حوصر بطوق من الهموم، فيشير سبحانه وتعالى إلى أن ذلك حدث لرسول الله، وكان الإرشاد الإلهى هو أيضا اللجوء إلى ذكر الله يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:].

ويشير سبحانه وتعالى إلى أول جريمة قتل فى تاريخ الإنسان عندما قتل قابيل أخاه هابيل، فالاندفاع إلى القتل جزء من فطرة الإنسان: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة]، ولكن لأن اتجاه العدوان هناك بغير حق وموجه إلى الأخ الشقيق، كان مستحقا لغضب الله ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة].

وفى ظل التوجيه القرآنى يعلم المسلم أن هناك النزعة إلى العدوان نافذتها الصحيحة هى فى الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الحق .

والتنافس جزء من فطرة الإنسان، وهو سبيل هام للنهضة كأن نشهد تنافسا فى البحث العلمى، أو تنافسا اقتصاديا أو تنافسا فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لكنه فى بعض الأحيان يستعر فيحيل حياة الإنسان إلى « لهث » مستمر. وقد يلجأ إلى وسائل لا أخلاقية من أجل الفوز، ومن هنا يجيء الإلحاح القرآنى إلى الآفاق المطلوبة للنزعة الإنسانية إلى التنافس : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد].

﴿ ... فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة].

وفى النهاية، فإن هناك مبادئ قرآنية هامة تشمل هذه القضايا المتصلة بواقعية النظر للفطرة الإنسانية(1) :

- التكليف بالوسع : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] و﴿ ... لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ... ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] و ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن].

- رفع الحرج : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح].

- التيسير ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة] .

(1) نديم الجسر : القرآن فى التربية الإسلامية، ص ٧٥ وما بعدها.

٤- مراعاة الحاجات الاجتماعية :

وتوافر النزعة الاجتماعية فى عقيدة أو نظرية من النظريات معيار هام كذلك يؤكد لنا أنها تصلح لأن نستهدى بها فى العمل التربوى، ذلك أنه ولو أننا نربى « أفرادا » لكن هؤلاء الأفراد الذين نربيهم لا يكسبون هويتهم إلا بالمعيشة فى المجتمع، ومن ثم فالصفة الاجتماعية هى الموضوع الرئيسى الذى ترتكز عليه العملية التربوية، بالإضافة إلى أن محتوى هذه العملية نفسه إنما يستمد مقوماته وخصائصه وأهدافه من نفس الجماعة التى تتم فيها .

وتستند نظرية الإسلام فى هذا الشأن إلى تلك الحقيقة التى برزت لنا ونحن بصدد الحديث عن تكوين الإنسان، ففوارق العناصر إنما هى فوارق أسماء وعناوين، و «الإنسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام .

وفحوى هذا أن القرآن قد وضع الإنسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح، حين جعل تقسيمه الصحيح أنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح وبغير التقوى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وحجزت بينهم الحدود، وتشعبت بينهم العقائد واللغات، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله هو : رب العالمين.

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل فى الآية الشريفة، فإنما كان التعدد أقوى الأسباب لإحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الإنسانية » كلها أسرار خلقها، فإن تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة، على حسب المواقع والأزمنة، وعلى حسب القدرات والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة فينجم عن هذا ما لابد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة، وتزداد « الإنسانية » عرفانا بأسرار خلقها، وعرفانا بخالقها، واقترابا فيما بينها، وتضطر إليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها[1] .

---

(١) عباس العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، ص ٥٦ .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وما كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: ١٩].

والذى نود أن نوضحه هنا أن الإسلام ألغى الحواجز غير الطبيعية بين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان، وهو فى عنايته بالإنسان فردا، إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التى لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها، كما لا يتصور كيان اجتماعى بغير أفراد[1].

والإسلام فى رفضه لعصبيته القبلية، اتجه بهذه الذاتية الجماعية العربية الأصيلة إلى نطاقها الرحب فى الأمة، يحقق فيها الفرد ذاته ويستقيم أمر الجماعة بصلاح أفرادها فى اندماج وثيق لا تنفصل فيه فردية عن جماعية .

ولا نتحرج مع عائشة عبد الرحمن من القول بأن الإسلام فى أصول العقيدة وفروض العبادات وأحكام المعاملات، وكل التوجيهات لسلوك الإنسان، إنما ينظر إليه من حيث هو اجتماعى بطبعه وليست فردية متوحشة شاذة[2] .

التوحيد، وهو جوهر العقيدة، ليس إلا رفضا للعبودية للبشر فى مختلف ضروبها وأشكالها، وهذا تحرير للإنسانية من مهانة الرق والاستعباد، ومن فتنة تقديس الزعماء والأبطال والرؤساء والحكام، وأغلال الخوف من الجبابرة والطغاة .

والعبادات شعائر لا طقوس، وحين لا تؤدى العبادة غايتها من صلاح الفرد والجماعة، تقوى وخشوعا وتواضعا وتراحما وتكاملا، وكان منها للمرائين أقنعة زيف وتمويه، يشق بها على الناس أن يميزوا بين تقى وفاجر، بين مؤمن خاشع ومنافق دجال[3] .

والمعاملات تنظيم للحياة العملية، وضبط العلاقات بين الأفراد فى المجتمع بما يكفل العدل والإحسان والأمن وتكافؤ الحقوق والواجبات، وصيانة الحرمات الخاصة والعامة بأحكام الشرع .

وآيات القرآن الكريم تظهر قارئها على ثراء ضخم فى هذا الجانب بالذات، ويتبين لنا هذا من استعراض النماذج والشواهد :

١- **عمومية القواعد الاجتماعية** : التغير فى المجتمع سنة من سنن الله فى هذا

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٥ .

الكون لا يستطيع أن ينكرها إلا مكابر معاند للحق، ومن ثم فإن القواعد والضوابط التى يرسمها القرآن للمجتمع البشرى، لم تجئ فى كثير من الأحيان مفصلة مبينة لمختلف الجزئيات، وإنما هى عمومية حتى يمكن أن تواجه اختلاف الأزمنة والأمكنة. كما أن لهذا الإجمال مزية هامة هى التى تعنينا هنا، فهو بذلك يساعد على فهم النصوص المجملة وتطبيقها بصور مختلفة يحتملها النص فيكون باتساعه قابلا للتطبيق بما لا يخرج عن أسس الشريعة ومقاصدها، وذلك كما ورد فى القرآن من النص على الشورى السياسية دون تعيين شكل خاص لها، فكانت شاملة لكل نظام حكومى يجتنب فيه الاستبداد ويتحقق فيه تشاور واحترام صحيح لرأى أولى الرأى والعلم فى المجتمع، وكذلك أوجب القرآن إقامة العدل وإحقاق الحق بين الناس بنصوص كثيرة عامة، ولم يحدد طريقة القضاء الذى هو الأداة لذلك[1].

٢- **التكافل الاجتماعى** : فالناس فى المجتمع - أى مجتمع - مع طاقاتهم التى وهبهم الله إياها، والتى تخضع لتحكم البشر فئات أربع[2].

الفئة الأولى : يفيض دخلها عن حاجاتها .

الفئة الثانية : يغطى دخلها حاجاتها ولا يزيد .

الفئة الثالثة : يقصر دخلها عن حاجاتها وتظل متطلعة إلى ما يكمل حاجاتها .

الفئة الرابعة : عاجزة تماما عن العمل، تحتاج ولا تجد ما يغطى حاجاتها .

ولكى يحقق الإسلام التكافل بين الناس يبين أن من مواصفات الإيمان الإنفاق مما رزق الله ، فيقول تعالى : ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾**﴾ [السجدة].

وينبه إلى أن يكون البذل فى أدب دون استعلاء أو جرح الكرامة، ويجعل البذل شيئا من ذلك مبطلا لثواب ما يقدم، ويقرن البذل مع شىء من ذلك بالنفاق، فيقول تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ... ﴿٢٦٤﴾**﴾ [البقرة].

---

(١) مصطفى أحمد الزرقاء : الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد، دمشق، ١٩٦٥، جـ١، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٦٠)، ديسمبر ١٩٧٢، ص٢٧٤.

ويجرد الإنفاق من كل غرض، ويربطه بالمثل الأعلى فيقول في صفات المؤمنين: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان].

ويحفز إلى المسارعة فى الإنفاق على مختلف الأحوال شدة ورخاء فيقول تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ... ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

ويجعل الله فى كل ما تخرجه الأرض نصيبا يسمو به إلى مرتبة الحق الواجب الأداء[1]، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام].

لقد بدأ الإسلام بناء المجتمع فى ضمائر الأفراد ووجدانهم، فهناك فى أعماق الروح غرس بذرة الحب، ونسمة الرحمة : الحب الإنسانى الخالص، والرحمة الإنسانية المبرأة . لقد رد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة، وأيقظ فى وجدانهم شعور النسب والقربى، وذكرهم بإخوتهم فى الله، وفى المنشأ والمصير، حتى إذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا أقرب إلى التعاون وأدنى إلى الرخاء[2] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

ومن هنا حق لسيد عثمان أن يؤكد على أن الرحمة لب الجانب الاجتماعى فى الشخصية المسلمة وروحه الدافقة الحركة. وعندما يصف القرآن الكريم المسلمين بأنهم «رحماء بينهم » إنما يلفت إلى هذا اللب، وينبه إلى هذه الروح فى تعامل المسلمين وتفاعلهم فيما بينهم[3].

والمرحمة من الشخصية المسلمة ذات طابع اجتماعى، وذات طبيعة دينامية . . .

ذات طابع اجتماعى فى موضوعها، لأنها لا ترتبط ولا تركز على فرد بعينه، إنما

---

(١) يوسف الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ص ٢٧٨ .

(٢) سيد قطب : دراسات إسلامية، القاهرة، د . ن، ١٩٦٧، ص ٥٣ .

(٣) سيد أحمد عثمان : المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢١.

هى اتجاه عاطفى نحو جماعة أو جماعات من المسلمين، كما أنها ليست مجرد رأفة تتحرك فى الجوانح أو رقة تملك الفؤاد، وتقف عند هذا « الحال الداخلى » ، بل هى تعبير عن ذلك الحال بسلوك يتمثل فى صيغة معينة للعلاقات التى تسود بين الشخصيات المسلمة والمعاملات والتفاعلات الاجتماعية التى تدور فى جماعتهم .

والرحمة ذات طبيعة دينامية فى تفاعلها، لأن المرحمة تتحرك بين الأفراد المسلمين وتحركهم، تتحرك بالتناصح والتصالح، نحو التعاون والتسامح، وتتحرك بهم فى كل عمل فيه صلاح دنياهم وأخراهم، وتتحرك بهم فى أمور عباداتهم وشئون معاشهم[1] .

ومن صور الرحمة التسامح، فلا يقول الإسلام « ويل للمغلوب » ولكن، ﴿ ...**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر]، ومن هنا يحث الإسلام على معالجة الإحن والبغضاء بالسماحة والعفة، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف].

ويقول سبحانه في دفع البغضاء بالمحبة والمودة : ﴿ ... **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت].

وفى ظل الحب والرحمة دعا الناس إلى الإيثار، وإلى التضحية بما هو عزيز على النفوس فى سبيل إسعاد الآخرين، فلابد للتكامل من قوم يؤثرون على أنفسهم، ويضحون بالغالى والعزيز عليهم، فالمجتمع فيه الواجدون والمحرومون، وإذا لم يؤثر الواجدون على أنفسهم، وإذا لم يضحوا بما يملكون، لم يقم التكافل، ولم يتم التعاون[2] .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة جميلة للإيثار فى نفوس أهل المدينة . الذين استقبلوا المهاجرين فآووهم وشاركوهم مالهم وديارهم فى رحابة صدر وسماحة نفس :

﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

وهى صورة للإنسانية العليا فى أجمل صورها وأبدعها، وهناك صورة أخرى لا تقل عنها جمالا ورقة وانعطافا لجماعة من المؤمنين :

﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا** ﴿٧﴾ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ**

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢ .

(٢) دراسات إسلامية، ص ٥٤ .

حُبِّه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ﴿٨﴾ إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإنسان].

ثم قال لهم : إن كل ما يتزلون عنه من مال أو جهد لتحقيق التكافل الاجتماعى، إنما هو قرض لله لا يضيع، وإن الكف عن بذله تهلكة فى الدنيا والآخرة، فأطمعهم فى الثواب وحذرهم من العقاب، وهما وسيلتان من وسائل التربية للضمير : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد]. ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة].

وحثهم على التكافل الاجتماعى، لا فى دائرة المال فقط، بل فى كل شأن من شئون الحياة، وناط هذا بضمائرهم، وملأ هذه الضمائر بخشية الله وتقواه. والتقوى فى النفس هى أقوى عوامل التربية الشعورية وأعمقها(1).

قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

ومن هنا حق لعائشة عبد الرحمن أن تعتبر الجهاد بحمل أمانة الكلمة أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وشهادة بالحق لا يخاف المؤمن فيها لومة لائم، لا يبالى ما يلحق فى سبيلها من غضب غاضب أو سطوة متجبر(2).

وعباد الرحمن هم الأتقياء المؤمنون الذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان].

وإذا قيل : « إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب »، فينبغى أن نعلم أن الإسلام يحرم السكوت على المنكر، ويعد كتمان الشهادة بالحق من إثم القلب، وهو أفدح الإثم(3).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ... ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء].

﴿ ... وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

---

(1) سيد قطب : دراسات إسلامية، ص ٥٥ .

(2) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ١١٠ .

(3) الشخصية الإسلامية، ص ١١١ .

﴿... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة].

لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وقد حاقت اللعنة بكفار بنى إسرائيل، أن كانوا لا يتناهون عن المنكر:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

ومن الآداب والعادات الاجتماعية المؤدية إلى التكافل والتى حث القرآن المسلمين عليها، حسن القول ولطف الحديث وإفشاء السلام: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣]. ﴿... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]. ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ... ﴿٨٦﴾﴾ [النساء].

ومنها احترام الآخرين، وحسن الظن بهم، وحفظ غيبتهم، واتقاء الله فيهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات١].

٣- التربية البيئية: ولقد أوضح القرآن كذلك هذا الدور الخطير الذى تلعبه «البيئة» فى تربية الإنسان، ذلك أن البيئة الفاسدة تدعو إلى الفساد وتجر إلى الهلاك، وإن الإنسان - لضعفه - يندر أن يقاوم عوامل الفتنة والإغراء، ومن الصعب تكليفه بالاعتدال والمجتمع الذى يعيش فيه ماخور فسق وحانة فجور .. لذلك أراد القرآن -وهو يبنى الإنسان- أن توجد البيئة المناسبة لبناء هذا الإنسان وأن ييسر له الطريق ويذلل له عقباته، ولم يفرض عليه ما فرض من حدود إلا بعد أن أصلح له ما حوله، وسد عليه أبواب الشهوات، وهذه البيئة التى أنشأها القرآن .. والتى تمثلت فى المجتمع

الإسلامي الأول هي المناخ الصحي الذي يمكن أن ينشأ فيه الإنسان المسلم وينمو نموا سليما معافى، فهو حيثما نظر لا يجد إلا دوافع الطهر ودواعي العفة[1].

هذه جريمة الزنى مثلا .. لا تشيع إلا حيث يوجد الانحلال وتتدهور القيم والمبادئ وتنطلق الشهوات من عقالها لتحطم ما أقرته الرسالات السماوية من حرمة الأعراض وسلامة الإنسانية، وحفظ كيان الإنسان أن ينزل إلى مرتبة الحيوان.

والقرآن حين نزل على الناس كان عالمهم فيه التبذل، وفيه الاختلاط المزرى والعورات المكشوفة والأجسام العارية، والفواحش المباحة، فلم يرد أن يكلف المؤمنين شططا ويقيم عليهم حد هذه الجريمة إلا بعد أن خلق لهم الجو المناسب، لم يترك بابا للشر إلا أحكم قفله، ولم يعد أمام كل فرد في هذا المجتمع إلا التزام هذه الطريق، فإن صارعته فقد هلك واستحق ما ينزل به من عقاب:

فقد أمر المؤمنات بأن يسترن أجسادهن حتى لا تكون مثار شهوة وفتنة، وحتى يحمي المؤمنة من قالة السوء ونظرات المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب].

وأمر المؤمنات والمؤمنين جميعا بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، لكنه حمى عورات المؤمنات أن تتبذل، وتبدو أجسادهن لغير من يحل لهن، حفظا للمؤمنين وحثا لهم على التزام طريق الله، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ... ﴿٣١﴾﴾ [النور].

ولعل أهم مظاهر الاهتمام بصحة البيئة التزام قواعد النظافة التي حث عليها الإسلام وجعلها جزءا لا يتجزأ من الإيمان وعبر عنها بالطهارة والطهور[2]، ذكرها القرآن الكريم في آيات كثيرة مشيرا إلى الطهارة الجسدية في مثل قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر]. وقوله تعالى: ﴿...وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ... ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١] وإلى الطهارة المعنوية في مثل قوله تعالى:

---

(١) عبد الفتاح عاشور: منهج القرآن، في تربية الفرد والمجتمع، القاهرة، الخانجي، ١٩٧٩، ص ١٩٦.

(٢) حسان محمد حسان: التربية البيئية، في: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الفكر التربوي العربي الإسلامي، تونس ١٩٨٧، ص٩٣٧.

﴿ ... أولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة] وفى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] وفرض الله الغسل بعد الجنابة لقوله تعالى : ﴿ ... وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة].

ولقد حرص الإسلام على حماية الأرض باعتبارها المورد الطبيعى الأساسى الذى يختزن الإمكانات والطاقات وعليها تقام الحياة ويدار المعاش، وحماية الأرض لا تعنى فقط الاهتمام بالأرض المزروعة بل أيضا الدعوة لاستصلاح الأراضى البور وزراعتها[1].

ومن الثابت أيضا أن الإسلام كما تنطق بذلك اجتهادات فقهائه قد أولى حماية الحيوان عناية ملحوظة، من حيث تحريم حبسه وتحريم المكث طويلا على ظهره، وتحريم إرهاقه فى العمل فوق ما يحتمل، وتحريم التلهى به فى الصيد، وتحريم اتخاذه هدفا لتعليم الإصابة وتحريم حرقه حيا[2].

٤- **الفقر عدو المسلمين** : ولقد اعترف الإسلام بالحقيقة الواقعة فى هذا الوجود، وهى أن الناس منهم الغنى الثرى، ومنهم الفقير، وقد عالج الفقر ومنع من أن يذل صاحبه، فتكون الطبقات التى تقطع ما بين الجماعات وتلقى بالحقد والاختلاس والاغتصاب وقطع الطرق، وقد يمتد الأمر إلى قلب النظام الاجتماعى كله رأسا على عقب[3].

وطرق علاج الفقر كانت على نواح كثيرة :

أولها : تمكين كل ذى قوة عمل أن يعمل بإعداد أسباب العمل، وتهيئة الفرص لكى يعمل كل إنسان بمقدار طاقته، سواء أكانت طاقته تعلو إلى الأعمال ذات الشأن أم كانت فى حدود لا تتجاوزها، فإن لم يكن ذا مقدرة على عمل كبير ذى شأن كان عليه أن يعمل بيده .

ثانيها : تهيئة الفرص للقوى والمواهب من أن تعمل، وذلك بعد كشفها وإعدادها من خلال مراحل متدرجة من التعليم .

ثالثها : سد العجز بتسهيل أسباب الحياة للعاجزين عن العمل، فإذا كان الإسلام قد مكن لكل قادر أن يعمل، وكشف المواهب وعمل على تهيئة الفرص لكل ذى موهبة، فإن هناك شيوخا أقعدهم ثقل السنين عن أن يعملوا، ونساء ضعفن عن أن

---

(١) حسان محمد : التربة البيئية، ص ٩٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٤٥.

(٣) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام، ص ٨٤.

يعملن بسبب أنوثتهن، ويتامى فقدوا العائل، ومرضى بأمراض مزمنة يعوقهم المرض عن أن يكدحوا فى الحياة، وكل هذه فئات تقع مسئولية إعالتها على عاتق الجماعة الإسلامية مجتمعة وخاصة بالنسبة للدولة التى هى - هكذا المفروض - وكيلة الأمة فى إدارة شئونها .

إن الفقر فى نظر الإسلام معرة وسبة، يوم يكون نتيجة الخمول والقعود وعقبى التفريط والاستحماق، وليس هذا النوع من الفقر هو المقصود مطلقا من الآيات والآثار التى تذكر الفقراء بخير، فهناك فقر التضحية فما هو ؟ [1].

الرجل يكون عامر الخزائن واسع الجاه فيعتنق مبدأ يبذل من أجله النفس والنفيس ويبيع راحة البال والوداعة مع الآل فى سبيل فكرته التى آمن بها، ويلحقه من جراء ذلك بؤس أصحاب الدعوات المكافحة : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** (٨) ﴾ [الحشر].

هذا هو فقر جره النضال، وعرفته الأمم كافة فى عظماء الرجال من بنيها. . أجل لقد صبروا على الفقر، ولكن أى فقر ؟ إنه ليس فقر الصعاليك من المتبطلين وذوى الهمم الساقطة، لقد زهدوا فى الدنيا لا عن عجز فيها، بل عن تطلع لما فوقها، فلما جاءتهم الدنيا توسلوا بها لما يريدون ففرغت أيديهم منها .

وهناك فقر يلحق الرجال عندما يقفون فى صفوف المعارضة للسلطات القائمة، ولقد قرأنا لأساطين العلماء كيف احتقروا الملوك وابتذلوا مهابتهم، ودفعوا ثمن ذلك من معايشهم الضيقة ومن المناصب والرياسات التى رفضوها وحسبهم أنهم ساندوا الحق[2] .

ولكن يجب أن نعلم أن الأمم لا تؤدى رسالتها بالمجان، ولا تبلغ أهدافها عن طريق الفقر والكسل والإهمال، فإن أعباء الحياة أثقل مما يطيق الكسالى وأوسع مما يفكر القاعدون، والرسالات الكبرى - سواء فيها الحق والباطل - تكلف ذويها أن يبذلوا ما عندهم وأن يستنبطوا منابع أخرى تعين على البذل والإنفاق. وحاجة الدولة إلى ضخامة الإنتاج وسعة الثراء كحاجة البدن إلى الغذاء الذى يمده بالحرارة ويحفظ عليه الحياة[3] .

يجب أن نعلن حربا شعواء على البطالة وقلة الإنتاج، وأن نرد إلى العمل

(١) محمد الغزالى : الإسلام والمناهج الاشتراكية، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٥٤، ص ٤٥ .

(٢) الإسلام والمناهج الاشتراكية، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٦٤ .

قداسته، ولنعلم أن تكريم القاعدين جريمة، وأن إثابة عامل دون حقه إهانة لقيمة العمل كما هو بخس لأجر العامل، وإن الإسلام لا يتصور متسبا له فارغ النفس من الجد، فارغ اليد من الشغل، ولا يقبل أن تدين به أمة مغلوبة على أمرها، ينزح الأجانب إلى ديارها فيملأون جيوبهم مالا، ويخلفون للمواطنين الخانعين فقرا وعارا. إن الإسلام رسالة ضخمة لا يطيقها إلا الأقوياء ولا يحملها إلا الأغنياء، وعلى الأمة أن تسعى حثيثا ليقوى ويغتنى بالعمل المتواصل مواطنها[١].

وإذا كان الله- سبحانه وتعالى- قد وهب البعض من بنى البشر مواهب ومزايا وخصائص متفاوتة حتى تستقيم الحياة وتتكامل عناصر القوى المنتجة، فإنه عز وجل وضع تحذيرا، يورد قيدا على القدرات، ذلك أن هبته المزايا للبعض لا يجب أن يتوهمها هذا البعض تفويضا بالكبر والبغى والإفساد، وذلك لأنها وديعة وأمانة ومسئولية بينما المطلوب تسخيرها من أجل رضى الله مانحها وجنته فى الآخرة[٢].

وهذه الأمثلة لإرادة الله فيما يهب من رزقه وماله :

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد].

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون].

﴿... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ۝٣٣﴾ [النور].

هكذا هبات لخلقه من قدرة ومال .. إنها ليست كلها خالصة للموهوب، وإنما هو عامل عليها أيضا من أجل الناس .

من هذا المفهوم لحقيقة العطاء الإلهى للإنسان جاءت وقفة الإسلام الحاسمة من أى وهم خاطئ أو ادعاء يلصق بدين الله فرية إقراره بالتفرقة بين البشر على أساس من النسب أو المال أو القدرة[٣] .

ويعتبر الإنفاق المعروف باسم الزكاة واحدا من أهم مصارف المال فى الإسلام،

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨ .

(٢) أحمد سعيد: لا للفقر فى ظل القرآن، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (٤٣٣)، يناير ١٩٨٧، ص٥٧.

(٣) لا للفقر فى ظل القرآن ، ص٥٨ .

وهو إنفاق موجه اختص به الله فقراء المجتمع الإسلامى، ثم إنه إنفاق يقع على المال أيا كان موقف صاحبه من التكليف، كأن يكون مالكه طفلا رضيعا أو مسنا فقد عقله التمييز[1].

كذلك فإن المتأمل للقرآن الكريم سيجد أن الكثير من آياته يدعو إلى التصدق على الفقراء والمساكين والمستضعفين بأسلوب يتراوح بين الترغيب فيها وتزيين الثواب، وبين التخويف من البخل[2].

٥- التدرج : وبمراجعة السور المدنية على حسب نزولها فى الوحى المدنى، وبمراجعة الآيات المدنية فى السور المكية حسب ترتيب نزول هذه السور فى الوحى المكى- يلاحظ أن بناء المجتمع الإسلامى إلى أن اكتمل تشريعه بسورة التوبة فى الوحى المدنى، انتقل من وضع المجتمع الجاهلى، وهو المجتمع المادى الوثنى إلى وضع المجتمع صاحب الحضارة الإنسانية الممثلة فى الإيمان بالقيم العليا التى تستشف من ذات المولى جل جلاله ومن صفاته، وفى العمل تقريبا من هذه القيم فى تطبيق الإنسان المؤمن وسلوكه مع نفسه ومع غيره، انتقل على فترات هى فترات نزول الوحى، وأخذ مستويات فى التدرج الاجتماعى تقربه من الصورة الواضحة للحضارة الإنسانية قدر ما تبعده عن صورة المادية والوثنية للمجتمع الجاهلى[3].

ومعنى ذلك أن المجتمع الإسلامى لم يتكون فى تشريعه دفعة واحدة، ولا انتقل فجأة من موضعه السابق إلى الوضع المرغوب فيه، وهو الوضع الإنسانى أو الإسلامى، وإنما الوقت الذى شغله نزول الوحى بالقرآن، كان هو ذلك الوقت الذى تم التحويل فيه من مجتمع الماديين إلى مجتمع أصحاب القيم الروحية الإنسانية، والتنجيم فى نزول الوحى كان المنهج القرآنى فى تطوير بناء المجتمع، فعندما يبلغ المجتمع مستوى معينا فى طريق العمل طبقا للإيمان بما نزل من قبل، ينزل الوحى بتحديد مستوى أرفع يدفع إلى بلوغه إيمان المؤمنين. . . وهكذا، وكلما تجد مشكلة فى التطبيق بسبب الأعراف والعادات أو بسبب تسلط المتبعين السابقين على التفكير أو السلوك، كلما يأتى الحل فى الكشف عنها وتوضيحها، وما يقال من « أسباب النزول » لبعض الآيات يلقى من غير شك ضوءا على البواعث التى كونت المشكل الذى نزل الوحى بشأن التوجيه فيه[4].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٣) محمد البهى : منهج القرآن فى تطوير المجتمع، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧٩، ص ٩.

(٤) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم، (بدون ناشر او مطبعة أو تاريخ)، ط٢، ص ٧٢.

وتطور تشريع المجتمع الإسلامى فى نزول الوحى به، ليس هو تطور مبادئ الإسلام، إذ مبادئ الإسلام ثابتة وقائمة، لأنها تمثل علم الله الكامل الذى لا يقبل الصيرورة والتطور بحال، وإنما التطور، أو التدرج هو فى «النزول» بتلك المبادئ حسب أوضاع المجتمع والزمن الذى مر على هذه المبادئ مر فقط على نزولها والوحى بها، أى مر بين بعضها بعضا ولكن لم يمر على انتقالها فى ذاتها من حال أدنى إلى حال أفضل، وهكذا.

· **وفيما يلى تطبيق لهذه القاعدة :**

(أ) التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة[1]. فقد بعث النبى ﷺ إلى قوم يعبدون الأصنام، ويشركون بالله غيره، ويسفكون الدماء ويشربون الخمر، ويزنون، ويغتصبون الأموال، ويئدون البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر، ويظلمون النساء، ويتزوجون نساء الآباء ويجمعون بين الأختين، كما كانوا يتظالمون، وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب كناقة رعت من حمى، أو سبق فرس أو نحو ذلك، وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس، وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوما، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء، ولا بين السادة والعبيد، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهى عنه لأن للعقائد - حتى ولو كانت باطلة، وللعادات حتى لو كانت مستهجنة - سلطانا على النفوس، والناس أسراء ما ألفوا ونشأوا عليه، لذلك جاءت مبادئ القرآن للتدرج مع الناس فى انتزاع هذه العقائد والمنكرات، فتنهاهم عن عبادة غير الله، فإذا ما أقلعوا عنه، أخذ فى النهى عن منكر غيره. . . وهكذا . . بل كان القرآن يتدرج معهم فى انتزاع المنكر الواحد، كما حدث فى تحريم الخمر .

(ب) التدرج فى تثبيت العقائد الصحيحة، والأحكام التعبدية والضوابط والأخلاقيات الفاضلة، فأمرهم أولا بالإيمان بالله وعبادته وحده، حتى إذا آمنوا بالله دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر ثم بالإيمان بالرسل والملائكة، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية والأحكام العملية، والفضائل والآداب السامية، فأمروا بالصلاة والصدق والعفاف، ثم أمروا بالصوم ثم بالحج . . إلخ .

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٤.

ومن هنا كان مدار الآيات فى القسم المكى - كما أوضحنا من قبل - على إثبات العقائد والفضائل التى لا تختلف باختلاف الشرائع، بخلاف القسم المدنى.

- (جـ) نزول القرآن مفرقا : بل إن القرآن فى نزوله راعى مبدأ تربويا هاما، فمن المبادئ التربوية التى كشف عنها علماء النفس، أن التدريب الموزع خير من التدريب الذى يتم مرة واحدة، والأمر كذلك فى الحفظ .

ولنزول القرآن الكريم منجما (أى مفرقا) حكم جليلة وأسرار عديدة يمكن أن نذر منها[1].

أولا : تثبيت قلب النبى ﷺ، فقد ذكرتها الآية الكريمة فى معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ ... **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]. وتثبيت قلب النبى ﷺ إنما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ «تسلية» له وشحذا لهمته للمضى فى طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهده الله- سبحانه وتعالى- بما يخفف عنه الشدائد والآلام. وقد أوضح البارى جلت عظمته الحكمة من ذكر قصص الأنبياء فقال : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود].

ثانيا : التلطف بالنبى ﷺ عند نزول الوحى، لما كان يعانيه من شدة بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]، فالقرآن- كما هو مقطوع به- كلام الله المعجز، الذى له جلال ووقار، وهيبة وروعة، وهو الكتاب الذى لو نزل على جبل لتفتت وتصدع من هيبته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ... ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر]. فكيف إذن بقلب النبى الرقيق؟ هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله؟![2].

ثالثا : التدريج فى تشريع الأحكام. فقد كانت جلية واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية - خاصة منهم العرب - طريق الحكمة، ففطمهم عن الشرك، وأحيا

---

(١) المرجع السابق ، ص٧٤.

(٢) محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن، ص ٤١.

قلوبهم بنور الإيمان، وغرس فى نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة تثبيت دعائم الإيمان - إلى البعث، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنى بالصوم وبالزكاة فى السنة الثانية من الهجرة ثم ختم بالحج فى السنة السادسة منها، وكذلك فعل فى العادات المتوارثة[1].

رابعا : أن فى تنزيل القرآن منجما ما يسهل على المسلمين تلاوته وحفظه وإدراك ما فيه من معان فى الأوامر والنواهى وفى المواعظ والدروس، وفى روائع البيان والتعبير وفى الإعجاز الذى ما فتئ يتحدى البشر على مر الزمان، وكذلك فإن فى تنزيله منجما يهون على الناس مهمة الالتزام بمبادئ هذا الدين والاضطلاع بما فى هذا الكتاب من الأوامر والزواجر، ولا جرم أن يكون النزول تدريجيا أهون على الناس من حيث العمل والتطبيق، من حيث الوقوف عند كل حد من حدود الإسلام بما فيه من زاخر الأحكام والنظم والتكليفات، ولنا أن نتصور فداحة الثقل الذى تنوء بحمله الراسيات الشم إذا ما أنزلت تعاليم الإسلام كلها مرة واحدة[2] .

خامسا : الإجابة عن أسئلة السائلين، وهى أسئلة كانت ترد من حين لآخر يوجهها للنبى أفراد مختلفون من المسلمين وغيرهم حتى أن كثيرا من هذه الأسئلة يطرحها نفر من الناس بقصد الإحراج، ثم يتولى الوحى عملية الإجابة عن مثل هذه الأسئلة فى صراحة واضحة أو أن تكون الإجابة على نحو معين من الكلام الذى يناسب الموقف .

مثال : فى إتيان البيوت من أبوابها، وذلك على سبيل التنبيه إلى ضرورة إتيان الأمور من مأتاها المعقول الذى ندب الله إليه. أما أن تؤتى الأمور من غير مأتاها المناسب السليم، فإن ذلك سبيل الخطأ والزلل، أو هو سبيل التكلف الذى لا يجدى ولا يأتى بخير، فقد سأل فريق من الناس النبى ﷺ عن الهلال يظهر دقيقا بسيطا ثم يكبر رويدا رويدا ثم يصبح مستديرا مستويا على التمام، ثم يأخذ فى التناقص والاضمحلال، وذلكم سؤال سابق لأوانه أو هو سؤال لا يطرحه إلا من كان ذا دراية علمية مسبقة بمثل هذه الأمور، والسائلون فى ذلك الزمان لمثل هذا السؤال ليسوا على شىء من المعرفة أو العلم حتى يتمكنوا من إدراك الجواب أو استيعابه لو قيل له بحقيقته العلمية، فهم بذلك كالذى يأتى البيوت من ظهورها لا من مداخلها الصحيحة وهى أبوابها، ولهذا جاء : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن

(1) المرجع السابق، ص ٤٣.

(2) أمير عبد العزيز : دراسات فى علوم القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣ ، ص٣٢.

ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ [البقرة]، وهكذا جاء الجواب منصبا على ما يقع فى دائرة التصور والمقدور الذهنى لأولئك السائلين فى ذلك الزمان[1].

إننا ببحثنا مسألة تجزئة الوحى فى ضوء هذه النظرات نستطيع أن ندرك أولا قيمته التربوية فتلك فى الواقع هى الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة فى حقبة تتسم بميلاد دين، وبزوغ حضارة، وسيهدى الوحى خلال ثلاثة وعشرين عاما سير النبى وأصحابه خطوة خطوة نحو الهدف البعيد، وهو يحوطهم فى كل لحظة بالعناية الإلهية، فهو يعزز جهودهم العظيمة، ويدفع أرواحهم وإرادتهم نحو هدف الملحمة الفريدة فى التاريخ، فيكرم بآية صريحة قضاء شهيد، أو استشهاد بطل[2].

كيف كان القرآن يؤدى دوره حيال طبيعة الإنسان التى جاء يصوغها فى ذلك العصر، لو أنه سبق بنزول أحداث حنين وأحد ؟ وما ذا كان يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل، ولو أنه لم ينزل لكل تضحية جزاءها، ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه فى الاحتشام، ولكل إشارة إلى ما تقتضيه من جهد، ولكل خطر أدبى أو مادى روح التشجيع اللازم لمواجهته ؟

وكلما كان الإسلام ينتشر فى ربا الحجاز ونجد، كان الوحى يتنزل بالدرس الضرورى فى المثابرة والصبر، والإقدام والإخلاص، يلقنه أوائل الأبطال الأسطوريين، أبطال الملحمة الخارقة .

فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعا لأمثلة الحياة نفسها والواقع المحيط بهم ؟

ولو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة، لتحول سريعا إلى كلمة مقدسة خامدة، لا إلى فكرة معينة، وإلى الوجود وثيقة دينية، لا مصدرا يبعث الحياة فى حضارة وليدة.

فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التى نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا فى هذا التنجيم .

ومن المعروف أن القرآن نزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد جيل، وما يحفظ فى الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل، وما يكتب فى السطور قد يعتريه المحو والإثبات والتحريف والتصحيف[3] . ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ، كان

---

(١) أمير عبد العزيز، ص ٤٠ .

(٢) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية، ص ١٧٤ .

(٣) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص ٢٣ .

يحفظ جزءا جزءا، وكان ينزل مجزءا ليسهل ذلك الحفظ، وكان النبى ﷺ حريصا على أن يحفظه عند نزوله، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه، وقد قال الله تعالى لنبيه فى ذلك: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]. وترى من هذا النص حرص النبى على أن يحفظ ما يوحى إليه، فيحرك به لسانه، مستعجلا الحفظ، فينبهه الله إلى أنه يتولى جمعه وإقراءه له، وأنه مبينه وحافظه.

٦- **رد الأمور إلى أهل الكفايات**: ولما كان فى الناس متفكرون باحثون عن الحقائق فى المجالات العلمية البحتة، ومتفكرون قادرون على تدبير الأمور وتخطيط الخطط السليمة فى الأمور الاجتماعية أو الأمور العسكرية أو الشئون السياسية، وفى الأمن أو الخوف، فى السلم أو فى الحرب، كان من المقتضيات أيضا إرشاد الجماهير إلى رد أمورهم ذات الوجوه المختلفة التى تحتاج تأملا دقيقا وبصرا نافذا إلى جماعة أولى الأمر منهم القادرين على حل المشكلات، والتبصر السديد فى المعضلات والتوجيه إلى أرشد الآراء وأسدها[1]، وذلك ليهتدى بعض هؤلاء إلى وجه الصواب عن طريق البحث والتفكر والاستنباط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء].

وليس أولو الأمر، كما يفهم البعض هم القادة السياسيون وحدهم، وإنما المقصود أنه فى كل مجال يبرز فيه متخصصون ذوو مهارات أو قدرات فطرية أو مكتسبة، فإن القرآن يوصى بأن يرد السواد العظم من الناس كل أمر إلى ذوى الاختصاص فيه.

بقى أن نتحدث عن أمانة اختيار الخبراء، ومن يوكل إليهم القيام بالعمل فى ميزان الإسلام، لأنها تحقق الفلاح والنجاح، ولأن الناس فى هذه الحياة أنماط متعددة فى تفكيرهم وطاقاتهم التى يواجهون بها الحياة على اختلاف دروبها وتشعب متطلباتها[2]. ومن هنا تأتى أهمية أمانة الاختيار لأنه لابد من اختيار خبير لكل عمل يكون من الأمة الموجه المخلص والحارس الأمين على أداء العمل، والراعى اليقظ لآمالها وأمانيها، له

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية، ص ٢٤١.

(٢) سعد المرصفى: العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٨٠، ص ١٨٤.

خبرته الأصيلة وقلبه المؤمن، وضميره الحى، وعقله الواعى، ورأيه الشجاع، وسيرته الطيبة ونظره البصير .

والأمة حين يوكل إليها اختيار من يرعى شئونها فى مجال العمل، ويوجه أمورها، فإن عليها أن تعلم أن الرأى فيمن يختار أمانة، وأن الأمانة عصب الحياة، وأن رب العزة جل شأنه يأمرنا بأدائها[1].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ [النساء].

والذين يترقبون رياح المنافع والهواء عندما يوكل إليهم اختيار الأفضل، قوم تشوه أنانيتهم المظلمة جمال الحياة، وتسيء للقيم والأخلاق، وإنه لوزر كبير، وإثم خطير، وشر مستطير، يعدل شهادة الزور، وما أشد جرم شاهد الزور والقرآن يقرنه بعبادة الأوثان : **﴿ ... فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾** [الحج].

إنها لوثنية القول، كما أن الإشراك وثنية العبادة، وإنها لخيانة لله ورسوله والمؤمنين: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) ﴾** [الأنفال].

وهكذا يدعو القرآن إلى أن تسند الأعمال إلى الخبراء فيها حتى يتقدم المجتمع الإسلامى حضاريا، ويقوى اقتصاديا، ويزدهر عمرانيا، ويتقدم ركب الحياة .

٧- التفاوت والمساواة : وقد أقر القرآن الكريم حقيقة اجتماعية تقول بالتفاوت بين الناس فى العلم والفضيلة، **﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... (١١) ﴾** [المجادلة]. وبالتفاوت فى الرزق، **﴿ ... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... (٣٢) ﴾** [الزخرف] . وحكمة التفاوت ظاهرة، وآفة التشابه والتساوى أظهر، لأن الحياة تفتقر إلى المزايا إذا قصرت حركتها على تكرير صورة واحدة فى كل فرد من الأفراد وجعلتهم كلهم نسخة واحدة، لا فضل لبيئة على بيئة، ولا مجموعة على مجموعة، ولكنها تزخر بالمزايا المتجددة وتستزيد من الملكات المتعددة كلما طرأ بينها التفاوت فى الصفات والتفاوت فى الأنصبة[2] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٥ .

(٢) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية، كتاب الهلال، العدد ٢٢٩، القاهرة، ١٩٧١، ص ٤٢ .

ولكن هذا التفاوت لا يرجع إلى عصبية فى الجنس أو الأسرة، ففى القرآن الكريم نداءات من الله يوجهها إلى الإنسان كإنسان، توضح له السبيل إلى قضاياه الكبرى، ومن أهم هذه القضايا نظرة الإنسان إلى جميع إخوانه فى الإنسانية، إذ يقرر أنها لا ينبغى أن تتحكم فيها عند الاختلاف بين الألسن، والألوان والأمكنة[1] .

ومن هنا كان مبدأ تكافؤ الفرص، فحياة العلم والمعرفة، وحياة الصحة والعافية، وحياة الحرية والكرامة، تلك كلها حقوق لا يجوز أن يحرم منها أحد، بل يجب أن تفجز ينابيعها فى كل مكان، وأن يتمكن من مواردها كل إنسان. وشرف التقدم لخدمة المصلحة العامة وتولى مناصب الحكم كبراها وصغراها، يجب أن يرشح له كل ذى موهبة ذكية، وأن يتساوى أفراد الشعب جميعا، فى الحصول على هذا الشرف، تدفعهم صلاحيتهم وحدها دفعا لا يستطيع مخلوق وقفه، ويؤخرهم عجزهم وحده تأخيرا لا يرد تقهقره شىء[2] .

والمغارم التى تتعرض لها الأمم يتحتم أن توزع على الجميع بالقسط، فلا تسفك دماء لتضار أخرى، ولا تهدم بيوت لتشاد بيوت ولا تتعرض للأخطار طبقة وتحمى من هذه الأخطار طبقة . بل الكل سواء، أمام فرص البقاء والفناء والربح والخسارة والنجاح والسقوط .

وتكافؤ الفرص فى هذه الأمور، هو ما توحى به العدالة، وتهدى إليه المساواة ويحرص عليه الدين، ويعتبر التحلل منه تحللا من أصول الفضائل، وهدما لقواعد الحكومة الصحيحة بل هدما لكيان الأمة التى تعد نفسها خير أمة أخرجت للناس. وما وعدت كذلك إلا على أساس تقريرها للمعروف وتغييرها للمنكر وإيمانها بالله وكفرها بالطواغيت، طواغيت الاقتصاد الجائر والسياسة العمياء .

ولهذا فإن لأى وليد فى الأمة الحق فى حضانة كريمة وكفالة سليمة، وأدوار موصولة من التعليم والتربية، تفتق ذكاءه وتنمى استعداداته وتزويده فى مستقبله بما ينفعه وينفع الأمة به[3] .

إن ميزان الفرص عندما يجور، وتتذبذب اتجاهاته على غير قانون أو ضابط

---

(١) عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية، مركز مطبوعات اليونسكو، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٩ - ١٠.

(٢) محمد الغزالى : الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، دار الكتب الحديثة ١٩٦١، القاهرة، ص ٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٤.

تضطرب شئون الأمة كلها وتشيع الفوضى فى أمورها، فكم من عبقريات تدفن، وذكاء يخبو، ومواهب تموت ! وكم من جثث وأغبياء يتحكمون، وجهال يسودون ويقودون؟؟.

وكم حفل الشعر العربى بمن يشكون الزمان ويتبرمون بالأوضاع ويسخطون على مجرى الحوادث !

ولن تقبل مجتمعاتنا على عصر جديد من العدالة، إلا يوم تجعل من تكافؤ الفرص قانونا يطبق فى أوسع دائرة تملكها طاقة البشر(١).

٥- البناء الخلقى:

فلا يستطع أفراد مجتمع من المجتمعات أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة. ولو فرضنا احتمالا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى، فإنه لابد لسلامة هذا المجتمع من خُلقى الثقة والأمانة على أقل التقادير، فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغنى عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التى هى الوسيط الذى لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه، تكفل أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار(٢).

وإذا كان من الممكن أن نتخيل مجتمعا من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الخلاق، فكيف يكون هذا المجتمع ؟ .

كيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟.

كيف يكون التعايش بين الناس فى أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم فى العمل ضمن بيئة مشتركة لولا فضيلة الأمانة ؟ .

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخى والتعاون والمحبة الإيثار ؟ .

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشجاعة فى رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتى هى أحسن؟ .

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة : الأخلاق الإسلامية، جـ١، ص ٢٩.

ولما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الدينى وللسلوك الشخصى عظيمة جدا، وكانت لدى المقارنة أجل من الثمرات التى تحققها المبالغة فى أداء كثير من العبادات المحضة . .

ولما كانت سلامة النفس من المساوئ الخلقية أهم من سلامة السلوك الظاهر من طائفة من المعاصى والذنوب الظاهرة، وكان ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحق بالاستكثار من نوافل العبادات المحضة، كالصلاة والصيام والأذكار اللسانية، لما كان كل ذلك، وجدنا النصوص القرآنية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق فى الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير[1]. فمن ذلك:

- اتباع القدوة الحسنة : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (٢١)﴾ [الأحزاب].

- لزوم حد الاعتدال : ﴿... وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠)﴾ [الإسراء].

- الاستقامة : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ... (١٥)﴾ [الشورى].

- التنافس فى فعل الخير، والأفضل: ﴿... فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... (١٤٨)﴾ [البقرة].

- الأعمال الحسنى: ﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ... (٧)﴾ [هود].

- الأقوال الحسنى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... (٥٣)﴾ [الإسراء].

- الصدق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ [التوبة].

- العفة والاحتشام: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ... (٣٠)﴾ [النور].

- استعمال الطيبات : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ... (١٦٨)﴾ [البقرة].

- الشجاعة والجلد، والثبات : ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... (١٧٧)﴾ [البقرة].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧ .

- لين الجانب والتواضع : ﴿ ...الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان].

-الإحسان العام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل].

- العدل : ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء].

- الأمانة وطهارة الذيل : ﴿ ...وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ... ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وقد ربط الإسلام بين الارتقاء فى مراتب الكمال الإيمانى بالارتقاء فى درجات حسن الخلق، وذلك لأن السلوك الأخلاقى النابع من المنابع الأساسية للخلق النفسى فى الإنسان، موصول هو والإيمان وظواهره وآثاره فى السلوك ببواعث نفسية واحدة .

فصدق العبادة لله عمل « أخلاقى » كريم لأنه وفاء بحق الله على عبيده .

وحسن المعاملة مع الناس « وفاء » بحقوق الناس المادية والأدبية، فهى بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة .

فإذا تعمقنا أكثر من ذلك فكشفنا أن الإيمان إذعان للحق واعتراف به، رأينا أن الإيمان أيضا هو عمل « أخلاقى » كريم [1] .

فإذا ضممنا هذه المفاهيم إلى المفهوم الإسلامى العام، الذى يوضح لنا أن كل أنواع السلوك الإنسانى الفاضل فروع من فروع الإسلام، والإسلام التطبيقى آثار للإيمان وثمرات عملية له. . . إذا جمعنا هذه المفاهيم وجدنا أن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا .

ومن المعروف أن لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له .

ولا شك أن فى الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما يعينهم أمورا معززة، لا صلة لغيرهم بها .

غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل، فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم . . [2] إلخ .

---

(١) عبد الرحمن حسن : الأخلاق الإسلامية، جـ١، ص ٣٨.

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٩.

وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجالات تهيج الخصومات ولا تجدى الأديان شيئا، قال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين فى منازعات من هذا النوع الحاد :

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [البقرة].

إن الأخلاق اللادينية - بقدر ما لهذا التعبير من معنى - تقيم أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخصية العاجلة، التى صارت أساس المجتمع المدنى، على أن الأخلاق الدينية (التوحيدية) تحترم أيضا المنفعة الشخصية، ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين، وهى بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته .

من أجل هذا الثواب صاغت التوراة الميثاق الخلقى الأول للإنسانية فى الوصايا العشر، وساق الإنجيل توجيهاته فى عظة المسيح على الجبل، ولكن الأمر فى كلا الكتابين أمر مبدأ أخلاقى سلبى، فهو يأمر الناس بالكف عن فعل الشر فى حالة، وبعدم مقاومة الشر فى أخرى[(١)].

أما القرآن فسيأتى بمبدأ إيجابى أساسى، كيما يكمل منهج الأخلاق التوحيدية، ذلك المبدأ هو « لزوم مقاومة الشر » ، فهو يخاطب معتنقيه بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ومن جهة أخرى يقر القرآن فكرة الجزاء، أساس الأخلاق التوحيدية، ويقول الأستاذ « أندريه لودن » : إن القيمة الدينية للفرد لم تظهر فى الديانة اليهودية إلا على عهد حزقيال (النبى)، فحتى ذلك العهد، كان الواجب ونتائجه الخلقية يقعان على عاتق الأمة التى تتوقع جزاءها فى ذلك النصر الموقوت يوم ينصر الإله قومه، وقد كان الإنجيل على العكس من ذلك فقد قصر الجزاء كله على « يوم القيامة » بحيث أصبحت الأخلاق من مسائل الآخرة، وأضحت برمتها من الهموم الشخصية[(٢)] .

---

(١) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠، ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٧ .

حتى إذا جاء القرآن وجدناه يقيم بناءه الخلقى على أساس القيمة الخلقية للفرد، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة، فأما الفرد، فإن ثوابه مستحق يوم الحساب، ومن أجل هذا يقرر القرآن صراحة القيمة الدينية للفرد فى قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [المدثر].

أما الجماعة فإن جزاءها عاجل، يلفتنا القرآن إلى قصته فى هذه الدنيا حين يدعونا دائما إلى تأمل العقاب الدنيوى فى عواقب الأمم البائدة والحضارات الدارسة: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام].

بل إن القرآن ليصف تلك الأمم فى آية أخرى فيقول :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام].

ويؤكد محمد الغزالى أن وعظ المسلمين بالوعد والوعيد الآخرويين يحتاج إلى حذر ودقة، فإن أمتنا فرطت فى شئون المعاش والمعاد جميعا، والتماس الدواء لها كى تصلح دينا ودنيا ليس يحسنه أى خائض فى ميادين النصح والتوجيه(١) .

إن الجماعات التى تغلو فى حب الدنيا وتستغرق فى السعى لها وتستبد بها الشهوات الجسمانية والنفسانية . . ينبغى أن تعالج بترقيق القلوب، وأن يطول الحديث معها عن الدار الآخرة وعن محاسن الجنة ومقابح النار. . . أما الجماعات التى تدب على الأرض ولا تحسن استثمار مال، ولا استنبات زرع، ولا تصنيع معدن، والتى تسقط فى الشهوات أحيانا كما تسقط البهم المنتشرة فى الحقول، هذه الجماعات التى لا يزيد بصرها بالحياة عن مواقع أقدامها، فلا تعرف للكون سرا، ولا تفقه من دنياها علما. . . هذه الجماعات ما يجوز أن نشرح لها تفاصيل الدار الآخرة إلا بعد أن تدرك معالم الدار الأولى، وتدرى كيف تعيش على أرضها، وتستظل بسمائها، فإذا وعت ما هى؟ و كيف تستقبل حاضرها ؟ علمت بعد كيف تستعد لغدها .

كذلك يذكر الغزالى أنه كثيرا ما خطب المسلمين فى المساجد والأندية فكان شديد الحيطة فى توجيههم، يخشى إن ذكرهم بالجنة والنار أن يفهموا من ذلك التذكير البقاء على خيبتهم فى الدنيا والزهد فى إحراز خيرها، وامتلاك زمامها، ويخشى إن ذكرهم

(١) محمد الغزالى : نظرات فى القرآن ص ١٠٠.

بالدنيا وضرورة السبق فيها والمنافسة على ثرواتها وخيراتها أن ينسوا الآخرة وحسن التأهب لها[١].

إن التبشير بالروحانية فى الوسط المادى مفهوم، وتعليم المادية فى الوسط الروحانى مقبول، ولكن ما الموقف إذا عالجت مجتمعا يفقد كيانه المادى والروحى معا؟ إن إحياءه يتطلب طبيبا واسع الأفق عميق الخبرة، صناع اليد، كى لا يعالج مرضا على حساب الآخر، طبيبا يتسلل بين مظاهر العلتين ليحصر جراثيم كل على حدة، ثم يستعمل مبضعه فى الاستئصال والتجميل حتى يسترد العافية المفقودة، ويستأصل الأدواء المتناقضة.

والبناء الأخلاقى لابد أن يستند على فكرة « الإلزام » فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووى الذى يدور حوله كل النظام الأخلاقى والذى يؤدى فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته وفناء ماهيتها، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام، فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية، فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام وتعم الهمجية، لا فى مجال الواقع فحسب، بل فى مجال القانون أيضا، وطبقا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقى[٢].

ولقد ناقش العقاد بعض المذاهب الباحثة عن مصدر الأخلاق وخص بالذكر مذهبين أحدهما يقول « بالقوة » والآخر « بالمنفعة » وبعد أن فند كليهما[٣] أكد أنه لا صحة نفسية بغير ضابط، وكل ضابط معناه القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء، وليس معناه القدرة على العمل فحسب، ولا المضى مع النفس فى كل ما تشاء.

وهذا قبل كل شىء هو مصدر الجمال فى الأخلاق : مصدره أن القوة النفسية أرفع من القوة الآلية .. مصدره أن يتصرف الإنسان كما يليق بالكرامة الإنسانية ولا يتصرف كما نحمله من القوة الحيوانية، أو القوة التى يستسلم لها استلام الآلات. مصدره أن يكون الإنسان سيد نفسه، وأن يعلم أنه يريد فيعمل أو يمتنع عن العمل، ليس قصاراه أنه يساق إلى ما يراد[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) عبد اللطيف دراز : دستور الأخلاق فى القرآن، ص ٢١.

(٣) الفلسفة القرآنية، ص ٢٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠.

إن المجتمع قد يملى على الإنسان ما لا يليق، ولكنه لا يغنيه عن هذا الضابط الذى تناط به جميع الأخلاق، كما تناط به حاسة الجمال؛ لأنه دليل على صحة التكوين وخلو النفس من الخلل والتشويه، وبهذا الضابط الذى لا غنى عنه فى كل خلق من الأخلاق يتحدى الإنسان فرائض المجتمع كله، إذا فرضت عليه ما ينفر منه طبعه، أو يجرح فيه حاسة الجمال وسليقة الشوق إلى الكمال، فيعلو على المجتمع فى كثير من الأحيان، ولا يكون قصاراه أن ينقاد لما يمليه عليه، بل يخلق الآداب الاجتماعية الجديدة، ولا يكون فى أعماله ومقاييسه مخلوقا للمجتمع فى جميع الأحوال . .

وهذا الذى يقوله العقاد هذا لا ينطبق على عموم الناس بطبيعة الحال، وإنما هو خاص بهؤلاء النفر من دعاة الإصلاح والتغيير الجذرى، والذين تستهدف دعواتهم «التجديد » والنقلة النوعية فى فترات الضعف والخمول والتحلل .

مصدر الجمال فى الأخلاق هو أن يشعر الإنسان بالتبعة، وأن يدين نفسه بها لأنه يأبى أن يشين نفسه .

مصدر الأخلاق الجميلة هو « عزم الأمور » كما سماه القرآن الكريم، وهو مصدر كل خلق جميل حثت عليه شريعة القرآن .

ومن هنا نعجب لما يريده لنا بعض أصحاب النظريات المحدثين مثل (جييو) فى كتابه (نحو أخلاقية بلا إلزام ولا جزاء) Guyou : Esquisse d,une morale sans obligation ni sancation ومن ناحية أخرى، كيف نتصور قاعدة أخلاقية بدون إلزام؟ أليس هذا تناقضا فى الحدود؟ أم أننا نجعل من الضمير مجرد أداة للتقدير الفنى ؟ ولكن، أليس بديهيا أن علم الأخلاق وعلم الجمال - أمران مختلفان ؟ وبمعنى أكثر عمقا، إذا كان حقا أن كل ما هو خير فهو جميل، فهل العكس أيضا صحيح ؟

إنه مما لا ريب فيه أن لفكرة الفضيلة جمالها الذاتى، الذى تتذوقه النفس، لكن هناك أشياء أكثر من هذا، فالفضيلة بطبيعتها عاملة ومحركة فهى تستحثنا أن نعمل كيما نجعل منها واقعا ملموسا، على حين لا نرى للإحساس بالجمال، إذا رددناه إلى أبسط صورة، أية علاقة، وبخاصة عندما لا يكون موضوعه متصلا بإرادتنا[1] .

من ذلك أن إعجابنا بالقدرة الإلهية، أو بعظمة القيمة السماوية، لا يحملنا على أن نخلق أمثالهما، وشبيه بهذا، ما يحدث للفنان عندما يتخيل فكرة عمل يمكن تحقيقه، فإن هذه الفكرة لا تقهره مطلقا على أن ينفذها، ولكنها تدعوه برفق أن يحققها حين

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن، ص ٢٢ .

يريد، ومتى أتيح له وقت فراغ، ولو أنها فرضت نفسها على بعضهم، فإنها لا تفرض على الآخرين بنفس القدر من الضرورة، وهى فى كل حال تعبر عن الإحساسات، دون أن تصادمها .

أضف إلى ذلك أن أى نقص يرتكب فى عمل فنى - قد يصدم الحواس، ولكنه لا يثير الضمائر، ولا يقال : إن مرتكبه قد أحدث عملا غير أخلاقى .

أما الخير الأخلاقى، فبعكس ذلك، يتميز بتلك السلطة الآمرة تجاه الجميع، بتلك الضرورة التى يستشعرها كل فرد، أن ينفذ نفس الأمر، أيا كانت الحال الراهنة لشعوره، وهى ضرورة تجعل من العصيان أمرا مقيتا ومستهجنا .

والمسئولية المتولدة عن الإلزام، هى نفسها نوع خاص من الإلزام، وإذا عمدنا إلى الجانب الاشتقاقى وجدنا أن عبارة (كونه مسئولا Etre responsable) تعنى : « كون الفرد مكلفا بأن يقوم ببعض الأشياء، وبأن يقدم عنها حسابا إلى زيد من الناس»[1] .

ولا ريب أننا نتكلم عن المسئولية بالمعنى الحقيقى، الذى قد يتفاوت فى قوته، وقد يحدث أن يستخدم هذا الاصطلاح بتوسيع دلالته أو إضعافها، ليدل على مجرد تبنى العمل ولو لم يوجد إلزام، ولا إمكانية سؤال أو إجابة، فمنذ كان الخالق وحده فى هذا العالم « إلها متفردا » يتصرف فيه متحكما، فإنه بهذا الاعتبار هو الصانع المسئول عن أعماله، بأكمل معانى الكلمة سبحانه وتعالى .

فلنقتصر إذن على مفهوم المسئولية، التى تفترض سلفا فكرة إلزام صارم. فعلى الأقل : الفكرة المعادلة لمثل أعلى، اصطلح عليه مقدما، بحيث يرى الإنسان أنه مسئول عنه أمام نفسه[2] .

وإذا كنا قد سبق لنا أن عرضنا للمسئولة، فإننا نريد الآن القول بأن المسئولية تعنى سؤال الإنسان ومحاسبته على أفعاله الإرادية التى يختارها بملء حريته، فالمسئولية لا تعنى الجزاء (الثواب والعقاب) إن الجزاء هو ما يترتب على هذه المسئولية، هى سؤال ومحاسبة الإنسان فى الدنيا لتقدير الجزاء وكشف حساب بأعمال الإنسان فى الحياة الآخرة[3] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٧ .

(٣) أسامة شموط : التربية الخلقية فى القرآن والسنة، فى الفكر التربوى العربى الإسلامى، ص ٤٢٦ .

قال تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ۝٧ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ۝٨ ﴾ [الزلزلة].

وفلاسفة الأخلاق لا يعفون الإنسان من المسئولية، إلا أنهم يحصرون هذه المسئولية فى عالم الواقع، وتنتهى عند أكثرهم بانتهاء حياة الإنسان. أما الإسلام فيقرر هذه المسئولية الشخصية والاجتماعية، ويوسع مفهومها ليشمل مسئولية الإنسان أمام خالقه فى الحياة الأخرى، فالقرآن الكريم يؤكد المسئولية الآجلة فى آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ وإذا الجنة أزلفت ۝١٣ علمت نفس ما أحضرت ۝١٤ ﴾ [التكوير]. وقال: ﴿ ... فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ... ۝١٠٤ ﴾ [الأنعام].

والمسئولية الآجلة فى القرآن الكريم شاملة لجميع أفعال الإنسان. وكشف الحساب غاية فى الدقة، لا يدع صغيرة أو كبيرة إلا وبينها مدونة تثير الدهشة والخوف والرهبة والإشفاق، قال تعالى: ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ... ۝٤٩ ﴾ [الكهف].

ولما كانت أعمال الإنسان الأخلاقية لا تكون إلا فى إطار الجماعة وفى دنيا الواقع ولما كان الإنسان مسئولا مسئولية مطلقة عن أفعاله يوم البعث والحساب، فإن المسئولية الآجلة لا تغنى أبدا عن المسئولية العاجلة فى الدنيا[١].

وإذا كانت المسئولية نتيجة طبيعية للإلزام بما أمرنا الله تعالى به، أو ينهانا عنه من إفراد للمسئولية، فإن الجزاء هو النتيجة المترتبة على قيام الإنسان بمسئولياته أو مخالفته لها، كما أكدنا من قبل، فعندما يوجه الله- عز وجل- إلينا أمره فهو يلزمنا، فإن استجبنا وخضعنا لأمره ولبينا نداءه نكون قد تحملنا مسئوليتنا التى يترتب عليها الجزاء الحسن، وإن كان موقفنا أمام نداء الله تعالى وأمره ومخاطباته لنا هو التمرد والعصيان والمخالفة، ترتب على ذلك الجزاء السيىء[٢].

والجزاء هو الذى يجعل للأمر والنهى معنى مفهوما ونتيجة مرجوة، ولولاه لكانت الأوامر والنواهى أمورا ضائعة وضربا من العبث، والناظر فى الجزاء الذى شرعه الله- عز وجل - وما يتضمنه من البشارة والنذارة والوعد والوعيد، يرى أنه علاج

---

(١) أسامة شموط، ص ٤٢٧.

(٢) محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم، ص ٣٢٦.

لطبيعة الإنسان وتهذيب لهـا، لأن الإنسان إذا نظر إلى ما ينتظره من بشارة الثواب على طاعته لأوامر الله- عز وجل- التزم بها يحدوه الأمل فيما أعده الله من جزاء حسن(١).

ولما كانت طبائع الناس متفاوتة، وكان فيهم من يكفيه الترغيب فى ثواب الله والترهيب من عقابه، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب، ولو ترك بدون جزاء لأشاع الفساد فى الأرض لما كان هذا شأن الناس، اقتضت حكمة البارى- سبحانه وتعالى- أن يكون فى دين الله ومن أصوله جزاء المحسن على إحسانه وعقاب المسىء على إساءته حتى يستقيم أمر الناس وتعتدل أحوالهم ويحققوا عمران هذه المعمورة(٢).

وقد أنكر الله على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين، كالتسوية بين الأبرار والفجار، فقال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

وقد تعمق فقهاء المسلمين الشروط الأساسية التى تبنى عليها مسئولية الإنسان عن سلوكه الخلقى من خلال دراستهم لآيات القرآن الكريم، ورأى كثيرون أن هذه الشروط يمكن إجمالها فيما يلى:

١- أن يكون صاحب العمل أهلا لتحقيق المسئولية، وتتمثل الأهلية بالعقل والبلوغ، أما فاقد العقل فلا مسئولية عليه طبعا ولا اعتبار لأى عمل من أعماله، وأما غير البالغ فقد أعفاه الخالق من المسئولية الأخروية وإن كان مميزا، دون أن يحرم من ثواب العمل الصالح، وذلك لتكون فترة ما قبل البلوغ فترة تربية وتعليم وإنضاج فكرى ونفسى، وخفف مسئوليته الدنيوية إلى مستوى المسئولية التربوية التى يتولاها أولياؤه المربون له(٣)، قال سبحانه تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ** ... ﴿٥٨﴾﴾ [النور].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٧.

(٣) الأخلاق الإسلامية، جـ١، ص ١١٠.

٢- أن يكون العمل صادرا عن إرادة صاحبه، ومن ثم تسقط المسئولية عن الأعمال التى لا تكون إرادة الإنسان الحرة هى واسطتها، كحركة النائم والرعشات وتصرفات المجنون المكره[(١)].

٣- أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله ما ينتج عن العمل فعلا من خير أو شر[(٢)] . فيقول تعالى : ﴿... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب].

٤- العلم بالعمل وما يؤدى إليه من خير أو شر وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعى[(٣)] . يقول عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص].

٥- إمكان العمل : ومن هنا نفهم قوله عز وجل : ﴿...لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا... ۝٧﴾ [الطلاق]. وقوله: ﴿...لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... ۝١٥٢﴾ [الأنعام] وكذلك ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... ۝٢٨٦﴾ [البقرة].

لذلك فإننا نستطيع أن نقول فى باب الأخلاق : إن المفطور على سرعة الانفعال حتى يستطيع أن يملك نفسه ملكا تاما، تخف مسئوليته فى مجال خلق الحلم إلى المقدار الذى يملكه من نفسه بإرادته، بخلاف المفطور على بطء الانفعال، فإن مسئوليته فى مجال خلق الحلم تكون أكبر وأعظم، فإذا هو أسرع بالغضب مع قدرته على ضبط نفسه، فإنه يلام بنسبة أكبر من النسبة التى يلام بها المفطور على سرعة الانفعال، نظرا إلى أنه أقدر على ضبط نفسه منه[(٤)].

٦- تحديد الواجبات وتدريجها[(٥)]، إذ إنه لا يكفي، حتى ونحن فى نطاق الخير الأخلاقى أن يوصف نشاط بأنه ممكن وعملى ليدخل فى عداد الواجبات، فسوف نصادف هنا سلما من القيم الإيجابية والسلبية، رتبت بعلم وتنوعت فى وفرة .

ولو أننا - بادئ ذى بدء - نحينا جانبا الواجبات الأولية المحدودة التى لا يؤدى تطبيقها إلى أدنى لبس، مثل : (لا تكذب - أد الأمانة - كن فى حاجة الآخرين. . .)

---

(١) الأخلاق الإسلامية / جـ١، ص ١١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١٢ .

(٣) الأخلاق الإسلامية، جـ١، ص ١١٢.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص ١٢٦.

(٥) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن، ص ٨٧.

لبقى أمام الفضيلة المبدعة والبناءة ميدان نشاط متراحب، يضم عددا لا ينتهى من الدرجات، كلها ممكنة وعملية، فهل يمكن استيعابها؟ أو أنه يكفى الاجتزاء ببعضها؟ وبعبارة أخرى، هل الخير والواجب فكرتان متطابقتان؟ وهل لا يوجد فوق السلوك الملزم بشكل صارم درجات يتزايد استحقاقها للثواب ويصح تجاوزها دون ارتكاب موقف غير أخلاقى[1].

فيما عدا الواجب المطلق الذى لا يتضمن تقييدا، ولا تحديدا (أى الإيمان) - نجد أن هذه الأخلاق تعين فى كل عمل يقبل التحديد درجتين من الخير، وتعطى لكل منهما علامات مميزة، ومحددة بدرجة كافية : الحد الأدنى، الذى لا يهبط العمل دونه إلا إذا أخل بالواجب، ثم ما يعلو فوق ذلك، دون تجاوز للحد الأقصى، وبعبارة أخرى: الخير الإلزامى، والخير المرغوب فيه[2] .

وفضلا عن ذلك، فالقرآن يفتح الطريق فى كل مجال إلى مشاركة أكبر، وهو يحث كل إنسان على ألا يقنع بهذه المرحلة المشتركة، وأن يرتفع دائما إلى درجات أكثر جدارة يقول تعالى : ﴿ ... وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ... ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

ونعيد هنا ما سبق أن أشرنا إليه من تأكيد القرآن بصور مختلفة على ضرورة أن يتحمل كل إنسان نتيجة ما يصدر عنه من قول أو فعل ، خيرا كان أو شرا ، مما يعنى إضفاء صفة « الشخصية » على مسئولية كل فرد إزاء كل ما يكلفنا به الله- عز وجل- .

والدلالة الحقيقة لمبدأ شخصية المسئولية أن العقاب لا يقع إلا على مرتكب الذنب نفسه وأن كل من يفعل خيرا يختص هو فقط بثوابه، وهذا مبدأ تربوى هام وليس مجرد قاعدة قانونية فليس هناك ما هو أكثر فاعلية تربوية من التعود على تحمل المسئولية.

يقول سبحانه تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر].

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) المرجع السابق .

(٣) محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم، ص ٩٥ .

فالله- عز وجل- يخبر أنه لا تحمل نفس إثما غير إثم نفسها وإن تدع نفس مثقلة بآثامها وأوزارها وذنوبهـا من يساعدها على حمل ما عليهـا من آثام أو بعضه لا تجد من يحمل عنهـا وإن كان قريبا إليهـا، حتى ولو كان أباها أو ابنها أو خليلـها، فكل واحد مشغول بنفسه مرهون بذنبه. ثم يخبر الله- تعالى- أنه إنما يتعظ بما جاء به من هدى هم الذين يخشون ربهم بالغيب ويخافونه ويراقبونه. ثم يخبر - تعالى- أنه من عمل صالحا فإنما يعود نفعه عليه خاصـة وإلى الله المرجع والمآب ليجزى كل عامل بعمله الذى باشره أو تسبب فيه إن خيرا فخير وإن شرا فشر[1].

والقرآن الكريم عندمـا يتحدث عن المسئولية والجزاء إنما يفعل ذلك فى مـواجهة أولئك الذين كـانوا يرون أنفسـهم فى مسـتوى خـاص بهم، وأنهم من أصحـاب الامتيازات، سواء فى ذلك أهل الكتاب أو المسلمون أنفسهم أو المشركون، فبالنسبة للفريق الأول: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة].

وبالنسبة للمسلمين بين لهم أن قيـمة الإنسان ليست فى الانتماء إلى هذا الدين أو ذاك، وإنما هي فى العمل الذى يقوم به الإنسان: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ... ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء].

وكان الفريق الآخر، فيما يحكى القرآن أيضا عنه يقول من أشد منا قوة ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ]، فأنكر عليـهم سبحانه هذا فما هم فـيه من ثروة وقوة وغنى وكثرة أولاد ليس امـتيازا يسقط عنهم المسئولية ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ** ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ][2].

وإذا كان لابد لكل عاقل من غرض يقصد إليه بعمله، فإن ذلك الغرض الأساسى فى قبول الأعمال ورفضها، هو الميزان الذى به تعرف درجة الأعمال عند الله، فإذا سما الغرض، ونبل القصد، واتصل بالإرادة الدائمة، والتمس به مرضاة الله، كان ذلك سببا قويا فى تقبل الأعمال، وارتفاع الدرجات، وكان فى الوقت نفسه دليلا واضحا على قوة إيمان العامل بالله وشدة مـراقبته لمولاه، فيـتقى ويحسن، ويكون معه فى كنف ومـعية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل].

وأما إذا سفل الغرض، وانحط المقصد، واتصل بإرادة الحصول على شهوة زائلة،

---

(١) محمد إبراهيم الشافعى، ص ٩٦.

(٢) محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، ص ١٩٤، ١٩٥.

أو سمعة زائفة، أو حيلة خادعة، فإن ذلك يكون سببا قويا فى رفض الأعمال وردها على أصحابها، وكان فى الوقت نفسه دليلا واضحا على خلو القلب من روح الإيمان الصادق وعلى عدم تمثله عظمة الله ومراقبته، وكان العامل فى تلك الحالة باذلا بعمله دينه لدنياه هازئا بعبادة مولاه، وكان جديرا ألا ينظر الله إليه ولا يزكيه ولا يكلمه:
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة].

فمن ابتغى تقديس الله بصلاته وصومه، وابتغى مرضاته بالبذل والجهاد فى سبيله، وابتغى بإرشاد الناس إصلاحهم وتوجيههم إلى الخير، وابتغى بحكم الناس والهيمنة عليهم إقامة العدل، وإيصال الحقوق إلى أربابها، وإنصاف المظلوم من الظالم، والرحمة بالضعفاء- وقعت أعماله عند الله موقع الرضا والقبول، وتولاه برعايته وسدده فى قوله وعمله ونشر عليه من رحمته وجعله مورد خير دائم لله ولعباد الله[1].
﴿ ...وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء].

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾[2] [البقرة].

أما من صلى أو صام أو تصدق أو جاهد إلى غير ذلك بقصد أن يخلع عليه الناس لباس التقوى والصلاح فصفقته عند الله خاسرة .

والذى يدرس الأخلاق الإسلامية يجد أنها مذهب متسق لا مجموعة من التوجيهات والآداب المتناقضة المهوشة، ذلك أن الأوامر المتناقضة لا يمكن أن تخضع لقانون واحد يحكمها جميعا، ودراسة هذه الأخلاق تبين خضوع الفضائل الأخلاقية الإسلامية لمبدأ التدرج فى الوجوب والعلو، والقانون المبنى عليه أى قانون العلاقة العكسية بين الوجوب والعلو .

ففى حالة تقابل فضيلتين فى أى موقف واقعى، يجب الحفاظ على الفضيلة الأشد وجوبا (والأقل علوا)، والتضحية بالفضيلة الأقل وجوبا (والأكثر علوا) .

وليس على الفضيلة قيد يمنع نموها وتطورها إلا الحفاظ على الفضائل الأكثر منها

(١) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، القاهرة ، دار الشروق ، د. ت ، ص٢٨٧.
(٢) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر ، والطل : المطر القليل : (انظر المعجم الوسيط ص٥٨٤، ١٠٥٠).

وجوبا. ومعنى هذا أن الفضيلة الإسلامية لا تقاس بالوسط الأرسطى، فهى ليست وسطا، ومعيارها الوحيد هو التناسق الخلقى[1].

ونعنى بالتناسق البدء بالفضائل الأكثر وجوبا، وعدم انتهاكها من أجل الالتزام بالفضائل الأقل وجوبا، وكل عمل فاضل مطلوب المضى فيه بقدر ما يجد المسلم إليه سبيلا، وهو لا ينقلب إلى رذيلة مهما تقدم وتطور إلا إذا أفضى إلى انتهاك فضائل أخرى أكثر وجوبا، أو إذا استأثر بالمسلم ودفعه إلى إهمال الواجبات الأخرى الأكثر وجوبا أو المساوية فى الوجوب.

هنا نقول أن التناسق الخلقى قد اختل، وندين الفضيلة أو العمل الفاضل الذى دفع إلى هذا الإخلال وننفى عنه الخاصية الخلقية.

ومن الواضح أن التناسق الخلقى يختلف عن معيار الوسط الأرسطى، فالتناسق لا يقيد نمو الفضيلة، ولا يهدد العامل بأنه إذا تجاوز نقطة الوسط (وهى شبه مجهولة)، فإن فضيلته سوف تنقلب وبالا عليه! التناسق يدعونا إلى بذل أقصى الجهد فى الالتزام بالفضيلة، ولكنه يريدنا أيضا أن نحترم مبدأ التدرج فى الوجوب، وألا نقفز إلى الطوابق العليا دون أن نشيد الطابق الأرضى[2].

ولعل وجه الشبه بين الوسط والتناسق هو وجود ضوابط للفعل الفاضل، ووجود حدود لا ينبغى أن يتجاوزها. هذا الشبه، فضلا عن وجود آيات قرآنية تتحدث عن الوسط هو الذى كتب لنظرية الوسط القبول الواسع بين مفكرى الإسلام.

وإذا كان الكتاب الكريم قد شرع للمؤمن كفرد، فقد شرع له كذلك كجماعة، وأنه وكما أثبت مسئوليته الشخصية عن أعماله الفردية، فقد أثبت مسئولية الجماعة فى كل ما يتعلق بسلامة أمته من فساد، وأوجب عليه العمل لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج، وأوضح له أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أخلاقيات المؤمن التى لا يتحقق وجودها بدونه[3]، يقول عز وجل: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...** ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة]. وهم على عكس المنافقين الذى يصفهم القرآن فيقول: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ...** ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة].

---

(١) أحمد عبد الرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية فى الإسلام، الرياض، دار العلوم، ١٩٨٢، ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٣) أحمد إبراهيم مهنا: مقومات الإنسانية، جـ١، ص ١٠١.

وعنى القرآن الكريم ببيان أن الواجب ليس خاصا بالمؤمن كفرد، وإنما هو من أخلاقيات الجماعة المؤمنة، وعليها أن تهيئ وتعد من أفرادها من يكون عمله الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقول عز وجل: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [آل عمران].

وأن هذه الآية دلت على أمور هامة[1] :

أولها : وجوب الدعوة إلى الخير، وأى خير أعظم من تعلم الإسلام، إنه الخير، وهو دين الله تعالى، وهو الحق الذى فيه إصلاح البشر فى معاشهم ومعادهم .

ثانيها : أنه بعد الدعوة إلى الخير، يكون العمل على إيجاد جماعة فاضلة بين المسلمين، ترى المعروف فتؤمن به وتدعو إليه، وترى المنكر فتنهى عنه، حتى لا يسود الجماعة إلا الخير ويختفى من بينها الشر، فيموت فى مكمنه، ولا يرى النور، فيذبل ويختفى فى الظلام.

ثالثها : أن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى سيادة الشر فى الجماعة، وإذا ساد الشر تحكمت الأهواء والشهوات، وعندئذ يكون التفرق، ويركب كل امرئ متن هواه، فتتفرق الأمة بعد اجتماعها وبعد أن جاءتها البينات .

إن الدعوة إلى الإسلام وتعليمه، أخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يوجد معروف لا تدركه العقول وتقربه الأفهام أكثر من الدعوة إلى الوحدانية الكاملة، وحدانية الله تعالى فى ذاته وصفاته، وإنه الخالق لكل شيء، وإنه المعبود بحق وحده، وعبادة غيره هي الضلال البعيد، وتحكم الهوى والأوهام فى العقول[2] . يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ... ﴿١١٠﴾** ﴾ [آل عمران].

ومن هنا كان من أخلاقيات الشخصية المؤمنة فى كل مرحلة من التاريخ الإنسانى كما حكى القرآن من وصايا لقمان لابنه : ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾** ﴾ [لقمان].

---

(١) محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، دار الفكر العربى، د . ت، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧ .

ومدح الله- سبحانه وتعالى- بعض أهل الكتاب فقال :﴿ ... مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران].

فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الأخر حتى أضاف إليه، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

وللتربية الأخلاقية طرائق من الفاعلية ما يعين على تحويل مبادئها وقيمها إلى سلوك عملى فى دنيا الواقع، ويمكن تلخيص هذه الطرائق فيما يلى [2] :

الأول : توفير ظروف ومواقف تشجع على التطبيق العملى للمبادئ الأخلاقية.

الثانى : الممارسة المستمرة للمبادئ الأخلاقية .

الثالث : تلقين المبادئ الأخلاقية بعد خبرة يمارسها فى مشكلات يجد الحل السليم لها فى المبدأ الأخلاقى .

الرابع : التدرج فى عملية التدريب والممارسة، ثم التدرج فى التربية الأخلاقية بصفة عامة .

وفى نهاية هذا الجزء، يهمنا الإشارة إلى جانب هام، وهو أن هذه المبادئ والقيم الأخلاقية التى يطالب بها المسلم، تتسع دائرتها لتشمل كذلك سلوكه مع غير المسلمين. فقد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن فى الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أمورا مقررة لا صلة لغيرهم بها .

غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل، فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم .. إلخ[3] .

وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود والنصارى فى مجالات تهيج الخصومات ولا تجدى الأديان شيئا، قال تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

---

(١) أحمد مهنا : مقومات الإنسانية، جـ١، ص ١٠١

(٢) مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الإسلامية، القاهرة، الخانجى، ١٩٧٧، ص ٤٢٥ .

(٣) محمد الغزالى، خلق المسلم، ص ٢٩ .

وهكذا يظهر من هذه التعاليم أن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، وأنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجا عليه وابتعادا عنه، فليست الأخلاق من مواد الترف التى يمكن الاستغناء عنها، بل هى أصول الحياة التى يرتضيها الدين ويحترم ذويها[1].

٦- نظرية المعرفة:

كل الناس على وجه التقريب تزعم أنها تعرف الأشياء من حولها وتعرف الآخرين الذين يعاشرونهم ويتعاملون معهم، ولا يخالج الرجل العادى شك فى أنه يعرف كل ذلك، فهو يرى أمامه الناس والأشياء - مثلا -: هذا كتاب، وهذه شجرة، وهذا جمل، وهذا حجر . .إلخ. ويعتقد هذا الأمر لا يستحق أن نجادل فيه، وذلك لأنه يرى ذلك أمام عينيه ويشعر به ويدركه بكل حواسه، ويبنى على ذلك أحكامه[2] .

لكننا إذا أردنا أن نخضع هذه المعارف للنقد والفحص فأثرنا تساؤلات مثل: كيف عرفت ذلك؟ هل أنت على يقين من صحة معارفك؟ هل وسيلتك إلى معرفة ما حولك من ناس وأشياء توصل إليك المعلومات بطريقة صحيحة؟ . .إلخ .

إذا طرحنا هذه التساؤلات على الرجل العادى فسوف يستنكر هذا وينظر إليه باعتباره مضيعة للوقت وعبثا لا طائل وراءه . . وتلك هى طبيعة الفكر العادى، لكن الفكر الفلسفى لا يقف عند حدود هذه الاعتقادات الراسخة، فهو فكر شغوف بالبحث والتنقيب والفحص والتعليل .

وإذا كان الإنسان منذ نشأته قد شغف بالبحث عن المعرفة، فقد كان طبيعيا أن تحتل المعرفة مكانا مرموقا فى قائمة اهتمامات الفلاسفة والمفكرين، لكن الملاحظ على الجهود الأولى فى هذا الشأن أن موضوع المعرفة لم يجئ منفردا مستقلا، بل جاء مختلطا بغيره من موضوعات الفلسفة، فقد أدخل أفلاطون بحوث المعرفة فيما أطلق عليه اسم الجدل، وضمنها أرسطو فى دراساته عن « ما بعد الطبيعة » ، ولم يضع كل منهما حدودا فاصلة بين البحوث المتعلقة بالمعرفة وبحوث ما بعد الطبيعة، ولا بين بحوث المعرفة والبحوث المنطقية البحتة[3] .

وقد ظل الحال على ذلك أيضا فى فلسفة العصر الوسيط الأوربية، إلى أن جاء

---

(١) محمد الغزالى : خلق المسلم، ص ١١ .

(٢) محمود حمدى زقزوق : تمهيد للفلسفة، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٠٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٩ .

العصر الحديث فأفرد لمشكلة المعرفة مكانا خاصا، وتناول الفلاسفة هذه المشكلة منذ ذلك الوقت بعمق وتفصيل. ولكن مصطلح (نـظرية المعرفة) لم يظهر إلى الوجود مع بداية الاهتمام الكبير ببحث هذه المشكلة فى بداية العصر، فهو مصطلح حديث العهد نسبيا .

ونظرية المعرفـة، نظرية تبحث فى مبـادئ المعرفة الإنسـانية وطبيـعتهـا وقيمتـها وحدودهـا وفى الصلة بين الذات المدركة والموضـوع المدرك، وبيان إلى أى مـدى تكون تصوراتنا مطابقة لما يؤخـذ فعلا، مستقلا عن الـذهن، وتتميز عن السيكلوجيـا الوصفية المحضة التى تقتصر على التفرقة بين العمليات الذهنية ووصفها دون الفحص عن صحتها أو زيفها، وتتميز أيضا عن المنطق الذى يقـتصر على أن يصوغ قواعد تطبيق المبادئ دون أن يبحث فى أصلها، ودون أن يناقش قـيمتها، وهى جزء من السيكلوجـيا الذى يعسر فيه تجنب الميتافيزيقا، ما دمنا بصدد البحث عما يفترض الفكر سابق على الفكر نفسه[١] .

ولم يرد لفظ « المعرفة » فى القرآن الكريم، ووردت له اشتقاقات كثيرة[٢] :

- فجاء بصيغة الماضى كما فى قوله تعالى: ﴿ ... **تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ...** ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة].

- وجاء بصيغة الفعل المـضارع كما فى قوله عز وجل : ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل].

ومعنى المعرفة فى هاتين الآيتين : إدراك الشىء بتفكير وتدبر لأثره .

- وجاءت فى القـرآن أيضا صيـغة « عرف » بمعنى بيّن، وأعلم، في مـثل قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ** ... ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم]، وصـيغة « اعتـرف » بمعنى أقر فى قوله سبحانه : ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة].

- وكذلك « المعروف » وهو : ما عرف - بالعقل أو الشرع - حسنه، يقول جلا وعلا ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴿٢٤١﴾ ﴾ [البقرة].

وقد أشار الراغب الأصـفهانى إلى وجوب التفرقـة بين (العلم) و (المعرفة)، يقـال بأن المعرفـة أخص من العلم، ويقـال : فلان يعـرف الله، ولا يقـال يعلم الله، متعديا إلى مفعول واحد، لما كانت معرفة البشر إنما هى إدراك الشىء بتفكر وتدبر لآثاره

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢٠٣.

(٢) عبد الرحمن بن زيد الزبيـدى : مصادر المعرفة فى الفكر الدينى والفلسفى. المـعهد العالمى للفكر الإسلامى، مكتبة المؤيد، الرياض،١٩٩٢، ص ٢٠٣.

دون إدراك ذاته، ويقال : الله يعلم كذا، ولا يقال : يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصل به بتفكر(1).

أما ابن القيم (توفى عام ٧٥١ هـ) فقد حرص على بيان الفرق بين العلم والمعرفة من جهة اللفظ ومن جهة المعنى(2) .

أما من جهة اللفظ فإن فعل المعرفة يقع على مفعول واحد، نقول : عرفت الديار، قال تعالى :﴿ ... فَعَرَفَهُم وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]، وقال : ﴿ ...يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام]. أما فعل العلم فيقتضى مفعولين، كقوله تعالى : ﴿ ... فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة]. ولكن إذا وقع على مفعول واحد فإنه يكون بمعنى المعرفة، كما نرى فى قوله تعالى : ﴿ ...وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال].

أما من جهة المعنى، فمن وجوه :

١- أن المعرفة تتعلق بذات الشىء، والعلم يتعلق بأحوال الشىء، فتقول : عرفت أباك وعلمته صالحا. لذلك جاء فى الأمر فى القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى : ﴿ ... فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [هود]، فالمعرفة تصور صورة الشىء، والعلم حضور أحوال الشىء وصفاته ونسبتها إليه.

٢- أن المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه .

أو تكون لما وصف بصفات قامت فى نفسه، فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل: عرفه. قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]. فالمعرفة نسبة الذكر فى النفس، وحضور ما كان غائبا عن الذاكر، ولهذا كان ضدها الإنكار، وضد العلم الجهل، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل]. ويقال: عرف الحق فأقر به، وعرفه فأنكره .

٣- إن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره .

---

(١) أبو القاسم الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص ٣٣١.

(٢) محمد بن أبى بكر (ابن القيم) : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق، محمد حامد الفقى، دار الكتاب العربى، بيروت، جـ٣، ص ٣٣٥.

٤- إنك إذا قلت : علمت محمدا، لم تفد المخاطب شيئا، لأنه ينتظر أن تخبره على أى حال علمته. فإذا قلت: كريما أو شجاعا، حصلت له الفائدة. وإذا قلت عرفت محمدا، استفاد المخاطب، أنك أثبته وميزته عن غيره، ولم يبق أن ينتظر شيئا آخر.

٥- أن المعرفة علم يعين الشيء مفصلا عما سواه، بخلاف العلم، فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا.

وقد كان لعلماء الكلام المسلمين مباحث فى جوانب نظرية المعرفة عموما فى دراسة منفصلة عن مباحث « الوجود » التى كانت المعرفة متفرقة فى ثناياها، حيث قدم علماؤنا الحديث عن العلم والنظر والمعرفة فى أوائل كتبهم، وكانوا بذلك يؤكدون حقيقة أن المعرفة هى إحدى نظريات الاعتقاد أو التصور أو الفلسفة بوجه عام، بجانب نظريتى الوجود والقيم، بل هى أحد فصول الوجود، وخادمة لمباحثه التى على رأسها مبحث معرفة الله عز وجل(١).

وكيف لا يكون البحث فى المعرفة مهما، والمعرفة أعلى وظيفة للإنسان فى الوجود، وهل الاعتقاد أو الإيمان إلا علم ومعرفة؟ وكيف لا تكون المعرفة مهمة وهى ميزة الإنسان، وأساس ومنهج ومادة استخلافه فى الأرض، ومركزه فى الكون الذى سخره الله له لكى يؤدى فيه وظيفة العبادة لله وحده، ويقود مسيرة المعرفة الواعية المسبحة لله، مع سائر الموجودات : ﴿ ...وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء].

فالمعرفة إذن ميزة ووظيفة، كما أنها تفسير ومعرفة بها، والتعامل مع الواقع الذى تحياه، فى الكون الذى تعمره. ولقد كان - من ثم - تحديد نظرة هذه المعرفة لهدفها، وهو العبادة، المبنية على اليقين، أمرا مهما، ومسألة ضرورية، إذ ينشأ عن اليقين بإمكانها، التسليم بطبيعتها وأنواعها وطرقها(٢).

وأول مسألة من مسائل نظرية المعرفة نجد ضرورة بسطها هنا، هى المسألة الخاصة بإمكان المعرفة.

وهنا لابد من الاعتراف بأن هذه المسألة لم يحفل القرآن الكريم بها بالصورة التى نجدها لدى الفلاسفة، ذلك أن منهج القرآن الكريم نفسه يأبى التشكيك فى ذلك، وكيف

---

(١) راجع عبد الحميد الكردى، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ١٢ .

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ١٣ .

يقبل هذا والقرآن جاء ليهدى الإنسان إلى معرفة ربه عن طريق معرفة آياته التى تتجلى فى كل جزئية من جزئيات هذا الكون بما فيه ومن فيه ؟ وكيف يقبل القرآن التشكيك فى إمكان الإنسان المعرفة والله يجعل من الإنسان مركز الكون فى العمارة والاستخلاف(١).

بل إن هذا التشكيك مخالف لفطرة الإنسان نفسه لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل العلم أو العقل أو القدرة على التمييز والتعليم ميزة الإنسان عن سائر المخلوقات، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء].

وهنا لابد من التوقف بعض الشىء أمام موقف « تعليمى » المعلم فيه هو رب العالمين والمتعلم هو أول البشر آدم .

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

مع ملاحظة أن هذا جاء تفسيرا لمقدمة عبرت عنها الآية السابقة على هذه الآيات عندما أخبر سبحانه وتعالى الملائكة بأنه سيجعل له خليفة على الأرض .

فها هنا نجد أن تعليم الأسماء كان تعليما عظيما، لأنه تعليم ربانى خالص، فهو ليس بمعناه الضيق: تحفيظ لأسماء بعينها استظهرها آدم، ريثما يتمكن من إلقائها على جمهرة الملائكة، بل إنه تعليم ربانى. . لقد علمه الله مفهوم الاسم، علمه الله استخدام الأسماء وإدراك الأسماء والسعى بالأسماء أسلوبا ومنطقا للتعبير عن الحقيقة ومعاملة الوجود وفهمه وتطويره، حباه الله بعلم الأسماء، يعرفها ويغيرها ويمحوها ويقدرها كلما عنَّ عليه جديد، علمه الله مفهوم الأسماء ودورها ومعناها، فصارت وسيلة طيعة لديه، يسعى بها ليستحق خلافة الله فى الأرض(٢) .

وبالنسبة « للأسماء » ، فإنها أسلوب لتمييز المعرفة، والسعى فى جوانبها الفسيحة، فهى تميز مفردات المعرفة، وتعطيها تعبيرا يسيرا بسيطا يجعلنا جميعا نتعارف

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٢) محمود فرج الدمرداش: علم آدم الأسماء كلها، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٤.

عليها كلما لفظنا أسماءها. . فالشجرة تعبير عن كائن له من الصفات والأنواع والأعداد والتصرف والوظيفة والقيمة وغيرها ما لا يمكن اعتباره إلا أنه لا نهائى المفردات، ومع ذلك فبكل البساطة واليسر ودون استظهار هذه المفردات نقول: هذه شجرة، ونقول: هذا غصن وهذه ورقة، وكم من أشكال الأغصان والأوراق، والأهم من ذلك: كم من الأحداث التى تحدث فى هذه الأوراق والأغصان من « فتح » و « تمثيل » و « الاحتراق»، وكلها أسماء لتغيرات تحدث لمادة هذه المكونات للشجرة، فالأسماء كأسلوب لتمييز مفردات المعرفة تشبه الشفرة، التى عندما نذكرها تعنى كمية هائلة من المعلومات، عبرنا عنها بلفظة غاية فى السهولة واليسر، ولكنها تعبير عن وجود غاية فى التشابك والتعقيد والمعلومات اللانهائية[1].

ويرى باحثون أن المراد بتعليم الله آدم الأسماء كلها، أن الله بث فى آدم الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الانتفاع بها، على أساس أن اسم الشىء يقترن دائما فى الذهن بحالة من : صورة، ولون، وأجزاء، وبما له من سائر المقومات والمزايا الجسمية والمعنوية، وما جدوى الاسم إذا لم يكن دالا على ما وراءه من مقومات الذات وخصائص الجواهر والعناصر؟[2].

وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درسا فى الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع فى يده أزمة قوانين هذا الكون الأرضى، إنما المراد أنه بث فيه من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطرى ما جعل المعرفة ممكنة له فيكشف عن تلك النواميس والسنن التى وضعها الله لتسيير كل ما فى الكون ويميز الإنسان خصائص الأشياء بعضها من بعض.

والتعليم مسند هنا إلى الله- سبحانه- وحين نعود إلى معانى التعليم التى أسندها الله إلى ذاته مباشرة - أى بدون وساطة ملك أو بشر من الرسل- نراها كلها فى القرآن الكريم دالة على ما وهب الله-سبحانه- من استعداد فطرى للإدراك والإلهام والمعرفة[3].

وقد يكون هذا الاستعداد الفطرى عاما شاملا جميع أفراد النوع الانسانى كما فى قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] وقوله : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن]، أى أودع فيه سر النطق والتعبير عما يجول فى نفسه من معانى :

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٢) البهى الخولى : آدم عليه السلام، ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ١١٤.

ولقد كان يوسف- عليه السلام- ذا بصيرة ملهمة، وقدرة مرنة فى تأويل الأحلام، فلما فسر لصاحبيه فى السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال: ﴿...ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ... ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]، أى بعض ما وهب لى من استعداد للعلم والفهم، وهو عليه السلام إنما يرجع ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴿٢٢﴾﴾ [يوسف]. ومن البديهى أن ذلك لم يكن دروسا ألقيت عليه، إنما هو استعداد خاص ركبه الله- عز وجل- في فطرته، ذلك الاستعداد الذى عبر عنه فى أخريات حياته بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ...﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

ومعنى هذا كله أن التعليم فى حالتيه العامة والخاصة، المراد به سر المواهب والقدرات التى جهز بها الإنسان ليدرك ويفهم ويعرف مالا حصر له من أسرار الكون .

ومن أبرز الأدلة كذلك على إمكان المعرفة وفقا للمنهج القرآنى، إرسال الله -سبحانه وتعالى- الرسل لعباده، إذ إن الإنسان لو لم يكن معدا لهذه المعرفة، فكيف يرسل الله- تعالى إليه علما يقينيا، عن طريق بشر أكرمه الله بالقدرة على تحمل علم الوحى؟[1] .

ثم ها هى الآية الشهيرة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق] ، صحيح أن الخطاب كان هنا لمحمد ﷺ ، لكنه من حيث الدلالة والمعنى - يوجه كذلك إلى كل من يؤمن بالرسالة التى جاء بها الرسول . . . أن « يقرأ » لا بالمعنى الحرفى المعروف لدينا عن القراءة من حيث التعرف على الحروف والكلمات المكتوبة، وإنما من حيث الفهم والوعى والإدراك . .

وتوجيه هذا الأمر الإلهى هو إثبات لقدرة الإنسان على المعرفة وإلا فهل يجوز عقلا أن يطلب إنسان منا أمرا من آخر لا يستطيعه ؟ فكيف بالنسبة لأمر يصدره الخالق إلى مخلوقه؟

ولقد سبق أن أوردنا العديد من الآيات القرآنية التى يوجه فيها سبحانه وتعالى الإنسان إلى مظاهر مختلفة[2] فى الكون لكى يدرسها ويتفكر فيها ويتدبر أمرها وليتأملها ويمعن النظر فيها، فهل يتصور عاقل أن تجيء هذه الدعوات إلا بناء على قدرة الإنسان على المعرفة ؟

---

(١) راجع عبد الحميد : نظرية المعرفة. . . ص ١٥٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ق / ٦ - ٨، الأنعام / ٩٥-٩٩، الأنبياء / ٣٠ - ٣٣، الذاريات / ٢١ .

إن القراءة التى ورد الأمر الإلهى بها قراءة محـدودة المعالم، واضحة الاتجاه، فإن الأمر قد ورد مرتين بقراءتين[1] :

القراءة الأولى : قراءة باسم الله- تعالى -لهذا الوحى النازل الذى سـيتتابع نزوله حتى يتم قـرآنا كريما مجـيدا، مفـصل الآيات تتلوه يا محمـد على الناس ليتـعلموا منه الحكمـة والهداية والرشد فـتزكـوا نفوسـهم وتطهر حـياتهم ويهـتدوا به فى أداء مـهام الاستـخلاف والقيـام بواجب الائتمـان وحق العمران . وحين رد رسـول الله بأنه ليس بقـارئ، لا شك أنه فهم المطلوب وهو قـراءة ما سـيملى عليـه وهو لا يعرف الـقراءة والكتابة، وليس له من العـلم ما يقرؤه، ولكنه تعالـى ربط القراءة «باسم ربك»، فكأنه قال له : إنك لن تكـون وحدك فى أداء هذا الفعل الذى لا تعـرفه، بل سـيكون معك ربك الذى أعطاك الكثيـر وهو قادر على أن يعلمك كيـفية أداء مـا أمرك به ويزيد على ذلك كمـا علم آدم الأسماء، وكـما علم إبراهيم وموسـى وعيسى وسـواهم من النبيين والرسل، فاستعن به فى القراءة بعينك وبصحبك ويكن مـعك فيها وفى بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس .

وذكر الرب -جل شأنه - الإنسان،وذكر خلق الإنسان بالذات، فيه طمأنة لرسول الله ﷺ بأن منحـه القدرة عـلى القراءة ليس بالأمـر الصـعب على ربه الذى خلق كل شىء وخلق الإنسان من علق. كـما أن ذكر الخلق تهيئـة لذهنه الرشيد ونفسـه الشريفة لبيان **النوع الثانى من القراءة**، ألا وهى قراءة الخلق ودراسة الوجود، فهما - إذن - كتابان يجب قراءتهما : كتاب منزل منك معجـز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون بدءا من الإنسان، ولابد من قراءتها معا، لتوحيد المعرفة الحضارية الكاملة التى تمكن الإنسان من القـيام بمهام الاسـتخلاف وأداء حق الأمانة، والقـيام بمقتضـيات العمران[2] .

ثم نأتى إلى القضية الثانية وهى الخاصة بطبيعة المعرفة : وهنا نجد أنها - فى التصوير القرآنى - تتمثل ملامحها فيما يأتى[3] :

١- يثبت الإسلام للأشيـاء وجودا خارجيا - عينيا - مستـقلا عن الذات العارفة وإدراكهـا، فوجـودها قائم سواء وجـدت الذات أم لا، أدركتـها أم لم تدركـها، وهذه

---

(١) طه جـابر العلوانى : الجمع بين القـراءتين : قراءة الـوحى وقراءة الكون، المعـهد العـالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ١١ .

(٣) عبد الرحمن بن زيد الزبيدى، مصادر المعرفة، ص ٨٧ .

الموجودات سبق أن بينا أنها تشمل فئتين : عالم الشهادة، الذى هو هذا الكون الذى نشهده بوسائل إدراكنا الحسى والعقلى، وعالم الغيب، وهو ما يمكن تشبيهه بذلك العالم المصطلح عليه فى الكتابات الفلسفية بعالم الميتافيزيقا والذى لا ندركه بما نملك من حواس ونحن نعيش حياتنا الدنيا .

ونستدل على استقلال الموجودات عن الإنسان، بالعودة إلى الآيات ٣٠، ٣١ من سورة البقرة، فكون الله يعلم آدم الأسماء كلها، فهذا يعنى وجودها قبل الإنسان وبالتالى استقلالها عنه، كذلك فإن عرض هذه الأشياء على الملائكة يشير كذلك إلى هذا الوجود الخارجى .

٢- ثم إن المعرفة البشرية ثمرة التقاء بين ذهن الإنسان وبين الموجودات الخارجية، وإن كان هذا لا يعنى التلازم التام بين الموجودات وذهن الإنسان، بمعنى أنه ليس كل موجود معروفا، أو ممكن معرفته، وليس كل تصور أو تصديق فى الذهن واقفا على شىء خارجى[1].

أما تفسير ذلك فإن ما يتصل بذات الله على سبيل المثال أمر لا سبيل للإنسان إلى معرفته مع الإقرار بوجوده سبحانه وتعالى، وكذلك أمر « الروح » وطبيعة الملائكة . . . هكذا.

وكلنا نعلم الأفق الواسع الذى تستطيع خيالاتنا أن تجوبه فتتخيل من الأمور والأشياء ما لا يوجد فى الواقع .

٣- وبالنسبة لكيفية العلاقة بين عقل الإنسان والأشياء الخارجية التى تثمر المعرفة، فإنها تتم من خلال تطبيق العقل البشرى مبادئه القبلية التى فطر عليها على الأشياء والقضايا التى أمامه، حيث يثمر ذلك المعرفة، ولهذا كان المولى يدعو الذين لم يستجيبوا للحق حينما جاءهم أن يطبقوا هذه المبادئ ليصلوا إلى المعرفة الصحيحة به[2] ، كما قال عز وجل: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ...** ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ].

ويتم ذلك بقصد الإنسان وفعله وخلق الله - سبحانه وتعالى - المعرفة، مثل: سائر أفعال الإنسان الأخرى، وعلى هذا عامة علماء المسلمين .

ومن المسائل التى تثار كثيرا فى مجال الحديث عن طبيعة المعرفة؛ المسألة الخاصة

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩١ .

بكون المعرفة فطرية أو مكتسبة، والحسم القرآنى واضح فى القول بأن المعرفة مكتسبة، وهذا ما نستدله من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

وما دامت المعرفة مكتسبة، فهى تتعرض للزوال عن طريق النسيان، يقول تعالى : ﴿ ... وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ... ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل].

وقد أدرك هذا الفهم فيلسوف إسلامى كبير مثل الغزالى، إذ كتب يقول[1]: «اعلم أن جوهر الإنسان خلق خاليا ساذجا، لا خبر معه عن عوالم الله تعالى، وإنما خبره عن العوالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات: فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس فيدرك بها الألوان والأشكال، ثم ينفخ فيه السمع فيسمع الأصوات .. ثم يخلق له الذوق، وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق له التمييز وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك أمورا زائدة على عالم المحسوسات لا يوجد منها شىء فى عالم الحس. ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات » .

فإذا عدنا إلى آية البقرة الخاصة بتعليم الله الأسماء كلها أدركنا لماذا رجحنا المعنى الذى يجعل من ذلك خاصا بقوى وقدرات واستعدادات أودعها الله فى الإنسان تمكنه من المعرفة، وبالتالى فليس المراد بتعليم الأسماء كل ما يتصل بالأشياء .

وإذا قال البعض أن الطفل يهتدى إلى ثدى أمه وأنه هو مصدر غذائه، قلنا أن ذلك ليس «معرفة» وإنما هى آليات سلوكية فطرية مثلها مثل الشعور بالجوع والحاجة إلى النوم والمشى والضحك والبكاء وهكذا .

لكن هذا لا يمنع من الإقرار بأن من مقتضى فطرة العقل الذى وهبه الله للإنسان بعض البديهيات التى تعتبر أسسا تقوم عليها كثير من المعارف الاستدلالية العقلية.. كالقول بأن الكل أكبر من الجزء وأن المتضادين لا يجتمعان .. وهكذا .

والمسألة الثالثة من مسائل المعرفة هى تلك الخاصة بمصادرها. ولابد من أن التنبيه هنا إلى أنه على الرغم من تعدد هذه المصادر من حدس إلى حواس إلى عقل كما هو مشهور فى المصادر الفلسفية، ففى التصور الإسلامى أن أصل المعارف كلها يعود إلى الله

(١) أبو حامد الغزالى : المنقذ من الضلال، مكتبة الجندى، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٤٨٣.

-سبحانه وتعالى- فالعقل والحواس والحدس إنما هى أدوات وأحوال لدى الإنسان والإنسان مخلوق لله بكل ما يملكه هذا الإنسان .

ودارس القرآن الكريم يستطيع أن يلمس كيف أن مصادر المعرفة يمكن حصرها فى ثلاثة مصادر، وهى :

١- **الوحى**: والوحى فى اللغة يطلق على عدة معان تختلف فى الشكل وتتفق فى الأصل كالكتابة، والإشارة والرمز، والكلام الخطى، والإلهام، فهذه المعانى يطلق على كل منها اسم الوحى ويجمعها على اختلافها معنى الإعلام فى سرعة وخفاء. إلا أن المعنى الذى يمكن أن نتعامل معه هنا فهو باصطلاح شرعى لا يكون معناه هو هذا الذى تبسطه كتب اللغة، وتسوق الشواهد عليه فى إسهاب وتفصيل طويل؛ لأنه من حيث مصدره لا يكون إلا من الله، ومن حيث مورده، لا يكون إلا للأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- ومن ثم فقد عرفه كثير من العلماء بأنه التعليم فى السر الصادر من الله- تعالى- الوارد إلى الأنبياء، فمعناه مقصور على أن يعلم الله -تعالى- من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.[1] .

وكان كلام الله إلى أنبيائه تارة بالإلهام فيلقى فى نفوسهم ما يشاء من كلام، وتارة بإسماعهم دون أن يروه كما كان كلامه لموسى- عليه السلام- وتارة بواسطة ملك يرسله إليهم فى صورته الحقيقية - وهذا نادر - أو فى صورة بشر يكلم النبى فيأنس به، ويسمع منه، ويعى عنه، وقد يأتيه فى غير صورة فلا يراه، وإنما يدرك وجوده، ويسمع عنه قدومه أو نزوله كدوى النحل، أو صلصلة كصلصلة الجرس، فتعتريه حالة نفسية أو روحية يثقل بها بدنه، ويتصبب لها عرقه، ثم يرتفع الملك، وينقطع الوحى، وتنقشع سحابة هذا الحال عن النبى وقد تلقى غيثها، ووعى عن الملك كل ما نقله عن الله وحمله إليه، ليبلغه بدوره إلى الناس، كما وقع لمحمد عليه الصلاة والسلام[2] .

وهذه الصورة يجملها قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى]، فالآية تشير إلى أن للوحى أقساما، ويفهم من القسم الأول أنه غير خاص بالأنبياء، فقد أوحى الله إلى الحواريين وأوحى إلى أم موسى، وذلك بناء على أن الوحى فيما ذكر

---

(١) عبد الرحيم فودة : الدين عند الله، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، (٥٣) أغسطس ١٩٧٢، ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١ .

مفسر بالإلهام والإلقاء فى الصلب، وبعض المفسرين يجعل الوحى فى ذلك إعلاما بواسطة المرسلين فى زمنهم ليخص الوحى بمعنى الإلهام بالأنبياء . وعلى كل حال فهذا المعنى روحى لا يقبل أن تتجه الأفكار فيه إلى التأويل على نحو مادى[(١)] .

أما القسم الآخر، وهو إرسال الرسول الملك إلى الرسول البشرى، فيوحى إليه ما أمره أن يوصله إليه .

والوحى بالمعنى الشرعى بكل أنواعه يصاحبه علم من الموحى إليه بأن ما ألقى عليه حق من الله، ليس من خطرات الأوهام، ولا من نزعات الشيطان، ولا يتولد من مقدمات، بل هو من قبيل الأمور الوجدانية: كالجوع والشبع، والحب والبغض، وإذا عرفنا أن هذه هى خاصة الوحى بالمعنى الشرعى عرفنا وجه اختصاص الأنبياء به، ولم يشكل علينا الفرق بينه وبين بعض أنواعه من الإلهام، والرؤيا الصادقة، اللذان يقعان لغير الأنبياء[(٢)] .

والوحى إنما هو لإدراك القدر المسموح بعلمه من أسرار عالم الغيب حيث إن العقل بكل ما به من إمكانات يعجز عن ذلك .

إذ كيف يفسر لنا العقل فى مجال ما يشاهده، رفع السماء بغير عمد ؟ كيف يفسر نظام المجموعات الشمسية التى تطل عليه فيرفع إليها طرفه فيرتد خاشعا وهو حسير ؟ كيف يفسر لنا كشف أسرار الحياة فى المادة التى ماتت ثم يخرج منها الحياة مرة أخرى قوية فى إعجاب ؟[(٣)] .

هذا فيما يشاهده، أما ما لم يشاهده، فإن العقل أعجز من المشلول الذى لا يستطيع أن يتحرك. وكل هذه الأمور من السهل الإجابة عنها لأنه من البديهى أن العقل مخلوق محدود، مهما بلغ من الكمال والرقى فله مستوى معين لا يتعداه، وغاية لا يتجاوزها؛ وذلك لأن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشرى . . كيف يعبر العقل البشرى هذه المسافة الهائلة إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة التى تقول للشىء : كن، فيكون؟

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٥٦.

(٢) فودة : الدين عند الله، ص ٢٣.

(٣) عبد العال سالم مكرم : الفكر الإسلامى بين العقل والوحى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤.

ومن أمثلة المسائل الغيبية التى أشار إليها القرآن الكريم بيانا لمسلك الوحى فى إعلام الإنسان ببعض ما يحتاجه الإنسان بشأنها[1]:

- فيما يتصل بالله، قال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

- من حيث الغاية، من خلق الإنسان والجن : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

-وفيما يتصل بمصير الكون : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة].

- وبالنسبة للحكمة من وجود حياة أخرى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل].

- وقال عن قطاع من عالم الغيب هام وهو الملائكة : ﴿... لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]، وإن الجن يروننا لكننا لا نراهم .. ﴿... إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ... ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف] وغير هذا كثير.

وإذا كان الوحى هو مصدر ما هو مسموح لنا من معلومات تتصل بعالم الغيب، فإن الحواس هى مصدر معلوماتنا عما هو مادى ومشهود فى هذا الكون .

٢- والحواس آلات للاتصال بالمدركات الجسمية. وقوة الإحساس أو القوى الحاسة تعد إحدى وظائف الإدراك، ولايستطيع مذهب ما أن ينكر وجود الحواس، وأن لها أثرا فى عملية المعرفة. والحاسة تتكون من عضو للحس، وقوة لهذا الحس، إذ ليس الإحساس اتصالا ماديا فحسب، بل إن عضو الإحساس - وإن كان جسميا - فيه قوة أساسها حياة الإنسان المدرك[2].

(١) عبد الرحمن بن زيد : مصادر المعرفة، ص ٢٠٢.

(٢) راجح الكردى : نظرية المعرفة، ص ٥٤٣.

– وبالنسبة للسمع، نجد آيات قرآنية تشير إلى الاستماع الجيد، فى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

فمن يستمع بإمعان يدلل على رغبته فى التفاؤل من بعد ما سمعه بوعى، وذكاء وفطنة ومن ثم رغبته فى الوقوف أمام حصيلة التفاعل بشعور عال بالمسئولية وحرص واهتمام، ومثل هذا المرء يتلقف من داخله الإيمان كأعز ما تكون وأغلاه، فيبادر إلى الاستجابة لداعى الحق وسلوك سبيله رغم كل العوائق[1] .

وعكس هذا استماع من يساوره الضيق والتذمر والكره والاستثقال ابتداء، فإنه مادام مكبلا بهذه المشاعر المسبقة لا يتفاعل مع ما سمعه إلا بوعى ضعيف وذكاء رافض وفطنة الهدى .

ومن هنا يشير الله- عز وجل- إلى « أفضل الاستماع » ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر].

فأصحاب العقول الجيدة لا يكتفون بالاستماع الحسن المنصف للقول وإنما تحملهم جودة تفكيرهم على اتباع أمثل ما يسفر عنه التفكير الممحص للمسموع .

ولقد ورد الفعل « سمع » ومشتقاته فى القرآن الكريم فى تسع وسبعين موضعا، الأمر الذى يدل على مبلغ الحرص الحانى من الخالق الرحيم لكى يعلم عباده أجود الوسائل وأصح الطرق فى الاعتقاد والإدراك[2] .

وبالنسبة للبصر، نجده سبحانه وتعالى يسخر من هؤلاء الذين لا يستخدمون حاسة البصر فى الإدراك الواعى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ ﴾ [البلد].

فمن أوتى عينين فلم يسترشد بهما كمن أوتى مصباحا وسط الظلمة، فلم يلتمس الأمان لموطن قدمه والخلاص لكيانه المهدد، وإنما راح يستعين بضوء المصباح على طلب الحفر الخطرة والدنو من جحور حشرات ضارة !

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ [فاطر].

فمن الطبيعى أنهما لا يتساويان، لأن ما يراه البصير فى عالم العيان يزيده تمكنا فتكون عيناه خير عون على النهوض العالى بأعباء الحياة، أما الأعمى إذ لا يرى شيئا فى

(١) شاكر عبد الجبار : المنهج العلمى للاعتقاد، مكتبة القدس، بغداد، ١٩٨٧، ص ٣١ .

(٢) شاكر عبد الجبار، ص ٣٧ .

عالم العيان فلا تمكن له إلا بمساعدة من سواه ولا نهوض له بأعباء الحياة إلا بقدر ما يساعده الآخرون(1).

وتلقى آيات القرآن الكريم المسئولية على الإنسان فى استخدام جهاز البصر لديه فى الرؤية الواعية لكل ما يحيط به .

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) ﴾ [النور].

- ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (72) ﴾ [الواقعة].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65) ﴾ [الحج].

وبالنسبة لحاسة « اللمس »، نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) ﴾ [الأنعام].

أما « الشم » فيشير إليه قوله عز وجل :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (94) ﴾ [يوسف].

وقد جمع القرآن بين السمع والبصر فى آيات مثل : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) ﴾ [الإنسان]، وقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) ﴾ [الإسراء].

وقد أبرز القرآن منهجه فى ذكر الحواس على أساس قيمتها المعرفية والإدراكية إذ إنه أظهر عملها، ولم يتحدث عن تكوينها من ناحية. ثم إنه تحدث عما يهم المعرفة من الحواس، وبين أن أهم حاستين للمعرفة هما: « السمع والبصر»، وأكدا دورهما فى عملية المعرفة من ناحية أخرى، كما أكد عملهما المعرفى مع العقل من ناحية ثالثة، وأكد عملهما بالازدواج من الناحية الذاتية أو النفسية من ناحية رابعة؛ وذلك لكى تكون

(1) شاكر عبد الجبار، ص 45 .

الحواس منصبغة بصبغة الإنسان المخلوق من مادة وروح، والمشمول بخلق الله وعنايته والمدين له فى قدرته على المعرفة وتحصيلها[1].

وليست الحواس فى القرآن الكريم مجرد آلات وأجهزة مادية، ذلك أن أداءها لوظيفتها إنما يرتبط بالعقل المدرك الواعى، ومن هنا جاء قول الله- عز وجل - ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة].

فتعطيل الفهم والتدبر والتأمل العقلى يبطل عمل الحواس، ومن ثم يصف أصحابها بأنهم « صم بكم عمى » .

ويقول عز وجل : ﴿ ... أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يونس].

فهذا النفر من الناس يعطلون عمل عقولهم بحيث لا يجدى إسماعهم شيئا لأنهم بتعطيل العقل يصبحون صما .

ونفس هذه المعانى نجدها فى قوله تعالى: ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

فموقف الذى لا يعى ويستفيد بما يتلقاه من إدراكات حسية كأنه فاقد حواسه ومثله كالأنعام التى لها حواس لكنها لا تعقل بها شيئا، بل إن موقف الإنسان فى هذه الحالة أسوأ، فالأنعام لها عذرها لأنها لم توهب العقل المدرك، أما الإنسان فوهبه لكنه لم يستثمره فى تفسير ما يحس به .

وكذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف].

٣- والمصدر الثالث للمعرفة هو (العقل) الذى سبق أن أفردنا له موضوعا خاصا مستقلا فى جزء سابق تقديرا لأهميته وإبرازا لضرورته سواء بالنسبة للفقه الدينى أو العمل التربوى .

* * *

(١) راجح الكردى، ص ٥٤٨ .

الفصل الرابع

طرق وأساليب للتعليم

العلم فى التصور القرآنى: مضمون وطريقة:

فمن حيث المضمون، نجد أن العلم الذى أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق من شيء، ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة [1]. وهناك آيات قرآنية عديدة ذكرنا كثيراً منها، وسوف نذكر بعضها وغيره فيما بعد، تشير كلها إلى حث الإنسان على أنه يبحث ويدرس مظاهر الكون المختلفة التى تقع فى نطاق إدراكه الحسى والعقلى، فالعلم فى القرآن يتناول كل موجود، وكل ما يوجد، فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر؛ لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة لله أن يهتدى الإنسان إلى سر الله فى خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله [2].

أما العلم من حيث هو طريقة، فهذا ما يتبين لنا من قوله تعالى: ﴿... **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**... ⁽٩⁾﴾ [الزمر]، وهو استفهام استنكارى معناه أنه لا يستوى عالم وجاهل. قال تعالى: ﴿...**هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**... ⁽١٦⁾﴾ [الرعد]، فبين لنا تعالى أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم وأن النور مثال لحال من يعلم، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام، ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر فى طريقه يقصد غاية معلومة، فإن الظلام يعمى عليه الطريق، وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده، وقد يصادف مهواة فيسقط فيها. فتدركه هلكته قبل الوصول إلى غايته [3].

وهكذا حال الجاهل بوسائل أى غاية من الغايات التى يعرض للإنسان قصدها فى

---

(١) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، دار القلم، القاهرة، د.ت، ص ٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) محمد عبده: دروس من القرآن الكريم، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (٩٦)، مارس ١٩٥٩، ص ١٢٠.

حياته، فكل من طلب غاية فى حياته بدون علم لا يصل إليها، فيؤخذ إذن من هذه الآية الكريمة أن الله- تعالى- بين لنا أن العلم للإنسان كالنور، لا بمعنى أن العلم سراج أو مصباح، وإنما ذلك مثل لحال من يعلم الطريقة الموصلة له إلى مطلبه والوسائل المؤدية إليه، فإن حاله يشبه حال من يمشى وبين يديه نور يبين له السبيل، ويكشف له ما فيها من الموانع، فيتجنبها أو يذللها حتى ينتهى من غايته، ظافرا بغايته وسلامته، لأن الآيات والأعلام المنصوبة لا يراها بالظلام، وإنما يراها المبصر بالضياء والنور[1].

فالعلم ما يبصر الإنسان فى الغاية التى يطلبها، ويهديه إلى الحق الذى هو معقد النجاة. ثم إننا نجد فى السنة النبوية وفى الآثار وفى أقوال العلماء، مما يطول ذكره، ما يرشد إلى أنهم لا يفهمون من العلم إلا معنى التبصر فى أى أمر من الأمور، والإتيان به على الوجه الأكمل بقدر الاستطاعة[2].

الحث على طلب العلم والتعليم:

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم يزخر بمئات الآيات التى تشيد بالعلم وتحض على طلبه، وتسخر بالجهل وتعطيل العقل الذى هو حجر الأساس فى التعلم والتعليم. وحسبنا أن نمثل بهذه الكلمات ومشتقاتها[3]:

فقد جاءت مادة العلم مرادا بها علم الناس لا علم الله فى نحو ست مائة آية.

- والرأى بمعنى العلم فى نحو ثمانين.
- والنظر بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين.
- والإبصار بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين.
- وتكررت مادة الفقه بمعنى الفهم فى عشرين.
- وذكرت مادة القرآن فى سبع عشرة.
- والتلاوة فى اثنتين وستين.
- والكتابة بمعنى الخط فى نحو ثلاث مائة.
- والعلم فى أربع.

(١) المرجع السابق، ص١٢١.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٢.

(٣) أحمد محمد الحوفى: القرآن والتفكير، ص١١.

- والصحف فى ثمان .

- والسطر ومادته فى خمس .

- والدرس ومادته فى ست .

ويتوقف بعض المفسرين أمام قوله تعالى فى سورة العلق ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق]، فقد فسر الزمخشرى « القلم »، بعلم الكتابة، واستطرد، فذكر ما لهذا العلم من « المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا»[1].

وعقد ابن قيم الجوزية فى تفسيره لسورة القلم فصلا مسهبا فى شرف القلم وفوائده، ثم ذيَّله بفصل طريف فى منازل الأقلام على تفاوت رتبها من الشرف، فجعله اثنى عشر نوعا[2] :

أولها : وأعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق.

ثانيها : قلم الوحى يكتب به وحى الله إلى رسله وأنبيائه .

ثالثها: قلم الفقهاء والمفتين، يتلوه على الترتيب التنازلى : قلم طب (الأبدان)، وقلم التوقيع عن الملوك والساسة، وقلم الحساب يضبط به الأموال، وقلم الحكم تثبت به الحقوق وتنفذ القضايا، وقلم الشهادة تحفظ به الحقوق وتصان من الإضاعة، وقلم تعبير الرؤيا وهى المنام، وقلم التاريخ، وقلم اللغة يشرح معانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تركيبها، ثم القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين .

ومن الواضح أنه قد فسر «القلم»، هنا بالعلم، ومن هنا جاء تعديده لمنازل الأقلام وكأنه تعديد لأنواع العلوم .

ويكفينا هنا أن الآية القرآنية لفتت إلى سر القلم من حيث هو أداة الكتابة التى يدون بها العلم ويحفظ وينقل على امتداد الزمان والمكان وتتابع الأجيال. ويتسع المقام لكل ما عده المفسرون من شرف القلم وفوائده الكتابية، على أن يظل للبيان القرآنى

---

(١) عائشة عبد الرحمن : التفسير البيانى للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠، جـ٢، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣ .

دلالته فى لفت النبى الأمى والعرب الأميين إلى جلال القلم آية من آيات الخالق الذى خلق الإنسان من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم، بما تعنى من اختصاص الإنسان دون سائر الكائنات بالقلم وكسب العلم. وهذا من الخصائص الإنسانية التى يضيف إليها الوحى من بعد ذلك ما يجلوها ويزيدها بيانا، إذ يجعل العلم مناط تكريم آدم، الإنسان الأول، وحقه فى الخلافة فى الأرض، ويسوق الآيات ويضرب الأمثال للذين يعلمون، ويقصر خشيته تعالى على العلماء[1].

ومن آيات حث القرآن الكريم على طلب العلم والتعليم تأكيده على أن «الشهادة» ينبغى أن تقوم على علم، يقول تعالى :

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف].

﴿... قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد].

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وحكى أن إخوة يوسف وصفوا شهادتهم بأنها تقوم على علم، إذ قال كبيرهم : ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴿٨١﴾﴾ [يوسف].

وقد نقل عن الإمام الشافعى قوله: ولا يسع شاهد أن يشهد إلا بما علم، والعلم من ثلاثة وجوه منها ما عاينه الشاهد، فيشهد بالمعاينة، ومنها ما سمعه فيشهد بما أثبت سمعا من المشهود عليه، ومنها ما تظاهرت به الأخبار: مما لا يمكن فى أكثره العيان وثبتت معرفته فى القلوب، فيشهد عليه بهذا الوجه[2].

وحفلت آيات قرآنية عدة بتقدير المتعلمين وفقا للإطار القرآنى ومنهجه، وحسبهم تقديرا أن الله تعالى قرنهم بالملائكة فى الإقرار بوحدانيته وعدله، لأنهم هم الذين يفكرون فيهديهم إلى الحق، وهم الذين يستطيعون أن يثبتوا بالأدلة ما يجب لله -تعالى- من صفات الكمال، وما تتنزه عنه صفات النقص ويوقنون بأنه العزيز الذى لا يغالبه أحد، الحكيم الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه، ودبره فأحكم تدبيره[3] . قال

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(٢) إبراهيم أحمد عمر : العلم والإيمان، ص٣٣ .

(٣) محمد أحمد الحوفى، القرآن والتفكير، ص ٢٤.

تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران].

والمتعلمون بهذا التصور هم أولو المعرفة والتجربة والخبرة، وهم القادرون على الفهم الرشيد والتوجيه الصحيح، وهم أهل المشورة والفتيا، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت].

والمتعلمون هم الذين يتفقهون فى الدين، وهم الذين يرشدون قومهم ويبصرونهم بالحق ليتبعوه، ويحذرونهم الشر ليتجنبوه. قال سبحانه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة].

ونظرا لما يقف عليه العلماء من الحق، فهم يخافون الله ويقدرونه حق قدره، لأنهم يوقنون بوحدانيته وقدرته وعدله وحكمته وكماله المطلق، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر].

وجعل تحصيل العلم مبررا للتفوق والامتياز والجدارة بالرياسة والريادة، ومن هنا، لما قال نبى إسرائيل بعد موسى لقومه أن الله بعث لهم طالوت ليكون ملكا عليهم استنكروا ذلك على أساس « مالى » ، فهو لم يؤت سعة من المال، فكان الرد: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ... (٢٤٧) ﴾ [البقرة].

وكأن القرآن يأخذ على الجاحدين المعارضين للدعوة الإسلامية الذين يقومون بوضع العقبات فى سبيلها، أنهم إنما يفعلون ذلك على أساس من الظن الذى لا يثبت أبدا أمام العلم وأن دعواهم إنما تجرى على أوهام خلقها إبليس فى أنفسهم[1]، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ... (٢١) ﴾ [سبأ].

---

(١) محمد أحمد خلف الله : مفاهيم قرآنية، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (٧٩)، يولية ١٩٨٤، ص ١٤٢.

ولم يقف القرآن عند هذا الحد من الإنكار، وإنما تجاوزه فطلب إلى النبى ﷺ أن يطلب إليهم دائما تقديم الدليل العلمى المثبت لصحة ما يذهبون إليه من رأى، وما يقدمون من قول، يقول عز وجل : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام].

ومضى القرآن الكريم خطوات أبعد من هذه، فنبه النبى ﷺ إلى ما يمكن أن يحيط به إن هو ترك سبيل العلم فيما بينه وبينهم وعمل على أن يلتقى معهم عند مستوى بعينه من مستويات المعرفة التى يعرفون ويقفون عند حدودها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾ [الأنعام].

ويرى بعض المفسرين أن القرآن الكريم لم يقف عند حدود التحذير، وإنما تجاوزها إلى ما يمكن أن يسمى بالتهديد، قال سبحانه : ﴿ ... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ [البقرة].

ولا شك أن هذه الأهمية التى يوليها القرآن الكريم للعلم أساسا لحركة الإنسان لا يولد مزودا به، ولا تمنح له إلا نتيجة سعى ونشاط فى سبيل تحصيله، وهو العمل المقصود بالتعلم، والذى يقتضى بالضرورة أن تكون هناك أطراف أخرى أو مصادر يتم على يديها ومن خلالها عملية التعليم .

كذلك فإن هذا الإصرار من القرآن الكريم على أن العلم هو الأساس الأول عند ممارسة الحياة، وليس الظن أو الوهم أو الفروض النظرية، هو الذى دفع بعض المفسرين إلى تفسير العمل الصالح بأنه العمل القائم على العلم، وليس على الظن أو الوهم أو الخيال[1]. وعندما يقف الإمام محمد عبده أمام قوله عز وجل: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ... (٢٦٩) ﴾ [البقرة]، يجد أن الحكمة هنا هى العلم الصحيح، يكون صنعة محكمة فى النفس، حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح، كان هو العمل الصالح المؤدى إلى السعادة، وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات، خازن لها فى دماغه ليعرضها فى

(١) محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، ص ١٤٤ .

أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور التى تسمى علما فى التمييز بين الحقائق والأوهام، لأنهـا لم تتمكن فى النـفس تمكنا يجعل لهـا سلطانا على الإرادة، وإنما هى تصـورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل[1].

وإذا نظرنا فيما يجـرى بين البشر من معاملات، وكـيف أن من الحيوى لها أن تقوم على المعرفة والعلم، فإن ما يقوم بين الناس من « حوار » لهو أشد حاجة من غيره من صور التعامل للمعـرفـة، إذ لابد لكل من طرفى الحوار من التعرف إلى الفكرة التى ينطلقان فى طريق إثباتهـا ونفيهـا؛ لأن الجهل بها وبتفاصـيلها يحول الحوار إلى أسلوب من أساليب الشتـائم والمهاترات التى يغطى فيها كل مـنهما ضعفه وعـجزه عن الوقوف موقف المدافع القوى عن فكرته، بينمـا تجعل المعرفة كلا منهمـا واعيا لما يطرح من فكر ولما يستقبل من فكر، يجعله يعرف كـيف يبدأ الحوار، وكيف يخوض به، وكيف ينتهى منه، فى وضوح الرؤية وهدوء الفكر، وقوة الحجة، ووداعة الكلمة[2].

وقـد أعطانا القـرآن الكريم بعض النمـاذج البـشرية الـتى وقفت ضـد الرسـالة والرسول، من دون أن يكون لها إحـاطة ومعرفة فـيـما تأخذ وفيما تدع، كـمـا فى قوله تعالى : ﴿ **هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران]. ويقول أيضا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر]. وقال أيضا : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس].

ولعلنا نجد فى واقع الصراع الذى يخوضه الإسـلام مع خصومه، الكثير من هذه النماذج التى تدخل مجـال الصراع من دون أن تعرف طبيعـة الفكرة التى تدافع عنها أو تهـاجمهـا، سواء فى ذلك الذيـن ينطقون باسم الإسـلام والذين ينطقون باسم الكـفر والضلال، ممن لا يعرفـون من أفكارهم وأفكار خصومهم إلا بعض المفـاهيم العامة التى يحـوطها الضـباب فى أذهانهم من كل جـانب، وقد تمتـد بهم المعرفـة إلى وعى بعض الأفكار المحددة فى مفهومها وتطبيقها، ولكنهم يجهلون ارتباطها ببقية الأفكار مما يشكل وحدة فكرية متكاملة فيسيئون إلى الفكرة عندما يقتطعون منها بعض الجوانب، بعيداً عن

---

(١) تفسير المنار، جـ٣، ص ٧٥ .

(٢) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩، ص ٥٠.

الجوانب الأخرى مما يفقد كثيراً من العناصر الأساسية التى يعطيها الكثير من القوة والحيوية(١).

وفى ضوء هذا نشعر أن على المربى المسلم أن يتزود بالثقافة الإسلامية التى تجعله قويا فى حجته أمام خصومه من واقع المعرفة العميقة للإسلام، لا من مركز ضعف خصومة، كما أن عليه أن يحيط بالثقافة المضادة التى يملكها أعداء الإسلام مما يعتبرونه سندا لمبادئهم، وحجة لأفكارهم حتى يخلص من خلال الموازنة والمفاضلة بين العقيدتين، أو بين المفهومين، إلى النتيجة التى لا تختلف حالها حسب اختلاف قوة الخصم وضعفه، من حيث المعرفة والحجة والأسلوب.

ويرتبط بما سبق بيانه كيف حثّ القرآن الكريم الإنسان على السعى فى طلب العلم، وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التى تحض الإنسان على دراسة ما فى الكون من مظاهر متعددة، مثال ذلك :

- ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ].

- ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

- ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

- ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية].

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

والحكمة من هذا حرص القرآن الكريم على عدم الاعتماد على الفطرة وحدها فى الاعتراف بالخالق، ومن ثم فهو يحرك فى نفوس الناس الشوق للدراسة وطلب المعرفة، فيشير إلى ما فى السموات من نظام بديع محكم، وإلى الليل والنهار وحركات

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، ص ٥٢ .

السيارات والأرض وغير ذلك من دقائق الكون وأسراره مما لا يدع عند العقل مجالا للقول بأنه نشأ عن المصادفة والاتفاق، أو أنه نشأ عن موجد غير شامل القدرة والعلم وغير واسع الحكمة، بل يضطره بعد البحث إلى الجزم بأن قوة مدبرة حكيمة محيطة بالأشياء إحاطة تامة هى التى نظمت هذا الكون وخلقت هذه السفن، وإن اتباع إشارات القرآن وأوامره تجعل من الخير كله للعالم أن يسبح بعقله فى هذا الوجود، وأن يتطلب المعرفة لإدراك كنه السموات والأرض، والإحاطة بهذا النظام الباهر، وهذه المعارف هى التى تزيد إيمان المؤمن وتطمئن قلبه[1].

بل إن بعض الباحثين، نتيجة استقراء آيات القرآن بهذا الشأن، قد أكدوا أن العلم فى الإسلام شرط للإيمان، على أساس أن الاعتقاد الحق هو الذى ينشأ عن دليل وعن فهم واختيار وليس الموروث أو الناشئ عن اضطرار أو عن التقليد المجرد. إن القصد من الاعتقاد ليس تدريب المرء على فعل الخير فحسب، ولكن النهوض كذلك بعقله وروحه عن طريق الفهم والإدراك ليكون قادرا على فعل الخير[2].

ولقد جنى بعض العلماء على المسلمين فى الماضى جناية بعيدة الأثر فى حياتهم، جناية صرف الناس عن الكون وأسراره، فهذا لا يتفق وأغراض القرآن، فضلا عن أن هذه الدراسات، رفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ومكن لها فى الأرض، فاستولت على أمم تفوقها عددا وثروة، واستوت على عروش العز والسلطان، وإهمال هذه الدراسات، سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعز، بتاريخها ودينها وثروتها[3].

ولما كان العلم ضوءا يهدى إلى الخير فى الاعتقاد العمل، كان أول ما نزل على النبى الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ الآية. فافتتح الله الوحى بتعليم القراءة، والقراءة تعلم[4].

---

(١) سعيد إسماعيل على: ديمقراطية التربية الإسلامية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤، ص ٣٩.

(٢) محمود حب الله: موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكرى، ضمن بحوث (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٢، ص ٣١.

(٣) محمد مصطفى المراغى: حديث رمضان، دار الهلال (سلسلة كتاب الهلال - ١٤) القاهرة، مايو ١٩٧٢، ص ١٢ - ١٣.

(٤) محمد عبده: دروس من القرآن الكريم، دار الهلال، القاهرة (سلسلة كتاب الهلال - ١٩٥٩)، ص ١٢١.

ثم بعد أن أمر تعالى بالقراءة مَنْ لا يقرأ عادة، وبين له أن الذى يأمره بالقراءة هو الذى خلق الخلق كله، وهو قادر على أن يقرئه بعد أن لم يكن قارئا، وأنه الذى خلق الإنسان الحى الناطق المفصح عما فى نفسه من علق، أى دم جامد لا عقل فيه ولا نطق، فهو قادر على أن ينشئ فيه القراءة والعلم، وإن لم يسبق له تعلم - بعد أن ذكر هذا قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق]، فخص من العلم، العلم بالقلم والكتابة، تنويها بشأن التحرير والبيان، وتنبيها على عظم فائدته، وهو إنما يكون بعلم اللسان والبراعة فيه، لا نريد من العلم تصور القواعد، وإنما نريد منه مهارة الإفصاح والبيان وكون المراد منه هذا، أمر بديهى، إذ لولا الكتابة لما وصلنا إلى درجة من الدرجات التى نراها، فافتتاح الله تعالى الوحى بطلب العلم والثناء عليه سبحانه وتعالى، بأنه هو الذى علمه ووهبه الإنسان، إرشاد إلى فضل العلم، وحث على تحصيله خصوصا العلم بالقلم[1].

ومن الكلمات التى تقترب كثيراً - إن لم تطابق - المعانى المختلفة لكلمة «التربية» كلمة «الهدى» ومشتقاتها، وقد ترددت فى عشرات من آيات القرآن فى موضوعات ومناسبات شتى، بعضها واضح الدلالة لا يحتمل اختلاف الآراء، وبعضها مع وضوح دلالته، تشعبت فيه الأنظار[2] .

وإنه ليكشف عن المعنى الصحيح لكلمة الهدى فى كتاب الله، أن نتعرف المعنى الأصيل للكلمة فى اللغة، فماذا هذا المعنى ؟

أ- هو الرشاد والإرشاد والدلالة والبيان، يقال : هداه الله الطريق، وللطريق وإلى الطريق. والهدْى والهدْية بسكون الدال فيهما، الطريقة والسيرة، وهداه من الضلالة فاهتدى[3] .

نجد هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ... ㉔ ﴾ [السجدة]. أى يرشدون إلى الحق الذى أوحينا به إليهم .

وفى قوله تعالى : ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ㊷ ﴾ [الشورى]، أى ترشد وتعلم وتوجه.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) احمد محمد الحوفى، مع القرآن الكريم، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٤، جـ٢، ص ١١٧.

(٣) لسان العرب، مادة (هدى) .

ب- ومن معانى الهدى أيضا، ما قد يصاحب الإرشاد والدلالة من عمل وجهد ومساعدة، وهو الذى نسميه التوفيق والتسديد والتأييد .

نستمد هذا المعنى من اللغة، إذ يقال هدى الزوجة إلى بعلها وأهداها وهداها واهتداها، ويقال هدّى هدْى فلان، أى سار سيرته. ويقال : هداه، أى كما يتقدم الهادى، المهدى، والهدىّ والهَدْى، وما أهدى إلى مكة[1].

ونستمده من آيات قرآنية كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ ... **اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف]. ومن قوله : ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم]. وقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴿٩﴾ ﴾ [يونس]. وقوله: ﴿ ...**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

وفى تفسير الشيخ محمد عبده لآية الفاتحة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ يذهب إلى أن الله تعالى منح الإنسان أربع هدايات أو - وفقا للتفسير السابق - أربع « تربيات» يتوصل بها إلى سعادته[2]:

الأولى : هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى، وهى ما نطلق عليه الآن «القدرات والاستعدادات الفطرية»، وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعدما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته وعندما يصل الثدى إلى فمه، يلهم التقامه وامتصاصه .

الثانية : هداية الحواس والمشاعر، وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيها الحيوان الأعجم، بل هو فيها أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج، فى زمن غير قصير. فهو عقب الولادة لا تظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات، ثم بعد مدة يبصر ولكن لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال.

الثالثة : هداية العقل، خلق الإنسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل،

(١) القاموس المحيط، مادة (هدى) .

(٢) محمد عبده، دروس فى القرآن الكريم، ص ٦٩ .

فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد[1].

أما الإنسان، فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوافر له مثل ذلك الإلهام، فحباه الله هداية، هى أعلى من هداية الحس والإلهام، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجا، والصفراوى يذوق الحلو مرا، والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك.

الهداية الرابعة : الدين، يغلط العقل فى إدراكه، كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة، فإذا وقعت المشاعر فيه مزالق الزلل واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل، فكيف يتسنى الإنسان مع ذلك أن يعيش سعيداً ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حدّ يقف الإنسان عنده، وما هو بعائش وحده، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما فى يد غيره، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفراده على بعض فيتنازعون ويتدافعون، ويتجادلون، ويتواثبون ويتناهبون، حتى يفنى بعضهم بعضا ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا، فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم، إذا هى غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها، ثم إن مما أودع فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا لأنها هى الواهبة كل موجود، ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة. . فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها وما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية ـ؟ كلا إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله تعالى إياها[2].

ولا يقلل من الطبيعة التربوية للقرآن ما أثاره البعض قديما وحديثا أن العرب الذين نزل فيهم القرآن كانوا جميعا يجهلون القراءة والكتابة، ذلك أن العرب كان فيهم كُتَّاب وقراء منذ العصر الجاهلى فى أقاليم شتى[3].

(١) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٧١.

(٣) محمد الحوفى، مع القرآن، جـ٢، ص ١١٢.

ثم إن كلمة (أميين) التي وردت في أربع من الآيات لا تعني الجاهليين بالقراءة والكتابة :

- فهي في الآية الكريمة : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ... ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة]. تعني أن أناسا من غير بني إسرائيل تهودوا، ولم يكونوا يحسنون قراءة التوراة لأنها شاقة عليهم، أو لأن بعض الأحبار صرفهم عنها بأكاذيبهم التي لفقهوها، وزعموا لهم أنها من التوراة .

- وفي قوله تعالى : ﴿... وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ ... ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]. تعني أناسا غير اليهود لا كتاب لهم وهم مشركو العرب، وذلك أن الدعوة عامة تشمل أهل الكتاب، ومن ليس لهم كتاب .

- وفي قوله سبحانه: ﴿...ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران] تنصب على غير اليهود من عرب وغير عرب، لأنهم جميعا في نظر اليهود مشركون لا يدينون بكتاب سماوي، ولأنهم جميعا من غير بني إسرائيل، أي أنهم أمم أخرى، ولو جاز النسب هنا إلى الجمع لجاءت الكلمة هكذا (الأمميين) .

- في قوله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]. تدل على العرب، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار، ويدعون أن كتب الوحي لا تنزل إلا عليهم، فكذب القرآن الكريم مزاعمهم وبعث الله تعالى خاتم أنبيائه من غيرهم، أي من أمة أخرى غير بني إسرائيل، هم العرب، ولم يكن العرب قبل نزول القرآن الكريم أصحاب كتاب سماوي! وإنه ليعزز أن المراد بالأميين في الآيات الأربع غير اليهود، ما ورد في العهد القديم وفي العهد الجديد من دلالة على الأمم الأخرى التي ليست عبرية، بالكلمة العبرية «حوييم»، أي أمم أو أميين أو أجانب[1] .

معنى العلم ومجالاته :

والدعوة إلى التعلم والتعليم في القرآن الكريم لا تقتصر على مجال دون الآخر؛ ذلك أن العلم في القرآن يشمل كل أنواع العلم، ومجالاته تتصل بكل منافع الناس في دينهم ودنياهم، في معاشهم وفي معادهم، في أجسادهم وفي أرواحهم، وهذا أمر طبيعي باعتباره نظاما كاملا خالدا للبشر كافة، ينتظم شئون الدين والدنيا معا. قال

---

(١) الحوفي، مع القرآن، جـ٢، ص ١١٣ .

تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر] . وليس المقصود من ذلك أنه اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمى المعروف، وإنما المقصود أنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته لصلاح دينه ودنياه، ولبلوغه درجة الكمال جسدا وروحا، وترك لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها[1] .

ولقد اشتمل القرآن على ٦٢٣٦ آية منها حوالى ٧٥٠ آية كونية وعلمية، احتوت أصولا وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحجار والنبات والحيوان، وطبقات الأرض والأجنة والوراثة، والصحة، والصحة الوقائية، والتعدين، والصناعة، والتجارة، والمال والاقتصاد . . إلخ، واحتوت باقى الآيات على الأصول والأحكام فى المعاملات (كما سبق أن أشرنا فى فصل سابق)، وعلاقات الأمم والشعوب فى السلم والحرب، وفى سياسة الحكم، وإقامة العدل والعدالة الاجتماعية، والتضامن الاجتماعى، وكل ما يتصل ببناء المجتمع، وفى رسم شخصية المسلم الكامل خلقا وأدبا وعلما وفيما يجب أن يحتذيه من المثل العليا، وما يتحلى به من مكارم الأخلاق[2] .

وهذا كله بخلاف العبادات والعقائد والتكاليف، وبخلاف القصص وما احتواه من مواعظ وآمال، وغير ذلك من شتى أمور الدين والدنيا، مما كان محلا للدراسة والاستنتاج والتأصيل والتخريج، والبحث والتنقيب، وكان أساسا لعلوم الفقه والتفسير والحديث والأصول والأخلاق والإجتماع والبلاغة والآداب وغيرها، سواء كانت عقلية أم نقلية .

وفيما يلى أمثلة لبعض مجالات التعلم والتعليم كما أشارت إليها آيات قرآنية[3] :

١- النظر إلى المخلوقات عامة نظرة فلسفية عميقة : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف]، وصف الله ذوى الألباب بأنهم هم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) السيد على السيد : مكانة العلم ومنهاجه ومجالاته فى القرآن، ضمن المحاضرات العامة، للموسم الثقافى الأول ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م للجامع الأزهر ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٣) على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم، ص ٥٨ .

٢- مجال الفلك : ومن أمثلة الآيات المتصلة به، قوله تعالى : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر].

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا . . ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

٣- وفى مجال الجغرافيا نجد من الآيات الأمثلة التالية :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]

٤- وبالنسبة للنبات، نجد أن من الآيات القرآنية :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ .... ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ... ﴿٦٣﴾﴾ [الحج].

﴿... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج].

٥- أما يتصل بعالم الحيوان، فهناك آيات تشير إليه مثل قوله تعالى :

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

٦- الصلات البشرية مما تناولته علوم الاجتماع، ومثال ذلك قوله عز وجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

٧- وصف تكوين الإنسان العقلى والجسمانى، مما تناولته علوم الطب وعلوم النفس:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق].

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس].

٨- تكوين الجمادات مما تناولته علوم الطبيعة والكيمياء، قال تعالى :

﴿ ... وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... ﴾ [الحديد].

ولأن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد فإنه لفت الأنظار إلى أفق هام من الآفاق التى يجب أن يتجه إليها المسلمون فى تعلمهم وتعليمهم، فكما توجد سنن كونية لا بد من دراستها حتى يمكن التعامل مع ظواهر الكون المادى، سنن تجعل درجة الغليان - مثلا - عند المائة، ودرجة التجمد عند الصفر، أو تجعل للغازات ضغوطا معينة، كذلك الأمر فى الحضارات البشرية وانهيار الأمم وانتصاراتها: إنها تخضع لقوانين لا يمكن أن

تتبدل[1]. ولقد نبه القرآن إلى هذا فى قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر].

ومن أمثلة آيات القرآن التى تشير إلى سنن اجتماعية لابد من جعلها موضع تعلم: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ... ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس].

﴿... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء].

ويضيق المقام عن حصر مجالات التعلم والتعليم فى القرآن الكريم فضلا عن أن معظم - إن لم يكن كل- ما أوردناه فى صفحات سابقة، وما سيلى من موضوعات، إنما يغطى كثيرا من هذه المجالات، ومن هنا، فإننا نسوق هنا مجالا آخر، اخترناه لإحساسنا بأن جوانبه لم تستغرقها الموضوعات السابقة، ولن تستغرقها أيضا بقية موضوعات الفصل الحالى.

أما هذا المجال، فهو التربية الجسدية، فقد عنى القرآن الكريم وخطط لذلك بأساليب كثيرة، منها[2] :

أ- الطهارة التى حتم القرآن على العبد أن يكون عليها طيلة يومه حين جعلها شرطا من شروط صحة الصلاة المتكررة خمس مرات فى اليوم من الفجر إلى وقت النوم.

---

(١) محمد الغزالى: كيف نتعامل مع القرآن، ص٥٣.

(٢) نديم الجسر : القرآن فى التربية الإسلامية، فى : مجمع البحوث الإسلامية (التوجيه الإسلامى للشباب) القاهرة، ص٩٩.

ب- **الوضوء** الذى أوجبه لكل صلاة، ولا يخفى ما فيه من تكرار تنظيف الوجه والفم والأنف واليدين والرأس خمس مرات فى اليوم، ولا سيما للسواد الأعظم من الناس وهما العمال، فضلا عما فيه من تنشيط الجسد كله .

جـ- **الغسل** الذى أوجبه عند ملامسة النساء ولا يخفى ما فيه من تنظيف الجسد وتنشيطه كما فيه من حكمة التعويض عن الإفراط فى الملامسة المضرة بالصحة .

د- **الصلاة** التى فيها رياضة جسدية عظيمة لكل أعضاء الجسم التى تحتاج إلى الحركة إذا أحسن المصلى القيام بها بالركوع والسجود والقعود والنهوض، ولا سيما للمترفين والجامدين وراء مكاتبهم .

هـ- **الصوم** الذى فرضه القرآن مدة شهر واحد فى السنة، وعند كل كفارة، ولا يخفى ما فيه من نفع للجسم وتعويض الإنسان على الجوع والعطش، لأن القرآن يريد للمسلم والمسلمة أن يكونا قويين متعودين على تحمل هذا الجوع والعطش والكف عن الشهوات، ولا سيما إذا قضت الظروف القاهرة كحالة السفر والحرب والحصار، حتى لا يكون المسلم كالطفل الغرير المدلل، ولا يخفى كذلك ما فى جعل الصوم على الشهر القمرى من حكمة التعويض على الصبر الجسدى فى كل الفصول[1] .

و- **الحج** الذى فيه مشقة السفر والركوب والطواف والسعى والوقوف بعرفة، والصبر الجسدى على ترك الملابس المعتادة، والشهوات الأخرى، ولا يخفى على المتأمل فى فرض الحج على النساء، ما فيه من عناية الإسلام بجعل المرأة المسلمة مخلوقا قويا صبورا قادرا على تحمل مشقات السفر والركوب والمشى، لا كما يحسبها كثير من الناس مخلوقا ضعيفا يلف بالقطن والحرير .

ز- **الاعتدال فى المأكل والمشرب** والنهى عن الإسراف الذى يؤدى إلى البطنة وضعف الكبد والأمراض الكثيرة .

مبادئ وسبل التعلم والتعليم :

وقد أرشد القرآن إلى عدد من الوسائل الأساسية فى عملية التعلم والتعليم نذكر منها على سبيل المثال[2] :

١- دعوة الناس بلسانهم : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ② ﴾ [يوسف]، وقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ... ④ ﴾ [إبراهيم].

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٩.

٢- حسن الانتباه والإنصات : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا... ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] ويقول ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام].

٣- التدبر : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]، ويقول: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

٤- المجادلة بالتي هي أحسن : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]، وقال : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

٥- حسن القول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء].

٦- استعمال المشاهدة بالحواس، وخصوصا السمع والبصر، لكن بشرط تربيتها وتدريبها من ناحية، وإعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى. هذه الآلات هى فى الواقع وسائل هدى الله إليها الإنسان[1]، ليزيد فى مدى حسه فيزيد فى مدى إبصاره مثلا بالمجاهر (الميكروسكوبات) يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

وهناك آيات أخرى توضح عددا من القواعد والمبادئ التى يجب أن يسترشد بها المعلمون والباحثون فى سعيهم للحصول على المعرفة وفى تعليمهم الآخرين، من أهمها أن العالم فى الإسلام يحس فى كل لحظة بأنه فى حاجة إلى المزيد من العلم، فيهتف ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]. ويشعر بضآلة المعرفة مهما توسع أو تخصص فى الدراسة، فيهتف دائما بقوله سبحانه: ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] ، ومصدر العلم فى تصور المؤمن هو الله، ومن ثم فهو يهتف مع الملائكة ﴿ ... سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة]، وهو يمضى وراء الحقائق لا خلف الظنون : ﴿ ... وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم]، والظن فى نظره خبط فى الظلام، وتدليس على الحقيقة وازدراء لكرامة العقل ومن ثم فهو يصطحب قوله تعالى فى ذم الكافرين.﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم].

وينهى القرآن عن الاغترار بالعلم؛ لأن الله قادر على ذهابه حتى ولو كان بالنسبة

---

(١) محمد أحمد الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم، القاهرة، دار الكتب الحديثة ١٩٧٨، ص ٦٤.

لعلم الله قليـلا : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء]. والمخاطب هنا هو سيد أهل الأرض، نبى الله ﷺ ، فما بالنا بمن دونه من عباد الرحمن ؟

والاغترار بالعلم قـد يدفع بعض الناس إلى كتمانه أو حجبه عن الآخرين، وفى هذا تعطيل لحق من حـقوق الله التى وهبهـا لعباده باعـتبار أن حق التـعليم يشكل أحد الحقوق التى كفلها الإسلام للناس من جهة، وباعتباره إنكارا لنعمة الله التى اختص بها بعض عبـاده من جهة أخرى؛ لأن شـرط الله المسبق عندما اخـتص بعض الناس ببعض علمه هو : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران]. ويتساوى فى الكتمان هنا أن لا يعـمل به أو تقصر الاستفادة به على القادرين على دفع الثمن وحدهم دون سائر الناس[1].

وشلة الأقران لها أثرها الكبير على المتعلم إن خيرا فخـير وإن شر فشر، ولذلك حذر القرآن من رفقة السوء لتأثيراتها الضـارة ليس بالنسبة لمعلومات المخالطين ومعارفهم فقط وإنما بالنسبة لسلوكياتهم أيضا[2] . ويصف القرآن الكريم طبيعة رفقة السوء وآثارها الضارة حيث يقـول تعالى فى وصف حال من اتخذوا رفقـاء السوء لهم أدلاء ومعلمين وأخلاء: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان].

ومن هنا وجب على المتعلم أن يتخذ له أسوة حسنة فى الأنبياء والمرسلين والعلماء الصالحيـن ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

والأسوة الحسنة هى مصدر ثقـة واطمئنان سواء عند إبداء الرأى أو المشورة أو هى تتصرف وفقا لسلوكيات الإسلام وطبقا لما وقر فى قلبها من اعتدال إيمانى صادق، ولكن رفقة السوء تركن دوما إلى النفاق وتكون سمتها الغالبة أن تظهر ما لا تبطن وأن تقول ما لا تفعل، وهذا ما حذر منه القرآن الكريم، وخاصة أن هذه الفئة تعودت منع الخير ممثلا

---

(١) صلاح مـصطفى الفوال : التصـوير القرآنى للمجـتمع، دار الفكر العـربى، القاهرة، ١٩٨٥، جـ١، ص ٣١٢.

(٢) المرجع السابق . ص ٣١٣.

فى التعليم الجيد إن كانت تملك أسبابه ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ق].

والأسلوب الرفيع الذى دعا الله المسلمين إلى اتباعه فى الدعوة إليه هو نفس الأسلوب الذى ينبغى على من يقوم بواجب التعليم أن يتبعه، وهذا ما يتبدى فى أروع صوره فى قوله عز وجل لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون الذى طغى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه].

والقرآن كذلك يدعو الرسول إلى أن يعلم قومه وأمته والناس جميعا هذا السلوك الحانى البار :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء].

بيد أن هذا النهج يحتاج إلى صبر ومثابرة، وهنا يدعو القرآن معلم البشرية محمد ﷺ كى يقتدى المسلمون به :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل].

ويضرب له المثال أيضا بمن سبقوه من الأنبياء والمرسلين :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

ويصوغ القرآن من عبارة « والتى هى أحسن » مبدأ من أعظم مبادئ التعليم[1] :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

﴿ ... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت].

وحرص القرآن على أن يدعو من يعلم الناس أن يتصف بلين الجانب والرحمة والرأفة من خلال بيان ميزة توافر ذلك فى الرسول الكريم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ

(١) خالد محمد خالد : كما تحدث القرآن، ص ٣٣.

لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وكذلك أهمية اتصاف المعلم بالصراحة والصدق وأمانة القول حتى لا ينتظروا منه أكثر ما يستطيع، ويتبين لنا هذا عندما أمر الله عز وجل الرسول الكريم أن يعلن للملأ أنه لا يملك شيئا من أسباب الضر والنفع : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف].

وكذلك : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

وأرشد سبحانه وتعالى من يقومون بواجب الدعوة والتعليم أن يستخدموا أساليب الترغيب والترهيب، فمن أساليب الترغيب :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ... ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

ويقول : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق].

ومن أساليب الترهيب، قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [غافر].

والعلم حق مشاع للإنسانية جمعاء، وما بعث الله الرسل إلا مرشدين معلمين سواء بالكتب المنزلة أو القدوة الطيبة، والغلو فى الأجر فى التعليم يتنافى مع مبادئ الإسلام : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص].

وكـذلك من الضرورى الإقـبـال على النافع المفـيد وترك مـا لا طائل وراءه من الأبحاث، وقـد وصف الله تعالى المؤمنـين بقوله : ﴿ ...وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان]. وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون]. ووصف سبـحانه الجنة بـأنها ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور].

* * *

التوظيف التربوى للقصة

الأهمية التربوية للقصة:

الفنون - كـالرسم، والتـصوير، والنحت، والتـمـثيل، والمـوسيـقى، والغناء، والآداب، مصدر من مصادر تذوق الجمال، والتربية، وفيها متعة وسرور للمنشىء الذى يؤلفهـا وينشئهـا، وللوسيط وهو الذى يعرضـها، وللمتلقى وهو الذى يدركـها. وهذه الفنون تؤثر فى نفوس الكبار كما تؤثر فى نفوس الصغار، لأنها غذاء للوجدان والعقل، غير أن غذاء الصـغار لابد أن يختلف فى نوعه وكمه وأسلوبه وطريقـة عرضه عن غذاء الكبار(١).

والقصة نوع من الأدب له جمال وفيه متعة، ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد إنشاؤه وأجيدت واسطته وأجيد تلقيه. والقصة أدب مقروء أو مسموع، وهى عند من لا يعرف القراءة أدب مسموع فقط، أما للقارئ فهى أدب مقروء ومسموع معا .

وتعتبر الكلمـة أداة القصة الرئيسية التى توجد المشـاركة الوجدانية والفكرية، بين الكاتب والقارئ و السامع، فتؤثر تأثيرا بالغـا وتساعد على توصيل أفكار الكاتب لتحقق هدفه من القصة مستغلا الميل الطبيعى للإنسان فى قـراءة القصة وسماعها وتمثيل ما فيها من أحداث والتأثر بها مما يساعد على تغيير سلوك الفرد .

ولهـذا فقـد اتخذت القـصة لـغرس بعض القـيم الدينـية والخلقيـة والسيـاسيـة والاجـتـمـاعيـة والعلمـية، لدورها وقـدرتهـا على الإقناع العقـلى عن طريق المشاركـة الوجدانية(٢) .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد، القصة فى التربية، دار المعارف القاهرة، ط ٥، د . ت، ص ١٢ .

(٢) سعيد عـبد الحميد محمود السـعدنى : القيم التربية فى القصص القرآنى، قـصة سيدنا يوسف، رسالة ماجستير، القاهرة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٢، ص ٢٤ .

وتتميز القصة فى أنها تعبير عن الزمن الذى أنشئت فيه؛ ولذلك فقد تعرضت القصة للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتصوير حالة المجتمع فى زمن معين وتشارك فى حل هذه المشكلات .

وإذا كانت القصة تعبيرا عن الماضى وانعكاسا للحاضر فهى تصور لمستقبل الحياة وما يجب أن تكون عليه القيم التى تسود المجتمع فى المستقبل .

وإذا كانت القصة تعبيرا عن الزمن الذى استغرقته فى بنائها، فهى أيضا تعبير عن المكان بعاداته وتقاليده وتفكيره وتطلعاته تجرى بلسان أهله ولغتهم، وهى تتميز عن فنون الأدب بتطابق القيم الشعورية وقيمها التعبيرية ومناسبة استخدام الأداة بطبيعة العمل الذى تستخدم فيه[1] .

وقد عرف الإنسان أهمية القصة فى حياته منذ زمن طويل لما لها من سحر يسحر النفوس، ولم يدر أى سحر هو وكيف يؤثر على النفوس؟ أهو انبعاث الخيال يتابع مشاهد القصة ويتعقبها من موقف إلى موقف ومن تعرف إلى شعور؟ أهو « المشاركة الوجدانية » لأشخاص القصة وما تثيره فى النفس من مشاعر تتفجر وتفيض ؟ أهو انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل الإنسان نفسه داخل الحوادث، ومع ذلك فهو ناج منها متفرج من بعيد؟[2] .

أيا كان الأمر، فسحر القصة قديم قدم البشرية، وسيظل معها حياتها كلها على الأرض لا يزول. وأيا ما كان الأمر فلا شك أن قارئ القصة وسامعها، لا يملك أن يقف موقفا سلبيا من شخوصها وحوادثها، فهو - على وعى منهم أو غير وعى - يدس نفسه على مسرح الحوادث، ويتخيل أنه كان فى هذا الموقف أو ذاك، ويروح يوازن بين نفسه، وبين أبطال القصة فيوافق أو يستنكر أو يملكه الإعجاب، والإسلام يدرك هذا الميل الفطرى إلى القصة، ويدرك مالها من تأثير ساحر على القلوب، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم[3] .

إذن، فلن يكون مبالغة منا إذا قلنا أن القصة كانت أول ما صحب الإنسان من تصورات عقله وصيد خواطره وطوارئ أحلامه، وهواجس رؤاه، ولسنا بالمبالغين أيضا إذ قلنا أن هذه التصورات وتلك الخواطر والطوارئ والهواجس كانت أقوى قوة دفعت

---

(١) سيد قطب : النقد الأدبى . أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، د . ت، ص ١٢٢ .

(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية، دار القلم، د . ت، القاهرة، ص ٢٣٧ .

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الإنسان إلى تحريك لسانه، وإلى إيقاظ ملكاته وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه بحثا عن الكلمات التى يضعها على شفتيه ليصور بها تلك الأهوال التى تضرب فى أعماقه، وتموج فى مسارب تفكيره وتتراقص على مسرح خياله[1].

وكانت القصة - وما تزال - مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات من الرسل والقادة والمصلحين، إلى عقول الناس وقلوبهم ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه من معتقدات وآراء واتجاهات.

ولم يكن الدين فى صورته الأولى، سوى القصة أو الحكاية أو الخرافة ممثلة على مسرح الحياة فى خطوات الإنسان الأول وفى خطراته ووساوسه وأوهامه .

إن معتقدات الأولين كانت فى الأغلب الأعم منها، ممثلة في تلك الأساطير والخرافات المخلقة من نسيج الوهم والخوف، وقد ظلت تلك الأساطير متوارثة فى أجيال الناس، فكانت منها ديانات الفراعنة، واليونان، والفرس، والهنود وغيرهم، وكانت منها تلك الآلهة التى عبدها الناس فى تلك الأزمان .

نقول هذا لنرى مبلغ العلاقة الوثيقة بين القصة والدين، وأن الدين لم يكن فى كثير من الأحيان إلا مجرد قصة طويلة كانت يوما ما عند أهلها كتابا مقدسا، وإن بدت لنا اليوم نسيجا مهلهلا من خرافات وأباطيل وضلالات[2] .

ونقول هذا لندرك أيضا بعض المرامى التى قصد إليها القرآن الكريم من هذا القصص الكثير الذى ضمت عليه آياته وسوره، ففى هذا القصص يلتقى الإنسان التقاء صادقا واضحا مع أقوى دوافعه وعواطفه التى ولدت معه فى ضباب طفولته، والتى نضجت مع الزمن من صراعه الطويل مع الحياة. ومن هذه الدوافع وتلك العواطف يقاد الإنسان ويؤخذ بناصيته نحو الغايات التى تدعوه إليها القصة وتقوده نحوها، فالقصص القرآنى هو أحد الأساليب التى حملها القرآن بين يديه ليحاج بها الناس، وليقطع المعاندين عن المماحكة والجدل، شأنه فى هذا شأن ما جاء به القرآن من أساليب الاستدلال، والمناظرة والتعجيز والوعد والوعيد، وغير ذلك من المشاهد والمواقف المبثوثة فى القرآن الكريم كله .

* * *

---

(١) عبد الكريم الخطيب : مصادر القصص القرآنى ومقاصده، مجلة الوعى الإسلامى، الكويت، السنة ٨، العدد ٨٦، صفر ١٣٩٢ (مارس)، ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

والقصص فى القرآن أربعة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين.

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابنى آدم، وأهل الكهف، وذى القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل وغيرهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول ﷺ كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب، والهجرة والإسراء ونحو ذلك[١].

والنوع الرابع : القصة الغيبية[٢] وهى التى تتناول أحداثا ووقائع من صميم الغيب، مستمدة من مشاهد الآخرة، وهى وإن كانت بالنسبة للإنسان غيبا مجهولا، فهى فى علم الله تعالى حاضر مشهود. فالغيب فى علمه كالشهادة، والآخرة كالدنيا والخفى كالظاهر، والماضى كالآتى، والسر كالعلانية سواء، من هذا اللون قصة محاكمة عيسى عليه السلام[٣] .

وقسم البعض القصص القرآنى إلى نوعين: تاريخى وتمثيلى، على أساس أن الأول يتمثل فيه الصدق الواقعى، والثانى يتمثل فيه الصدق الموضوعى[٤].

لكن هذا التقسيم لا يقيم حاجزا بين النوعين، إذ قد تكون القصة التاريخية تمثيلية سيقت مساق المثل بصريح القرآن مثل قصة أصحاب القرية[٥] وهى من نوع قصص

---

(١) عبد الله محمود شحاته : القصة فى القرآن الكريم : مجلة العربى الكويتية، مارس ١٩٧٦، ص ٢٧ .

(٢) محمد شديد : منهج القصة فى القرآن، جدة، شركة مكتبات عكاظ، ١٩٨٤، ص ٤٠ .

(٣) انظر سورة المائدة الآيات: ١١٦-١١٩ .

(٤) التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤، ص ١٥٦ .

(٥) انظر سورة يس الآيات: ١٣-٢٧ .

الكفاح التى تنتهى باستشهاد البطل فى سبيل الحق، فموته وإن كان فى الظاهر هزيمة، لكنه فى الحقيقة انتصار للمبادئ التى آمن بها ودعا إليها وعمل على تحقيقها، وفوز عظيم له بما نال من رضى الله وجنة الخلد(1).

وقد ضرب الله هذه القضية التاريخية مثلا لمشركى مكة الذين كذبوا الرسول ﷺ لإنذارهم عذابا ينزل عليهم كما نزل على أصحاب هذه القرية لما قتلوا المؤمن الذى دعاهم إلى طاعة المرسلين. وقد غضب الله له فعجّل لهم العقوبة:

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس].

ولابد من الإشارة هنا إلى جانب هام، وهو أن المفسرين قد وقفوا وقفة طويلة عند الإشارات التاريخية التى جعلها القرآن مادة أدبية فى بناء القصة القرآنية. والعقل الإسلامى، وقد شغلته هذه الثقافة التاريخية، لم يفرغ إلى غيرها، ومن هنا لم يقف إلا قليلا ليوضح ما فى القصص القرآنى من هداية وإرشاد ويؤكد ما فيه من بشارة وإنذار، وهو بهذا قد فوت على نفسه كثيرا من المسائل التى كانت جديرة بأن توجهه إلى الوقوف على الأسس النفسية والدعامات الاجتماعية التى قامت عليها الدعوة الإسلامية(2).

فليست الأحداث التاريخية فى القصص القرآنى متسلسلة الحلقات فى السرد، لأن التاريخ فيه لم يقصد لذاته، ولكن لاستخلاص العبرة منه، والتفكير فى العلاقات السببية من مقدمات الأحداث ونتائجها وفق سنن إلهية يصلها بالإنسان ما فى كيانه من نوازع الخير والشر.

وعلى هذا الأساس أخضع القرآن فى قصصه وقائع التاريخ إلى حقائق دينية، ووضع الدين فى سجل الأحداث الكونية، إلى جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية، إذ ليس فى مجرى هذه الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة، أو بتأثير الظروف المادية وحدها، وعلى المتأمل أن يبحث، ليتوصل إلى معرفة بعض السنن التى تساير الإرادة الإلهية فى الثواب والعقاب، والبقاء والفناء.

---

(1) سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ١٥٧.

(2) محمد أحمد خلف الله، الفن القصصى فى القرآن الكريم، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٩٦.

فما الظروف المادية إلا وسائل تنفيذ ، وما الصدفة إلا محض افتراض ، فهناك ظواهر تخضع لقوانين تصدق دائما بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها متى تحققت شروط وجودها[١] .

ثم إن القرآن وإن لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه، كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمنى، فقد صاغها فى أسلوب إنشائى مؤثر[٢] .

ومما يصور هذا ما رواه القرآن الكريم عن قصة أهل مدين[٣] .

فمما يستخلصه الدارس لقصة مدين فى أبعادها، أن يعرف كيف تتصل المعاملات بالاعتقاد، وكيف يتدخل الدين فى الاقتصاد، فيربط بين الإيمان بالله، والسلوك الشخصى فى الحياة والمعاملات المادية فى الأسواق، وأن يعرف كيف تمر الأشياء بمراحل تحول نتيجة لظروف معينة، ولكن ما يترتب عليها من نتائج الخير أو الشر لا يتغير مهما اختلفت الأزمان، وتنوعت الأشكال[٤] .

أما بالنسبة للقصص التمثيلى فهو كما قلنا يقوم على الصدق الموضوعى، وهذا النوع من القصص قليل فى القرآن، بل إن بعضهم نفى وجوده على اعتبار أنه لا يشير إلى واقع حقيقى، لكن مزيدا من التأمل يكشف لنا عن أن من التمثيل البيانى فى القرآن ما يقرب الحقائق إلى الأذهان أو يضفى عليها لونا من البيان فيجليها، وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس. كذلك تقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واستخلاص سنن الله فى خلقه وعدله بينهم فيما تجلى من نتائج الحكم الواحد لأمرين متماثلين، وإن تباعدا فى الزمان والمكان[٥] .

إن تأثير هذا النوع من القصص إنما هو فى صدقه الموضوعى والفنى، وفى تشخيص المعانى المجردة والتوجيهات التربوية التى تضمها فى شكل عملى تطبيقى يمكن من تصورها وإدراكها، ذلك أن من المدارك ما يقف عند الأمور الحسية، فلا يقوى على فهم المعانى الكلية، فضلا عن التأثر بها، إلا إذا كان لها وجود واقعى مفترض يجسمه

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٣ .

(٣) انظر سورة هود الآيات : ٨٤-٩٥.

(٤) سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ١٨٩ .

(٥) المرجع السابق، ص ٢٤٦.

الحوار ويحدد إطاره جو القصة وأحداثها، ومن هنا استعمل القرآن القصة التمثيلية لغرس القيم الدينية وإيقاظ الوجدان للإيمان بها(1).

ومثال ذلك قصة صاحب الجنتين (2) ، فسواء أكان الرجلان موجودين فى واقع التاريخ، أم موجودين فى واقع الحياة افتراضا، فإن قصتهما رسمت فى الحالين نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله التى ترى نعمه موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره(3) .

والقصة واضحة الموضوع والهدف، متسقة تماما مع سياق السورة، تعالج موضوع عقيدة أهل الكتاب فى عيسى- عليه السلام- وهى من قوة التعبير وجلال التصوير ما يجعلها فى الحس حاضرا شهودا أو ماضيا وقع فيبرز عيسى من بين أستار الغيب فى هذا الموقف الرهيب بين يدى الله- تعالى- يعلن براءته من ذلك التأليه الذى تردى فيه البعض، معلنا بشريته وعبوديته لله مفوضا أمر أتباعه إليه تعالى(4).

وإذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصا، فهل التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحى، ومع المحتوى الفنى للقصة كما تعرف فى الآداب الإنسانية قديما وحديثا(5) ؟

نحن حين ننظر فى المعنى اللغزى للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذى قام عليه أصل التسمية للقصص القرآنى.. فالقصة مشتقة من القصص وهو تتبع الأثر، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ... (11) ﴾ [القصص]، أى : تتبعى آثاره .. على ما انتهى إليه أمره.

ومن هذا قولهم : قصّ الأثر أى نظر فيه، واقتفى آثاره وشاهده.. يقال : قصصت أثره واقتصصته، وخرجت فى أثر فلان قصصا، وفى القرآن ﴿ ... فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾ [الكهف: 64] .. وقص عليه الرؤيا والحديث. وفى القرآن الكريم : ﴿ ...لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ... (5) ﴾ [يوسف] .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف فى عصرنا هذا بتصوير « البصمات » أو رفع الآثار

---

(1) المرجع السابق، ص 248.

(2) انظر سورة الكهف الآيات: 32-43 .

(3) سيكلوجية القصة فى القرآن، ص 251 .

(4) منهج القصة، ص 41 .

(5)عبد الكريم الخطيب : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه، القاهرة، 1974، ص 44 .

وتصويرها، ليستدل على ما وراءها من أحداث مضت، وليمسك بما يقدر على إمساكه منها[1].

والقصة فى القرآن تتبع أحداثا ماضية وتعرض منها ما ترى عرضه! ومن هنا كانت تسمية الأخبار التى جاء بها فى القرآن قصصا، مما يدخل فى المعنى العام للكلمة خبر أو نبأ.. وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى، وإن كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز. فاستعمل النبأ والأنباء فى الإخبار عن الأحداث البعيدة، زمانا أو مكانا، ولفها فى أطواقه.. على حين أنه استعمل الخبر والأخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع أو التى لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان .. ففى النبأ والأنباء يقول تعالى فى أصحاب الكهف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف]، ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع فيها ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود]، ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]. وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد].

ويقول عز وجل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة]، والتحديث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة.

وانظر فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف]، نجد أن القصص القرآنى إنما هو من قبيل الأنبياء... أى الأخبار التى بعد الزمن بها، واندثرت أو كادت تندثر، ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر فى القصص القرآنى، نجد أنه يجىء بمادته كلها من الماضى البعيد، دون أن يكون فيه شىء من واقع الحال أو متوقعات المستقبل[2] .

وقد حلا لنفر من المسلمين أن يتعرضوا للقصص القرآنى بالدراسة والتحليل عن نية خالصة دون شك، وقد أحسنوا القصد حين رأوا فى القصص القرآنى جمالا يتطلب الإيضاح والتحليل، ولكن بعضهم تنكب الجادة إذ ظن القصص القرآنى نمطا من

---

(١) الخطيب، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦ .

القصص المعاصر، فاتجه للمقاييس النقدية الذائعة محاولا تطبيقها على القصص القرآنى ومتكلفا شتى ضروب المنطق، ليثبت أن كتاب الله- عز وجل- قد جاء فى هذا المضمار الفنى بما تشهد له أحكامنا النقدية الحديثة، وقد غفل بذلك عن حقيقة واضحة هى أن الأسلوب القرآنى ينفرد بطابعه الخاص المعجز، سواء فى القصة أو غيرها من فنون القول، وأن كل محاولة لتطبيق المقاييس المشتهرة عليه لا ترقى إلى تفسير إعجازه الصريح(١).

نحن لا ننكر أن التطور الفكرى فى المجال النقدى قد ساعد على ارتقاء الآداب، وعاون على فهم التراث العربى، إذ الدعوة مستمرة إلى دراسة كل ما يجدّ من النظريات النقدية من شرقية وغربية، ولكن فى مجال الدراسة القرآنية بالذات لابد للدارس من التسلح بهذه الدراسة عن بصر وجدية ليتسع أفقه الفكرى وينمو تذوقه الوجدانى حتى إذا تعرض للنص القرآنى بالتحليل والتفسير وجد من هذه الدراسة الجادة ما يساعده على الصعود إلى الأوج المنشود، وعلى أن يعرف أنه أمام نمط من القول لا يخضع لمقاييس فنية تروج حينا وتكسد حينا آخر(٢) .

وإن بعضا من الباحثين فى مجال التطبيق النقدى لما يعرض له من القصص القرآنى ينسى شيئا هاما هو أن القصة القرآنية قد ساقها الله لتأكيد قيم دينية شتى، فهى تحارب الوثنية، وتؤصل المبادئ الخلقية، تدعو إلى العزة النفسية والكرامة الإنسانية، كما تطمئن صاحب الرسالة وتواسيه فى شدائده إذ يرى أنه ختام رائع لأناس حملوا أمانة الدعوة ولاقوا صعاب الرسالة، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله من عنت الضالين وبغى الكافرين(٣) . وإن قصصا توجيهيا يتحمل دوره فى النهوض بهذه الأعباء الثقيلة لنظلمه حين نغله بأصفاد مصطنعة تكون لامعة فى زمن ثم يأكلها الصدأ ثم تنمحى فى زمن آخر وحينئذ نضطر إلى البحث عن غل جديد !

من هنا نستطيع أن نترك أثر هذه المقاييس المؤقتة لنعيش على القصة القرآنية كما نعيش على أروع النصوص الأدبية إذ نقرأها قراءة متذوقة كاشفة لنتمتع بإيحائها وتصويرها وموافقتها مقتضيات الحال المناسبة موافقة تؤنس القارئ وتعدد ألوان البهجة فى عقله وجسده، حتى ليستطيع بعد قراءة أو قراءتين أن يحفظ أكثر عباراتها الجميلة

---

(١) محمد رجب البيومى، البيان القرآنى، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

وأن ينتقل إلى رصيده الأدبى نفائس لفظية ومعنوية وتركيبية، فيجس للقرآن من ذلك ما لا يحسه لأعظم الآثار الأدبية مهما سمت بانتسابها إلى أبلغ القائلين وأفصح الكتاب. وفى اعتقادنا أن هذه الدراسة الخالصة للنص المباشر بعيدا عن مصطلحات النقد المعاصر، ترسم من ألوان الجمال الفنى ما لا ينهض به مصطلح نقدى أو حكم تقريرى تسبقه الحيثيات المطبوعة حينا والملفقة حينا آخر[1].

وهكذا نستطيع أن نقرر أن القصة فى القرآن ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة، التى ترمى إلى أداء غرض فنى مجرد، إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شىء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها؛ شأنها فى ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التى يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التى يفصلها والأمثال التى يضربها.. إلى آخر ما جاء فى القرآن من موضوعات[2].

وقد تعددت مناهج المفسرين للقصص القرآنى، ولسنا فى موقف يسمح بعرضها أو مناقشتها وإنما يكفينا الإشارة إلى أن هذه المناهج مترددة، بين إفراط وتفريط فى شأن القصص القرآنى وما ينبغى أن يستقبل به، حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة، وحتى يحدث الهداية للدعاة والمصلحين وحتى يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذى لا مرية فيه، ولا تزيد ولا تخييل[3].

والمنهج الأصوب كما نؤكد دائما، هو الوقوف عند أفضل ما ورد فى القرآن، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها، وإفادتها لواقع هى تعبير صحيح عنه، دون تزيد عليه، بما لم يرد فيه، اعتمادا على روايات لا سند لها كما صنع المفرطون، ودون صرف الألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى، من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره، كما فعل أهل التأويل الذين حرفوا كثيرا من القرآن عن مواضعه وتنكبوا قانون العربية التى نزل بها[4].

وللقصة القرآنية طريقتان[5]:

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن، ص ١١٩

(٣) فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى، ص ٢٢٣

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، ٢١٥.

١- طريقة عرض الأحداث بشكل تقريرى تنتقل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة حتى تبلغ نهايتها .

٢- طريقة الحوار الذى يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة، والكل بطل من أبطالها دوره الذى يعبر عنه بأسلوب واضح، ويثير فيها بعض القضايا التى يقف إزاءها البطل الآخر يعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح .

أما الطريقة الأولى، فتتمثل فى ملاحقتها للقضايا الصغيرة فى التاريخ ووقوف الراوى أو الحاكى، موقف المرشد الذى يقود تفكير السامعين والقارئين إلى النقاط الأساسية فى أسلوب يقرب من التلقين الذى يراد فيه تعبئة الفراغ بشكل دقيق .

وأما طريقة الحوار، فإن قيمتها هى فى محاولتها تبسيط الفكرة فى جميع مجالاتها، فلا يترك أى جانب خفى فيها؛ لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التى يؤمن بها ويدافع عنها .

وهناك نقطة أخرى، يتميز فيها الحوار، وهى أنها تجسد الموقف أمامك فتشعر فيه بالحياة المتحركة التى تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جو إلى جو، وتعيش فيه الأصوات الماضية من خلال أبطالها الذين تشعر بهم وأنت تندمج فى القصة - يتحركون أمامك فى أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنت جاهزا معهم. ولن يقتصر الموقف على الكلمات التى تنطلق منهم، بل يمتد الشعور معك إلى إحساسك بالجو الذى يخيم على الموقف، وبالمعانى الخفية التى تختفى وراء الكلمات، تماما كما لو كان البطل يتحدث إليك، حيث تندمج معه بالإيماء مع الكلمة وبالإحساس الخفى مع الحركة(١) .

ولعل تأملا لما رواه القرآن الكريم فى قصة لوط توضح هذا الذى نقول.

فلقد أصاب قوم لوط انحراف فظيع، فكان ما حكاه القرآن على لسانهم حين قالوا: ﴿ **قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود]، كاشفا عن نفسية اجتماعية منحرفة تحلل أصحابها من قيد الفضيلة، فلم يصدهم حياء أو إيمان عن كبت مشاعرهم الجنسية الشاذة، بل أعلنوا عنها فى صفاقة، وكأنهم لا يأتون منكرا، وذلك أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة تشجعه على الاسترسال فى ما كان يحجم عنه منفردا من الميول والأهواء. وهو لا يكبح جماح نفسه؛ لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها كما يسأل الفرد، ولا سيما إذا شاعت تلك الأفعال بين جميع

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٦ .

الأفراد، كقوم لوط، فإن الواحد منهم لا يشعر بما قد يجره العمل عليه من تبعة وخزى. وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى[1].

فإذا انعدم هذا الشعور حكم المجتمع على نفسه بأنه غير صالح للبقاء. وهكذا نلاحظ كيف اختار القرآن مما دار من حوار وجدال بين لوط وقومه عبارة موجزة، لكنها بعيدة الأغوار، فسيحة الآفاق، تلقى فيها الأضواء على نفسية مجتمع مريض.

كما أن فى ما حكاه القرآن فى هذه القصة القصيرة على لسان الملائكة: ﴿ ...يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود].

كم هو صادق هذا التعبير فى تجسيمه لمعنى الأمن من الخوف أمام نفس حزينة حائرة كنفس لوط- عليه السلام- وقد ضاقت به السبل واشتد عليه الكرب، وهو الغريب فى قوم منحرفين عن فطرة الله، ضالين عن هداه، نزح إليهم من بعيد، ولا عشيرة له تأويه، أو قوة مادية تحميه ؟

فكان أصدق ما عبر به عن يأسه وألمه قوله : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود]، ولا شك أن المؤمنين يحسون، وهم يتلون هذه الآية مشفقين على لوط من مكر قومه به وكيدهم له، ما أحس به لوط نفسه عندما علم بأنه بات فى حماية رسل الله من الملائكة الذين جاءوا لتنفيذ أمر الله فى قومه ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود].

ثم يأتى أمر الله ويحل العذاب بقوم لوط فتصبح قريتهم أثرا بعد عين :﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ... ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]، فأى تعبير يبلغ فى تقريب الموعد وتأكيده، وتصوير القضاء النازل، والتدمير الكامل، وإنذار مشركى قريش، ما بلغه ذلك التعبير القرآنى الذى يلقى روعته فى النفس، وظلاله فى الحس ؟[2].

ومن أغراض القصة القرآنية الدينية [3] :

١- بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وإن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع، . جاء فى سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء]. هذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل، وغيره من الأغراض الأخرى يأتى عرضا وفى ثناياه.

---

(١) التهامى نفرة : سيكولوجية القصة فى القرآن، ١٩٧٤، ص ٨٨.

(٢) المرجع السابق. ص ٨٩.

(٣) كامل على سعفان : المنهج البيانى فى تفسير القرآن، ص ٤٢٤.

٢- بيان أن الدين كـله موحد الأسـاس. فضلا عن أنه كله مـن عند إله واحد، وتبعا لهـذا كانت ترد قصص كثيرة عن الأنبياء مـجتمعة كـذلك، مكررة فيها العـقيدة الأساسية، وهى الإيمان بالله الواحد، على نحو ما جاء فى سورة الأعراف، ومع عرض هذا الشريط يتـخيل للمتأمل أنه نبى واحـد، وأنها إنسانية واحـدة، على تطاول الأزمان والآماد، كل نبى يمر، وهو يقول كلمته الهادية، فتكذبه هذه الإنسانية الضالة، ثم يمضى ويجيء تاليه، فيقول الكلمة ذاتها، ويمضى وهكذا .

٣- بيان أن وسائل الأنبيـاء فى الدعوة موحدة، وأن استقبال قومـهم لهم متشابه على نحو ما جاء فى سورة هود .

٤- بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بنى إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصـال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا فى قصـص إبراهيم وموسى وعيسى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة].

٥- بيان أن الله ينصـر أنبياءه فى النهاية، ويهلك المكـذبين، وذلك تثبيتـا لمحمد وتأثيرا فى نفوس من يدعوهم إلى الإيمان: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود] .

٦- تصديق التـبشير والتحـذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديـق، مثل ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٤٩﴾ **وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر]. فتصديقا لهـذا جاءت قصة ضيف إبراهيم، ثم قصة لوط، ثم أصحاب الحجر، وهكذا يصدق الإنباء، ويبدو صدقه فى هذا القصص الواقع[١].

٧- بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيـسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قـصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمـة فى مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو الغرض الأول ، وما سواه يأتى فى هذا الموضع عرضا .

٨- تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذى لا يريد بالناس الخير.

٩- بيان قدرة الله على الخـوارق، كقصة خلق آدم، وقصة مولد عـيسى، وقصة

(١) المنهج القرآنى فى تفسير القرآن، ص ٤٢٥.

إبراهيم والطير الذى أتي إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءا وقصة ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ... ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] وقد أحياه الله بعد موته مائة عام .

١٠- بيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والفساد، كقصة « ابنى آدم » وقصة صاحب الجنتين، وقصص بنى إسرائيل بعد عصيانهم، وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأخدود .

١١- بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الإلهية البعيدة كقصة موسى مع : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف] ... إلى غير ذلك من أغراض كانت تساق إلى القصص فتفى بمغزاها الدينى[(١)] .

وإذا كانت القصة القرآنية قد خضعت للأغراض الدينية، فقد ترك هذا الموضوع آثاره واضحة فى طريقة عرضها، بل وفى مادتها، ومن أوضح هذه الآثار ما يأتى[(٢)] :

١- تكرار القصة الواحدة، ونعنى بالتكرار أن ترد القصة الواحدة مكررة فى مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة - غالبا - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبر فيها، أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادرا ولمناسبات خاصة فى السياق .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة تماما لهذا السياق، فى اختيار الحلقة التى تعرض هنا أو تعرض هناك، وفى طريقة عرضها كذلك، ويجب أن نذكر دائما أن القرآن كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه، هو الغرض المقدم .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة -يتضح حين يقرأ بحسب ترتيب نزولها - وإن كان ترتيب النزول ليس محل قطع ولا جزم، والأمر فيه قائم على الترجيح - فمعظم القصص يبدأ بإشارات مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تعرض حلقات كثيرة تكوّن فى مجموعها جسم القصة،- وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢٦ .

(٢) عبد الله محمود شحاتة، علوم التفسير، ص ٢٢٦ .

المناسبات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها.

وقد ضرب سيد قطب مثالا على هذا النظام، قصة موسى، إذ إنها أشد القصص فى القرآن تكرارا، فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار. وقد وردت هذه القصة فى حوالى الثلاثين موضعا، ذكر سيد قطب أهمها وترك بعض المواضع التى ورد فيها الاسم مجردا[١].

ومن الملاحظ أن التكرار فى القصص القرآنى كان موجها إلى صميم العقيدة أكثر من سواها، كالمعاملات والأحكام. وكان تأكيده لحقيقة التوحيد بتكريره إياها فى صور متنوعة، وإبرازها فى القصص والأمثال على الخصوص، من أهم العوامل فى تقريرها وترسيخها[٢].

ومن أكثر الأنبياء ذكرا فى القرآن بعد موسى، إبراهيم الخليل، قيل أنه ذكر فى خمس وثلاثين موضعا، منها خمسة عشر فى سورة البقرة.

كذلك نلاحظ أن التكرار فى القرآن لم يقصد به الإعجاز البيانى بقدر ما قصد به التأثير النفسى، لما يعلم من تفاوت فى مدارك البشر وأمزجتهم، إذ منها ما ينفذ إلى الحقيقة، ومنها ما يسيطر عليه الوهم تحت سلطان الأفكار الموروثة، ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى جمودها رغم المثيرات العاصفة[٣].

إن فى تنويع قصص الأنبياء، وما يجمع بينهم من وحدة المبادئ والأهداف أو تشابه العلل والأمراض التى تحول دون انصياع أقوالهم إلى الحق، من عوامل تأثير الإلحاح على النفس بالموعظة المتكررة، والضغط عليها بالعبرة المتجددة مما يجعل حقيقة الإيمان أكثر غوصا واستقرارا فى القلوب؛ لأن ذلك بمثابة الاستقرار الذى يقيم الدليل على ثبات تلك الحقيقة واطراد نتائجها إيجابا وسلبا فى كل عصر، مهما تباعد المكان وتفاوت الزمان. وهى طريقة فى بيان سنة الله فى الأفراد والأمم عبر التاريخ[٤].

٢- انتخاب أجزاء من القصة، وكان من الآثار أيضا أن تعرض بالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التى تتفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن، ص ١٢٩.

(٢) التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ١١٧.

(٣) المرجع السابق . ص ١٢٨.

(٤) المرجع السابق . ١٣٣.

وسطها ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك حسبما تكمن العبرة فى هذا الجزء أو ذاك[1].

٣- التوجيه، وكان من أثر خضوع القصة للغرض الدينى أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفى ثنايا ذلك[2] . وفى قصة سيدنا يوسف وقصة آدم ونوح ما يوضح ذلك . وإذا تتبعنا قصص القرآن وجدنا عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها .

فمن ذلك ما نجده فى قوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]. فيضع فى سياق القصة: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ، وفى نهايتها: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وفى قصة سليمان مع بلقيس يقول الهدهد :

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل]. . . كل هذا يقوله هدهد، ليهتدى الآدميون بهداه فيما يقول! [3].

وفى قصة يوسف مع خادمى الملك يفسر لهما الرؤيا، ثم يقول: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف].

والمتأمل لقصص القرآن يجد هذه التوجيهات، منثورة فى ثناياها على هذا النحو أو على نحو سواه، ولكن يجدها بكثرة ووفرة، تدل على الغرض الأساسى من سياق القصة وهو التربية الدينية .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٠ .

(٣) التصوير الفنى فى القرآن، ص ١٤٠ .

وأيا ما كان نوع القصة، فالقرآن يستخدمها لجميع أنواع التربية والتوجيه التى يشملها منهجه التربوى :

١- تربية الروح ٢- تربية العقل

٣- تربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة فى النفس

٤- التربية بالقدوة ٥- التربية بالموعظة..

فهى سجل حافل لجميع التوجيهات، وهى كذلك - على قلة عدد الألفاظ المستخدمة فى أدائها - حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصاته : من حوار، إلى سرد إلى تنغيم موسيقى، إلى إحياء للشخص، إلى دقة رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة فى القصة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع بالنغم المطلوب[1].

إن هذه القصص لم تأت مجرد « حكايات » يتسلى بها، وإنما يسوقها لإيضاح مبدأ، والدعوة إلى فكرة، والنهى عن منكر، ومن هنا، فقد جرت عادته إذا حكى أمرا يقره، أو إذا ذكر شيئا يوهم غير المراد أن يشير إلى بطلانه، أو يأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)** ﴾ [الأنعام]. وقد ذكر من أعمال المشركين ما لا يقره ولم يسكت عليه، بل أورد فى ثناياه ما يفيد رده، حيث قال تعالى: «بزعمهم» و «افتراء عليه» ، و «سيجزيهم بما كانوا يفترون» ، و «سيجزيهم وصفهم».

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... (٧٩)** ﴾ [الأنبياء]. فإن قوله «ففهمناها سليمان» تقرير لإصابته عليه السلام، وإيماء إلى خلاف ذلك فى داود عليه السلام، وربما فهم منه ما لا يليق به مع أن كل مجتهد مأجور، فلهذا أتبعه سبحانه بقوله: «وكلا آتينا حكما وعلما»، فارتفع ذلك الاحتمال وانقضى الإيهام .

---

(١) سيد قطب، التصوير الفنى للقرآن، فصل (القصة فى القرآن).

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة تبين للناظر فى مضامينها أن عبرتها الأولى دروس انتفع بها الهداة، ودعاة الإصلاح، إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن ينتدب من الأمة طائفة ﴿...يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]، وكان من الأقوال الواردة فى الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء، فلا يخلو مكان الدعوة فى الأمم بعد الأنبياء، ولا يستغنى هداتها عن الأسوة الماثلة أمامهم فى جهاد الهداية والإصلاح(١).

ولقد كملت دروس الدعوة فى قصص القرآن حتى لا مزيد عليها، من تلك الدروس، أن الجهلاء ينقادون للأمر والسطوة ولا ينقادون للحجة والدليل، ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملكا أو تكون عنده خزائن الله، ويقولون له: ﴿.. قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود].

ومن تلك الدروس أن أصحاب السيادة فى الأمة يكرهون التغيير ويتشبثون بالقديم، ويأخذون على النبى أن تبعه أناس من غير ذوى السيادة والجاه: ﴿...وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود]، أو كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشرى لأنها تعطل تفكيره وتتركه فى حكم الآلة التى تسير على نهج واحد فى آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال .

ومنها أن العقائد تخالطها أوشاب الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى(٢).

ومنها أن الإصلاح تضحية وعناء، وأن الأنبياء كانوا بين فريقين : فريق يكذبه قومه، وفريق يقتلونه، ولا مناص من القدوة على ما فيها من خطر ومحنة، ولو لم يكن من دليل غير ذلك على أن الإصلاح رسالة إلهية لكفى به دليلا يغنى عن كل دليل، فلا مشيئة لمصلح فى عمله، ولو شاء مصلح أن يعمل على ثقة من الأمان والنجاح لما قام فى الأرض مصلحون .

---

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية، ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٧ .

وكمجرد « أمثلة » و« نماذج » نسوق الأفكار التربوية الآتية التي يمكن استقراؤها من القصص القرآني منها:

١- الأنبياء قدوة للمربين. فللأنبياء في القصص القرآني أقدارهم، فهم الذين يجددون بناء المجتمع بما يبثون من أفكار، ويبذرون من أراء ويوجدون من مبادئ. وهم الذين يلائمون بين حاجات الأمم ومقتضيات الزمان فيطيلون أعمارها ويباعدون بينها وبين الضعف والانحلال : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود].

ومن استقراء قصة نوح[١]. نستطيع أن نخرج بالدلالات التربوية التالية[٢] :

- أن نوحا كان لا يترك فرصة إلا وينتهزها في تذكير قومه بالله، ولا يدع أسلوبا إلا ويلجأ إليه في تعريفهم بالله، حتى أنه كان يقدم إليهم - في كل مرة - الفرصة للرجوع بالتوبة التي يبدأ فيها الإنسان من جديد .

- أن من واجب الرسالة على المربي أن لا يترك هناك أي مجال للعذر، من أية جهة كانت لأن روح الرسالة تمثل روح الجندية التي تجعل من الإنسان قوة لا تملك نفسها، بل تشعر أنها الرسالة بكل طاقاتها وأوقاتها، فتسير حيث تأمرها الرسالة أن تسير.

- إن دعاء نوح عليهم لم يكن من خلال الانفعال الذاتي الذي يدفع إليه ضيق الصدر وخيبة الأمل، بل على أساس موقع الرسالة التي أقامت الحجة على الكافرين، فلم يبق هناك مجال لحجة، أو مكان لعذر، فأصبح من مصلحة الإنسان الذي يرتبط بحركة الرسالة ونموها أن يفسح المجال لجو جديد يتنفس فيه الناس روح الإيمان وروحانيته. فكان الدعاء عليهم، باعتبار أنهم يشكلون القوة الضاغطة لمجتمع الكفر الذي لا يلد إلا مجتمعا مثله بما يملكه من القوى المادية .

- أن الرسالات الإلهية لا تتحرك في حياة المجتمع لحماية الامتيازات الطبقية للطبقات المترفة، بل كانت - على العكس من ذلك - حركة واعية في سبيل الحد من امتيازاتهم الظالمة، ورفع مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع .

---

(١) انظر سورة نوح الآيات : ٥-٢٧.

(٢) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن، ص ٢٢٧.

- فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ ... وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]، مشيرا بذلك إلى أن المربى بإمكانه أن يستخدم أسلوب السخرية كرد فعل لسخرية خصومه فيما إذا استنفد الوسائل التربوية معهم دون جدوى، لأن من غير الطبيعى أن يسكت أو يرد بالكلمة الطيبة فى موقع تتحول الكلمة الطيبة فيه إلى مجال للسخرية والاستهزاء [(١)].

٢- التربية الخلقية: وللقصص القرآنى طرق خاصة فى تصوير الأشياء الخلقية، فهو مرة يعمد إلى التعجب أو إلى الاستفهام الإنكارى، وذلك قد يكون فى العادات القبيحة المرذولة التى استقرت فى البيئة وأصبحت خلقا عاما، وذلك كإتيان الذكران من العالمين فى كل قصة ورد فيها اسم لوط، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت].

ثم هناك الطريقة العرضية التى يعرض فيها القرآن أخلاق بعض الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات، وأكثر ما يكون هذا اللون فى قصص موسى- عليه السلام- إذ فى ذلك القصص نجد تصويرا لأخلاق اليهود كما نجد بعض لفتات لأخلاق بعض المصريين القدماء، ومن خلال ذلك يفهم قارئ القرآن أن هذا يصح وهذا لا يصح، ومثال ذلك إشارة القرآن إلى رذيلة من رذائل اليهود، وهى « عدم الوفاء »، فقد كانوا ينقضون الإيمان بعد توكيدها، وقد كانوا ينكثون فى كثير من الأمور التى اتفقوا عليها مع موسى- عليه السلام- قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [البقرة].

وإذا ما نظرنا إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف- عليه السلام- نجد أن القصة تحتوى على عظات بالغة، فهو يدعو بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، ففى جزء من أجزاء القصة الرائعة، يتواجد يوسف مع امرأة العزيز فى موقف قلما ينجو منه إنسان إلا من عصم الله، موقف يوضح صراع الخير مع الشر،

---

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، ص ٢٣١.

والجمال مع القبح، الرفعة مع الدنية، الإنسانية مع الحيوانية، الأمانة مع الخيانة، العفة مع الابتذال[1] .

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف].

فالآيات الكريمات تحكى قصة النفس البشرية حين يسيطر عليها الهوى ويجنح بها إلى مهوى الإثم. إنها اللحظة التى تبدو فيها الأمور مهيأة للفعل والسقوط فى الفحشاء، ولدور المرأة فى إحدى حالاتها وهى تلح فى همس ونعومة ومخادعة، فامرأة العزيز تجملت ودعته وأحكمت أسبابها ويوسف عليه السلام يرتجف مستعيذا بالله من هول الفعل. وقول يوسف «معاذ الله » إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله- تعالى- للخلاص منه، لما أراه الله البرهان النير على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء[2] .

لقد جاءت القصة مزيجا حلوا سائغا شرابه يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية. والقصص القرآنى، وهو يعرض قصص «الفاحشة»، لا يعرضها لإثارة تلذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المختلفة الانحراف والمشارب، كما يفعل أصحاب القصص الجنسية، فلحظة الجنس يجب ألا نتوقف عندها طويلا، فهى ليست الحياة، وإنما وسيلة من وسائل الحياة، إنه عارض وينتهى فاسحا المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة والإنسان[3] .

٣- الإصلاح الاجتماعى: ونستبين ذلك بقراءة قصة شعيب- عليه السلام- فقد قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا

---

(١) محمد قطب عبد العال : القصة فى القرآن. الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب (٤٩)، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٥٧.

(٢) محمد قطب عبد العال، ص ٥٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ٦٠ .

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف].

فها نحن نرى فى هذا النص القرآنى الذى تتضمنه قصة شعيب دعوة صريحة إلى ناحية عملية تتصل بالإصلاح الاجتماعى، ومنع الفساد فى الأرض، والقيام بحق الأمانة فى التعامل .

وفى موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالإصرار على الشر، وكيف كان الإصرار عليه إلى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة، وبما يؤدى إلى فساد أخلاق الأمة[1].

٤- إيقاظ العقل وتحرره : إذ كثيرا ما تجيء عوامل طارئة تؤثر على العقل وتقيده بأغلالها، فكان لابد من معالجتها وإصلاحها وإطلاق العقل من ربقتها ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها ترد إلى العقل الإنسانى اعتباره وتوليه تقديره ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التى جعلت من الإنسان كائنا مسيطرا على الحياة وموجها لها ورقيبا على نظمها وأوضاعها[2] .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

احتج إبراهيم- عليه السلام- بباهر قدرة الله تعالى ومظهر وجوده بأن شأن الرب الإله هو الذى يبدع ما لا يقدر أحد على إبداع مثله، ورب إبراهيم الذى هو رب كل شيء هو الذى يبدع الحياة إبداعا بقدرته ومشيئته فيجعل غير الحى مما لا روح فيه حيا ذا حياة وروح . . وهو الذى يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه، فيميته بإعدام الحياة منه، وهذا حظ العقل النير فى فهم الإحياء والإماتة اللتين وصف بهما نبى الله إبراهيم ربه رب العالمين، ولكن العقل المظلم، حبيس الغرائز، عقل الذى كفر بالله وآياته، لم يفهم الإحياء والإماتة كما هى فى واقع الأمر على الصورة التى فهمها العقل النير الملهم، عقل إبراهيم، فقد فهمها فهما ماديا، خاليا من الشمول والإبداع اللذين هما خاصة الألوهية الحقة، فقال فى مناظرته ردا على إبراهيم « أنا أحيى وأميت »، يريد من

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى، القرآن، ص ١٩٣.

(٢) محمد الصادق عرجون : القرآن العظيم، هدايته، وإعجازه فى أقوال المفسرين، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤١.

الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التى يملكها الجبارون الطغاة فى تسلطهم على حياة الناس بسلطان القوة والطغيان.

فلما تبين لإبراهيم بلادة عقل هذا الطاغية الجهول، وجمود ذهنه، وأنه ليس لديه صلاحية إدراك المقولات الخالصة لأنه مغلق الشعور القلبى، مغلف الإدراك الوجدانى، لا يؤمن إلا بما يحسه بمنافذ الحس المادى بعجز تكوينه العقلى عن النفوذ إلى ما وراء الحس المادى، أو لقيام موانع من المؤثرات المادية التى تحجب العقل عن الفهم والإدراك، أو كانت لا تحجبه ولكن تحول بينه وبين الاعتراف بمدركاته، ولما كان واجبا فى شرعة العدل الإلهى أن ينتقل إلى ما لا يلائمه من أنواع الحجة والبرهان، عدل به إبراهيم-عليه السلام- إلى لون آخر من الحجة لا يستوفى معه طرائقها قطعا لعذره .

تلك الحجة التى عدل إليها إبراهيم عليه السلام، هى لون من البرهان، يشترك فى إدراكه العقل والحس، فالعقل يدرك بخصيصته التجريدية المعقول الخالص، ويدرك المحسوس بخصيصته المتعاونة مع الحس، فإدراكه مزدوج شامل، أما بالحس، فإنه يدرك بمنافذه من الحواس ما يقع تحت هذه الحواس[1] .

ومن الصور القصصية التي يمكن أن نمثل بها في هذا المقام ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾** ﴾ [الأعراف] .

إنها قصة عالم من بنى إسرائيل، أتاه الله علم بعض الكتب، فكفر فصار الشيطان له قرينا أضله وأغواه. ولو أنه عمل بما منحه الله من آيات لرفعه إلى منزلة الأبرار من العلماء، ولكنه مال إلى الدنيا، ورغب فيه، وآثرها، فصار كالكلب فى خسته وضعته، لأن الكلب يلهث دائما سواء حمل عليه الناس أم لم يحملوا، على حين أن الحيوانات لا تلهث إلا إذا ثارت وهاجت[2] .

وهذا التمثيل يصدق على اليهود الذين كذبوا بآيات الله بعد أن قرأوا فى التوراة الصحيحة وصف رسول الله ووصف القرآن المعجز، وبعد أن بشروا بمحمد- عليه الصلاة والسلام- وباقتراب بعثته، وكانوا يتشوقون إلى الانتصار به على الذين كفروا .

---

(١) محمد الصادق عرجون، ص ٤٣ .

(٢) أحمد محمد الحوفى، القرآن والتفكير، ص ٧٤.

كذلك ذكر الله تعالى قصة ثمود وتمردهم على نبيهم صالح- عليه السلام- وإهلاكه تعالى لهم، وختمها بقوله : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل].

وذكر قصة قوم لوط وعصيانهم له، وتدميرهم، وعقب عليها بقوله : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

٥- دور المرأة : للمرأة مكانها فى الحياة مع الرجل، ونشاطها الإنسانى فى الحياة مكمل لنشاط الرجل، ولا يختلف عن نشطاته إلا بالقدر الذى يختلف فيه تكوينها العضوى وما ينشأ عن هذا الاختلاف من وجود استعدادات خاصة فى كل منهما تجعله أقدر على القيام ببعض الوظائف من صاحبه، وأكثر استعدادا له منها[1].

فالمرأة والرجل هما الإنسان، كل منهما ذهب بأحد شطريه . . فهما متماثلان، ومتغايران فى وقت معا . . وبهذه النظرة، ينظر القرآن الكريم إلى المرأة فى تشريعاته وأحكامه وفى أوامره وزواجره وفى تعاليمه ووصاياه، وفى حسابه وجزائه، فهو يسوى بينهما حين يكون الحكم متعلقا بشأن إنسانى يقوم على أصل الفطرة المركوزة فى الإنسان، ثم هو يفرق بينهما حين يكون الأمر شأنا خاصا بالرجل، أو أمرا منوطا بالمرأة.

وفى القصص القرآنى نرى أن المرأة نسيج متلاحم من التركيب الطبيعى للحياة الإنسانية وإنها تأخذ مكانها فى القصص القرآنى كإنسان وكأنثى، فتهتدى وتضل وتستقيم وتنحرف، وهى فى جميع أحوالها أنثى تناظر الرجل، وتقاسمه الحياة من غير أن تزاحمه فى وظيفته كرجل، ومن غير أن يزاحمها الرجل فى وظيفتها كأنثى، وبهذا تنتظم حياة الجسد الاجتماعى، الذى يقوم كل عضو فيه بوظيفته التى لا يقوم بها غيره، والذى إن كلف القيام بوظيفة غير وظيفته عجز، ودخل من عجزه هذا الاضطراب والاختلال فى توازن الجسد كله[2] .

والقصص القرآنى لا يستجلب المرأة استجلابا لإثارة العواطف، وتهييج المشاعر، كما هو عند البعض فى القصص الأدبى، الذى تستجلب له المرأة لإثارة الغرائز، وتهييج المشاعر، واسترضاء القراء لهذه القصص، أو المشاهدين له فى عمل مسرحى أو

---

(١) عبد الكريم الخطيب : المرأة ومكانها فى القصص القرآنى، الوعى الإسلامى، الكويت، السنة ١٠، العدد ١١٧، سبتمبر ١٩٧٤، رمضان ١٣٩٤ هـ، ص ٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢.

سينمائى، فالقرآن إذ يذكر المرأة فى قصة من قصصه، فإنما يستدعيها من الواقع الذى كان مشهودا فى يوم من الأيام ثم يحركها وينطقها بما كانت قد تحركت أو نطقت به، فكل امرأة جاء ذكرها فى القصص القرآنى، سواء ذكرت باسمها، كمريم ابنة عمران، أو بصفتها كامرأة نوح، ولوط، وأبى لهب، وكامرأة فرعون - كل امرأة من هؤلاء كان لها مكانها فى الحياة، وكان لها دورها على مسرح هذه الحياة، فهى - والأمر كذلك - حقيقة تاريخية، لاشك فيها ولا افتراء، وصورتها فى القصة القرآنية، هى صورة مصغرة لها، تحمل أبرز ملامحها وأوضح صفاتها، فما ذكر القرآن فى قصصه إلا الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

٦- **الوعى التاريخى**: للوعى التاريخى الأهمية القصوى فى صنع التاريخ، إذ بمقدار عمق هذا الوعى، واتجاه هذا العمق، يأتى العمل التاريخى ممثلا فى أشكاله الحضارية المعبرة عن الروح العامة للحضارة تلك التى يتناولها الفلاسفة والمؤرخون تأويلا فلسفيا واضعين لها - بما شاءت أبصارهم - من العلل والأسباب ما مكنهم من استقراء التاريخ، عساهم يستطيعون إرساء منهج عام يسير عليه ولا يتعداه[2] .

وكان للقرآن منهجه فى تربية الوعى التاريخى عن طريق القصص . إنه يدعو الناس أن ينظروا، أن يتفكروا فى تاريخ المسيرة الحضارية لأية أمة من الأمم كى يدركوا العلة التى أفضت إلى ما حل من وبال، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**

(٩)﴾ [الروم].

ويستحث القرآن الوجدان أو الوعى أو اللب الإنسانى بما يعرضه من قصص الأمم الغابرة أن يستشعر العلل المصيرية التى أدت إلى زوالها، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ... (١١١)﴾ [يوسف] والقرآن بهذا يؤكد الماضى عقليا ووجدانيا تأكيدا يسند الحاضر ويدعمه[3] .

ولا يتم الوعى التاريخى بدون الإيمان بالمستقبل، وقد جعل الإسلام الإيمان بالغيب - والمستقبل وجه من أوجه الإيمان - شرطا من شروط الإيمان بالله- تبارك

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) محمد عبد الواحد حجازى : أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية (٤٣)، ديسمبر، ١٩٧١، ص ١٨٩ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٢ .

وتعالى- وبهذه الروح يرتفع المستقبل فى الإسلام إلى مرتبة اليقين بالماضى والحاضر، بل ربما عد - بمعنى ما - أخطر منها فى تقرير المصير الحضارى للأمة، فعلى ضوء الإيمان، وعلى أساس من رسوخ الثقة بهذا الإيمان يكون العمل والنضال وتكون ماهية العمل والنضال، يقول تعالى فى مستهل سورة البقرة: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** (٢) **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٣) ﴾ [البقرة].

إذن فالإسلام لا ينفى زمانا ويبقى على آخر، ولا يفضل زمانا على آخر، إنما الآنات الثلاثة يفضى كل منها إلى الآخر إفضاء يحتمه التطور الحضارى، وكذلك تنشىء التربية القرآنية الوعى التاريخى فى ضمير الإنسان: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا** (٤٢) **فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا** (٤٣) **إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** (٤٤) **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** (٤٥) ﴾ [النازعات][1].

* * *

التوجيه العملى

فإذا كانت التربية تهدف بالدرجة الأولى إلى إحداث تغيرات مرغوب فيها فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة، فإن ذلك لا يمكن أن يتأتى بالغرق فى المسائل الميتافيزيقية والنظريات المجردة . صحيح أن التربية فى حاجة دائما إلى النظرية ترسم لها مسارها، ولكنها النظرية المنبثقة من واقع معين، الموجهة إلى حل مشكلات الناس . فإذا ما استقرأنا عديدا من آيات القرآن نجد أنها تستعرض عددا من المشكلات الميتافيزيقية التى كان البعض يلح على النبى طلبا لإجابة وافية عنها . فما كان منه سبحانه وتعالى، إلا أن بين عدم جدوى البحث فى هذه المشكلات، وأن الأولى بالتفكير هو مشكلات العمل والواقع، من ذلك ما روى أن رسول الله ﷺ سئل عن الساعة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا** (٤٢) ﴾ فنفى الله علمه بها: ﴿ **فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا** (٤٣) **إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** ﴾، ونبه إلى النافع من أمرها وهو وجوب الاستعداد لها : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** ﴾[النازعات].

وسئل عن الروح، فأمره الله أن يبين للناس، أنها مما اختص الله نفسه بعلمه، ولا يتوقف أمر التكليف على معرفته، قال تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾ [الإسراء]، وهذا القليل، هو ما يكفى لإصلاح المعاش والمعاد .

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

وفى القرآن الكريم توجيه للمسلمين إلى ألا يشقوا على أنفسهم بما لا يطيقون من قيام الليل تعبدا وتهجدا وتلاوة، ونقدر أن فيهم مرضى وساعين فى الرزق ومجاهدين فى سبيل الله [1]. يقول عز وجل: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٠) ﴾ [المزمل].

والتوجيه الإسلامى للجانب العملى التطبيقى إنما يرتكز إلى سنة نفسية أودعها الله فى مخلوقه .. الإنسان، فهو يتعلم بالعمل، بل إن التعليم بهذا الطريق هو أدعى لاستيعاب موضوع التعلم، وأدعى إلى طول الاحتفاظ به، وأيسر فى الاستدعاء والاستظهار، فضلا عن أنه « يلحم » بين النظرية والتطبيق نظرا لما هو معروف بأن الفكرة المجردة قد يجمح بها الخيال بعيدا فى أجواء الأحلام والأمانى المفارقة لإمكانات الواقع، كما أن مجرد الحركة العملية التى لا تستهدى بالفكر لا نأمن انحرافها إلى غير المطلوب وسقوطها فى جب العبثية والعشوائية وإنفاق الوقت والجهد بلا طائل .

والمستقرئ لحياة الإنسان العملية يستطيع أن يلمس بكل وضوح كيف يتعلم الإنسان عن طريق التجربة العملية فى مواجهة مشكلات الحياة المختلفة، ومحاولة حلها والتغلب عليها، ويقابل الإنسان دائما فى حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها، أو كيف يتصرف فيها، ويتوافق الإنسان دائما لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة، فيخطئ فى بعضها، وقد يصيب أحيانا، وهكذا يتعلم الإنسان دائما عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون المحاولة والخطأ استجابات جديدة للمواقف « الجديدة» وحلولا لما يقابله من مشكلات فى حياته العملية[2] .

وعندما يحدثنا القرآن عن الأخلاق الفاضلة وآثارها فى الحياة أو الأخلاق السيئة وما تحدثه فى المجتمعات من آثار فإنه يعمد إلى تجسيد هذه الأخلاق فى شخص، أو تحريكها فى قصة، فهو لا يحدثنا عن الصدق حديثا تقريريا خطابيا يعرفنا فيه ما هو

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ١٠١.

(٢) محمد عثمان نجاتى : القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٥١.

الصدق ؟ وما آثاره ؟ كلا، لأن ذلك لا يُحدث الأثر المطلوب فى نفس السامع، كما أنه مملّ مرهق، وأيضا فلأن هذا التجريد الذهنى للفضائل لا يفهمه إلا القلة القليلة[1].

وإنما يعمد القرآن إلى منهج واقعى فى عرض أخلاقياته مقترنة بآثارها العملية فى الحياة عندما يريد مثلا أن يحذرنا من الدخول على الناس فى منازلهم فى غير أوقات الزيارة - وبدون استئذان - وبدون رعاية لحرماتهم وأقدارهم الاجتماعية، يذكر لنا قصة واقعية حدثت بالفعل، وتحرك أشخاصها، وتحركت معهم أخلاقهم الجافية الغليظة فأحدثت آثارها السيئة، وهو لا يسمى الأشخاص بأسمائهم فى تلك المجالات النقدية رعاية لجانب التربية الإلهية التى لا تميل إلى التشهير بالناس بقدر ما تميل إلى علاج الأمراض النفسية والعلل الاجتماعية، نجد ذلك ماثلا فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ ﴾ [الحجرات].

فالآية تعالج مشكلة أخلاقية هى الجفوة وعدم مراعاة الظروف والأوقات والأشخاص، إنها لم تعرض المشكلة عرضا تجريديا، وإنما صاغتها فى قصة تبين الغفلة الجافية، وأن أصحابها لم يحسنوا الأدب، ولم يتخيروا الوقت، ولم يرعوا كرامة الرسول، لهذا صدر الحكم « أكثرهم لا يعقلون » .

ومن الناس - إذا كانوا قد تعودوا النفاق - من يتحدثون كثيرا ولا يفعلون إلا القليل، ومن كثرة ما يقولون يخدعون غيرهم. ومن قلة ما يفعلون يحرجون هؤلاء أشد الحرج، وهم ليسوا مكلفين من أحد ولا من أنفسهم أن يتحدثوا عما لا يستطيعون أن يأتوا به. والعاقل يدرك أن الأولى به، إذا كان لا يستطيع أن يفعل أو يشك فى أن يفعل، ألا يذكر شيئا وألا يشير من قريب أو من بعيد إلى ما لا يستطيعه[2].

والقرآن لكى يوضح أن القول الكثير، والعمل القليل، أو أن الوعد بأمر، ثم التخلى عنه، له ضرر على المتحدث نفسه، وضرر آخر على من يوجه الحديث إليهم، ومن ثم فهو ممقوت عند الله، جاء قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ③ ﴾ [الصف] .

وخطورة هذا الميل إلى التوسع فى الحديث والقول دون فعل على المجتمع، وخصوصا فى وقت الأزمات : أن الناس يترقبون من لحظة إلى أخرى الوفاء بما قيل

---

(١) توفيق محمد سبع : واقعية المنهج القرآنى، ص ٣٨٥ .

(٢) محمد البهى : القرآن . . والمجتمع، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٨.

لهم، بعد أن تطلعوا إليه وعلقوا عليه الأمل فى حل مشكلة أو مشكلات لهم، ثم تمضى اللحظات وتتبخر الأقوال قولا بعد آخر دون أن يكون لهم مدلول فى حياتهم[1].

ومن حكمة السياسة أو القيادة فى التوجيه: إبعاد جانب المبالغة فى الوصف أو فى القول أو فى الوعد، والتزام الحيطة فى الأحاديث عن الشئون الجادة التى تتصل بحياة الناس ومستقبلهم .

أما خطورة هذه الظاهرة على الذات، فإن الخلف فى الوعد، وعدم الإنجاز لما قيل وتردد فى الحديث يعود بأثر سلبى ينسب إليها، وهو الوصف بالكذب، وبالنفاق أيضا[2].

وعندما ركز القرآن على أهمية « القدوة الحسنة » فلأنها نموذج « تطبيقى » لما يدعو إليه. إنه يعلم بهذا أن توجيهاته ليست مفارقة لعالم الواقع، وإنما هى تتسم «بالإمكان العملى » والدليل واضح . . هو أنها مجسدة فى هذا السلوك أو ذاك من صفوة خلق الله وعلى رأسهم رسول الله محمد ﷺ، وهو ما عبر القرآن بقوله: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب].

ففى هذا النص إرشاد عظيم من الله- تبارك وتعالى- للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله ﷺ قدوة حسنة لهم، يقتدون به، فى أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه فى الحياة، فهو خير قدوة يقتدى بها الأفراد العابدون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنسانى فى السلوك[3].

وجعل الله الذين آمنوا معه وصدقوا وأخلصوا واستقاموا أمثلة رائعة يقتدى بها فى معظم الفضائل الفردية والاجتماعية .

ولئن انتقل الرسول- صلوات الله عليه- إلى جوار ربه، فإن سيرته التى تحتوى على جزئيات سلوكه ماثلة لنا، وفيما بلغنا من تراجم أصحابه -رضوان الله عليهم- ما يكفى لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم .

---

(١) محمد البهى : القرآن والمجتمع، ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية، ص ٢٠٤.

ثم إن كل عصر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجـود طائفة من أمة محمد ﷺ تصلح لأن تكون قدوة حسنة، قَلَّت هذه الطائفة أو كثرت[1].

وسر تأثـير القدوة الحسنة فى اكتساب الفضائل، يرجع فى جـانب منه إلى أن القدوة الحسنة تحتل فى المجتمعات الإنسانية مرتبة من المجد لا يحظى بها غيرها، وهذه المرتبة محفـوفة بالتقدير الكبير بين الناس، ومحفـوفة بالثناء والإطراء والإعجاب، وكل هذا يولد فى الفرد المحـروم من أسباب هذا المجـد حوافز قـوية تحفزه إلى تقليـد القدوة الحسنة، ومـحاكاتها فى أخـلاقها وسلوكهـا، وعن طريق التقليد فى الفضـائل تكتسب الفضـائل، لأن الممارسة التـقليدية تتـحول إلى عادة مـتمكنة، وهذه تتـحول إلى خلق مكتسب[2] .

وإذا كان العلم قيـمة عليا فى مجتـمع القرآن، سواء منه ما يرتبط بالعـقيدة، أو يتعلق بالـتخطيط وشئـون الحياة، فـإن العمل، هو التـرجمة الحـية والتجـسيـد العملى لنظريات العلم، ذلك أن العـقيدة على المستوى النظرى تحتاج إلى العمل لـيعبـر عنها ويبرزها من نية فى الضمـير إلى عمل فى الحياة على شكل عبادة قـانتة من صيام وحج وجهاد وصلاة، ولهـذا فإن العمل هو الجانب التطبيقى للعـقيدة، وتظل العقيدة حـبيسة القلب حتى يترجم عنها العمل ويصبها فى قالب محسوس من جهاد أو صلاة[3] .

وهكذا نظريات العلم المتعلقـة بالحياة، إنها الأخرى لا يمكن أن تثمـر فى المجتمع وتنشئ الحضارة إلا إذا ترجـمها العمل إلى وجود ماثل. فـالعلم فى الإسلام ليس علما نظريا، بل علم يترجم إلى عمل.

وللعمل فى القرآن مكانة مرمـوقة، وإنه لعمل يتسع للحياة ويستـجيب لمطالبها - ويتجدد بها ومعها - عمل يشمل شـئون الخدمات الإنسانية كلها ووسائل الإنتاج وتطور أدواتها، وهو فى الوقت نفسه ينظم طاقة الأمة ويوجهها نحو الهدف الكبير، وهو يشمل الإعداد لملاقاة العدو وتطوير القوة وتصاعـدها لتردع أعداء الله، وبهذا كله يكون العمل فى خدمة الحياة وصناعة الحضارة .

والإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهنى أو تـصديقا قلبيا غير مـتبوع بأثر عملى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٣) توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الـكريم، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، يوليه ١٩٧٢، جـ٢، ص ٢١٤.

فى الحياة . . كلا، إنه اعتقاد وعمل وإخلاص . وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقرونا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته، ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل «الصالحات »، وهى كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا .

إن المؤمن يؤمن أن السعادة فى الآخرة والنجاح فى الأولى متوقف على العمل. الجنة فى الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والعمل والإتقان: ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف] ، ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة].

وسنة الله - التى أخبرنا القرآن أنها لا تتبدل ولا تتحول - لا تسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد، أو يحقق ما يأمل، بل إن سنن الله فى الدنيا، لا تفرق فى الجزاء على العمل بين مؤمن وكافر . . فمن عمل أجر، ومن قعد حرم، مهما كان دينه أو اعتقاده[(١)] .

إن القرآن الكريم إذا كان قد ركز إصلاحه على إصلاح القلب الإنسانى فإنه لم يهمل الإصلاح العملى، حتى لا يترك الناس على غير هدى، وهو فى ذلك لا يتورط فى جزئيات هذه الإصلاحات، وهو حين يتناول هذه المعانى يتناولها بكل دقة وبكل حكمة، ويمسها مسا كليا، يجعل تطبيقها نافعا، وينتج الخير فى كل مكان وزمان، وبما أن الناحية الاقتصادية ناحية من النواحى التى تتغير لدى الناس بتغير الظروف، فقد جاء القرآن الكريم يمسها مسا كليا ويضع القواعد التى تكفل للناس أن ينتفعوا بخيراتها ويبتعدوا عن مساوئها[(٢)] .

ولقد نظر القرآن الكريم للثروة كعرض من أعراض الحياة ووسيلة من وسائل تيسير الحياة على الناس، فهو لم يذم المال كما ذمته بعض الوضعيات الأخرى التى تضعه فى مرتبة المنكرات أو المحرمات، ولم يمدحه المدح الذى يضعه فى مرتبة المحمودات، فهو وسيلة إن استخدمت فى الخير فهى خير، وإن استخدمت فى الشر فهى شر .

وإذا كان الإسلام قد أعطى العمل هذه القيمة العليا، فقد حرص فى الوقت نفسه أن يمنع إرهاق العامل وتحميله أكثر مما يطيق، بمعنى أن يكون العمل متفقا مع طاقات

---

(١) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٦٩، ص ٣٠٢ وما بعدها.

(٢) حسن البنا : نظرات فى كتاب الله، القاهرة، مكتبة الاعتصام، ١٩٧٨، ص ٤٨.

الفرد الجسمانية والذهنية، ومع حالته النفسية، فما يقدر عليه شاب قوى مفتول العضلات، يعجز عنه الحدث الصغير أو العجوز الذى تقدمت به السن، وثمة أعمال يقوم بها الرجل وقد تعجز عنها المرأة، أو لا ينبغى تكليفها بها، ومن قبيل ذلك استخراج المعادن وحمل الأثقال مثلا، كذلك تتفاوت قدرات الناس من ناحية الذكاء[1].

ففى الآية: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ... ﴿٢٧﴾﴾ [القصص]. هنا يعتبر شعيب تزويج إحدى ابنتيه من موسى، يغطى قيمة العمل الذى سوف يلتزم به الأخير على امتداد ثمانى حجج، أى أنه - بلغة الاقتصاد الحديث - يدفع له قيمة عمله كاملة خلال المدة التى يتم الاتفاق عليها، فإذا شاء موسى أن يطيل الأجل، فهذا يكون تفضلا منه وحسب، ولكن شعيب لا يطالبه بهذا المزيد من وقت العمل الذى يؤدى فى هذه الحالة بالمجان، ومن ثم ينطبق عليه اصطلاح « فائض العمل » إذ أنه لو طلب هذا لكان قد استغل ما يملك موسى من قوة العمل، ومن هذا نستخلص أن العدل يقضى دفع القيمة كاملة عن وقت العمل[2].

وجاء فى قوله عز وجل أيضا : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف]، وهذا المعنى يتناول حدين : الأول : هو أن ما يكلفه الله للناس هو ما يعرف أنه فى نطاق قدرتهم، كما سبق أن أشرنا، والثانى : أن الله لا يطلب من الناس أن يتجشموا ما لا طاقة لهم به فى سبيل القيام بما يكلفون به، و « الوسع» يتناول عدم التعارض مع القابليات والإمكانيات الجسدية والنفسية والمالية وعدم التعرض للأخطار والأضرار .

ونعلم أن الله- سبحانه وتعالى- يترفق بأصناف من الناس ليعفيهم فى حالات معينة من بعض الفروض لأسباب معينة أو ظروف خاصة، كما فى حالات المرض أو الإصابات التى تعجز المرء عن العمل أو العاهات الدائمة .

كذلك يحرص القرآن على أهمية توافر صفات معينة فى العامل، مثل القدرة على أداء العمل والأمانة فى هذا الأداء، وهذه الصفات نجدها فى قوله عز وجل :﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]،

---

(١) راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص ٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٩ .

وعندما يحث الله- سبحانه وتعالى- على أداء الأمانات إلى أهلها، وعلى الوفاء بالعهود والعقود، فإننا ندرج هنا اتفاق العامل على أداء عمل معين وعلى أفضل وجه، إذ العمل فى هذه الحالة أمانة فى عنق القائم به(١).

ولقد أشارت آيات قرآنية متعددة إلى عدد من « الصناعات » الشائعة بين العرب بشىء من التقدير، فهى مهنة بعض الأنبياء، وهى صور من نعم الله- عز وجل- التى سخرها للإنسان :

ففى صناعة المعادن والتعدين يقول سبحانه: ﴿ ...وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ... ﴿١٢﴾ ﴾ [سبأ] و﴿ ... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

وفي صناعة الجلود يقول: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل].

وعن صناعة الملابس ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا... ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف].

و﴿ ...وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ... ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل].

وعن صناعة المفروشات : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ... ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وصناعة المساكن والبناء : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء]. و ﴿ ... تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وفى صناعة السفن يقول : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال عن بعض الصناعات الحربية ومعدات الصيد : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل].

وفى صناعة بعض الآلات الحربية قال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

---

(١) التفسير القرآنى للتاريخ، ص ٤٠.

وإن عالم الزراعة يغطى بعطائه الزاخر السخى حاجات بنى آدم المادية ومطامحهم الروحيـة على السواء، والقرآن يشير إلى هذا وذاك، فهـو يعرض فى أكثـر من موضع لأهمية النبات القصوى والماء كمادة للحياة الـبشرية : طعاما وتدفئة ولباسا، ويدعو بنى آدم إلى الإفادة من هذه المنحة الإلهية لإشباع ضروراتهم[1] :

- ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ... (١٤١) ﴾ [الأنعام].

ولكنه- سبحانه وتعالى- لا يقف عند هذا الجانب وحده، بل يتجاوزه إلى الوجه الجمالى لعالـم الزراعة، وهل أقدر من هذا العالم على منح الحياة وجههـا الجميـل ؟ وهل أقـدر منه على وضع « الديكور » الباهر على واجهة العالم وتلوينه وتزيينه ؟

- ﴿ ... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ... (٦٠) ﴾ [النمل].

- ﴿ ...وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) ﴾ [ق].

ولقد يغرق بعض الناس فـى الخيال، فيتصـورون المؤمن درويشـا فى « تكية » أو راهبـا فى « ديره » متبتلا للعبادة منقـطعا عن الحياة، وهذه كارثة على العمل والإنتاج، لكن هذه الصورة لا يعرفها التصور القـرآنى، فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحا عاملا مؤديا دوره فى الحـياة آخذا منهـا معطيا لهـا، مستـجيبـا لما أراده الله من بنى آدم حين جعلهـم خلفاء الأرض ﴿ ...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... (٦١) ﴾ [هود].

وقد فهم البـعض خطأ أن « التوكل » على الله يعنى القعـود عن العمل، وليس هناك أبعد عن روح القرآن من هذا الفـهم الخاطئ، إن الله إذ يقول : ﴿ ...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... (٣) ﴾ [الطلاق]، يعنى أن التوكل على الله، وهو الاعـتماد على الله، ليس بكلمة ينطق بها من يطلب معونة الله، وإنما باتباع الطريق المستقيم الذى خطتـه رسالة الوحى، وهى مـا فى القرآن الكريم من وصـايا ومبـادئ وأوامر ونواه .

---

(١) سعيد إسماعيل على : النبات والفلاحة والرى عند العرب، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص ١١٤.

التوكل على الله والاعتماد عليه يبتدئ من الأخذ في السبل بعد الأخذ في تنفيذ مشورة القرآن ونصحه، يقول الله لرسوله الكريم: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل]، ويطلب منه التوكل وهو بالفعل قد سلك طريق الحق وهو طريق القرآن، وعندئذ أى عندما يأخذ الإنسان فى تنفيذ نصح القرآن، يكون الله فى عونه، وهذا هو معنى قوله تعالى : «فهو حسبه» أى كافيه العون والتأييد، فعون الله وتأييده للإنسان مقرون بالأخذ فى تنفيذ مشورته ونصحه، وهو ما جاء به قرآنه الكريم .

وهذا ما تعطيه هذه الآية القرآنية وآيات أخرى مثلها، جاء فيها طلبه التوكل، وهذا ما فهمه المسلمون الأول؛ ولذا كانوا غير متقاعدين عن السعى والعمل. كانوا غير متراخين .

كانوا غير سلبيين فى الحياة [1]، إن التوكل ثقة فى الله واستناد إليه وأمل يصحب العمل، ونزعة لا ينطفئ وجهها مهما ترادفت المتاعب، ومنابع التوكل أهمها بطبيعة الحال[2] . طبيعة التوحيد الذى رفع الإسلام شعاره، وأعلى مناره، فالله - فى تعريفات الكتاب والسنة - له الأسماء الحسنى والصفات العلى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر].

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر].

إذا لم نعتمد على صاحب هذا الملكوت الرحيم فعلى من نعتمد ؟؟ . ومواضع التوكل كما ذكرها القرآن الكريم وسجلها التاريخ تؤكد أنه قرين جهاد صعب، فما أكثر شرور البشر، وأقسى أحقادهم، وأضرارهم على المخلصين والناصحين[3] .

عندما طلب أهل مدين من المؤمنين أن يرحلوا عن البلد أو يرتدوا عن الحق، كان الجواب: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف].

وأنصار الحق يتحملون فى سبيل البقاء عليه وتوسيع دائرته عنتا كبيرا، بيد أن لذة

---

(١) محمد البهى : الإسلام فى حياة المسلم، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢٥.

(٢) محمد الغزالى، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص ٢٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٦.

الإيمان وإعظام حقيقته والاعتزاز بشرفه يجعلهم مصابرين ثابتين : ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم].

وإذا كان الهدف التافه يكلف أصحابه الجهد والعناء حتى يظفروا به، فكيف بالهدف الجليل؟.

لما ضاق الخناق على الرسول العظيم وتواثب حوله الطغاة واشتد التدافع والعناد، نزل عليه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود].

والتوكل على الله لا يتعارض مع الإيمان بالصلة بين الأسباب والمسببات التى أبدع الله العالم وجعلها ضمن قوانينه وسننه، وإنما التوكل إيمان عميق بهذه الصلة، فالأمور التى يجب على المؤمن أن يكون له فيها تصرف لا يتحقق التوكل بالنسبة إليها إلا إذا قام الإنسان بما يجب عليه أولا، ثم يدع النتيجة لله- سبحانه وتعالى- ويفوض الأمر إليه[1]. ومما يوضح ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله- صلوات الله وسلامه عليهم- إذ لا سبيل إلى الشك فى أن كلا منهم قد قام بواجب التبليغ على خير وجه، وكلا منهم توكل على ربه مع أداء واجبه، نقرأ فى سبيل المثال فى قصة نوح عليه السلام قول الله- تبارك وتعالى- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس].

فالتوكل مسبوق بالعزم والتصميم، ولا يكون ذلك إلا بعد تقليب الأمر على وجوهه ومحاولة الوصول إلى أفضل الطرق لحل المشكلة التى تواجه الإنسان[2] . ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾، ثم يصف هؤلاء العاملين فيقول: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت].

وإن المتأمل فى التصور القرآنى لا يجده يحث المسلمين على تخصيص «يوم» للعبادة، وإنما الأيام كلها أيام عمل، لا ينقطع فيها إلا دقائق معدودة يقف فيها بين يدى

---

(١) أحمد إبراهيم مهنا : مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم جـ١ ، ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق، جـ١ ، ص ٦٩ .

الله يستمد فيها العون والمدد على الاستعانة والطاقة على العمل والحماس للإتقان والصبر على المشكلات والصعاب. ولعل أروع مثال يبين لنا ذلك أن يوم الجمعة لا نؤمر فيه بمواصلة التعبد والانقطاع له بعد قضاء الصلاة في الجماعة بالمسجد، بل ننتشر فى الأرض ساعين عاملين نبتغى من فضل الله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)**﴾ [الجمعة].

إنها عقيدة العمل والإنتاج، كما أنها عقيدة التعبد والتبتل .

وإنما سن الاعتكاف فى المسجد فى العشر الأواخر من شهر رمضان الذى هو بطبيعته موسم تدريب ورياضة ومجاهدة تبدو فيه حاجة المعتكف إلى صفاء التأمل ومراجعة النفس، والتزود من عطاء الشهر المبارك، قبل وداعه إلى دورة تالية للسنة القمرية[1] .

وفى الشرع يسمى الاعتكاف جوارا، مرادا به جوار المسجد، وكان المصطفى- عليه الصلاة والسلام- إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان يدخل معتكفه فى المسجد بعد أن يحيى الليل ويصلى بالمسلمين الفجر .

عشر ليال فحسب، من السنة كلها، يخفف فيه المؤمن من أثقال المادة وشواغل الدنيا، يخرج من معتكفه مرهف الحس والضمير، صافى الروح والوجدان، ليحمل تكاليف الجهاد والسعى .

ولتقدير فريضة الجهاد، فيما تأخذ به أبناء الأمة من يقظة وسعى وتعبئة واحتشاد وبذل، مما يكون مع العزلة في خلوة التعبد، والانقطاع له: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)**﴾ [المائدة].

ولا يتخلف مؤمن عن الجهاد لينقطع للعبادة، وهو يعلم من أصول دينه أن شعائر العبادات المفروضة، فضلا عما يقام منها تطوعا، لا تعطل الجهاد، بل يحل للمؤمنين المجاهدين أن يقصروا من صلاتهم إذا خافوا أخذة العدو على غفلة[2] .

وعامة المسلمين لا يجهلون أن الجهاد عبادة، لكننا نحتاج إلى إدراك مفهوم الجهاد ومجاله، الجهاد فى سبيل الله، ليس على الفهم الشائع استبسالا فى قتال العدو

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية، ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٥ وانظر سورة النساء : ١٠١-١٠٢ .

فحسب، بل يتسع مفهومه لكل جهاد، فى أى مجال، فى سبيل الحق والعدل والخير[١].

ونحن نتساءل مع شيخنا الغزالى :

هل السعى لجعل الأمة ترقى فى ميدان الصناعات المدنية والعسكرية يتم على حساب الصفاء الروحى وانتعاش عواطف الحب الإلهى؟[٢].

إن الذين يفهمون الروحانية على أنها لون من الخدر النفسى، والغيبوبة الفكرية، أناس لا يعرفون الإسلام، بل هم أعداء له .

أولى منهم بالله وكتابه ناس يغبر أيديهم وجباههم تراب الحقول أو دخان المصانع أو الركض فى الأسواق، ثم هم من قبل ومن بعد يحبون ربهم حبا جما، يجعلون حراكهم الدائم إعلاء لكلمته، وسياجا لشريعته، وذخيرة يلقونه بها يوم الحساب .

كل روحانية مزعومة، تثنى زمام الجماهير عن هذه الغاية، لا يمكن إقرارها، بل وجب مطاردتها فى ساحات العلم والتربية .

ويحكى الغزالى أنه فى يوم كان يسمع إحدى الإذاعات، فرأى نفسه فى مصر يتلقى إعانات لإنشاء محطات « الصرف الصحى » من ألمانيا الغربية، ورأى إخواننا فى اليمن يتلقون إعانات من الصين لتعبيد عشرات الأميال من الطرق، وكان قبل ذلك يعرف أن مادة الرغيف الذى نأكله مستورد من الخارج وكذلك السيارة التى يركبها، ومن هنا تساءل شيخنا مرة أخرى : أين نحن من دنيا الناس ؟ أصحيح أن هناك روحانية تغرينا بهذا العجز ؟ الحق يقال أن هذه الروحانية ضرب من الشلل فى المواهب والتشويه للخصائص البشرية .

إن الحضارة الحديثة عرفت الكون، وجهلت ربه أو جحدته ! فهل نحسن التصدى عندما نجهل الكون وننسى ربه ونتجاوز هداه ؟

لماذا لا نعرف الكون مثلما يعرفون أو أفضل، ثم ينظر القوم إلينا فلا يجرؤ أحد على انتقاصنا، أو الاستعانة بنا، فإذا حدثناهم عن الله أعطونا آذانهم مقدرين متأملين، وإذا نضبط غرائزنا، ونحكم هوانا، ونذكر ربنا بالغدو والآصال لم يقل أحدهم : هذه غيبيات العالم الثالث التى أزرت وعرقلت سيره[٣] .

---

(١) الشخصية الإسلامية، ص ١٠٧.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٣.

العبادات

البعد التربوى للعبادات

يوقفنا استقراء آيات القرآن الكريم على ملامح عامة لشخصية المسلم كما يجب أن تكون وذلك من خلال مجموعة من الصفات. وهذه الصفات كثيرة من غير شك، وتشمل كل ما يلزم لصلاح العبد كفرد، وما يلزم لصلاحه كعضو فى جماعة، كما تشمل كل ما يلزم لإصلاح حال الجماعة المؤمنة فى صلاتها الداخلية والخارجية. وليس هذا بغريب، فالقرآن حين يتحدث إلى الجماعة المؤمنة يناديها بعنوان إيمانها: «يا أيها الذين آمنوا»، هذا هو العنوان الذى يميزها عن عداها من الجماعات التى يربطها ببنى الإنسان سبب والذى يفرض عليها من الواجبات، ما يحقق خلافتها فى الأرض[1].

والمتتبع لأسلوب القرآن فى هذا المجال يمكن أن يقول، إن صفات الشخصية المطلوبة، وإن ذكرت فى آيات كثيرة وفى سور متفرقة قد جمعت فى مواضع معدودة بحيث يمكننا أن نعتبرها الأساس فى حصر هذه الصفات، إذ كل ما جاء فى الآيات الأخرى يندرج تحت واحدة منها أو يمثل نوعا من أنواع تطبيقها. هذه المواضع نجدها فى قول الله تعالى[2] : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال].

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]..

- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) أحمد إبراهيم مهنا : مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم، ص ٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨.

الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات].

جملة هذه الصفات أعد الله لها « صيغة تدريبية » من شأنها أن تربى المؤمنين وتنشئهم فى الاتجاه الذى يوصل المسلم إلى القرب من الله، هذه الصيغة التدريبية التربوية هى العبادات .

والحق أن الدين يعرف بعباداته بين أناس كثيرين لا يعرفونه بعقائده، وربما استدلوا على العقائد بالعبادات، لأن العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا فى حيز التنفيذ أو التطبيق. ولكنها، على هذا، من فروع العقائد التى يقل فيها الخلاف وتضيق حولها مواضع الجدل فى الخصومات المذهبية[١] .

والغرض من عبادات الأديان ينطوى على أغراض متشعبة يضيق بها الحصر لأنها تقابل أغراض الدنيا بأغراض الدين، ولكننا قد نجمعها جهد المستطاع فى تنبيه المتدين على الدوام إلى حقيقتين لا ينساهما الإنسان فى حياته الخاصة أو العامة إلا هبط به النسيان إلى مستوى البهيمية واستغرق فى هموم مبتذلة لا فرق بينها وبين هموم الحيوان الأعجم .

وإحدى الحقيقتين التى يراد للعبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن يشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية[٢] .

والحقيقة الأخرى التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هى الوجود الخالد الباقى إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى إذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية ووراء معيشة قومه، بل معيشة أبناء نوعه. وعبثا يترقى الإنسان من مرتبة البهيمية إلى مرتبة تعلوها إن جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لا يذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله، فإن الترقى فى كل صورة من صوره يفضى إلى غاية واحدة هى خلاص الإنسان من ربقة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفردية .

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١١ .

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين .

والعبادة هى المظهر الإيجابى للعقيدة، والتجسيد العملى لها، ولو أن العقيدة لم تثمر العبادة، لكانت عقيدة عقيما لا دليل عليها ولا أثر لها، كحبة مستقرة فى باطن التربة، لا تنبت ولا تزهر ولا تثمر .. ما قيمتها ؟ وما آثارها ؟ كذلك العقيدة من غير عبادة ! تظل مجرد نظرية حتى تترجمها العبادة وتحولها إلى عمل نابض وجهاد صادق فى الحياة، ثم تستمد منها غذاءها وضياءها، فلا تذبل ولا تذوى أو تضمحل، وإنما تظل بفضل العقيدة متقدة الشعلة[1].

والعبادة هى المظهر للعبودية الحقة لله، تتمثل فى أدائها طاعته وتقديسه واحترام أوامره، وتذوب فيها روح المؤمن الصادق وتفنى ذاته فيحس بحلاوة المناجاة وجمال الوصال مع ربه الذى خلقه فسواه وألهمه فجوره وتقواه[2] .

والعبادات توحد بين المسلمين وحدة عمل تتمثل فى نمط العبادات التى يمارسونها جميعا بأسلوب واحد، ووحدة وجهة وهدف، حيث يتجهون فى صلاتهم إلى قبلة واحدة وفى حجهم إلى قبلة واحدة، وفى جميع أعمالهم إلى رب واحد، ووحدة ضمير وشعور وإحساس، فمشاعر المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها واحدة قد صنعها قرآن واحد وسيطر عليها رب واحد، وحركها من الأعماق إحساس واحد[3] .

وكأنما لتنوع العبادات سر خفى آخر، فكل عبادة منها تبنى جانبا من جوانب الشخصية الإنسانية، المادية منها والمعنوية، وذلك كما تتنوع « الفيتامينات » لتبنى أركانا متنوعة فى جسم الإنسان، **فالصلاة** تبنى جانب الحركة والنشاط، **والزكاة** تبنى عواطف الحب والإيثار، **والصوم** يبنى ضمير الإنسان ويغذى روحه وأشواقه، **والحج** يبنى النزعة الفطرية للاجتماع، ويعبر عن دوافع الأسفار والرحلات. وليس معنى هذا أن العبادات تقتصر على بناء هذه الأركان .. كلا، فما يعلم تأويلها إلا الله .. إنها هى قبل كل شىء مظهر عبودية لله، ثم تجىء الأهداف الأخرى معبرة عن جوانب حيوية فى وجود الإنسان [4].

---

(١) توفيق محمد سبع : هكذا نصوم، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، ١ أكتوبر ١٩٧١، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨ .

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢ .

والعبادات إنما هى روافد متعددة لكنها تصب فى مصب واحد تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]. فثمرة العبادات السليمة المقبولة هى أن تصير بالعابد إلى التقوى .. والتى هى « القيمة الأم » التى تتولد منها كل القيم الأخلاقية، ذلك أن طريق العبادة يقود إلى تقوى الله ومراقبته ومخافته ومهابته فى السر والعلن، وكلما كانت العبادة متقنة خاشعة قادت إلى التقوى، فالعابد الحق يراقب ربه فى كل عمل، ويخافه فى كل تصرف، ويعمل حسابه فى كل حركة.. إنه يحس برقابته عليه سواء وهو فى بيته، أو فى المجتمع، وبذلك يتكون ضميره الذى يعصمه من كل انحراف ويحرسه من الفساد(١).

وإذا كان قد اصطلح على تسمية الشعائر الإسلامية بالعبادات، إلا أن هذا الاصطلاح خاطئ ومرفوض، فالعبادة فى الإسلام ليست الشعيرة فقط . ويمكن القول بأن الشعائر كلها هى الحد الأدنى للتعبد الإسلامى، فالإسلام لا يقسم الحياة إلى دين ودنيا، بل يجمعهما معا فى إطار واحد، هو الإسلام، فحراثة الأرض والإنتاج فى المصنع أو المكتب عبادة، والحمل وتربية النسل وعناية البيت عبادة، والجهاد المسلح والترفيه الصحيح عن النفس المرهقة عبادة، والتفقه فى الدين والكيمياء عبادة (٢) .

والعبادات جميعها تفترض « الطهارة » والتى هى « تربية صحية »، وقد شرعها الله فقال : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر]. وقال : ﴿...وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... ﴿٦﴾﴾ [المائدة] . وأيضا : ﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]. وكذلك : ﴿... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

والطهارة التى يطالب الإسلام بها المسلمين طهارتان(٣) :

أ- طهارة معنوية باطنية، وهى الأصل والأساس، ومعناها : تطهير النفس، وتنقية الروح، وتنوير الضمير، والتخلص من الذنوب، والتبرؤ من المعاصى، ويكون ذلك بالتوبة الصادقة النصوح، والعمل الطيب، وامتثال أوامر الله- سبحانه وتعالى- بالحب والصدق، والخير والتقوى، وإرادة وجهه الكريم .

---

(١) توفيق محمد سبع : هكذا نصوم، ص ٤٧

(٢) إسماعيل راجى الفاروقى : أبعاد العبادات فى الإسلام، مجلة المسلم المعاصر، العدد العاشر، ١٩٧٧، ص٢٥.

(٣) عبد الله أبو السعود : فقه العبادات، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢، ١٠.

ب- طهارة حسية ظاهرة، ولها طقوس وشعائر معلومة، ومنها [1]:

١- طهارة الخبث، ودافع الخبث يكون بإزالة النجاسة .

٢- وطهارة الحدث : والحدث نوعان : حدث أصغر، وهو ما يخرج من الإنسان من بول أو براز أو دم أو غازات، وما إلى ذلك، وحدث أكبر وهو الجنابة ، ورفع الحدث الأصغر يكون بالوضوء، ورفع الحدث الأكبر بالاستحمام .

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نشير إلى الدور التربوى للعبادات الأربعة الرئيسية فى الإسلام وهى: الصلاة والصيام والزكاة والحج .

الدور التربوى لعبادة الصلاة :

عرض القرآن الكريم للصلاة من جهات متعددة[2] : عرض لها فى مفتتح أطول السور وأولها - بعد الفاتحة - على أنها من أوصاف المتقين الذين ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، والذين كانوا بتلك الأوصاف على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين، ﴿**الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)**﴾ [البقرة].

وبهذا الوصف كانت الصلاة هى العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية، وعرض لها باعتبارها عنصرا من عناصر البر والحق، الذى رسمه الله لعباده ودعاهم إليه، وجعله عنوانا على صدقهم فى الإيمان، وعلى أنهم المتقون، يقول عز وجل : ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)**﴾ [البقرة].

عرض لها هكذا، ثم جعل إقامتها أول عمل بعد الإيمان، يدل على صدقه،

---

(١) المرجع السابق، ص ١١ .

(٢) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٨١ .

ويستحق به صاحبه أخوة المؤمنين[1] : ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ... ﴿١١﴾﴾ [التوبة].

كما جعلها عنوانا على التمسك بالكتاب، وسبيلا للحصول على أجر المصلحين ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف].

ولقد روى عن رسول الله ﷺ قوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد »[2] .

وما من شك فى أن من ترك الصلاة منكرا لها، لا دين له، ومن تركها استهتارا بها لا دين له، ومن تركها غير مبال بها لا دين له[3].

وإذا أديت الصلاة على النسق الذى رسمه رسول الله ﷺ، فإن الله سيعصم صاحبها عن الكبائر مصداقا لقوله تعالى : ﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

والصلاة نشاط إنسانى يومى يصل المسلم بخالقه، ويجدد هذه الصلة خمس مرات كل أربع وعشرين ساعة . ويرتبط هذا النشاط بتكوين عادات حسنة عند المسلم منذ طفولته ومنها التعود على النظافة، وطهارة الثوب والمكان والبدن، وتربية المسئولية نحو الجماعة.

والصلاة كذلك نشاط نفسى وجسمى متكامل، ومتكرر، ومن ثم فهى تسهم فى حفظ طاقات المسلم (ولا سيما فى وقت الشباب)، أن تتبدد فى نشاطات ضارة، كالانشغال بلذات الجنس دون التقيد بالزواج ومسئولياته، أو الانسياق وراء ما يجره الفراغ الروحى من ضياع الإنسان فى سباق لاهث لتحقيق أهداف زائفة[4].

ولابد من التنبيه إلى أن أثر الصلاة فى تزكية النفس إنما يتم فى حالة الصلاة

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٨٢.

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) عبد الحليم محمود : الصلاة أسرار وأحكام، الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر، المكتبة الثقافية (٢٧٤)، القاهرة ١٩٧١، ص ٤٨.

(٤) عبد الحليم غراب : الشخصية الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٤.

الكاملة التى جمعت سمات القبول كما حددها الله- عز وجل-ورسوله ﷺ، فإذا كانت فى جماعة، فالعظيم يأتى إليها متخليا عن العظمة والاستعلاء، والصغير يأتى إليها مرفوع الأمل والرجاء، وإذا أداها المسلم منفردا فإن فى وجدانه آصرة لا تغيب عنه، تربط بينه وبين الجماعة، ويخرج من صلاته بسمته المتواضع، فلا يتعالى ولا يستطيل على الناس، وبقلبه الخاشع، فلا يصر على معصية الله تعالى، ويظل متذكرا خالقه الذى عنت له الوجوه، وسجدت له الجباه، وانقادت له الحياة، ويعطف على المحتاجين والضعفاء، وإلى جوار ذلك تتميز شخصيته فى هذه العبادة بالمظهر اللائق من النظافة والزينة والجلال، حتى يظهر بالوقار والسكينة المألوفة الحيوية طاهر الثوب والبدن والمكان(١).

وإذا كان الإنسان عادة ما يفزع مما يصيبه من ابتلاء وما يواجهه من مشكلات حادة، فإن الذى يداوم على الصلاة لا يكون كذلك، فإنه يكون مطمئن القلب هادئ النفس، ثقة في قول الله : ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [المعارج].

وفى مقابل ذلك فإن ترك الصلاة عنوان للانغماس في الشهوات وسبيل الوقوع فى الغى والضلال، وسببا للخلود فى النار : ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾** ﴾ [مريم].

والصلاة ليست - كما يظن الكثير من المسلمين - مجرد عبادة شخصية، يقوم بها المؤمن فيما بينه وبين ربه، تقتصر فائدتها على تهذيب النفس، وإنما هى - مع ذلك - جعلت عن طريق الاجتماع لها - فرضا كان الاجتماع أم سنة أم فضيلة - سبيلا لتعارف المؤمنين، وتفاهمهم فيما يحتاجون إليه من خير فى دينهم ودنياهم، وبذلك كان مكان اجتماعهم فى الصلوات الخمس أشبه بالنوادى التى يهرع إليها أهل الحى الواحد، فى أوقات متعددة معينة، على وجه منظم محدد، وفيها يتعارفون ويتبادلون المنافع فيما يحتاجون إليه جماعات وأفرادا(٢).

وتحقيقا لهذه الغاية أوجب الجماعة فى نطاق أوسع على أهل البلدة الواحدة، أو ما هو فى حكم البلدة الواحدة، كل أسبوع، وجعل ذلك شرطا فى صحة الصلاة التى تؤدى فى ذلك الاجتماع، وهى « صلاة الجمعة » يجتمعون فيها للتعارف والتعاون،

---

(١) أحمد عمر هاشم : النفس فى القرآن الكريم، ص ١٨ .

(٢) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٧٨.

واستماع الوعظ والإرشاد، وبيان أحكام الله فيما يحل، وما لا يحل، وبذلك أخذت هذه الصلاة لون المحاضرات والدروس الدينية : يجتمع لها المؤمنون لتلقى أحكام الله ومعرفة دينه، وصارت اجتماعية تعاونية ثقافية(١).

ومما يلفت النظر أن التعبيرات القرآنية بالنسبة للصلاة تنحصر فى إقامتها والمحافظة عليها، والخشوع فيها، ثم المداومة على فعلها، وكل هذه التعبيرات لا مدلول لها إلا إذا كان الإنسان مستحضرا عظمة الخالق حين يقف بين يديه، مقدرا لهذه العبادة قدرها، فلا يقربها إلا وهو مستعد لها ومقبل عليها بروحه وجوارحه سواء(٢).

ولم يفت القرآن أن يقرر أن الصلاة- التى تصل العبد بربه وتعينه على تحمل ما يشاء له القدر من صعاب وتدفق خطوات فى طريق الطاعة والامتثال لله- ليست سهلة إلا على هؤلاء الذين خشعت قلوبهم للواحد الأحد، وأيقنوا بالرجوع إليه فرجوا رحمته وخافوا عذابه، أما غيرهم، فهى كبيرة عليهم وشاقة على نفوسهم(٣). يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ [البقرة].

الدور التربوى لعبادة الصوم:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾**﴾ [البقرة].

هنا نجد الله سبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بالنداء العظيم الذى يشعر المؤمنين بأنهم محل تقدير وتكريم وبأنهم أصحاب منزلة بعيدة عن غيرهم، هذا النداء الذى هو لمحة نورانية تشد المؤمنين إلى ساحات قدسية لتصفو أرواحهم، ولتكون محلا لتقبل الأوامر الربانية المكرمة التى تهون معها المشقات ويذلل الصعب من الأعمال مادام الأمر صادرا عن الرحمن الرحيم(٤).

والآية فى فرض الصوم سلكت مسلكا رائعا من مسالك التربية الرشيدة للنفوس الجياشة بحب الخير، تدفعها دفعا إلى تنفيذ ذلك الأمر، وهى فى الوقت نفسه تستثير

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) أحمد إبراهيم مهنا : مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم، ص ٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨.

(٤) على مصيلحى حسن : نداءات المؤمنين فى القرآن الكريم، دار الصفوة، الغردقة، ١٩٩٠، ص ١٥٨.

مشاعر المؤمن من أمة محمد ﷺ إلى أنهم ليسوا أقل من غيرهم من الأمم السابقة الذين فرضت عليهم فريضة الصوم . بل إن أمة ذلك الرسول الكريم تريد أن تبرهن على أنها أقدر من غيرها وأشد صلابة وأسرع استجابة لأوامر الله .

وإذ تنتهى الآية بقوله: «لعلكم تتقون» فإنها بمثابة حافز قوى قدم إلى المؤمن لأمر العمل المطلوب فيه مشقة على النفس بحرمانها من نوازعها المركبة فيها، ولا شك أن الحافز له أثره فى إنجاز أى عمل، ولذا راعى الله سبحانه وتعالى، الخبير بالنفوس البشرية تطلعها إلى مقابل لما تقوم به، فجعل التقوى حافزا مأمول التحقيق لكل من أدى هذه العبادة[1] .

وليس من شك فى أن النداء بوصف الإيمان أولا، وهو أساس الخير ومنبع الفضائل، وفى ذكر التقوى آخرا، وهى روح الإيمان وسر الفلاح، إرشاد قوى، ودلالة واضحة على أن الصوم ليس هو مجرد الإمساك عن الطعام والشراب، وإنما هو الإمساك عن كل ما ينافى الإيمان ولا يتفق وفضيلة التقوى والمراقبة[2] .

وإذن، فالذى يتجه إلى غير الله بالقصد والرجاء لا صوم له، والذى يفكر فى الخطايا ويشتغل بتدبير الفتنة والمكائد، ويحارب الله ورسوله فى جماعة المؤمنين لا صوم له .

والذى يطوى قلبه على الحقد والحسد والبغض لجمع كلمة الموحدين، والعمل على تفريقهم وإضعاف سلطانهم، لا صوم له .

والذى يحابى الظالمين، ويجامل السفهاء ويعاون المفسدين، لا صوم له، والذى يستغل مصالح المسلمين العامة ويستعين بمال الله على مصالحه الشخصية ورغباته وشهواته، لا صوم له . كذلك من يمد يده أو لسانه أو جارحة من جوارحه بالإيذاء لعباد الله، أو إلى انتهاك حرمات الله لا صوم له، فالصائم - كما هو مفروض- ملاك فى صورة إنسان، لا يكذب ولا يرتاب ولا يشى ولا يدبر فى اغتيال أو سوء، ولا يخادع، ولا يأكل أموال الناس بالباطل .

هذا هو معنى الصيام المربى الذى يجمع صورته؛ وهى الإمساك عن المفطرات، ومعناه؛ وهو تقوية روح الإيمان بالمراقبة، وبهذا يجمع الصائم بصومه بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات، وتحليتها وتزكيتها بالطيبات[3] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٩ .

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٩ .

أما دور الصوم فى التربية الصحية فقد أثبت أهل الذكر من الأطباء أن من أهداف الصوم، إعطاء أجهزة الجسم عامة والجهاز الهضمى خاصة بعضا من الراحة تستجم فيها ويتخلص الجسم خلالها مما قد يكون قد أصاب أجهزته من بدانة أو احتقان . والجسم كأية آلة ميكانيكية يحتاج لفترة من الراحة تهدأ فيها أجهزته وأنسجته وخلاياه وتأخذ فرصة للتخلص مما تراكم فيها من نفايات، وما رسب فيها من أملاح، وما يحل بخلاياها من إنهاك، ولا شك أن الناس قد تعودوا الانكباب على الملذات والتهام ما اشتهوا من شراب وطعام، غير عابئين بعواقب الإفراط، وكثيرا ما أدى ذلك إلى البدانة المرهقة وسبب الحصوات البولية واحتقان الكبد وآلام المفاصل والبول السكرى، كما يؤثر فى الأجهزة العصبية والعضلية فيشعر المرء بالصداع والتعب والفتور والخمول وميل إلى النوم . ولا ريب أن شهر رمضان إذا اتبع فيه الصائمون التعاليم الصحية وامتنعوا عن المغالاة فى تناول العديد الدسم من ألوان الطعام فى إفطارهم وسحورهم، فمن المؤكد أن ينتهى بهم ذلك إلى التخلص من جميع ما يكون قد أصاب أجسامهم، فيعودون أكثر نشاطا وأوفر صحة، إذ بالصوم تنشط أجهزة الجسم وخلاياه وينتظم إفراز الغدد فيزداد الذهن حدة والنظر قوة وتصبح مقاومة الجسم لأى مرض طارئ أقوى وأتم(١).

وتتعدد الآثار التربوية فى تكوين الشخصية ..

فالصائم حينما يقف أمام نفسه مجاهدا يكبح جماحها، ويكفها عن شهواتها، ويحول بينها وبين رغباتها، فإنما يروضها حتى تستعذب الصبر على طاعة الله ! وامتثال أوامره واجتناب نواهيه(٢) .

والصائم حينما تشتد عليه المجاعة، فإن ذلك يشعره بحاجة الفقراء والبائسين، ويذكره بحالهم، وهم يتضورون جوعا فى أكثر أوقاتهم فيحمله ذلك على الإشفاق عليهم والإحسان إليهم، والرحمة بهم . وبهذا يجد الفقراء يد المعونة من الأغنياء، وفى ذلك إصلاح اجتماعى له قيمته وخطره .

والصائم إذا عرف أن الصوم دين عليه، وأن لربه حقا ثابتا فى عنقه فقام يؤدى هذه العبادة كأمانة عمرت به ذمته، وعهد بينه وبين ربه يجب الوفاء به، فإنما يمرن نفسه

---

(١) عبد اللطيف مشتهرى : الصيام جنة، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، نوفمبر ١٩٧٠، ص ٢٨.

(٢) عبد الفتاح القاضى : الصيام، فضائله وأحكامه، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، أكتوبر ١٩٧٢، ص ٢٧.

على أداء الأمانة، ويترفع بها عن وصمة الخيانة، ومن تعود الأمانة فى عبادة السر، كان جديرا بالأمانة على حقوق العباد فى السر والعلانية[1] .

والصائمون جميعا حينما يمسكون عن كل مفطر فى وقت واحد قبيل مطلع الفجر، ثم هم يقبلون جميعا على تناول الطعام فى وقت واحد عند غروب الشمس، فإنه يتجلى لهم فى ذلك رمز الاتحاد والوحدة، وفى ذلك سعادة الأمة وعزتها[2] .

ومن وظائف الصوم التربوية أن يدرب الإنسان على تقبل التغيير باعتباره سنة من سنن الله فى الطبيعة والمجتمع، ذلك أن الإنسان يظل طول العام يأتى من الأفعال ما فيه استجابة لمطالب الجسد بحكم الحاجات البيولوجية، فإذا جاء شهر رمضان فرض عليه أن يلتفت إلى جهة أخرى، إلى البعد الروحى فى تكوينه و « فرملة » تلك المطالب الجسدية العديدة .

نعم إذا جاء رمضان واجه الصائم تجربة قاسية تنزعه من مسلكه العادى نزعا قويا، بل تختطفه منه اختطافا لتضعه أمام المنهج الجديد الذى يوقف من وجود المطالب المادية نهارا ليمارس المطالب الروحية التى تزدهر وتتألق، فإذا انقضى رمضان فإن المسلم فى رحلة الثلاثين يوما (أو قل فى مدرسة الثلاثين يوما) سيكون قد تمرس بهذه التجربة ومرن عليها، فإذا دخل فى شوال وأوغل فى شهور العام، فإنه لن يغرق فى شهوات النفس ومطالب الجسد، وإنما يسعى إلى الملاءمة بين مطالب جسده وأشواق روحه ملاءمة دقيقة، إذ المفروض أنه قد تزود من الصوم بالدرس الكبير الذى يجعله قادرا على إحداث هذا التغيير . . . حتى إذا بدأ يحدث للتدريب الذى تلقاه فى رمضان الانطفاء التدريجى، جاءه رمضان جديد ليضعه وجها لوجه أمام التجربة ذاتها، فيأخذ طاقة جديدة تصاحبه طول العام وترافقه فى رحلة الأحد عشر شهرا[3] .

لكن . . ما هذا التغيير الشامل الذى يحدثه صيام رمضان ؟[4] .

إن الحياة العادية للصائم تنقلب فى رمضان رأسا على عقب، أى أن الصوم يحدث فيها ذلك الانقلاب الخطير ؛ ذلك لأن الفرد المسلم فى غير رمضان يتناول فطوره صباحا، وغداءه ظهرا وعشاءه ليلا، وقد يدخن، ويحتسى القهوة والشاى، وهو ينام

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ .

(٣) توفيق محمد سبع : هكذا نصوم، ص ٩٠ .

(٤) المرجع السابق، ص ٩٢ .

غالبا بعد العشاء. ليستيقظ فى الصباح، حتى إذا جاء رمضان وضعهم أمام حركة تغير كبير .. عليهم أن يمسكوا عن الطعام والشراب والمعانى الجنسية طيلة النهار، وعليهم أن يكفوا عن التدخين وشرب القهوة والشاى مهما تطلعت إليها نفوسهم، ثم عليه أن يجعل فطوره وقت الغروب، وأن يلغى وجبة العشاء، وأن يتسحر قبيل الفجر .. وهكذا.

والصوم إذ يدرب الصائم على الثورة فى نفسه وفى أسلوب حياته فإنه بذلك يربيه على الثورة على ضغط يرهقه أو هوان يلحقه، أو مذلة تراد به أو فساد يجرى فى مجتمعه أو وطنه .

بل إن الصيام له دور فى جانب من جوانب التربية العسكرية[1]؛ ذلك أن الصوم أسلوب قهرى يفرض على الصائم منهجا خاصا فى حياته، قوامه التقشف والحرمان والصبر على مرارة الجوع وحرارة الظمأ، ومكابدة المتاعب فى زجر النفس والتحكم فى شهواتها، ومجاهدة رغباتها ونزواتها . ثم هو من ناحية أخرى التزام دقيق وحازم لأوامر الله- عز وجل- الذى يلزم الصائمين بأن يفطروا فى وقت واحد، ويكفوا عن جميع شهواتهم، فكل صائم جندى ملتزم بأدق قواعد الالتزام لتلك الأوامر والنواهى، وذلك كله يربى فيه روح الالتزام العام، إذا ما دعا الداعى لجهاد الأعداء يوما من الأيام .

كذلك فإن الصائم يمارس تجربة الصوم ولا رقيب عليه إلا ضميره المؤمن النقى، فهو إن غاب عنه فأكل أو شرب لا يطلع عليه أحد، ولا يحس به إنسان . فالصائم بهذا التصور « مفوض عام » من ربه ليراقب نفسه، فكأنما المربى العظيم يدربنا بالصوم على نوع من الضبط الداخلى الذى نراقب فيه أنفسنا دون ما حاجة إلى قوانين أو أجهزة متابعة بشرية[2] .

إن الصائم يخضع نفسه لمحكمة داخلية، محكمة الضمير أو محكمة النفس اللوامة خضوعا تاما ومباشرا، ولو ارتفعت رقابة هذا الضمير عند الصائم لحظة واحدة لأكل صاحبه وشرب وتنعم وتلذذ فى رمضان، متخفيا عن أعين الناس، بعيدا عنهم، ثم يبرز إلى الجميع بعد ذلك لابسا شارة الصائمين، مدعيا أنه صائم، فمن ذا الذى يستطيع أن يكتشف أمره ؟ بل من ذا الذى يستطيع أن يميز بين صائم ومفطر ؟ إنه ضميره الحى المؤمن .. فما أحوج المجتمع كله إلى تربية من هذا النوع[3] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٢ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٤ .

الدور التربوى لعبادة الزكاة :

تهدف التربية الإسلامية كما تتبدى فى آيات القرآن الكريم إلى تنشئة مجتمع سوى متوازن، وذلك بالتقريب بين المستويات المالية للأفراد وإعادة النظر فى توزيع المال بنسب ثابتة على الدوام، ومنع تكدس الثروات من طريق غير مشروع وحتى لا تنتشر الأثرة والترف وتتضخم الثروات على حساب الفقراء، ويضطرب ميزان الاعتدال الاجتماعى والاقتصادى بين فئات الأمة، وحتى لا يصبح الناس بين فريقين : فريق حظى بالمال ويتخمه ترف العيش ويحتار فى إنفاقه على مناعم الحياة وملذاتها، كيف ينفق وأين ينفق ؟ وفريق يتلظى من الجوع والحرمان ويعوزه الكساء والمسكن والتطبيب والتعليم، وحتى لا يكون ذلك، يفرض الإسلام تأمين الحاجات الضرورية التى يهلك إذا لم توفر له، وتوفير الحاجيات التحسينية التى يشقى إذا لم تهيأ، وذلك بهذه الصيغة الفريدة من التأمين الدائم والتى تعتبر « مجمعا » لقيم تربوية فردية واجتماعية، أخلاقية واقتصادية ألا وهى « الزكاة »[(1)] .

وإن التربية الإسلامية، على ما استنبطه الفقهاء، من شأنها أن تظهر المواهب والقوى، بحيث تخصص كل قوة لما هى له، فلا تخبو قوة كانت تستطيع العمل، ولا ينطفئ نور عقل كان يمكن أن يجتهد ويستنبط .

ومن يعجز عن العمل، تتكفل الدولة أو الجماعة الإسلامية فى كل أدوارها فى القيام بسد الحاجة ورفع عوز المعوزين، وجعل القرآن لهؤلاء العاجزين حقا فى أموال الأغنياء يؤخذ بحكم الإسلام، وقد قال سبحانه في وصف المؤمن :﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج] . فهذا الحق، الذى يكون للعاجزين، فى أموال الأغنياء هو واجب عليهم أداؤه، يؤخذ من أموالهم كرها إن لن يعطوه طوعا . وقد ذكر العلماء الذين يأخذون ما يقررون من القرآن أن هذا يتعلق بالمال، بحيث لو تصرف الغنى فى المال الذى تعلق به حق الفقير العاجز لكان تصرفه فيما لا يملك، وهو غير جائز عند جمهور الفقهاء، وبحيث لو مات قبل أن يؤديه يكون تعلق بتركته كما قرر الشافعية والحنابلة والمالكية، بيد أن المالكية اشترطوا أن يعلم به المدين، أو يوصى بأدائه، ولا يكون أمره فى ضمن الوصايا التى لا تخرج عن الثلث[(2)] .

---

(١) عبد العزيز الخياط : الزكاة والضمان الاجتماعى فى الإسلام، دار السلام، القاهرة ١٩٨٩، ص٥ .

(٢) محمد أبو زهرة : الزكاة، فى : مجمع البحوث الإسلامية : التوجيه التشريعى فى الإسلام، من بحوث مؤتمرات المجمع، القاهرة، جـ٢، ١٩٧٢، ص ٩٢ .

إن الزكاة ركن من أركان الإسلام فرضها الله حقا فى مال الغنى، وجعلها على كل مسلم عاقل بالغ حر إذا ملك نصابا خاليا من الدين، فاضلا عن حوائجه الأصلية ملكا تاما عاما كاملا، والحوائج الأصلية هى دور السكن وثياب البدن وأثاث المنزل وسلاح الاستعمال وأمثالها، قال تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] .

وقال :﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] .

وقد بلغت الآيات التى تناولت الزكاة والصدقات وإنفاق الأموال في جميع أنواع البر أكثر من مائة وخمسين آية فى القرآن الكريم، كما بلغت الأحاديث النبوية عشرات الأحاديث فى الحث على الزكاة وبيان وجوبها وتفصيلات أنواعها، والجهات التى تنفق عليها أى المستحقين لها، وأنواع الأموال التى تؤخذ منها والمقادير التى تجب فيها الزكاة ونسب الزكاة منها، وكيفية صرفها[١] .

وقد قرنت الزكاة بالصلاة وشهادة التوحيد، وكانت ثلاثتها عنوان الدخول فى الإسلام وعنوان الأخوة الدينية :﴿ ... فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ... ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة] .

وقال :﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ... ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة].

ويدل استقراء بعض أحاديث الرسول ﷺ بخصوص الزكاة أنها ليست إلا صرفا لبعض أموال الأمة - ممثلة فى أغنيائها - إلى الأمة نفسها، ممثلة فى فقرائها[٢] . وبعبارة أخرى، ليست إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها وهى اليد المشرفة التى استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرف فيه، وهى يد الأغنياء، إلى اليد الأخرى، وهى اليد العاملة الكادحة التى لا يفى عملها بحاجتها أو التى عجزت عن العمل، وجعل رزقها فيه ومنه، وهى يد الفقراء .

---

(١) عبد العزيز الخياط، ص ١٠

(٢) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة، ص٩٤ .

ولعل هذا ما يوحى به القرآن حينما يقول: ﴿ ...وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور] وحين يقول بوجه عام: ﴿ ...وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد].

وهكذا نجد أن اليد المعطية واليد الآخذة إن هما إلا يدان لشخصية واحدة، كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية، ولا خادم منها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة، هى شخصية « الأمة » التى لا قوام لها ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه، وبهذا يظهر معنى « الوسطية » التى حل بها الإسلام المشكلة التى ظل بها العالم فى أمسه وحاضره، يتردد بين طرفى الإفراط، بالطغيان المالى، والتفريط بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الإنسانى، وسخر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة[1].

فكأن الإسلام بفرض الزكاة أراد أن يربى المسلم على أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونا متساندا : كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو فى مجتمع يتكفل كل فرد بالآخرين، فالغنى متكفل بالفقير، والقوى متكفل بالضعيف، وذو الجاه متكفل بمن لا جاه له، وذو العلم متكفل بمن لا علم له[2] .

وقد جعل الله- سبحانه وتعالى- الزكاة برهانا على الإيمان، يقول ﷺ: «الصدقة برهان»، وكل من يخادع نفسه إذن، فيدعى الإيمان، ثم يمتنع عن أداء الزكاة، فإن هذا الامتناع نفسه برهان على كذبه . وإذا كانت الزكاة برهانا، فإنها أيضا : امتحان يستبين فيه من أجاب داعى الله، ومن أعرض عنه[3] .

ثم هى تطهير للنفس وتزكية لها، وتطهير للمال وتزكية له. والمال الطاهر المزكى ينمو باستمرار، ويجعل الله فيه البركة، ويحفظه من التلف، ويبعد عنه الآفات، وهو سبحانه، يعوضه أضعافا مضاعفة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة].

* * *

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٩٥.

(٢) عبد الحليم محمود : أسرار العبادات فى الإسلام، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، سلسلة المكتبة الثقافية (١٤٨)، يناير ١٩٦٦، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠.

الدور التربوى لعبادة الحج :

الحج لغة : القصد، وشرعا قصد البيت الحرام للنسك، وفى تركيبه من الحاء والجيم إشارة وجيزة المبنى جليلة المعنى، فإن الحاء من الحلم، والجيم من الجرم، وكأن الإنسان وهو يتقدم للالتحاق بهذه المدرسة الربانية يقول : جئتك بجرمى، أى قدمت إليك بذنبى لتغفره بحلمك[1] .

والحج ركن من أركان الدين وفرض من فرائضه، وآية من آيات الرسالة الإسلامية وصيغة من صيغ التربية الإسلامية إليه هدت الرحمة الربانية ووجهت العناية الإلهية، وتحدث الذكر الحكيم فى عدة من سوره بفرضيته وتوجته السنة بهالة من الاهتمام البالغ والتقدير العظيم وأحاطته بوافر من الهدى النبوى .

قال تعالى : ﴿ ...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ... (٩٧) ﴾ [آل عمران].

وقال أيضا: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ [الحج] .

وقال : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة].

وفى تأمل هذه الآيات - وهناك غيرها - فيما يتصل بالدور التربوى - للحج سوف نجد أمامنا عدة وظائف تتلخص فيما يلى[2] :

إعلان وحدة الألوهية ومقاومة المادية الوثنية، كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج].

وإذا كان الحج تربية روحية، فهو أيضا تربية اقتصادية، وهكذا تتبدى تلك

---

(١) محمد الفقى : الحج فى الإسلام، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية (٢٥٩) نوفمبر ١٩٧٢، ص ٨٤.

(٢) محمد البهى : منهج القرآن فى تطوير المجتمع، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٣٢.

«الوحدة » وتلك النظرة التكاملية فى القرآن لكل من الدنيا والآخرة، المادى والمعنوى، الروحى والجسمى، فمباشرة عبادة الحج لا تحول دون الكسب بالتجارة أو بأى عمل مشروع آخر، كما أن هذه العبادة - وأية عبادة أخرى ينشد فيها العابد التقرب إلى الله - مدعاة للإنفاق فى سبيل الخير، يقول تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج] أى وليشركوا الفقراء معهم فيما يقدمونه من هدى، تقربا إلى المولى جل شأنه، والمشاركة هنا بين الفقراء والذين يملكون المال؛ فالأكل من الذبيحة، لها معنى اجتماعى يقوم على تأكيد الاعتراف بالمساواة فى الاعتبار البشرى بين أفراد المجتمع جميعا . . وعلى أن فى إطعام الفقراء مما لا يتيسر لهم فى مناسبات : هو علاج لحقد نفوسهم على الأثرياء، وتقريب لهم من هؤلاء[١] .

والحق أن لكل عمل من أعمال مناسك الحج دلالة تربوية ينطوى عليه، ومعنى يرمز إليه، يجب أن يلتفت إليه المسلم، وهو يؤدى صورة هذه الأعمال[٢] .

فما الإحرام فى حقيقته - وهو أول المناسك - إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل شىء ما سوى الله، وعلى التفكير فى جلاله .

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال .

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذى ترى نعمه، ولا تدرك ذاته .

وما السعى بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمى الرحمة التماسا للمغفرة والرضوان، وما الوقوف بعد السعى إلا بذل المهج فى الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة فى أرحم الراحمين .

وما الرمى بعد هذه الخطوات التى تشرق بها على القلوب أنوار ربها إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزعات النفس، وإلا رمز مادى لصدق العزيمة فى طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات .

وما الذبح - بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرنا - وهو الخاتمة فى درج الترقى إلى

---

(١) محمد البهى : منهج القرآن فى تطوير المجتمع، ص ٣٣.

(٢) محمود شلتوت : الإسلام، عقيدة وشريعة، ص ١٢٨ .

مكان الطهر والصفاء، إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها فى بناء الفضيلة، رمزا للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار(١).

وإذا كانت العبادات الثلاثة السابقة فرائض على كل المسلمين، إلا أن الحج قد اقتصر فرضه « على من تتوافر لديه الاستطاعة » فهو يتطلب جهدا بدنيا خاصا وإنفاقا ماليا كبيرا . بل إن المسلم قد حرم عليه أن يقترض حتى يستطيع أن يحج، وحرم عليه أن يسأل الناس من أجل ذلك، وكذلك لا يصح الحج من مال حرام(٢) .

الجدل والحوار

الأهمية التربوية للاستدلال:

القاعدة الأساسية هنا أن التعلم لا يكون إلا لما فهم وتم الاقتناع به، وقد يفهم الإنسان أمرا يسمعه أو يقرؤه لكن فهمه له لا يعنى أنه قد اقتنع به . وإذا كان الفهم سبيلا إلى التعلم، فإن اقترانه بالاقتناع يزيد التعلم رسوخا سواء فى التلقى والاحتفاظ أو فى التذكر والعمل بما تعلم.

والشرط الجوهرى للاقتناع، أن يكون المتعلم حرا فى تفكيره، وآيات القرآن جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه فى الدين، وأن الرسول ﷺ غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين والتذكير بآيات الذكر الحكيم: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)** ﴾ [الغاشية]، وهل كان للرسول الكريم أن يقوم فى قومه مقام الجبارين فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد إعراضهم عن دينه بعد آية: ﴿ **نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)** ﴾ [ق] .

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، وفى مقدمتها البرهان العقلى(٣) .

والاعتقاد حق أساسى من حقوق الإنسان فى الإسلام، كفله الله للإنسان بكل الضمانات وأشار إليه في عديد من الآيات(٤) من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)** ﴾

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٩ .

(٢) عبد الله أبو السعود بدر : فقه العبادات، ص ٣٩٨.

(٣) عبد العزيز جاويش : الإسلام دين الفطرة والحرية، ص ١٤٣ .

[يونس]، ويقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... (256)﴾ [البقرة]، وكذلك : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (29)﴾ [الكهف] .

وعدم الإكراه في المعتقد إنما يتفق والفطرة التى فطر الله الإنسان عليها، إذ يقول سبحانه : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)﴾ [البلد]، كما يقول : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)﴾ [الإنسان]. وأيضا : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ [الكافرون].

إن كافة الشواهد تشير مؤكدة أن القرآن الكريم كتاب هداية وإقناع، وإقناعه أنواع، لكنها تجتمع على أصل واحد هو فهم الواقع الذى يلمس ويحس ليبصر به الناس بعيونهم أو يحسوا به بحواسهم ويقدروه ببصيرتهم أى بعقولهم ومداركهم، وليس فيها «أوامر مفروضة» بل هى مشاهدات ثابتة تستنبط منها نتائج لازمة .

وأول ما يبديه العقل من صور الإقناع، تسليم الجميع باستحالة صدور القرآن من مصدر بشرى على ما سلف من بيان، وتتابع بعد ذلك حجج الله على الناس بما يقرؤونه فى صفحات الكون العظيم، ويستنبطون منه، فالقرآن يذكر الآيات، ويورد النبوءات، ويستعمل القسم، ويخاطب الفطرة، ويبين السنن التى لا تختلف، ويستعمل التحدى للمكابر، وفى كل أولئك احتجاج بواقع لا يمكنهم أن يتحاوروا فيه .

وكلما قلّبنا فى مظاهر عظمة القرآن فسوف نجد منهجه العقلى فى كل مفردات خطابه، لقد صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، وصرّح فى وصف أهل الحق بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ... (18)﴾ [الزمر]، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون(2) .

---

(1) حسن أحمد عابدين : حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن، رابطة العالم الإسلامى، مكة، مايو ١٩٨٤، ص ١٣٧ .

(2) محمد عبده : رسالة التوحيد، ص ١٤٦ .

لقد صرف القرآن القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات التميز المعرفى، ولا مقدما لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل ولربما كان للاحق فضل أكثر من حيث علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون، على من تقدمه من أسلافه وآبائه[1].

كذلك نهى الله- سبحانه وتعالى- أن نبنى أحكامنا على مجرد الظن، إذ إن هناك احتمالا بأن الظن غير صحيح، فلا بد من البرهان المؤكد والدليل الموثوق به، قال- عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات].

ولكن هناك من الظن ما يباح اتباعه، كالظن فى أمور المعاش وما أشبه ذلك، ومنه ما يجب اتباعه : كالظن فى الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية، ومنه ما يحرم اتباعه: كالظن فى الإلهيات والنبوات، والظن مع وجود دليل شرعى قطعى يخالفه. ومن الظن المحرم، ظن السوء بالمؤمنين، فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه، وأن تظن به السوء. والمحرم هو « عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء »[2] ، أما حديث النفس والخواطر والشك، فكل ذلك معفو عنه، والمنهى عنه ركون النفس وميل القلب، والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان أو ثبت ببرهان، أما لم تشاهده ولم تسمعه فى ذلك فلا يجوز .

وللقرآن طريقته المعجزة فى المناقشة والتعليم عن طريق الاستدلال بصوره المتعددة التى يطول المقام لو أتينا عليها كلها، ومن ثم فسوف نقتصر على مثالين[3] :

أ- الاستدلال بالتعريف : بأن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الفكرة المطلوبة، فيدلل - مثلا على عظمة الخالق وضرورة الإيمان به بتحليله لماهية الإنسان، فيقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٧ .

(٢) محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (١٤)، مايو ١٩٥٢، ص ١٢٩ .

(٣) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى، القرآن، ص ٢٧١ وما بعدها.

ب- التعميم ثم التخصيص : والتعميم أن يذكر قضية عامة، وتؤدى إلى إثبات الفكرة بإجمالها، ثم يتعرض إلى جزئية القضية فيبرهن على أن كل جزئية منها يؤدى إلى إثبات الفكرة المطلوب إثباتها، أو أنها فى مجموعها تؤدى إلى إثبات الفكرة، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [طه].

ونرى من هذه القضية العامة الكلية التى تذكر بوجود الله- سبحانه وتعالى- وهى التى يعرف بها الله الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه، وهو الهادى، فقال- سبحانه- كلمة جامعة لمعنى الربوبية «ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»، ثم أخذ بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلة فى هذا .

وشبيه بهذا، المبدأ التربوى المعروف الذى يستحسن إعطاء فكرة عامة جامعة شاملة موجزة جدا للموضوع الذى نتعرض لشرحه ومناقشته، ثم بعد ذلك ننتقل إلى الخطوة الأخرى، وهى تحليله إلى جزئيات وفروع فنشرح كلا منها على حدة .

وأبرز ما يمثل النهج العقلى الذى يستهدف الإقناع، كل من (الجدل) و(الحوار). وقد وردت هاتان الكلمتان فى القرآن فى أكثر من موضع، ولكن الكلمة الثانية أقل استعمالا من الأولى، فنحن لا نجد لها ذكرا إلا فى آيات ثلاث :

﴿ ... فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾ [الكهف].

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) ﴾ [الكهف].

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [المجادلة].

* * *

أولا : الجدل :

جاءت الإشارة إليه فى تسعة وعشرين موضعا فى القضايا العامة والخاصة، من دينية تتعلق بقضايا العقيدة والحياة، أو اجتماعية تدخل فى أمور المجتمع .

وتفسير ذلك يكمن فيما واجهه الإسلام من قضايا أو عاش فيه الإنسان من مواقف، فقد واجه الإسلام التحديات الفكرية والتقليدية التى تعيش فى داخل وعى الإنسان وفكره، مما يدخل فى حركة التغيير التى يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره، لتنقله من ظلمات الشك والكفر والضلال، إلى الإيمان والتوحيد والهداية(١) .

كما أنه واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية التى كانت تسيطر على حياة الإنسان فى المجتمعات التى لم تكن تؤمن بالإسلام، فقد عملت الكثير من أجل أن لا تسمح للإسلام بالتقدم لتعطل فاعليته، وتؤخره عن مسيرته، بمختلف الوسائل التى كانت تملكها، سواء فى ذلك ما أثارته من حروب طويلة مرهقة وما وضعته أمامه من حواجز وعقبات، وما حشدته من شبهات وأفكار وأساليب اللف والدوران، من أجل أن تزرع فى النفوس المزيد من القلق والشك والحيرة، بالنسبة إلى ما يقدمه الإسلام من هدى وحلول لمشاكل الحياة الداخلية والخارجية(٢) .

وعلى هذا الأساس وقف الإسلام فى وجه كل هذه التحديات ليرد على التحدى بمثله، من موقع الرغبة فى الوصول إلى الحق، وإفساح المجال للأفكار بأن تلتقى بمفاهيمه لا من موقع الرغبة فى الغلبة من أجل الغلبة، ومن هنا جاء استخدام القرآن للجدل .

والجدل فى العربية من صيغ المفاعلة، والأصل اللغوى للمادة فى استعمالاتها الحسية المادية، فيه معنى الصلابة، يقال : جادل فلانا إذا صرعه. والجدل : عنف الخصومة فى المناقشة وأكثر ما يستعمل الجدل والمجادلة فى صراع الآراء والأفكار، حيث يحاول كل مجادل أن يحكم رأيه ويناضل عنه فى صلابة .

وفى القرآن الكريم، لم يجئ من المادة إلا الفعل رباعيا « جادل » خمسا وعشرين مرة، وجعلها المصدر منه مرتين بصيغة جدل، وأخريين بصيغة جدال، ومرة بصيغة مجادلة. والغالب عليها جميعا أنها فى سياق الجدال الدينى. ونفهم من آية الكهف، أن

---

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن . الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٧ .

الإنسان من شأنه- منذ كان- أن يكثر الجدل، فكأن كثرة الجدل ظاهرة إنسانية من تلك الخواص التى تميز الإنسان من غيره من الكائنات[1]. يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** (٥٤) ﴾ [الكهف].

والآية صريحة الدلالة على أن الإنسان لو لم يكن من شأنه الجدل، لكان حسبه ما جاءه من آيات بينات فيها تصريف للناس من كل مثل.

من هنا قدر الإسلام، وهو دين الفطرة، طبيعة هذا الإنسان التى تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات، فلم ينكر عليه الجدال إلا أن يكون مماراة فاحشة فى الحق الجلى والآيات البينات، عن عناد ومكابرة، أو عن إصرار على الجهل والضلال: ﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** (٦) ﴾ [الأنفال].

﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ...** (٥٦) ﴾ [الكهف].

﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ** (٨) **ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ** (٩) **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** (١٠) ﴾ [الحج].

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** (٥) ﴾ [غافر].

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ...** (٥٦) ﴾ [غافر].

لكن عندما يكون جدال الإنسان عن حاجة إلى الاقتناع، فمن حقه أن يُصغى إليه ويجادل بالتى هى أحسن، وبهذا أمر نبى الإسلام والمسلمون:

﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (١٢٥) ﴾ [النحل].

﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (٤٦) ﴾ [العنكبوت].

---

(١) عائشة عبد الرحمن: مقال فى الإنسان، ص ٩٤.

وقد يتوهم ناس، أو يوهمون غيرهم أن الجدال فى هذا المجال الدينى لا يكون إلا من الكفار والمشركين . والحق أن الإسلام أفسح للإنسان وجه العذر حين يكون جداله عن رأى حر وفكر حر ونية خالصة؛ لأن مثل هذا الجدال، من لوازم إنسانيته التى حمل أمانتها[1] .

وقد جادل إبراهيم- عليه السلام- ربه فى « قوم لوط » استرحاما، فلم يسخط عليه الله، بل عذره سبحانه فى حلمه على القوم الفاسقين، وأمره أن يعرض عن جدال لا جدوى منه بعد أن سبق فيهم أمر الله وحق عليهم عذاب غير مردود بجدال أو استرحام:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود].

كذلك جادلت امرأة مسلمة، رسول الله ﷺ فى زوجها حين ظاهر منها، فلما لم تجد لدى الرسول ما يفرج كربتها اشتكت إلى الله، فسمع سبحانه قولها ونزلت آياته فى سورة المجادلة .

ومن هنا نجد تعددا فى معانى المجادلة القرآنية بتعدد وظائفها نشير إلى بعضها فيما يلى[2] :

- المجادلة بمعنى المخاصمة ﴿ ...وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف]، أى كان الإنسان أكثر خصومة (جدلا) فى الباطل، فالجدل هنا نقيض للإيمان وانحياز للباطل بمعناه الدينى، إذن الجدل هو موقف نقيض، يتعارض مع اليقين الاعتقادى القائم على التسليم أو الانقياد . إنه الشك الناظر فى النقائض والحقائق هذا، ونلاحظ من المعانى الأخرى للمخاصمة (الجدل) وجود تعابير مثل « المحاددة والمشاققة » . . . . . إلخ .

- المجادلة بمعنى المحاجة ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ... ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل]، أى تأتى كل نفس تحاج أو تدافع عن نفسها بدفع التهم الموجهة إليها أو بنقضها لإثبات سواها. هنا المحاججة : التفنيد والبرهان ! وهذا يدخل المنطق على المجادلة القرآنية.

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان : ص ٩٥ .

(٢) خليل أحمد خليل : جدلية القرآن، ص٢٢ .

- المجادلة بمعنى المخالفة .﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة]. تبدو المحاددة، بما هى مجادلة مخالفة لله ولرسوله كأنها أداة فى صراع الإنسان فكريا، مع الغيب، وتبدو نتيجة هذه المحاددة فى الآية المذكورة، مؤدية الى الكبت أى الإذلال .

- المجادلة بمعنى المراجعة. ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ... ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة]، أى قول التى تراجعك شاكية من زوجها، فالمراجعة بما هى شكوى، تعنى نقض موقف، وتعنى صراعا بين موقفين: موقف الزوجة وموقف الزوج، كما تعنى أخيرا، أنها دعوة إلى النبى، المحتكم إليه، لكى يتخذ موقفا فاصلا، يوفق أو يتضمن أو يتجاوز كلا الموقفين النقيضين .

- المجادلة بمعنى الاختيار . ﴿ .. مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الحج]. يستفاد من الآية أن العلم الإلهى لا العلم البشرى هو الأساس، وأن الإنسان الحر هنا فى الاختيار، يجادل بغير علم، وترمى هذه الآية إلى نقد الذى يجادل بعلم آخر مخالف لعلم الله، أى لتعاليم الدين فى الكتاب(١) .

وقد عرض الشاطبى لبعض الظواهر العامة لأسلوب القرآن فى استخدام الحجة المنطقية والدليل العقلى فى الجدل والمناقشة، فقد احتج القرآن على الكفار « بالعمومات العقلية والعمومات المتفق عليها»(٢) .

كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون]،فاحتج عليهم بإقرارهم بأن ذلك لله على العموم، وجعلهم إذ أقروا بالربوبية لله فى الكل فكيف لا يتذكرون حقيقة ناصعة مثل هذه الحقيقة؟!. وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت]. يعنى كيف يصرفون عن الإقرار بأن الرب هو الله، بعد ما أقروا، فيدعون لله شريكا. وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

(١) جدلية القرآن، ص ٢٣ .

(٢) الشاطبى (أبو إسحق) : الموافقات فى أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، م٤، ص ٣٢٦.

﴿زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر].

وأشباه ذلك مما ألزموا أنفسهم فيه الإقرار بعمومه وجعل خلاف ظاهره على خلاف المعقول . ولو لم يكن عند العرب الظاهر حجة غير معترض عليها لم يكن فى إقرارهم بمقتضى العموم حجة عليهم، لكن الأمر على خلاف ذلك، فدل على أنه ليس مما يعترض عليه[1].

ومن أسلوب القرآن فى استخدام الحجة فى الجدل « ما إذا أجرى الخصم المحتج نفسه مجرى السائل المستفيد، حتي ينقطع بأقرب الطرق »[2] ، كما جاء فى شأن محاجة إبراهيم قومه بالكوكب والقمر والشمس، فإنه افترض نفسه بحضرتهم مسترشدا، حتى يبين لهم من نفسه البرهان أنها ليست بآلهة . وكذلك قوله فى الآية الأخرى ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ [الشعراء]، فلما سأل عن المعبود، سأل عن المعنى الخاص للمعبود بقوله : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ [الشعراء]، فحادوا عن الجواب إلى الإقرار بمجرد الاتباع للآباء .

ومثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ... (٤٠)﴾ [الروم]، وقوله :﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ ... (١٩٥)﴾ [الأعراف] ، فهذه الآية وما أشبهها إشارات إلى التنزل منزلة الاستفادة والاستعانة فى النظر، وإن كان مقتضى الحقيقة فيها تبكيت الخصم، إذ كان مجيئا بالبرهان فى معرض الاستشارة فى صحته، فكان أبلغ فى المقصود من المواجهة بالتبكيت . ولما اخترعوا من التشريعات أمورا كثيرة أدهاها الشرك طولبوا بالدليل لقوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ... (٢٤)﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾ [يونس] ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ... (١١٧)﴾ [المؤمنون] ... وهو من جملة المجادلة بالتى هى أحسن[3] .

---

(١) الشاطبى : الموافقات ، جـ٤ ، ص٣٢٧.

(٢) المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٣١.

(٣) المرجع السابق، جـ٤، ص ٣٣٢.

وعرض السيوطى لجهود سابقيه من العلماء لجدل القرآن وخص بالذكر « نجم الدين الطوفى »، وأشار[1] إلى اشتمال القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، ولكن أورده على عادة العرب دون دقائق المتكلمين لأمرين :

أحدهما، بسبب ما قاله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم] .

والثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام .

فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلى الأعمق الذى لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أبنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء .

ومع أن هذا سبيل القرآن، فقد جاء السيوطى بطريق المتكلمين فى الحكم على البراهين القرآنية، متخذا من الفلسفة والمنطق وسيلة تقسيم وتصنيف، ووضع مصطلحات لم يعرفها العرب إلا فى كتابة العجم، وبخاصة ما نقل عن أرسطو فى اليونانية[2] ، ومن ذلك قوله أن الله -عز وجل- قد استدل على المعاد الجسمانى بضروب[3]:

أولها : قياس الإعادة على الابتداء، كما قال تعالى : ﴿ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف]. ﴿ ... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ... ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ثانيها : قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ... ﴿٨١﴾﴾ [يس].

ثالثها : قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات .

رابعها : قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر . وقيل فى هذا أن

---

(١) السيوطى (جلال الدين) : الإتقان فى علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، جـ٢، ص ١٣٥ .

(٢) كامل سعفان : المنهج البيانى فى تفسير القرآن الكريم، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٦٠ .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، جـ٢، ص ١٣٦ .

أبي بن خلف جاء بعظم ففته وقال : أيحيى الله هذا بعد ما بلى ورمم ؟ فأنزل الله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس] ، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث، ثم زاد فى الحجاج بقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس:]، وهذه فى غاية البيان فى رد الشىء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما.

خامسها : فى قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النحل]، وتقريرها أن اختلاف المختلفين فى الحق لا يوجب انقلاب الحق فى نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه والحق فى نفسه واحد، فلما ثبت ها هنا حقيقة موجودة لا محالة، وكان لا سبيل لنا فى حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفا يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف، إذ كان الاختلاف مركوزا فى فطرنا- وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها - صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد، وهذه فى الحالة التى وعد الله بالمصير إليها فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ... ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر]، حقد، فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذى ينكره المنكرون « ممكنا ».. ومن ذلك، الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليه فى قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على أحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزىء الفعل، إن فرض اتفاق، أو لاجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما أولا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزا.

ومن هنا نلمس كيف أن الاقتناع هو الهدف من كل العمليات التى كان يقوم بها القرآن الكريم فى عقول الناس وقلوبهم . الاقتناع الذى يؤكد الجديد فى العقول وفى القلوب، ويهزم القديم فى أنفس الناس، مما كان فيه أن يستخدم القرآن أسلوبى الجدل والحوار وليس على القسر والإكراه تجىء بهما القوة أو المعجزات[1] .

والفرق بين الجدل والحوار كما هو واضح من استخدامات القرآن الكريم لكل منها : أن الحوار يكون عند ما يضطرب الذهن، ويصبح العقل فى حيرة من أمر نفسه وأمر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويراد من الحوار أن يخرجه من كل ذلك .

(١) محمد أحمد خلف الله : مفاهيم قرآنية، ص ١٥٥ .

وتكون وظيفة الحوار مواجهة موقف يستوجب خطابا غير قاس وغير عنيف، أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع فكرى حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكريا والانتصار عليه[1] .

والعمل على تحقيق هذا الهدف قد يدفع كل واحد من المتجادلين، أو على أقل تقدير الواحد منهما، إلى أن يعتمد على أى سلاح يمكنه من النصر والغلبة، حتى ولو كان اعتمادا على ما هو باطل، إذ الغاية فى هذا الموقف هى التى تبرر الوسيلة . ومن هنا سلك القرآن الكريم مسلكا خاصا فى الجدل، ووضع للنبى عليه الصلاة والسلام القواعد التى يمارس الجدل على أساس منها، القواعد التى نعتبرها من آداب الجدل القرآنى وأخلاقياته وأبرزها الجدال بالتى هى أحسن[2] .

ولم تقف آداب الجدل فى القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتى هى أحسن فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى أخلاقية أخرى من أخلاقيات الجدل القرآنى، وهى أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل وليس الباطل، ومن هنا نهى القرآن الكريم النبى ﷺ أن يجادل من ليسوا على الحق وهو نهى يقصد به جميع المسلمين، يقول تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء]، ويقول: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء].

ولأن الجدل يجب أن يكون فى سبيل الحق، بين الله لنا عقوبة الذين يجادلون فى سبيل الباطل[3]، ﴿...وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر] .

ولقد نهج القرآن فى رده على الخصوم مناهج جدل متعددة نوضح فيها ما يلى[4]:

١- **السبروالتقسيم:** والسبر والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة الهادى إليها، وهو أيضا باب من أبواب الجدل، يتخذه المجادل سبيلا لإبطال دعوى من

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) مفاهيم قرآنية، ص١٥٩ .

(٤) فاطمة إسماعيل محمد : القرآن والنظر العقلى، ص ١١٩.

يجادله بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه، ويبين أنه ليس فى أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه، فيبطل دعوى الخصم[1] .

ويمكن أن نستنتج أنه يمر بعمليتين : إحداهما : الحصر، وهو المقصود بالتقسيم، وثانيهما : الإبطال، وهو المراد بالسبر .

وقد ذكر السيوطى أن من أمثلته فى القرآن الكريم[2] ، قوله تعالى: ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾ [الأنعام].

وبين السيوطى وجه الاستدلال فقال :

« إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، رد تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم، فقال إن الخلق لله تعالى، خلق من كل زوج مما ذكر ذكرا وأنثى، فمم جاء تحريم ما ذكرتم، أى ما علته ؟ لا يخلو إما أن يكون جهة الذكورة والأنوثة، أواشتمال الرحم الشامل لهما أولا يدرى له علة وهو التعبدى، بأن أخذ ذلك عن الله- تعالى- والأخذ عن الله- تعالى- إما بوحى وإرسال رسول، و سماع كلامه ومشاهدة ذلك عنه، وهو من قوله: ﴿ ... **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ...** ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]، فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها :

الأول : يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما .

الثانى : يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراما .

الثالث : يلزم عليه تحريم الصنفين معا .

فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة وبعض فى حالة، لأن العلة على ما ذكر تقتضى إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة (وحى) باطل، ولم يدعوه،

---

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى، القرآن، ص ٣٧٨.

(٢) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، جـ٢، ص ١ .

وبواسطة رسول كذلك، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبى ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك، ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال[1] .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة وبعض الماعز والبقر، أن الله- تعالى- ينبههم إلى أن التحريم يكون لوصف ذاتى فى هذه الأشياء التى يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب فى التحريم إما أن يكون فى الذكورة وحدها أو الأنوثة وحدها أو فيهما معا، لا جائز أن تكون فى الأنوثة وحدها، لأنكم حرمتم ذكورا، ولأن مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى، وكذلك الأمر فى الذكورة، لأن ذلك يوجب تحريم كل الذكورة، وكذلك إذا كان التحريم ذاتيا فى كل ما تحمل الأنثى وتلد الأرحام، فإن ذلك يوجب تحريم كل الأنعام، وأنتم اختصصتم بالتحريم بعضها دون كلها[2] .

وإذا لم يكن ثمة وصف ذاتى اقتضى التحريم، فهل كان نص من رسول أو وحى، أو من أين جاءكم العلم ؟ لا شىء من هذا، وهذا الجزء الأخير كقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام] .

٢- التحدى: وذلك مثلما تحدى الله- عز وجل- كفار قريش بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات، أى ما دام الأمر كما تزعمون أن القرآن مفترى، فلماذا لم تجربوا الإتيان بعشر مفتريات[3] ؟

قال تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ... (١٣) ﴾ [هود] .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ... (٢٣) ﴾ [البقرة].

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

٣- القول بالموجب: وهو أخذ الخصم بموجب كلامه واستنباط ما يريده من ذلك

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن، ص ١٣٧ .

(٢) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، ص ٣٧٩.

(٣) فاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلى، ص١٢١ .

كأن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم فثبتها لغير ذلك الشىء، ومثال ذلك قوله عز وجل فى شأن المنافقين والرد عليهم :

﴿... لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [المنافقون]

فالأعز وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل من فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل: صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرج، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

٤- **ومنها التسليم** : وهو أن يفرض المحال إما منفيا أو مشروطا بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] .

ويشرح السيوطى ذلك بقوله أن ليس مع الله إله، ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم فى العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم منه المحال .

إلى غير ذلك من أشكال وأساليب الجدل .

والقرآن يتناول هذه الظواهر الإنسانية مبينا أن[1] :

أ- الاختلاف فى الرأى ظاهرة لا يمكن تخلفها أو تلاقيها ﴿...وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

ب- أن هذا الاختلاف الحتمى إنما يقع بعيدا عن القضايا التى يعدها القرآن الكريم عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

---

(١) كامل سعفان : المنهج البيانى فى تفسير القرآن، ص ٣٧٧.

جـ- العوامل التى تدعو إلى الاختلاف والداعى إلى الجدل[1] :

- الثروة الطائلة . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] .

- قلة المنذرين : ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس].

- سلطان العادات والتقاليد ﴿...قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ... ﴿٢١﴾﴾ [لقمان] .

وقد اهتم القرآن بالعوامل الشخصية اهتمامه بالظواهر الاجتماعية؛ لأنها فى كثير من الأحيان تكون العوامل القوية الفعالة فى عمليات التنمية، ومن المعوقات التى توضع فى طريقها، وهذه العوامل تتمثل فى :

- الحرص على المصلحة الشخصية ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ... ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]

- الحسد . . ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة] .

- الغضب، دفاعا عن النفس والرأى والمعتقد، وبسبب الكبت والغيظ المكتوم ينشأ الحقد، ويشتد النكير ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا... ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران١].

- الاستكبار والعناء ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ...﴿٧﴾﴾ [لقمان].

ثانيا : الحوار:

وصور الحوار التى جاء بها القرآن الكريم تختلف عن صور الجدل، من حيث إن الجدل عادة يكون بين طرفين، بينما الحوار قد يكون بين الإنسان ونفسه، أو بين الإنسان وعقله، والحوار حين يكون بين طرفين يكون الطرفان فى مستويين مختلفين من حيث المعرفة والعلم بالموضوع الذى يدور حوله الحوار[2] .

---

(١) كامل سعفان، ص ٣٧٨ .

(٢) محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، ص ١٦٠ .

ولعل من أشد الأمور ضرورة لوصول الحوار إلى هدفـه، وجود الأجواء الهادئة للتفكير الذاتى الذى يمثل فيـه الإنسان نفسه وفكره، والابتعـاد عن الأجواء الانفعاليـة التى تبعد الإنسان عن الوقـوف مع نفسه وقفـة تأمل وتفكير، فإنه قد يخـضع فى قناعاته وأفكاره للجو الاجتماعى الذى تنطلق فيه الجماعة فى أجـواء انفعالية حاسمة لتأييد فكرة معينة، أو رفض فكرة خاصـة، فيستسلم الإنسـان لها استسـلاما لا شعوريا، كنتـيجة طبيـعية لانصهاره بالجـو العام وذوبانه فيه، الأمر الـذى يفقد فيه اسـتقلاله الفكرى وشخصـيته المميزة، فيعود ظلا باهتا للجماعة[1].

وقد صـور لنا القرآن الكريم - فـيما نقـله لنا من أسلوب النبى محـمد ﷺ فى الحوار مع خصوم العقيدة، عندما واجهـوه بتهمة الجنون - فقد دعانا إلى أن نتجرد عن هذا الجو الانفعالى فيما إذا أردنا أن نتبنى فكرة أو نرفـضها، ننسجم مع موقف أو نبتعد عنه، قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾** ﴾ [سبأ] .

فقد اعتبر القرآن الكريم، موضوع الاتهام للنبى بالجنون، خاضعا للجو الانفعالى الذى كان يسيطر على التجمع العدائى لخصومه آنذاك مما يجعلهم لا يملكون من أفكارهم التى يستطيعون أن يزنوا بـها صحة القضايا وفسادها، بـل تظل أفكارهم، كمثل الصدى لأفكار آخرين، ولذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو المحموم، بأن يتفرقوا : مثنى وفرادى فـى موقف فكر وتأمل، يرجع إليـهـم أفكارهم وشـخصـياتهم، ليـصلوا إلى النتيجة الحاسمة بأسرع وقت؛ لأن طبيعة الفكر الهادئ الواعى الذى يواجه شخصية النبى ﷺ وأفكاره وتعاليم رسالته، سوف يضع القضية فى موضعها الطبيعى الذى يرفض هذه التهمة جملة وتفصيـلا، لينتهى بعد ذلك إلى الإقرار بأنه رسول الله إلى الناس لينذرهم بالعذاب الأليم[2] .

وقد يـحتاج الإنـسان المربى - فى عـملية خلق الأجـواء الهادئة للحـوار - إلى الالتفات إلى بعض الحالات التى يخضع فيـها أطراف الحوار إلى إحساس بقداسة الفكرة التى يؤمنون بها ويدافعون عنها، انطلاقا من جـوانب عاطفية ترتبط بالذات وبعلاقاتها، بعيدا عن أى منـطق فـكرى أو عقلى، مما يجعل الإنسان مشـدودا إلى الفكرة بالمستوى الذى يكون فيه مشدودا إلى الأشياء التى تتصل بعاطفته ومشاعره الحميمة، فيصعب عليه

---

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق . ص ٤٥ .

الانفصال عنها والتنكر لها تحت تأثير أى ضغط فكرى أو اجتماعى، كما نلاحظ فى موقف الإنسان من عقيدة آبائه وأجداده أو تقاليدهم[1] .

ولنا فى منهج القرآن فى مواجهة هذا نماذج متعددة، منها :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة].

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) ﴾ [الشعراء].

﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) ﴾ [الزخرف].

فإننا نواجه فى هذه السورة، إصرارا على رفض رسالة الله، بحجة مخالفتها لما عليه آباؤهم، فكان منهج القرآن فى ردهم، محاولة إثارة عنصر التساؤل، أمامهم، حول الإمكانيات الفكرية التى كان يملكها الآباء، وتوجيههم إلى القيام بعملية الموازنة بين ما لديهم من تراث آبائهم وبين ما تأتيهم به الرسالات من قبل الله، فقد يطلعون على أفضلية الرسالة على التراث، وهكذا نشعر أن على المربى مراعاة هذا الجانب عندما يصطدم بهذه النماذج فى عمله، فيعمل، كما عمل الرسول الكريم فى إخراج هؤلاء من جو القداسة إلى الجو الطبيعى ولو بإثارة الشك فى نفوسهم إزاء ما يقدسون، بالعمل على تحطيم الهالة الكبيرة للآباء فى أعينهم، والإيحاء لهم بأن احترام الآباء لا يمنع من قابليتهم للخطأ، لأنهم غير معصومين فى أفكارهم وفى أعمالهم[2] .

وإذا كان من صور الحوار أن يكون أحيانا مع الذات، فإن أبرز صورة لهذا النوع من الحوار، هى تلك التى تصور حوار إبراهيم- عليه السلام- مع نفسه، والتى تصورها الآيات التالية، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا

(١) المرجع السابق، ص ٤٧ .

(٢) محمد حسين فضل الله، ص ٤٩ .

أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام] .

هذا الحوار النفسى، كان الهدف منه معرفة الحقيقة الدينية عن الإله الواحد الذى ليس له شريك .

والصورة الثانية من الحوار القرآنى، هى تلك التى لا يكون فيها الطرفان من مستوى ثقافى واحد، وإنما هناك من يحاور ليعرف الحقيقة ممن هو أكثر دراية بها[1]، والصورة البارزة هنا هى تلك التى وردت فى سورة الكهف والتى يقول تعالى فيها :
﴿ ... فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] .

---

(١) محمد أحمد خلف الله، مفاهيم قرآنية، ص ١٦١ .

وسواء كان الأمر أمر جدل أو حوار فقد دعا الله- سبحانه وتعالى- إلى ضرورة الالتزام ببعض القواعد والآداب، أشرنا إلى بعضها من قبل، ونشير فيما يلى إلى بعض آخر(1).

- الابتعاد عن الهوى : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف].

- تنحية مشاعر البغض والكراهية جانبا ﴿ ...وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

- تجنب تحريف الكلام عن مواضعه : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء] .

- التزام الإنصاف عند التحكيم: ﴿ ... قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ص] .

- تجنب تبديل القول، مما يفيد ضرورة التزام الإنسان بحدود ما سمع أو رأى، يقول تعالى : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ... ﴿١٨١﴾ ﴾ [البقرة] .

- اتباع الصادقين فى قولهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة].

- البعد عن صور وممارسات التفكير الخرافى: ﴿ ... يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة].

- الالتزام بالاستناد إلى العلم فى تقديم الحجج، يقول تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ... ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران].

ضرب المثل والتساؤل

يستخدم القرآن أسلوب « التشبيه » كى يقرب المعانى ويشير إلى أمور حسية لشرح أفكار مجردة؛ لأنه لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم، وإنما يخاطب مختلف الفئات التى منها أقوام أميون، لا تستطيع عقولهم أن تقفز مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لا بد

(١) منتصر محمود مجاهد : أسس المنهج القرآنى فى بحث العلوم الطبيعية، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥٦ وما بعدها .

لها أولا من المرور فى مرحلة الإدراك الحسى، ولننظر إلى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] .

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام، إذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم، بحال من يجعل العبد المملوك، الذى لا يقدر على شىء بحال من رزقه الله رزقا حسنا وهما لا يستويان حالا وشأنا، والنتيجة ! لا يستوى صنم لا يقدر على شىء بالله تعالى الذى يملك الوجود كله وهو على كل شىء قدير .

وفى التشبيه الثانى، بين حال المشركين فى تسويتهم بين الله القادر والحجر الذى لا يضر ولا ينفع، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كل، وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها .

وشبيه بهذا- على سبيل المثال- عندما نريد- فى علم النفس- شرح موضوع «للنمو » إذ نخطئ خطأ كبيرا لو بدأناه بتحديد معناه المجرد عن طريق التعريف بالأسلوب المنطقى المعروف، وإنما نمهد لذلك بضرب الأمثلة والتشبيهات لبعض النباتات والكائنات الحية وما يحدث لها من تغير منذ لحظات وجودها الأولى، بحيث ننتهى بعد ذلك بتعريف النمو، فيكون بذلك أقرب إلى الأفهام وأشد رسوخا .

أولا : المثل :

ويتصور البعض أن قيمة ضرب المثل، فى القرآن الكريم تقف عند حد القيمة البلاغية، لكن المتأمل فى صور البلاغة القرآنية يجد أنها ليست زائدة على المعنى المطلوب أداؤه، فهى بلاغة فيها قوة التبليغ، ووضوح التعبير، ويخلق من ذلك كله فى نفس السامع والقارئ صورة بيانية جميلة، هى أجمل ما هنالك، ولكن الصورة الجميلة ليست هى المقصودة لذاتها، وهذا شىء يسميه علماء الأسلوب « بلاغة وظيفية»، أو « بلاغة عضوية » أى هى أشبه بالأعضاء البشرية التى تنمو فى الجسد نموها الطبيعى، وتأخذ مكانها من الجسد، فلا هى ناقصة ولا زائدة، ولا يكون الجسد صحيحا وتاما إلا بها، إذ لكل منها وظيفته أو وظائفه الخاصة، فلا يطغى عضو فيها على العضو الآخر ولا يمكن فصله عن بقية الأعضاء، ولو انفصل لما تمت حياة الجسد ولا كان الإبداع فيه[1].

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم، ص ٣٥٤.

والحقيقة كذلك لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وإذا كانت الصورة الجميلة فى معرض بعض الآيات، مقصودة لذاتها أحيانا، لارتباط المعنى بالأثر الجميل، فإنها آنذاك بلاغة عضوية أيضا، كالزهرة بالنسبة للنبات، تفنن الصانع الحكيم بألوانها وأشكالها الهندسية، مع أن المقصود بوجه عام هو الثمر الذى ينتج عنها . ونحن كما نلاحظ أحيانا زهورا وورودا، يزرعها الإنسان بقصد جمالها من حيث رائحتها ولونها وأشكالها، فإننا نلاحظ هذا أيضا فى القرآن الكريم من حيث بلاغته وبيانه فى استعمال التشبيه وغيره، إلا أن ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا بهدف معين، هو واحد فى كل الآيات، وهو تربية النفس والعقل، والقلب، والفكر، والحس، وتهذيبها جميعا لتتمكن من اتباع الهداية الإلهية بسهولة وعمق وقوة ووضوح وجمال .

وضرب المثل : صوغه وإنشاؤه وابتكاره، وقد قال أمين الخولى(1) « الضرب فى الأصل الحسى إيقاع شىء على شىء، ومنه ضرب الدراهم لإيقاع السكة عليها، أو ضرب الدراهم من معنى الطبع، والتأثير من السكة على المعدن، ومنه استعمل ضُرب بمعنى طبع وفطر، فقيل ضرب فلان على الكرم، والضريبة : الطبيعة والسجية، والضرائب : الطبائع . ومن تشابه الدراهم المضروبة على السكة الواحدة قيل هو ضريبه أو مثله . . وإيقاع المثل إيقاع حالة مورده وأصله على حالة مضربه الجديدة، أو إظهار أثرها فيها وتشبيهها بها، فمن هنا استعمل الضرب من الاعتبار المعنوى المشابه للاعتبار الحسى من الضرب بمعنى التأثير، أو الضرب بمعنى الصوغ على أصل واحد » .

أما معنى المثل، فقد قيل : « الميم، والثاء، واللام، أصل صحيح يدل على مناظرة الشىء للشىء، وهذا مثل هذا، أى نظيره .

والمثل والمثال فى معنى واحد، وربما قالوا مثيل كشبيه»(2) .

وقيل « المثل، والمثل، والمثيل كالشبيه، والشبه، والشبيه، لفظا ومعنى، والجمع أمثال. . .

وقد يستعمل المثل - بكسر الميم - عبارة عن المشابه لغيره فى معنى من المعانى، أى معنى كان »(3) .

---

(1) عن: محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فيرجينيا، ١٩٩٣، ص ٧٣ .

(2) ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا) : معجم مقاييس اللغة . تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة، ١٣٦٦هـ، جـ٥، ص ٢٩٦ .

(3) الفيروز آبادى (محمد بن يعقوب): بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد على النجار، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٣٨٣ ، ١٣٨٥هـ، جـ٤، ص ٤٨١ .

وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، « وذلك أن الند يقال فيما يشاركه فى الجوهرية فقط، والشكل يقال فيما يشاركه فى الكيفية فقط، والمساوى يقال فيما يشاركه فى الكمية فقط، والمثل عام فى جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر، فقال تعالى : ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] ، أى ليس مثل صفته شيء من أوصاف الخلق، فالكاف بمعنى مثل، والمثل بمعنى الصفة »[1].

والمثل - بفتح الميم والثاء - يستعمل غالبا في الأمور المعنوية، لهذا قال عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل] .

والمثل بفتح الميم والثاء عند الأدباء هو قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى مثل لأجله بأن مضربه بمورده[2] .

ولعل أبرز وأوضح تعريفات المثل أن يقال هو « إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا، وتجعله أكثر إمتاعا للعقل وإمتاعا للأذن، بغض النظر عن مضربه ومورده، بل لا يشترط أن يكون له مورد، وإنما يجرى مجرى الحكم التى يتناقلها الناس فيما بينهم على سبيل الاحتجاج أو النصح، أو الاتعاظ أو التفكه والتندر، وما إلى ذلك من أغراض المثل »[3] .

وقد أشار كثيرون إلى ما يكتسبه المثل من أهمية تجعله ذا تأثير ملحوظ فى سلوك الإنسان، فابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) مثلا، رأى فى المثل إيضاحا للمعنى ومجالا للتوسع فى الحديث، من غير أن يفقد الحديث رونقه الحسن على الأسماع فقال[4] : «إذا جعل الكلام مثلا، كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين فى المعنى، وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث »، واعتبر إبراهيم النظام (توفى ٢٢١هـ) المثل نهاية البلاغة بعد أن أشار إلى ما اجتمع فيه من خصائص رأى أنها لا تجتمع فى غيره من الكلام فقال[5] : «تجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاد اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة » .

---

(١) محمد بكر إسماعيل : الأمثال القرآنية، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٤) عن : محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٨٦.

(٥) المرجع السابق . الصفحة نفسها.

وتحدث عبد القاهر الجرجانى عن تفضيل العقلاء للتمثيل على غيره من الأساليب، وأطال الحديث عن تأثيره فى النفوس مدحا كان أو ذما أو فخرا أو اعتذارا، فقال[1] : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها » .

أما الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) فقد رأى أن فى ضرب المثل « زيادة فى الكشف وتتميما للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه شاهد . وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبى . ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله»[2] .

وجاء فى « الهوامل والشوامل » ، أن أبا حيان التوحيدى سأل صاحبه مسكويه عن قيمة التمثيل وفائدته فقال : ما الذى يجده الإنسان فى تشبيه الشىء بالشىء حتى يخطر ذلك المعنى على قلبه، ويلهج بذكره فى قوافيه ونثره ؟ فأجاب مسكويه بقوله : الذى يجده الإنسان من ذلك هو السرور بصدق التخيل، وحسن انتزاع الصورة من المواد حتى تأحدت الصورة بعد أن كثرتها المادة . وذلك أن تشبيه الخوخة بالحمصة هو انتزاع الشكل الذى وجد فى مادتيهما وملاحظتهما شيئا واحدا، وان اختلفت به المواد فى الكبر والصغر والرطوبة واليبوسة واللون والمذاق وغيرها من الأعراض، والتفطن لذلك وتجريد الصور من المواد، ورد بعضها إلى بعض من خاص فعل النفس، فالسرور به سرور نفساني؛ فلذلك يلهج به كما يلهج بما يظفر إذا كان طبيعيا، بل هذا أشرف وأفضل[3] .

ثم يباشر أبو حيان صاحبه بهذا السؤال الذى هو موضوعنا، فيقول : « ما السبب فى طلب الإنسان فيما يسمعه ويقوله ويفعله ويرتئيه ويروى فيه، الأمثال ؟ وما فائدة المثل؟ وما غناؤه من مأتاه ؟ وعلى ماذا إقراره ؟ » فقال مسكويه مجيبا : إن الأمثال فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب فى ذلك أنسنا بالحواس وإلفنا لها منذ أول كونها، ولأنها مبادئ علومنا، ومنها ترتقى إلى غيرها، فإذا أخبر الإنسان بما لم يدركه

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٢) الزمخشرى : الكشاف، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٢، جـ١، ص ١٩٥ .

(٣) صالح عضيمة : مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية الإسلامية، دار النصر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٣٦٧ .

أو حدث بما لم يشاهده، وكان غريبـا عنده، طلب له مثالا من الحس، فإذا أعطى ذلك أنس به، وسكن إليه لإلفه له .

وقد يعـرض فى المحسوسـات أيضا هذا العارض، أعنى أن إنسـانا لو حدث عن النعامة والزرافـة والفيل والتمسـاح، لطلب أن يصور له ليقع بصره علـيه ويحصل تحت حسه البصرى ولا يقنع فيما طرقه حس البصر بحس السمع حتى يرده إليه بعينه. وهكذا الأمر فى المـوهومات، فإن إنسـانا لو كلف أن يتوهـم حيوانا، وإن لم يكـن له وجود، فلابد لمتوهمه أن يتوهمه بصورة مركبة مـن حيوانات قد شاهدها . فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت الحس، وأبعد من أن تمثل بمثال الحس إلا عن جهة التقـريب، صارت أحرى أن تكون غريبـة غير مألوفـة، والنفس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مثلا لتأنس به من وحشة الغربة، فإذا ألفتها وقويت على تأملها بعين عقلها من غير مثال، سهل حينئذ عليها تأمل أمثالها .

يقول سبـحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ... ﴿٥٨﴾﴾ [الروم] فلو لم تكن الأمثال من أمضى أسلحة الخصومة الكلامية، ولو لم يكن لها من السطوة والسلطان على النفوس ما ليس لغيرها، لما ركن إليها - مثل هذا الركون - فى مثل هذه الخـصومة والمحاجـة، كما يرينا القـرآن أنه إذا كانت أمثـاله نارا أحرقت أباطيل المبطلين وسيوفا ماضية شهرها فى وجوه المعاندين والمكابرين فإنها نور يكشف للناس الغى من الرشاد، والهدى من الضلال، ويميـز به الخبيث من الطيب، فهى ليست تصويرا وتشـخيصا للأشـياء لمجرد الرغـبة فى التصويـر والتشخيص، وإنما هى إحـقاق للحق، وإزهاق للباطل وحكم للشىء أو علـيه . وفيها العـبرة لمن اعتبـر، والتذكرة لمن شاء أن يتذكر، فهى تجسد ذلك وتبـرزه من طريق الصورة، ومن هنا كانت الأمثال خير باعث على التذكير والتفكير والاعتبار[1]، قال تعالى : ﴿... وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم] .

﴿... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر] .

وكون الأمثال إحدى رسائل الهداية، وأبلغ ما ينبه به المخطئ إلى خطئه والمحسن إلى إحسـانه، يفسـر لنا ما أخـبرنا الله به من أنه مـا من أمة من الأمم التى نزلـت بها عقوبته وحلت بساحتها نقمتـه إلا وقد ضرب لها الأمثال، حتى إذا لم تضع حدا لغواية

---

(١) محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٢٦٣ .

تلك الأمة وعصيانها، أنزل الله بها مـا أنزل، وأحل بها ما أحل، فقال تعالى - بعد أن ذكر من ذكر ممن أهلكهم واستأصل شأفتهم من الأقوام[1] :

﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان].

والمثل ينقسم إلى ثلاثة أقسام[2] :

الأول : المثل الصريح، وهو ما صـرح فيه بلفظ يدل على التشبيـه كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة].

الثاني : المثل الكامن، وهو جـملة أو جمل لم يصرح فـيها بلفظ يفـيد التشبـيه لكنها تشير إلى بيان يصح نقلها إلى نظائر معناها، فجرت مجرى الأمثال[3] .

ومن الأمثلة عليـها أن من أمثال العرب : «خـير الأمور أوسطها» فـهذا نجده فى آيات مثل :

- ﴿ ...وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء].

- ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء].

ومن الأقوال السائرة كذلك : من جـهل شيئا عاداه، نجد مـا يعبر عنه فى القرآن الكريم :

- ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس] .

ومن الأقوال كذلك : «احذر شر من أحسنت إليه»، نجد ما يعبر عنه فى القرآن:

﴿ ...وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة].

وما يماثل القول القائل : «فى الحركات بركات» قوله عز وجل :

---

(٢) محمد جابر الفياض، الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٢٦٥ .

(٣) محـمد محمـود بكار : الأمثال من الكتـاب والسنة وأثرها فى هدى الأمة، مـجلة أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، أسيوط، العدد الثالث، ١٩٨٥، ص ١٥٧ .

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ...﴿١٠٠﴾﴾ [النساء] .

أما قول القائل : «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» فيماثله قوله الله عز وجل :

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ...﴿٦٤﴾﴾ [يوسف]..

النوع الثالث : وهو كسابقه، لم يصرح فيه بذكر المثل، فهو كلام دقيق موجز بليغ يصلح لأن يتمثل به فيورث الكلام بهاء ورونقا، والمقام وضوحا وجلاء[1] . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿... الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ...﴿٥١﴾﴾ [يوسف] وقوله : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم]، وقوله : ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ...﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿... مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ...﴿٩١﴾﴾ [التوبة].

وهناك من الباحثين ما يستبعد ما قيل أنه « أمثال كامنة »، وأنه لمضيعة للجهد وللوقت محاولة إخراج أمثال العرب والعجم والخاصة والعامة من القرآن، فلا يزيد فضل القرآن تضمنه ما لهؤلاء أو غيرهم من أمثال، ولا يقلل من فضله خلوه منها، فللقرآن أمثاله، ولهم أمثالهم، وله فى أمثاله أسلوبه ولهم أساليبهم[2] .

خصائص الأمثال القرآنية

ومن يتتبع الأمثال القرآنية يستطيع أن يكتشف الخصائص التالية لها[3] :

الأولى : دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية .

الثانية : التصوير المتحرك الحى الناطق، أو الأبعاد المكانية والزمانية، والذى تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية والحركات الفكرية للعناصر الحية فى الصورة .

الثالثة : صدق المماثلة بين الممثل والممثل له .

الرابعة : التنويع فى عرض المثال، مرة بالتشبيه، ومرة بالعرض المفاجئ، وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركب الذى يطابق منه جزءا من الممثل له، وأخرى بالتمثيل المركب الذى ينتزع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة، وغير ذلك من فنون القول وأساليبه.

الخامسة : البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له، على اعتبار أن الممثل

(١) محمد محمود بكار، ص ١٦٢.

(٢) محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٢١٠ .

(٣) محمد بكر إسماعيل، الأمثال القرآنية، ص ٣٩.

قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل فى ذهن المخاطب ونفسه . وإذا حضرت صورة الممثل له ولو تقديرا، فالبيان البليغ يستدعى تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة .

السادسة : كثيرا ما يحذف من المثل القرآنى مقاطع من الصورة التمثيلية اعتمادا على ذكاء أهل الاستنباط، إذ باستطاعتهم أن يتصوروا فى أذهانهم كامل الصورة ويتموا ما حذف منها .

وعلى هذا فقد تعرض الصورة التمثيلية من وسطها، أو من مشهد أخير فيها . وقد يحذف أيضا من الممثل له مقاطع، فتعرض مثلا بداياته، وتحذف نهاياته، أو العكس، اعتمادا على أن المثل قد ذكرت فيه الصورة المماثلة لما حذف من الممثل له، فيدل المعروض فى كل منهما على المحذوف من صاحبه .

ولعلنا بعد ذلك يمكن أن نعرض للأهداف التربوية للتمثيل فى القرآن الكريم، والموضوعات التى طرقتها لتحقق الأهداف المبتغاة :

١ - تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب، وذلك بأن يكون المخاطب جاهلا بحقيقة الشيء الممثل له جهلا مطبقا أو لديه جهالة به أو كان غامضا عليه مع علمه به على وجه الإجمال، فيأتى المثل القرآنى لرفع هذه الجهالة وإزالة هذا الغموض والفصل فى القضية فصلا يقره العقل السليم ولا يمجه الطبع المستقيم فلا يقع المخاطب بعد فهمه لهذا المثل تحت الشك و الخيال المفرط، بحيث لا يسعه إلا الإيمان به والتسليم بنتائجه[1] .

وعلى سبيل المثال، ففى الجنة نعيم عجيب، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . ولكى يقرب القرآن بعض متاعها لبعض النفوس التى لا تؤمن إلا بالمحسوس، أبان فى كثير من آياته كثيرا من تلك الأجواء الإلهية التى يعيشها أهل الجنة ﴿**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴿٥٦﴾﴾ [يس] . ﴿... **لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا** ﴿١٣﴾ **وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا** ... ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان] ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** ... ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف] ﴿... **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** ... ﴿٣١﴾﴾ [الكهف] ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ** ... ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن]﴿**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين] ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر] ﴿...**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا**

(١) المرجع السابق . ص ٤٣ .

الأنهار ... ﴿٨﴾ ﴾ [البينة] ﴿ ... وَقَالُوا الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهذا وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ل... ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

أجواء مفعمة بالغبطة والرضا، والمنافع والمتع، ومع هذه المتع الحسية التى صورها القرآن متع أخرى معنوية من رضا نفسى وسرور برضوان الله، ونيل مغفرته، وتلك لذة روحية أسمى من النعيم المحسوس[1].

وقد رسم القرآن – فى بعض سوره – صورا محسوسة، وصفت الجنة وأنهارها الجارية ومياهها المنسابة المتنوعة بين ماء حلو ولبن خالص وخمر شهى وعسل صاف[2].

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ...﴿١٥﴾ ﴾ [محمد].

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد].

٢- الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة[3].

والحجة البرهانية هى الحجة الملزمة التى تفيد اليقين. أما الحجة الخطابية فهى حجة إقناعية ظنية تفيد الظن الراجح.

ولفت النظر يكفى فيه إيراد المثل المشابه ولو لم يشتمل على أية حجة.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس].

فها هنا نجد من هذه الآيات الكريمات عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته فى

---

(١) محمود بن الشريف: الأمثال فى القرآن، دار المعارف، سلسلة اقرأ (٢٦٥)، القاهرة، يناير ١٩٦٥، ص ٦٠.

(٢) المرجع السابق. ص ٦١.

(٣) محمد بكر إسماعيل: الأمثال القرآنية، ص ٤٤.

أبلغ تعبير وأسلم تقرير، وإن فى هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما فى الغيب على المشاهد، وقيـاس ما بينه الله- تعالى- وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئى مشاهد، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله- تعالى- وأنه المالك لما هو واقع، والقادر على ما لم يقع الآن وسيقع، كما وعد، ووعده لا يتخلف[1] .

وساق القرآن مثلا لهؤلاء الذين أنكروا إنسانية «عيسى ورسالته» متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية، فقد خلق من غير أب . ويرد الله - سبحانه - عليهم فى هذا المثل بأنه لا غرابة فى ذلك، فإن كان عيسى قد خلق من غير أب، فإن آدم قد خلق من غير أب[2] ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] .

٣- الترغيب والترهيب، بذكر محـاسن ما يرغب فيه ومساوئ مـا ينفر منه، يقول تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾** ﴾ [الكهف].

والدلالات التربوية التى تستهدفها هذه الآيات الكريمات هى[3] :

- التذكير بزوال بهجة الحـياة مهما فتنت أصحابها بسحـرها وجمالها، فالعاقلون وحدهم هم الذين يدركون أنها بهجة مؤقتة لا تدوم، لا بد أن تنقضى، والجاهلون

---

(١) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، ص ٣٨١.

(٢) محمود بن الشريف، ص ٣٤.

(٣) فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى، ص ٤٤٦.

ينساقون وراء النزوة الطارئة، والمتاع الزائل، ويغفلون أو يتغافلون عما وراء الحياة، حتى تدور الدائرة عليهم .

- التنبيه على أنه ليس هناك من ضمان لمستقبل الإنسان غير الإيمان، فيه وحده يطمئن المرء إلى أنه قيمة مثالية لا تخضع أو تهون، مهما تقلب الزمن، واستبدت الشدائد بل تزداد توهجا وصفاء فى زحام الخطوب، ثم هى بعد ذلك صاحبة الحظوة يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه .

- تبشير المؤمنين بحسنى العاقبة، وتخويف الكافرين من عذاب النار، وهم فى الدنيا، فربما يعيدون النظر، ويقبلون الفكرة حتى يهتدوا إلى الله .

- العظة والإرشاد بأن متاع الآخرة هو المتاع، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب .

- التنفير من البطر بالنعمة، والاعتزاز بالغنى، وكبرياء الأغنياء على الفقراء، ففى ذلك ما فيه من غرس بذور الحقد والكيد والانتقام .

ومن الأمثلة الأخرى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾ [إبراهيم].

فهذه الآيات تصور المعركة الأبدية بين الخبيث والطيب، بين الشر والخير، بين الوهم والحقيقة، كما تصورها فى قوتها ونتائجها وخواتيمها .

فالكلمة الطيبة - دعوة كانت أو حركة أو عملا - كالشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان، وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان، فهى سامقة متعالية تطل على الشر والظلم والطغيان من عل . . وإن خيل إلى البعض أحيلنا أن الشر يزاحمها فى الفضاء، وهى مثمرة لا ينقطع ثمرها لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة حينا بعد حين.

وعلى العكس من ذلك عن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، قد تهيج وتتعالى وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل

نافشة هشة، وتظل جذورها فى التربة قريبة، حتى لكأنها على وجه الأرض، وما هى إلا فترة، ثم تجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء[1] .

ليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع، إنما هو الواقع فى الحياة، ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى، مهما زاحمه الشر وأخذ عليه الطريق .

والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به - فقلما يوجد الشر الخالص - وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير، فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال. إن الخير بخير! وإن الشر بشر!

٤- إثارة محور الطمع والرغبة أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب، ففى إثارة محور الطمع يتجه الإنسان بمحرض ذاتى إلى ما يراد توجيهه له، وفى إثارة محور الخوف والحذر يبتعد الإنسان بمحرض ذاتى عما يراد إبعاده عنه، وهذا من الأهداف التربوية المهمة، ونلاحظه بكثرة فى البيانات القرآنية أى فى الأساليب التى تجسم المعانى فى صور محسة ومشاهدة فى الواقع الخارجى، ومن خلال الظواهر الطبيعية والمشاهد الكونية[2] .

والفرق بين هذا الهدف والذى قبله أن هذا الهدف لا يقتصر على ذكر محاسن الشىء وتقبيحه وإنما يذكر ما فيه من ربح جم أو خسارة فادحة ليبعث فى النفوس تلك الكوامن الفطرية فى الإنسان، بحيث تكون هى الدوافع الأساسية للتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل[3] .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة].

فهذا الفريق من الناس تعود نفقتهم عليهم بما لا سبيل إلى عده. إنها تعود عليهم بطمأنينة لا تشوبها شائبة من خوف، وسرور لا يعتريه شىء من حزن، يوم الكرب

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن م٤، ص ٢٠٩٨ .

(٢) محمد بكر إسماعيل، الأمثال القرآنية، ص ٤٥

(٣) المرجع السابق . ص ٤٨ .

العظيم، يوم يود الذين لم يستجيبوا لربهم، لو أن لهم ما فى الأرض جميعا، ومثله معه لافتدوا به أنفسهم من أهواله[1].

وإذا كان هذا ما تعود به النفقة على منفعتها، فينبغى أن لا يمتن المنفق بما أنفق عليه، لأن امتنانه هذا يبطل ثواب نفقته، لأنه - بامتنانه، يكون كالآخذ بالشمال ما أعطاه باليمين، ويقول عز من قائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة] .

فشبه المنفقين أموالهم من المؤمنين المانّين بنفقاتهم على من تصدقوا عليهم والمؤذين لهم - أيا كان الإيذاء - بالمرائين، الذين لم ينفقوا ما أنفقوا إلا ليوهموا الناس أنهم من خيار الناس . ومثل هؤلاء لا يخفى أمرهم مهما حاولوا إخفاءه، فثوب الرياء يشف عما تحته، وإذا ما كشف الناس أمرهم - وسرعان ما يكشفون - يكونون بريائهم هذا قد فقدوا أموالهم التى أنفقوا، وما كانوا يطمعون فى الحصول عليه من وراء إنفاقها[2] .

وعلى العكس من ذلك، نجد فئة لا يحركها الرياء وإنما تنفق فقط طلبا لرضى الله :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة].

فبعد أن ذكر الله المانين على الفقراء، والمؤذين لهم الجارحين - بهذا المن والإيذاء مشاعرهم، المتناسين أن هؤلاء الفقراء أناس أمثالهم، وكشف سبحانه وتعالى عن تحجر قلوبهم، فمثلهم بالصفوان تنبيها على قسوة تلك القلوب وغلظتها وعدم الانتفاع بها، عرض لنا صنفا آخر من الناس، أفعمت قلوبهم بالعواطف الإنسانية النبيلة، فرقت ولانت وأرهف إحساسها فظلت بين حب الله وخوف من عقابه، وأمل فى ثوابه، فتطلعت إلى رحمة الله برحمة عباده والشفقة عليهم، وأداء كل ما عليها

(١) محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٣١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٣.

لربها، فأصحابها أخيار، طبعوا على الخير، لا يصدر عنهم إلا الخير، فلا عجب أن يمثلوا بالجنة[1].

٥- مدح من يستحق المدح، وذم من يستحق الذم بقصد التمييز بين المصلح والمفسد، والمحسن والمسيء ليزداد المحسن إحسانا ويرعوى المسيء عن إساءته[2].

ومن الأمثلة التى تقع فى هذا الباب آيات يتحدث فيها القرآن عن صحابة محمد ﷺ وآيات يتحدث فيها عن أعداء الدعوة الإسلامية.

يقول عز وجل: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ...** (٢٩)﴾ [الفتح].

فها هنا نجد شدة ورحمة... رقة وغلظة[3].

شدة وغلظة على أعداء الدين ورأفة ورحمة بإخوانهم المؤمنين. هؤلاء هم صحابة محمد ﷺ.

فى الحرب أرواحهم على أكفهم، يسبقون الموت إلى ملاقاة الأعداء.. وفى السلام حب ودعة ورقة حاشية، ودماثة خلق وخشوع وخضوع، وركوع وسجود، وابتهال ودعاء، وعبادة وإخلاص وإشراق وصفاء.

ذلك مثلهم فى التوراة ووصفهم فيها ومثلهم كذلك فى الإنجيل كزرع أثمر وأينع، ثم قوى وغلظ، ثم استوى واستقام حتى أعجب الخاصة من الزراع والعامة من الناظرين.

وهو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم، لأن النبى ﷺ قام وحده، ثم قواه الله - تعالى - بمن معه.

وفى المقابل هناك اليهود، كلفهم المولى العمل بالتوراة لتضمنها عقيدة الله وشريعته فلم يعملوا بها ولم يقدروها حق قدرها، ولم ينتفعوا بما تضمنته من عقيدة

---

(١) الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم، ص ٣٤٠.

(٢) محمد بكر إسماعيل، الأمثال القرآنية، ص ٤٨

(٣) محمود بن الشريف المثال فى القرآن، ص ٩٩.

وشريعة، فمثلهم كمثل الحمار يحمل فوق ظهره كتبا قيمة وأسفارا نافعة يستفيد بها الغير، وهو حامل بما يحمل لا يستفيد منه ولا ينتفع[1].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة].

ثانيا: التساؤل:

المفروض فى التساؤل أنه بحث عن المعرفة، لكنه فى القرآن إذ يقع من الله- عز وجل- علام الغيوب لا يكون الأمر كذلك وإنما يوجهه لعباده إيقاظا لعقولهم وحثا لهم على التفكير بحثا عن الإجابة فضلا عن أنه يجيء أحيانا للتبكيت .

وفى مجال التعليم يعد التساؤل أسلوبا على درجة عالية من القيمة التربوية؛ لأنه يدفع طلاب العلم أن يشحذوا ذهنهم لاقتحام منطقة مجهولة من المعرفة والربط بين الجزئيات والبحث عن الحكم والغايات والدوافع .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وتتبعنا مادة سأل ومشتقاتها فى آياته الكريمة لوجدنا أنها ذكرت فى القرآن مائة واثنين وثلاثين مرة، ويدور معناها حول ما يأتى[2] :

١- بمعنى الاستخبار، كما فى قوله تعالى : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج] .

٢- الاسترشاد وطلب المعرفة كما فى قوله تعالى : ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ... ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء].

٣- سؤال الطلب وعرض الحاجة كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن].

٤- سؤال المخاصمة والمجادلة، كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبأ].

٥- سؤال الإجابة والاستجابة كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة] .

٦- سؤال المحاسبة والمناقشة كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر].

---

(١) المرجع السابق . ص ١١٠ .

(٢) محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء، ص ٣٣.

٧- سؤال بمعنى المؤاخذة والمجازاة كقوله تعالى: ﴿ ...ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة].

وهناك أساليب أخرى أشار إليها عدد من الباحثين :

فقد يجيء على سبيل الاختبار، وذلك حيث يكون السائل عالما ويريد امتحان المخاطبين واختبار معارفهم، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] فالمراد اختبار بلقيس أتهتدى إلى عرشها أم لا ؟

وأسلوب الاختبار يعقبه الجواب الذى قد يتبع بالجواب الصحيح، لقوله تعالى : ﴿ ... كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

وهناك أساليب التعظيم والتهويل، وقد جاء التعظيم « بأى » التى أفادت تعظيم ما أضيفت إليه كما فى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرحمن] .

لكن هناك تساؤلات متعددة فى القرآن لم يرد فيها فعل « سأل »، مما يقتضينا الإشارة إلى أدوات التساؤل .

لعل أكثر أدوات التساؤل ورودا فى القرآن « الهمزة»[1] .

وأغراض استخدام التساؤل بالهمزة كثيرة جدا يضيق المقام عن ذكرها مما يضطرنا إلى الاقتصار على بعضها، فهى تأتى للإنكار غالبا إذا وقع بعدها الفعل الماضى، وأحيانا هو إنكار واقع يراد به تقبيح الفعل والتوبيخ عليه والتعجب من فاعله كقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف].

وقد يكون الغرض الحسرة محل التوبيخ كقوله تعالى : ﴿ ... أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ... ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة]، وإذا دخلت على فعل الأمن أفادت بالإضافة إلى ما تقدم التهديد كقوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الملك] ، كما جاء في استعمالها للتهكم والسخرية كقوله تعالى مخاطبا إبليس: ﴿ ... أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] .

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن، ص ٢٧٩ .

أما إذا كان الماضى غير واقع، فيراد عند ذلك، إنكار وقوعه واستبعاد حصوله مع التهكم كقوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الصافات] .

وإذا وقع المضارع بعد الهمزة فهو كذلك لإنكار الواقع مع تقبيح الفعل وتوبيخ فاعله كقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات].

ومن الأدوات كذلك « هل » التى وردت بكثرة إذ جاءت أكثر من تسعين مرة، واستعملت لإفادة التقرير مع الإثبات أو للتشويق إلى استماع ما بعدها من قصة أو خبر. وقد استعملت مع فعل الأنباء أو فعل الاستواء للتمييز بين متناقضين، وقد تأتى للتحدى، ومع النفى للوعيد . وقد تكون للتعجيز مع التهكم أو للتطلف فى الطلب أو العرض[1] ، ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [النازعات].

وقد تستعمل للتمنى أو للتحسر مثل قوله: ﴿ ... فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وجاءت بمعنى طلب الاعتراف بحقيقة ثابتة، كما ورد عن بعض المفسرين أن «هل» تأتى بمعنى « قد » كما فى قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ [الغاشية] .

أما « من » فقد وردت فى أكثر من مائة موضع فى القرآن . ومن الملاحظ أنه فى معظم استعمالاتها يليها فعل عظيم باهر، وفاعله لذلك متعين لا يجحد، ويستفاد منها التقرير بمعنى طلب الاعتراف مع إفادة التعظيم، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

كذلك يكثر استخدام أداة الاستفهام « ما » حتى أنها جاءت فى أكثر من مائة وثمانية موضعا فى القرآن . ومن أغراضها الاستفهام الحقيقى وهو كثير، ومن أغراضها أيضا إرادة إنكار علة الفعل الواقع بعدها بقصد إنكار الفعل نفسه، مثل قوله عز وجل: ﴿ ... فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [آل عمران] . وقد تفيد تقبيح الفعال السيئة وتوبيخ مرتكبيها، كما قد تفيد مع الإنكار التعجب والعقاب فى قوله تعالى :﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة].

ومن الأدوات «متى»، وقد وردت فى القرآن تسع مرات، منها مرة واحدة فى

---

(١) لغة القرآن الكريم، ص ٢٨٢ .

السور المدنية، ومن الملاحظ أنه يأتى الشرط بعدها فى كثير من الأحيان، وتستعمل لتصويرَ الهول وشدة العذاب[1] .

والتساؤل قد يأتى فى صورة إثبات كما فى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء] أو فى صورة نفى كقوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان]. ومعنى ذلك، أنه قد حصل لكم العلم بذلك تجدونه عندكم إذا استفهمتم أنفسكم عنه، فإن الله- عز وجل- لا يستفهم خلقه عن شىء، وإنما يستفهمهم ليقررهم، ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشىء، وهو أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن[2] .

وقد يسمى الوارد للنفى استفهام استنكار، والوارد للإثبات استفهام تقرير، لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب، وبالثانى إقراره به فاستفهام الإنكار كقوله تعالى: ﴿ ...وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ] وقوله: ﴿ ... أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزمر]، والمعنى : لا نجازى إلا الكفور. ولست تنقذ من فى النار .

ومثال استفهام التقرير، مثل قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى].

ومن الدلالات التربوية مطالبة الرسول ﷺ أن يقتدى بربه، وأن تقتدى أمته به فى مسالك الخير لتصل إلى النموذج الذى خلقه الله فيه، أو ما يقرب منه وتعداد هذه النعم يتطلب الشكر عليها، لأن جحود النعم نكران سخيف فى عالم النسيان[3] .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

---

(١) لغة القرآن الكريم، ص ٢٨٣ .

(٢) فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية، ص ٣٦٥

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٧ .

فهذا الاستفهام للنفى، إذ المعنى الكلى : ما عندكم من علم بأن- الله تعالى - حرم عليكم «إن أنتم إلا تخرصون»، أى تتوهمون ما ليس له حقيقة واقعا .

ولا شك أن المجىء بصورة استفهام فيه ميزتان: إحداهما تنبه إلى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذى يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الله ما لا يعلمون. . والثانية أن فى الاستفهام حملا لهم على أن يقولوا بالنفى. وفوق ذلك فإن سياق الكلام فيه توبيخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة، لا أساس لها من حق ولا علم[1].

وإذ كان هذا إنكار وقوع موضع الإنكار، فهناك إنكار يقال إنه الواقع، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ما وقع على أنه لا أصل له، فى مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف].

والإنكار إذا كان نفيا لوقوع أمر، فمؤداه أن الأمر لا يقع، ولا يعقل أن يقع، فهو نفى مؤكد، وإذ هو ليس نفيا للفعل فقط، بل هو نفى له مع بيان أنه لا ينبغى ولا يجوز أن يقع. وإذا كان الفعل قد وقع، فهو توبيخ على الوقوع، واستنكار له[2] .

وسواء كان التساؤل تساؤل إنكار أو إثبات، فإنهما يدخلان فى باب التساؤل بمعنى الخبر حيث إن هناك تساؤلاً بمعنى الإنشاء. والتساؤل المراد به الإنشاء يخرج إلى معنى الأمر[3] ، كقوله تعالى: ﴿ ... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة] ، أى انتهوا أو قد يخرج إلى معنى النهى كقوله عز وجل : ﴿ ... أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ... ﴿١٣﴾ ﴾ [التوبة]. حيث قال فى آية أخرى: ﴿ ...فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ...﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] .

كما قد يخرج إلى معنى : التحذير ، كقوله : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المرسلات].

والتذكير : كقوله : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف] .

والتنبيه : كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ... ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، القرآن، ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٣) فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية، ص ٣٧١ .

وهناك من الصيغ الاستفهامية تلك التى تجيء فى القرآن الكريم ما يكون للإفحام والرد، كالرد بالصيغة الاستفهامية[1] . إذ يقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة].

وإن ذلك الاستفهام مع دلالته على استنكاره قولهم، فيه دلالتان أخريان : إحداهما إعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم مأخوذون بما يقترفون من سيئات، وما يجترحون من مآثم ومظالم. . والثانية : الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه، وعمل السوء له عقابه وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل، وما كان لهم أن يدّعوا محبة الله، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء، ومع ذلك يعصمونه وينشرون فى الأرض الفساد.

فهذا استفهام مع ما فيه من أحكام واستنكار يتضمن معانى سامية فيها التهديد لمن يعصى، والتبشير لمن أطاع[2] .

* * *

(٤) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى، ص ٢١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٧.

الفصل الخامس

تعليم القرآن وتعلمه

مقدمة

لم تكن الشخصيات النموذجية التى رباها المنهج القرآنى فى صدر الإسلام أفرادا تعد على أصابع اليدين، إنما كانت حشدا كبيرا، يعجب الباحث كيف انبثقت هكذا رائعة ناضجة إلى هذا المستوى العجيب، فى هذه الفترة القصيرة المحدودة، ويعجز عن تعليل انبثاقها على هذا النطاق الواسع، وعلى هذا المستوى الرائع، وفى مثل هذا التنوع فى النماذج، ما لم يرد هذه الظواهر إلى فعل ذلك المنهج الفريد[1].

والمهم أن نعرف أن هؤلاء الناس، الذين تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا : النماذج التى ظلت فريدة فى عظمتها، وظلت سائر النماذج على مدار القرون تبدو فى ظلها أقزاما صغيرة، أو كانت غير تامة الوجود .. المهم أن نعرف أن هؤلاء الناس تمثلوا تلك التربية القرآنية على هذا النحو العجيب، وقد ظلوا - مع هذا - ناسا من البشر لم يخرجوا أنفسهم كذلك فوق طاقاتهم .. لقد زاولوا كل نشاط إنسانى، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحا لهم فى بيئتهم وزمانهم، لقد أخطئوا وأصابوا، وعثروا ونهضوا وأصابهم الضعف البشرى أحيانا أخرى[2] .

والمعرفة بهذه الحقيقة ذات أهمية قصوى، فهى تعطى البشرية أملا قويا فى إعادة المحاولة وتجعل من واجبها - بل تجعل من حقها - أن تتطلع إلى هذه الصورة المضيئة الممكنة وأن تظل تتطلع، فهى صورة من شأنها أن تزيد ثقة بنفسها، وبفطرتها، وبمقدراتها الكامنة، التى يمكن - عندما يوجد المنهج الصالح - أن تبلغ بها إلى ذلك المستوى الإنسانى الرفيع الذى بلغته فى تاريخها، فهى لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر، إنما بلغته فى ظل منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهد البشرى، وفى حدود الطاقة البشرية.

ولقد انبثق هذا الجيل العظيم من قلب الصحراء، الفقيرة الموارد، المحدودة القدرات الطبيعية والاقتصادية والعلمية، وعلى كل ما كان فى هذه البيئة من الموافقات

---

(١) سيد قطب، هذا الدين، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المكونة لهذا الانبثاق الهائل العجيب، فإن البشرية - اليوم وغدا - ليست عاجزة بفطرتها، ولا عاجزة بمقدراتها، أن تنجح مرة أخرى فى المحاولة، إذا هى اتخذت تلك التربية نهجا لحياتها[1].

التوجه القرآنى لبناء الإنسان:

لقد بلغ من إدراك العرب لإمكانات القرآن البنائية أن تمنوا نزول القرآن على رجل منهم ذى شأن : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]، بل إن منهم من كان يسترق السمع، مأخوذا بالبيان المعجز. . قال ابن إسحق « وحدثنى محمد ابن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس ابن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكان لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا، ثم انصرفوا . . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض، لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا »[2] .

وما يغلب على هذه القصة من طابع الحكاية الشعبية، ثلاثة زعماء يلتقون على غير موعد ثلاث مرات يمكثون وقتا محددا، ويقولون قولا لا يختلف، ثم يتعاهدون ويبرون مع هذا، فإنها تعبر عن أن شيئا قريبا من هذا قد حدث، كما تعبر عن قوة الأثر القرآنى فى نفوس القوم، وعن قناعتهم الفطرية، ولولا ما يصرفهم من صوارف العصبية والعناد لأسلموا له [3] . والقرآن الكريم يسجل هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة].

فلولا أن يحال بين المشركين والقرآن لآمنوا به، إدراكا للمعجزة البيانية، وهذا ما

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٢) ابن هشام – السيرة النبوية، الحلبى، ١٩٢٦، جـ١، ص ٣٣٧.

(٣) كامل سعفان : المنهج البيانى، ص ٧ .

جعل المشركين يقيمون حول الرسول حصارا، حتى لا يصل إلى العرب القادمين فى موسم الحج، ويكفى أن مصعب بن عمير فتح يثرب بالقرآن، ووقع عمر بن الخطاب فى أسر الخطاب القرآنى، وكان ذاهبا ليفتك بالمؤمنين من أهل بيته، فإذا آيات كريمة من سورة طه تنسخ وجوده، وتبدل عنفه وكفره تسليما وإيمانا[1].

وقد تحدث القرآن عن مجموعة القسيسين الذين إذا سمعوا ما أنزل على الرسول فاضت أعينهم بالدمع ! ولن يقتصر هذا التأثير على الصوت المنغم، بل ربما كان الصوت الطبيعى أدعى إلى الخشية وأعون على التأثير، ولقد أحدث القرآن فى نفس الوليد بن المغيرة من التأثير ما جعله يرق له، حتى رمته قريش بأنه صبأ عن دين الآباء، والأجداد، وأرسلت إليه أبا جهل يستثير فيه العصبية ويوقظ الجهالة ليقول فى القرآن قولا سيئا كيلا يفتن العبيد والصبيان - بل قريش كلها - بفتنته، فإنه كان رأسا فيهم، فلما طلب منه أن يسفه القرآن رد عليه الوليد قائلا : وماذا أقول فيه ؟ ما منكم رجل هو أعلم بالشعر رجزه وقصيده ولا بأشعار الجن منى .. والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئا من هذا[2] .والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه! قال أبو جهل : فوالله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ما يسوء ويكره ! قال الوليد: فدعنى أفكر، حتى إذا فكر وقدر قال : إنه لسحر يؤثر. أو هو اعتراف بالتأثير التربوى العميق على أبلغ وجه ! أو احتيال على وصف التأثير إنما ينسجم مع الدعاية المغرضة ضد محمد والقرآن، تلك الدعاية التى كان يتزعمها أبو جهل وإنها لمحاولة متعمدة للتزييف[3] .

إن القرآن الكريم كما نقى العقائد من لوثات الشرك، تعهد السلوك الإنسانى بما يجعل التوحيد لبابه وغايته، ولن يكون السلوك صحيا إذا كان الباطن سقيما! إن كانت النفس أمة، فلن تعرف الحرية فى سيرتها، ومن النفوس حرائر وإماء ![4].

وقد وسع القرآن الكريم دائرة التوحيد داخل النفس، كي ييأس كل إنسان من وجود شركاء يصنعون مستقبله بعيدا عن مراد الله: ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)** ﴾ [الملك].

(١) كامل سعفان، المنهج البيانى، ص ٧.

(٢) توفيق محمد سبع : واقعية المنهج القرآنى، ص ٤٢٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٨ .

(٤) محمد الغزالى : المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص ٥١ .

التوحيد العملى هنا يجعل ثقة المرء فى ربه فينفض يديه من غيره، وهو هادئ مستريح، والناس تذلهم الحاجة فيضرعون لمن يظنون قضاءها عنده، ولو صدق اعتقادهم لكان لهم سلوك آخر.

ولأمر ما كان النبى ﷺ يقول فى أعقاب الصلوات « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذات الجد منك الجد »[1].

والجملة الأخيرة تفيد أن سعة الثروة، وسعة السلطة، وحظوظ الإنسان، من خيرات الدنيا والآخرة، هى اختيار له، وأن موقفه على الحالين من عسر ويسر، وهو الذى يحدد مصيره عند الله، ورب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة[2].

وهذا الدعاء النبوى يوجب على المسلم أن يربط يأسه ورجاءه بالله وحده، وفق هذا القانون القرآنى الجليل: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر].

فالقرآن يعمد إلى إصلاح البواطن بأضواء التوحيد، فإذا تمت استنارتها صلحت الظواهر واستقامت على الطريق، ورأينا المؤمن أسرع شىء إلى أداء ما يحب الله وأسرع شىء إلى ترك ما يكره.

ومن هنا حق لمجدد كبير مثل حسن البنا أن يعجب من موقف الناس أمام كتاب الله تعالى، ويقول إن موقف الناس فى أيامنا هذه من كتاب الله كمثل جماعة أحاط بهم الظلام من كل مكان، فهم يتخبطون فيه، ويسيرون فيه على غير هدى، فتارة يقعون فى هاوية، وأخرى يصطدمون بحجر، وثالثة يصطدم بعضهم ببعض، ولا يزال هكذا يخبطون خبطا عشوائيا، ويسيرون فى ظلام دامس، مع أن بين أيديهم زرا كهربائيا لو وصلت إليه أصابعهم، فإن حركة يسيرة يمكن أن توقد مصباحا مشرقا منيرا، فهذا هو مثل الناس، ومثل كتاب الله وموقفهم من كتاب الله[3].

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما　　　والماء فوق ظهورها محمول

لا يستطيعون سبيلا إلى الهداية، وبين أيديهم النور الكامل: ﴿ ...وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]. ويقول تعالى: ﴿ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ

---

(١) فتح البارى، جـ٢، ص ٣٢٧، رقم ٨٤٤، الأذان، الذكر بعد الصلاة.

(٢) المحاور الخمسة، ص ٥٢.

(٣) حسن البنا: نظرات فى كتاب الله، مكتبة الاعتصام، القاهرة ١٩٧٨، ص ٣٠.

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]. ﴿ ... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة]. .. ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن].

لقد كان القرآن قوة عاملة فى بناء عقـائد المسلمين وأخلاقهم وتوجيه سلوكهم فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وصـدر دولة بنى أمية، وذلك لأن علم الفقه وعلم الكلام لم يكن قد تم تكوينهـما فى ذلك الحين، فكان الناس بطبيعة الحـال يرجعون فى معرفة العقيدة والشريعة إلى الكتاب والسنة، فلما اتجه المتخصصون من المسلمين إلى استنباط الأحكام الشرعية والعقـائد الدينية، ونسقت هذه الأحكام والعقائد، وظهر علم الفقه وعلم الكلام، تغير الحال، فبـدلا من أن يتجه الناس فى معرفة الدين إلى الكتاب والسنة، كما كان آبـاؤهم يفعلون، أخذوا يرجعون فى معرفـة الأحكام إلى الفقه، وفى معرفة العقائد إلى علم الكلام [1].

والمهم فى الأمر هو اخـتلاف الوضع بالنسـبة للقرآن الكريم، فـإن القرآن الكريم الذى كان العـامل الأكبر فـى تربية المسلمين على عقـائدهم وأخلاقـهم حُرِّف عن هذه المهمة، وأصـبح الفقه وعلم الكلام يقومان بهـذا العمل، وقد ساعد على اسـتقرار هذا الوضع أن غلب على القوم اعتقاد راسخ بأن أخذ الأحكام من الكتاب والسنة عمل دقيق لا يستطيعه الجمهور، وإنما يقوى عليه عـدد ضئيل من المختصين، وهنا أخذت الجماهير تنصرف عن ارتياد القرآن وتعرف ما يفيض من مناهل العلم والعرفان [2].

عزل القـرآن إذًا عن القيام بمهمـته التربوية والقـضائية، ولكن الناس لم يفـارقهم التطلع إلى فهـم القرآن، وإدراك معـانيه لمجرد الإدراك والفـهم، لا للعمل والتوجـيه، وقارن هذه الحـالة أن اللغة العـربية كـانت قد دب إليـها دبيب الضعـف، وأخذ الناس يحسون بصعوبة فـهم النصوص العربية الفصيحة عـامة والقرآن الكريم خاصة، ومن ثم صـار لابد من عمل شىء مـا لـتمكين الناس من فـهم القرآن ولـلوقوف على أسـراره ومعانيه.

---

(١) إبراهيم اللبان : القرآن وتجديد المجتمع فى «التوجيه الاجتماعى فى الإسلام»، جـ٢، ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٠.

ولما بدأت حركة التجديد المعاصرة، تغير الحال، وصار من الضرورى إشراك القرآن فيها، ويتضح هذا إذا ذكرنا ما تعنيه حركة التجديد بالنسبة لحياة الأمة الإسلامية، فقد كان المطلوب أن تحتفظ بالإسلام قاعدة للحياة، ولكن على أساس من الاقتناع التام بأنه يضم أعلى العقائد وأسمى النظم(١).

وأحس المجددون منذ الساعة الأولى أنه لا غنى لهم عن القرآن الكريم فى بناء صرح الإسلام الجديد الذى تهش له النفوس وترتاح له العقول ويتوقع له النجاح والظفر فى معركة النضال الناشب بين الثقافة الإسلامية والمدنية الغربية .

والأمر الذى يجب أن نتنبه له فى هذه المناسبة هو ما دخل على دراسة القرآن من تجديد، فلم تعد دراسة القرآن تعنى استشارة قواعد اللغة العربية والبلاغة وما نصت عليه المعاجم فى معنى الكلمات لتطبيقه على الآيات، بل أصبح شيئا جديدا يختلف اختلافا كبيرا فى أسلوبه ومقاصده ونتائجه، لقد أصبح هدف الدراسة ليس مجرد الفهم وإنما التأثير فى حياة المسلمين (٢) .

إن المدد الكبير الذى أعطاه القرآن للفعل التربوى إنما ينبع من المنهج الجديد الذى طرحه القرآن الكريم حيث يريد أن يقول لنا - باختصار شديد وتركيز بالغين - أن حركة أية جماعة بشرية فى التاريخ ليست اعتباطية وأنها - بما قد ركب فيها من قوى الفعل والروح والإرادة خلافا لما هو سائد فى العوالم غير البشرية - مسئولة مسئولية كاملة خلال حركتها تلك، حيث ينتفى العبث واللاجدوى، وحيث تتحرك الحرية فى شكلها المهوش المتميع الغامض إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان أمام الله بمسئولية تجاه العالم لكى يحقق إعماره ورقيه وتقدمه، وفق ما يجىء به أنبياء الله، حينا بعد حين، من تعاليم وخطط بيد الجماعة البشرية فى هذا الطريق، وحيثما انتفت هذه العلاقة الإيجابية بين الإنسان والله والعالم، وأسىء استخدام الحرية وضاعت المسئولية، وانعدم التخطيط المدرك الواعى، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة من العقل والروح والإرادة، حيثما جاء الجزاء الموازى لجنس العمل وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار(٣) :

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢ .

(٣) عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم، سلسلة كتاب الأمة (٤) بيروت، مؤسسة الرسالة ط٢، إبريل ١٩٨٥، ص ٥٣ .

- ﴿ ... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر].

فضل تعلم القرآن وتعليمه :

قال عز وجل فى قرآنه المجيد : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة]. ويؤكد الشيخ محمد رشيد رضا أن المعنى المقصود هنا، أى يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه[(١)].

وقد أثنى الشيخ محمد عبده على هذا التفسير، فالقرآن عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التى يشترك فيها أهل الأهواء والبدع مع أهل العلم والفهم . والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفى رضاهم عن النبى ﷺ نفيا مؤكدا، لاحظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه، لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء، والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به النبى ولا ضرر فى إعراضهم، وأما الآخرون، فإنهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين، وعملهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين، يعقلون أن ما جاء به هو الحق الذى يتفق مع مصلحة البشر فى ترقية أرواحهم، وفى نظام معايشهم فيؤمنون به، وإنما ينتفع بإيمان أمثالهم[(٢)] .

وجملة القول أن هذا التعبير أفاد حكما جديدا وإرشادا عظيما، هو أن الذى يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسراره ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها[(٣)]، لأن هذا الفهم من قبيل التصور،

---

(١) تفسير المنار، جـ١ ، ص ٣٦٨ (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) يؤيد هذا ما ذكره الإمام الغزالى فى بحث التخلى عن موانع فهم القرآن عند التلاوة بأن أسباب حجب الفهم هى :

أولا : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجل .

ثانيا: أن يكون مقلد المذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيد معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا =

وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى ثم يغيب ويتناءى، وإنما الفهم فهم التصديق، والإذعان لمن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا ملاحظا أنه مخاطب به من الله- تعالى- ليأخذ به فيهتدى ويرشد، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال أنهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله- تعالى- وإنما الهداية عندهم محصورة فى كلام رؤسائهم الدينيين ولا سيما إذا كانوا ميتين[1].

وإذا كنا نعتبر بما قص الله- تعالى- من خبر أهل الكتاب، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ... ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، فإننا نعرف حكم القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]. وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، فكل هذه الآيات والعبر، لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، كما أنبئت للتحذير، والقرآن حجة عليها كما ورد فى الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك »[2]. ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمستهزئ بربه[3].

سأل سائل من المقلدين حاضرى درس الإمام محمد عبده، بأن العلماء قالوا أن القرآن يتعبد بتلاوته: فقال الإمام: نعم ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك، وكيف يقولون ذلك والله الذى أنزل يقول أنه أنزله: ﴿... لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. فالقرآن، وكذلك السنة يصرحان فى مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه - أو من معناه - أن الله يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر وتذكر. وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد « يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم » وقد سماهم شرار الخلق فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من

= له معنى من المعانى التى تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد عنه ويحترز عن مثله، ولمثل هذا قالت الصوفية (إن العلم حجاب) وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم. (راجع الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن فى كتاب « إحياء علوم الدين».

(١) تفسير المنار، جـ١، ص ٣٦٩.

(٢) جملة من حديث رواه مسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا.

(٣) تفسير المنار، جـ١، ص ٣٦٩.

الأغانى والمطربات، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو رأى ما رآه فلان، وهكذا انقلب وضع الدين. ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله فى قوله: ﴿ ... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم]. ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المؤمنون]. وضرب محمد عبده مثلا رجلا يرسل إلى آخر فيقرؤه المرسل إليه بسرعة أو يترنم به ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ثم يرسل الرسول أو غيره، ماذا قال صاحب الكتاب فيه وماذا يريد منه ؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به ؟، فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه، ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه، ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به .

ومن هنا انتهى محمد عبده إلى القول بأن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به، ومن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغى له أن يسأل القارئين، يقرءوا له القرآن ويفهموه معناه [1] .

وإلى هذا المعنى التفت كذلك الشيخ محمد الغزالى، فالمسلمون بعد القرون الأولى، انصرف اهتمامهم بكتاب الله إلى ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف وإتقان الغنن والمدود، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاءنا، أداء وأحكاما - أى أحكام التلاوة- ولكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم، صنعوا شيئا ربما لم تصنعه الأمم الأخرى، فإن كلمة « قرأت » عندما يسمعها الإنسان العادى أو يقولها، تعنى: أن رسالته جاءته أو كتابا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه، فمن حيث الدلالة لا نجد فكاكا بين الفهم والقراءة، أو بين السماع والوعى [3] .

أما الأمة الإسلامية، فلا تدرى بأى طريقة فصلت بين التلاوة وبين التدبر فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة- كما يقولون- وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها ووعى لمغازيها، يفيد أو هو المقصود .

وإذا أعدنا قراءة الآية ٢٩ من سورة (ص) لوجدنا أن « التدبر » المطلوب لآيات الله هو : الوعى والإدراك والتذكر، فأين هذا مع تلك التلاوة السطحية التى ليس

---

(١) تفسير المنار، جـ١ ، ص٣٧٠.

(٢) محمد الغزالى : كيف نتعامل مع القرآن، ص٢٥.

فيها أى إحساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنى القريب لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية تستعيد به الدور المفقود فى الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير، بل نجد غياب بعض صفات عباد الرحمن التى وردت فى القرآن الكريم، من أنهم قوم مقبلون على القراءة بحواسهم، فهم : يسمعون، ويبصرون، ومن ثم يتحركون[1] .

نعم قد يغيب عن الإنسان معنى كلمة قد تكون غريبة عليه، وربما يعز عليه إدراك جملة من الجمل لأن التعبير القرآنى فى درجة من البلاغة لم يتذوقها هو . وما من شك فى أن القرآن، كتاب العربية الأكبر، ولا يقبل إطلاقا أن ينتهى المسلم إلى ذلك النوع الذى ذكره الله- تعالى- حين وصف عباد الرحمن بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان].

ونجد اليوم أن الذين يخرون صما وعميانا كثيرون !

لا بد من قراءة القرآن قراءة متدبرة واعية تفهم الجملة فهما دقيقا، ويبذل كل امرئ ما يستطيع لوعى معناها وإدراك مقاصدها، فإن عز عليه، سأل أهل الذكر . والمدارسة للقرآن مطلوبة باستمرار، ومعنى مدارسة القرآن : القراءة والفهم والتدبر والتبين لسنن الله فى الأنفس والآفاق، ومقومات الشهود الحضارى، ومعرفة الوصايا والحكام، وأنواع الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وما إلى ذلك [2] .

وقد تعددت آيات القرآن فى فضائل تعلم القرآن، نذكر منها :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر].

- ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه دعوة لتدبر القرآن وفهمه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

كما وصف الكافرين بأن من سماتهم الإعراض عن التفكير فى آيات الله فى

---

(١) المرجع السابق . ص٢٦ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٧ .

القرآن وفى الكون معا، قال تعالى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

وقال كذلك : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف] .

وفى أحاديث رسول الله ﷺ قوله: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

وقال تعالى فى بيان فضل القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]. و ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [البروج] و ﴿... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت].

وروى عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « إن لله أهلين من الناس، فقيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[2].

وروى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ذكر لرسول الله ﷺ : الفتنة، قلنا يا رسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم . وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿...إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ... ﴿٢﴾﴾ [الجن]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم» .

وروى أن رسول الله ﷺ قال [3] : « إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل : فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : ذكر الموت، وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿...وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ... ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]؟ » .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها حلو ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه الترمذى .

الريحانة ريحها طيب وطعمها مـر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لـها ريـح وطعمها مر » [١].

وعن ابن عمـر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « لاحـسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهـار، ورجل أتاه الله مالا فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار » [٢].

وروى النسائى قال : أخبـرنا أحمد بن حرب، قال : حدثنا سعـيد بن عامر عن صالح بن رستم عن حمـيد بن هلال عن عبد الرحمن بن قرط، قـال : «دخلنا مسجد الكوفة، فإذا حلقة وفيهم رجل يحـدثهم فقال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر كيما أعرفه فأتقيه، وعلمت أن الخير لا يفوتنى، قلت : يا رسول الله، هل بعد الخيـر من شر؟ قال : يا حذيفة، تعلم كتـاب الله واعمل بما فيه، فأعدت عليه القول ثلاثا فقال : وفى الثالثة، فتنة واختلاف، قلت : يا رسول الله، هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: يا حذيفـة، تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ثلاثا، ثم قال فى الثالثة : هدنة على دخن، وجـماعة على قذى فيهـا، قلت يا رسول الله، هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: يا حذيفة، تعلم كـتاب الله واعمل بما فيه ثلاثا، ثم قال فى الثالثة : فتن على أبوابها دعاة إلى النار فلأن تموت وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم» [٣].

وعن النبى ﷺ أنه قال : «بئسما لأحدهم أن يقول : نسيت آية كيت، استذكروا القرآن فإنه أسرع تفصيا من صدور الرجال من النعم من عقله» .

وقوله : « استـذكروا القرآن » أى واظبوا على تلاوته ومذاكـرته حتى لا يتفلت، فالإبل إذا لم يتـعاهدها صاحـبها بالرباط تفلـتت من العقل، وكذلك القـرآن، تعاهدوه مراجعة ودراسة وتلاوة حتى لا تنسوه ويضيع عليكم حفظه .

وقال ﷺ : «مثل صـاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إذا عـاهد عليها أمسكها وإذا أطلقت ذهبت» [٤].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) أحمد شعيب النسائى : فضائل القرآن، ص٨٥.

(٤) المرجع السابق، ص٨٩

وعن عائشة قالت: قال الرسول : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يتعتع فيه له أجران»، قال عمران بن موسى : اثنان[1].

قال الهروى : المراد بالمهارة بالقرآن جودة الحفظ وجودة التلاوة من غير تردد فيه لكونه يسره الله- تعالى- عليه كما يسره على الملائكة، فكان مثلها فى الحفظ والدرجة.

والسفرة جمع سافر، مثل كتبة وكاتب، والسافر، الرسول كذلك، ويقال للرسل سفرة لأنهم يسفرون برسالات الله إلى الخلق .

ويتعتع : أى يتردد ويقف فى قراءته لعدم مهارته .

والمقصود بهذا أن قارئ القرآن الماهر به - ولا يكون ماهرا إلا بتلاوته أناء الليل وأطراف النهار - تصاحبه الملائكة الكرام فى هذه الحياة الدنيا، وينال مصاحبة الرسل والملائكة فى اليوم الآخر فى الجنة . قال القاضى عياض : يحتمل أن يكون كونه مع الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله -تعالى- ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم وسالك مسلكهم . وأما الذى يتعتع فيه، فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر القراءة وأجر تعبه ومشقته، فإن قلت : يلزم أن كون المتعتع أفضل من الماهر من حيث إن له أجرين ولم يذكر أجر الماهر به؟ أجيب : بأنه ﷺ قد ذكر لكل واحد فضيلة ليكون حثا له على القراءة فذكر للمتعتع أجرين، وللماهر كونه مع السفرة، والكون مع السفرة لا يتقاعد عن حصول الأجرين [2] .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» . رواه مسلم .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه »، رواه مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من قرأ

---

(١) المرجع السابق، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣ الصفحة نفسها.

حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» . رواه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح[(١)] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الرب سبحانه وتعالى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله -سبحانه وتعالى- على سائر الكلام كفضل الله- تعالى- على خلقه». رواه الترمذى وقال حديث حسن . وقال الألبانى أنه ضعيف .

وهكذا وجب أن تكون صلة المسلم بالقرآن ضرورية، ليس لمجرد دراسته دراسة نظرية، ولا لمجرد « تنمية » ثقافية، بل لتربية شخصيته وإمدادها بما يحييها ويزكيها ويزيدها هدى[(٢)] .

وحين تتربى شخصية المسلم على القرآن، فإن خيرات هذه التربية لا تقتصر على صاحبها، بل تنعكس على غيره هدى وحياة ونورا .

والقرآن يحيى النفوس لأنه كتاب الهدى، والنفس الضالة فى حالة تشبه الموت إذ إن فطرتها الخيرة وكل طاقاتها البناءة تكون معطلة، بينما تكون أهواؤها وشهواتها مطلقة العنان، تعمل عملها الحيوانى الذى يهبط بالإنسان من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، وقد وصف الله هدى القرآن بأنه حياة النفوس[(٣)] ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وقال أيضا: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ... ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام]

ولقد بلغ من تأثير القرآن فى تكوين الشخصية وإعادة تشكيلها جذريا، أن يفيء إلى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عنادا فيسلم كثير من الزعماء، وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب» و «سعد بن معاذ» و « أسيد بن حضير » وغيرهم من القادة والرؤساء. هذا هو عمر بن الخطاب الذى يبلغ من شدة قسوته على المسلمين أن يقول

(١) الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووى الدمشقى : التبيان فى آداب حملة القرآن، تحقيق نبيل ابن منصور بن يعقوب البصارة، الكويت، دار الدعوة، ١٩٨٧، ص٢٧ وما بعدها .

(٢) أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٣

(٣) المرجع السابق، ص٣٤ .

فيه أحدهم: (والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب)، والذى يبلغ من شدة عدائه أن يتقلد سيفه بالظهيرة، ثم يخرج ليفتش عن محمد ﷺ ليقتله ثم لا يأتى المساء إلا وقد رجع معتنقا للإسلام بسبب بضع آيات سمعها فى بيت أخته من « سعيد بن زيد » فى القصة المشهورة[1].

وتروى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين كان فى مكة جاء وفد المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة فأرسل معهم مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام والقرآن، وهما «مصعب بن عمير » و« عبد الله بن أم مكتوم»، فلما وصلا المدينة، أخذا يعلمان الناس القرآن، فبلغ ذلك « سعد بن معاذ » سيد القبيلة، فقال لابن أخيه «أسيد بن حضير»: ألا تذهب إلى هذين الرجلين، اللذين جاءا يسفهان ضعفاءنا فتنهاهما وتزجرهما عن هذا الضيع؟ فسار إليهما أسيد، فلما انتهى إليهما قال لهما : ما جاء بكما؟ جئتما تسفهان ضعفاءنا ؟ ثم توعدهما وهددهما فقال : اعتزلا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة ؟ فقال له مصعب رضى الله عنه : أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا فعلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فجلس أسيد، وجعل مصعب يقرأ وهو يسمع، فما انتهى من مجلسه حتى أسلم، ثم كر راجعا إلى سعد فقال له : والله ما رأيت بالرجلين بأسا، وأخفى أمامه إسلامه، فغضب سعد وقام بنفسه ثائرا مهتاجا، فقال لهما : ما جاء بكما؟ أجئتما تسفهان ضعفاءنا . اعتزلانا . فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته منا وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. فقال : أنصفتما، فجعل مصعب يتلو القرآن عليه وسعد يستمع . يقول مصعب : والله لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن، فما انتهى مصعب من القراءة، حتى أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كر راجعا فجمع قبيلته وقال لهم : كيف تعدوننى فيكم؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا . فقال لهم سعد : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا بمحمد، فدخلوا جميعا فى الإسلام [2] !

والذى يتعلم القرآن ويمارس ما نعلمه منه سلوكا هو الجدير حقا بحب الله وهو من المخاطبين بقوله عز وجل: ﴿ ...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]. إن ذلك القول يجل عن الوصف، ذلك إن محبة القوى الجليل للعبد الضعيف الذليل هى جماع الرحمة وفيض اللطف وجميل العطاء، هى النعمة والمنة والتكريم والفضل[3] !

---

(١) مناع قطان : التبيان فى علوم القرآن، ص١٤٠ .

(٢) المرجع السابق . ص١٤١ .

(٣) محمود بن الشريف : الحب فى القرآن، دار المعارف، القاهرة، سلسلة (اقرأ / ٤٦٩) ١٩٩٤، ص٦١ .

وإذا أحب الله عبدا جعله عبدا ربانيا، يكفل له العطاء والنصر، ويشمله بالولاية والحماية، يقول ﷺ فى حديث قدسى رواه عن المولى عز وجل : «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن استنصرنى لأنصرنه، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه»[1].

وقد نتج عن انكباب العديد من العلماء والباحثين على دراسة القرآن عبر العصور المختلفة ظهور ما أصبح مصطلحا على تسميته بعلوم القرآن، وعلى ذلك يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التى تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد، من حيث النزول، والجمع، والترتيب، والتدوين ومعرفة أسباب النزول، والمكى منه والمدنى، ومعرفة الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التى تتعلق بالقرآن العظيم، أو لها صلة به، والغرض من هذه الدراسة فهم كلام الله- عز وجل- على ضوء ما جاء عن الرسول- عليه الصلاة والسلام- من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين -رضوان الله عليهم أجمعين- حول تفسيرهم لآيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين وأساليبهم فى التفسير، مع بيان مشاهيرهم ومعرفة خصائص كل من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم[2].

وعلى ذلك فإن حسن استخدام القرآن الكريم فى العمل التربوى على سبيل التخصص والبحث، يقتضى من الباحث دراية بمثل هذه العلوم، مما يقتضينا التوقف قليلا عند أبرزها:

١- علم تفسير القرآن : وهو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية، ومباديه : العلوم العربية وأصول الكلام وأصول الفقه والجدل وغير ذلك من العلوم الجمة، والغرض منه : معرفة النظم، وفائدته : حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة، وموضوعه ومنفعته ظاهران من تعريفه[3].

(١) المرجع السابق . ص٦٢.
(٢) محمد على الصابونى، التبيان فى علوم القرآن، ص٦.
(٣) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات الكلام، مراجعة وتحقيق كامل بكرى وزميله، القاهرة، دار الكتب الحديثة، د.ت، جـ٢، ص٦٥

٢- علم القراءة : وهو علم يبحث فيه عن صورة نظم كلام الله- تعالى- من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، ومباديه : مقدمات تواترية، وله أيضا استمداد من العلوم العربية، والغرض منه : تحصيل مهارة ضبط الاختلافات المتواترة : وفائدته، صون كلام الله- تعالى- عن تطويق التحريف والتغير . وقد يبحث فيه أيضا عن صور نظم الكلام من حيث الاختلافات غير المتواترة الواصلة إلى حد الشهرة . ومباديه : مقدمات مشهورة أو مروية عن الآحاد الموثوق بهم(١).

٣- علم معرفة أسباب النزول : ويعتبر فرعا لعلم التفسير، قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها، فقد تحصل واقعة، أو تحدث حادثة، فتنزل آية أو آيات كريمة فى شأن تلك الواقعة أو الحادثة، وقد يعرض سؤال على النبى ﷺ بقصد معرفة أمر الله فيه، أو الاستفسار عن أمر من الأمور التى غمضت على السائل، فتنزل بعض الآيات الكريمة (٢).

وهناك أمثلة كثيرة . .

فقد روى البخارى عن خباب بن الأرت أنه قال : كنت قينا (أى حدادا)، وكان لى على العاص بن وائل دين، فجئت أتقاضاه دينى، فقال لى : لا أعطيك دينك حتى تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم يبعثك، فقال : إذًا لميت ثم مبعوث، فانتظرنى إلى ذلك اليوم فسأوتى مالا وولدا فأوفيك دينك، فأنزل الله عز وجل فيه وله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [مريم].

وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن : وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وقد أشكل على جماعة من السلف معانى آيات حتى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الإشكال، وقال الواحدى : ولا يحل القول فى أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها.

فمثلا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) المرجع السابق، جـ٢، ص٦.

(٢) مناع قطان : التبيان فى علوم القرآن، ص٢٢.

تدل هذه الآية بظاهرها على أن لـلمسلم أن يصلى إلى أى جـهات، ولا يتـعين عليه أن يتوجـه فى الصلاة إلى البيت الحرام، لا فى سفـر ولا فى حضر، لكن إذا علم أن هذه الآية نزلت فى نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه تبين أن ظاهرها غير مراد، إنما المراد التخفيف عن المسـافر فى خصوص النافلة وعلى المجتهد فى القبلة إذا صلى وبان خطؤه[1].

ومن المهم التنبه إلى أنه ليس لكل آية من القرآن سبب اقتضى نزولها، بل منها ما يكون لنزولها سـبب، ومنها ما ليس لنـزولها سبب، من أجل ذلك قـسم العلماء آيات القرآن الكريم إلـى قسمـين[2] :

١- قسم نزل بادئ ذى بدء من غير سبب، وهو معظم الآيات القرآنية .

٢- وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب .

والقسم الذى نزل مرتبطا بسبب من الأسباب، تحته ثلاثة أنواع :

أ- أن يكون السـبب واحـدا، وينزل فـى ذلك آية واحـدة، وهى أكـبـر الأنواع الثلاثة، مثال ذلك[3] :

قوله عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران].

قال ابن عبـاس (ت ٦٨هـ) وأنس بن المالك (ت ٩٣هـ) : لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقـون واليهود : هيهات هيهات، من أين لمحمد فارس والروم، وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل هذه الآية [4] .

ب- أن يكون السبب واحدا وينزل فى ذلك أكثر من أية، من ذلك عن أم مسلمة (ت٥٩) إنها قالت « يغـزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نـصف الميراث »، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [النساء]. وأنزل أيضا: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب]. الآية.

---

(١) جاد الحق على جاد الحق، ص ٢٨٤.

(٢) محمد سالم محيسن : فى رحاب القرآن الكريم، جـ٢، ص١٧ .

(٣) المرجع السابق، ص١٨.

(٤) فى رحاب القرآن، جـ٢، ص١٩ .

جـ- أن تتعدد الأسباب وينزل فى ذلك آية واحدة [1].

٤- **علم معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه** : أفرده بالتصنيف علماء، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستانى، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنبارى، ومكى، وابن العربى، وآخرون[2] .

والحكمة فى نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض، تكمن فى مراعاة نشأة الأمة الإسلامية وانتقالها من حال البداوة إلى التنظيم والتهذيب؛ لأن الطفرة من نوع المستحيل الذى يرغب عنه الإنسان ولا يطيقه، كتدرج القرآن فى تحريم الخمر باعتبارها كانت سلوكا وعادة غالبة مستحكمة فى نفوس العرب وأهوائهم يستدلون بها على القوة والفتوة والشهامة والكرم، فكان لا بد لاقتلاعها من نفوسهم من التدرج فى التحريم حتى يقلعوا عنها بعد أن يقتنعوا بآثامها ومضارها .

وقد اختلف فى وقوع النسخ، وثارت أقوال كثيرة فى شأنه بين مانع، ومجيز مطلقا، أو بقيود، ولكن الصحيح أن الإسلام نسخ كل الأديان السابقة، بعموم رسالته . والصحيح كذلك أن بعض الأحكام التشريعية فى الإسلام نسخت لحكمة تشريعية كالآيات التى توالى نزولها فى حكم شرب الخمر حتى انتهت بالتحريم البات .

قالت الأئمة : لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله- تعالى- إلا بعد أن يعرف فيه الناسخ والمنسوخ، وقد قال على القاصى : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا، قال: هلكت وأهلكت .

٥- **علم معرفة إعجاز القرآن** : وفى هذا العلم تدرس وجوه إعجاز القرآن التى سبق أن أشرنا إليها، وأهمها إما الإيجاز مع البلاغة، أو البيان والفصاحة، أو الرصف أو النظم، أو كونه خارجا عن جنس كلامهم مع كون مفرداته منه، أو كون قارئه لا يكل وسامعه لا يمل، وإن تكررت عليه تلاوته، أو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلة أو جامعا لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها، أو جميع ما سبق . . إلخ[3].

٦- **علم معرفة غريب القرآن** : ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى علم اللغة أسماء وأفعالا وحروفا، فالحروف لقلتها، تكلم النحاة فى معانيها، فيؤخذ ذلك من كتبهم،

---

(١) فى رحاب القرآن، جـ٢، ص٢١.

(٢) طاش كبرى زاد، جـ٢، ص٤٤٣.

(٣) المرجع السابق، ص٥٢٨.

وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب اللغة، وممن أفرد هذا العلم بالتصنيف : أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد والعزيزى(١) .

وحتى نعرف أهمية هذا الباب المعرفى فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [البقرة]، فهل يستطيع أحد أن يعرف المراد من هذه الآية بدون أن يعرف المعنى اللغوى للإيلاء، والتربص، والفىء ؟

ومن هنا قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله، إذا لم يكن عالما بلغات العرب »(٢) .

وعلم النحو ضرورى لفهم القرآن؛ لأن المعنى يتغير بتغير الحركات تغيرا كبيرا، فقوله تعالى: ﴿ ...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] بنصب هاء الجلالة، ورفع همزة العلماء، والمعنى صحيح، لأن معنى الآية : الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم فمن ازداد علما بالله، ازداد منه خوفا، ولو عكس فضم هاء الجلالة، ونصب همزة العلماء لفسد المعنى .

وقد روى أن أعرابيا فى زمان عمر بن الخطاب قدم إلى المدينة المنورة، فسأل عمن يقرئه مما أنزل على محمد ﷺ، فأقرأه رجل سورة « براءة » فقرأ عليه الآية الكريمة : ﴿ ... أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ... ﴿٣﴾ ﴾ [التوبة] بالجر أى بجر اللام فى (رسولِه) بدلا الضم، فقال الأعرابى : أو قد برئ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله برىء من رسوله فأنا أيضا أبرأ من رسوله . فاستعظم الناس الأمر، وبلغ عمر مقالة الأعرابى، فدعاه فقال : يا أعرابى . . أتبرأ من رسول الله ﷺ؟

فقال يا أمير المؤمنين : إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن، فسألت : من يقرئنى فأقرأنى هذا الرجل سورة « براءة»، فقال « أن الله برىء من المشركين ورسولِه»، فقلت: أو قد برئ الله من رسوله . إن يكن الله برىء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر : ما هكذا الآية يا أعرابى ؟ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ - وضم اللام . فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه . أبرأ من المشركين .

---

(١) المرجع السابق، ص٤١١ .

(٢) مناع القطان : التبيان فى علوم القرآن، ص١٥٨ .

فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه[1] ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، واقترح على أبى الأسود وضع علم النحو [2] .

وليست هذه كل علوم القرآن، فهناك غيرها، ويفرع الباحثون من هذه وتلك العديد من الفروع، ومن هنا نرى علوما مثل : علم معرفة حفاظه ورواته، علم معرفة المحكم والمتشابه، علم معرفة إعرابه، علم معرفة أمثال القرآن، علم معرفة بدائع القرآن، علم معرفة آداب تلاوته. . .وهكذا .

ونظرا لعلو شأن علوم القرآن كان من الطبيعى أن تكون موضع بحث ودرس وكتابة منذ وقت مبكر، لكنها لم تكن مدونة فى « العصر الأول » فى الكتب والصحف، حيث كانت مدونة على صفحات القلوب، والذى كان المدون المكتوب هو «القرآن الكريم » فحسب، لما ورد فى الصحيح من النهى عن كتابة غير القرآن [3] .

فمن ثم تحرج الصحابة والتابعون من كتابة وتدوين غير القرآن، حتى الحديث الشريف لم يدونوه، واكتفوا فيه وفى علومه بالحفظ والدراية، إلى أن كان عهد « على » رضى الله عنه، فاستحث « أبا الأسود الدؤلى » على استكمال وضع علم النحو، فكان هذا فاتحة خير لتدوينه علوم الدين واللغة العربية .

وفى العهد الأموى اتسعت دائرة التدوين والتأليف عن ذى قبل، وفى هذا العهد رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يجمع الأحاديث، فأمر علماء الأنصار بجمع أحاديث الرسول، مخافة أن يذهب شىء منها بذهاب العلماء، وحتى يتميز الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود .

وفى العصر العباسى، اتسعت دائرة التأليف واتسعت حتى شملت معظم علوم الدين واللغة العربية، بل وغير علومها كالفلسفة وفروعها، فقد ترجم كثير من كتب الفلسفة فى هذا العصر[4] .

وهكذا نرى : أن حركة التأليف والتدوين نشطت نشاطا قويا فى هذا العصر، وكان « لعلوم القرآن » من هذا النشاط حظ غير قليل .

وكان من الطبيعى أن يكون أول ما يدون من علوم القرآن هو « علم التفسير»، إذ

---

(١) وفى رواية أخرى، على بن أبى طالب.

(٢) القرطبى، طبعة الشعب، القاهرة، جـ١ ، ص٢٠.

(٣) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرن الكريم، ص٣١.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤ .

هو الأصل فى فهم القرآن وتدبره، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام واستخلاص القيم والمبادئ والأساليب والمفاهيم والاتجاهات التى من شأن الوعى بها والعمل بما جاءت به، أن تشكل شخصية مسلمة ذات تربية ربانية حقا. ومن أشهر من ألف فيه « محمد بن جرير الطبرى » (ت ٣١٠هـ).

وألف فى أسباب النزول « على بن المدينى » (ت ٢٣٤ هـ).

وفى الناسخ والمنسوخ « أبو عبيد القاسم بن سلام » (ت ٢٢٤هـ).

وفى مشكله وغريبه : « أبو محمد بن عبد الله بن قتيبة »، (ت ٢٧٦).

وفى إعرابه « محمد بن سعد الحوفى »، (ت ٤٣٠هـ).

وفى إعجازه، « أبو بكر الباقلانى»، (ت ٤٠٣ هـ).

وفى قراءاته « علم الدين السخاوى » (ت ٦٤٣ هـ).

وفى أمثاله، أبو الحسن الماوردى، (ت ٤٥٠هـ) . . . وهكذا.

وما دمنا بصدد فضل تعلم القرآن وتعليمه، فلا بد ألا نقتصر على فضله على الأفراد، آحادا وجماعات، إنما لا بد أن نختتم هذا الجزء بإشارة إلى فضله فى تربية مجموع الأمة تربية حضارية عامة :

فعماد تربية الأمة حضاريا، لغتها، فاللغة لسان حال الذاتية الحضارية ومسكن الهوية وجماع الشخصية المجتمعية العامة .

ولبيان ذلك فلنتصور الوضع فى الجزيرة العربية قبل نزول القرآن، وهذه الجزيرة كانت مهدا للناطقين بهذه اللغة وكانت محاطة من كل جانب بوجود لغوى هائل من الفرس فى فارس والعراق، ومن الروم فى الشام، ومن الأنباط العرب والأنباط فى مصر، وهذه الشعوب كانت حتى ذلك الحين مساوقة الحضارة الإنسانية على قدر ما بلغت من مستوى[1].

والعرب فى ذلك الحين كان وجودهم قبائليا، يتمثل فى تجمعات بدوية، حول الماء والمراعى باستثناء مركزين فى مكة ويثرب، يتميزان بوجود بعض النشاط التجارى، فيما عبر عنه القرآن برحلة الشتاء والصيف، وكان العرب أمة مفتنة فى بيانها، ولا سيما ما كانت تنشده من أشعاره وكان أكثر اعتمادها فى الحفاظ على نتاج العقول والحكمة هو

---

(١) عبد الصبور شاهين : القرآن الكريم واللغة العربية فى : عبد الفتاح عساكر (إعداد) : مع القرآن الكريم، المقاولون العرب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٤٢٥.

استخدام الحافظة أو الذاكرة أو رواية القصص والمثل والشعر، وكان الشعر بنظمه وإيقاعه أكثر تداولا بين القبائل، فيتناشده الكبار والصغار وما استجادوه منه بقى بالحفظ والرواية والتسجيل الخطى حتى وصل إلينا .

فى هذه الظروف لا يتصور أحد أن يتخلق مجتمع حضارى فى الجزيرة العربية، ووضع كهذا لا يتصور أن يئول إلا إلى الانقراض الاجتماعى واللغوى، وهو فى أفضل توقعاته قد ينتهى إلى حركة هجرة، من نوع الهجرات التى سبقت فى تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ[1] .

لقد كان نزول القرآن بالعربية حدثا فريدا فى تاريخ الدين والإنسان، ذلك لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الإسلام - حققت من الناحية التاريخية العلاقة بينه وبين بيان العربية بحيث يظل هذا البيان قرآنيا، يفسر القرآن ويحيا بالقرآن[2] .

إن الأهمية التعليمية تتضح لنا هنا إذا تذكرنا ما أنبأنا به التاريخ عن أمم كثيرة سادت حتى ملكت، وضعفت حتى امحت، وقد كان لتلك الأمم لغات سايرت حياتها السياسية جنبا إلى جنب، وكانت مرآة تنعكس عليها صور وجودها وألوان حياتها فرقيت برقيها، وضعفت بضعفها ثم أصبحت يعرفها التاريخ كما يعرف الشىء الذى باد لا وجود له إلا على صفحات التاريخ [3] .

وذلك أن اللغة، ككل مظهر اجتماعى، خاضعة لقانون النشوء والارتقاء، فهى تقوى وتضعف، وهى ترقى وتنحط، ثم هى تحيا وتموت، فإذا رقيت الأمة أو انحطت، وضعفت أو قويت، ظهر ذلك فى لغتها جليا واضحا .

ولكن إذا نظرنا إلى اللغة العربية، رأيناها تطوى هذا الأمد الطويل، وتقطع تلك المراحل الشاسعة، وتمتزج مع ذلك بأمم كثيرة، وتواجه مدنيات شتى يرغم أقلها شأنا أكثر اللغات غنى، على العجز - ثم هى لا يكاد يجد الناس بدا منها ولا منصرفا عنها ولا يزيدها مر القرون إلا قداسة وجلالة، يجعلانها تتشبث بالبقاء .

ما السر إذن فى هذا التفرد عما قد خضع له كل ما يعرف الوجود من لغات ؟ وما تلك القوة التى تحوط اللغة العربية وترعاها ؟[4] .

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٦ .

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٧ .

(٣) أحمد حسن الباقورى، أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٨ .

(٤) المرجع السابق، ص٣١ .

إن اللغة العـربية، كغيرها من لغـات البشر، خاضـعة للتغير والـتبدل، وللزوال والفناء، وإن القرآن الكريم بحكـم أنه لسان الإسلام الناطق ومعـجزته الباقـية هو الذى حـفظهـا من الضيـاع، لأنه جـاء على وجـه تحدى به العـرب تحـديا صـارخا، فـذلوا واستكانوا، فحرص كل مسلم على ألفاظه احتـفاظا بالمعجزة، وتعبدا بتلاوته، وتعلمه، ولو أنه جاء كما جـاء غيره من الكتب مجردا عن الإعجاز اللغوى، لما كـان حتما على الناس أن يلزموا أنفـسهم تعهـدها وتعلمها، بل كانوا يـأخذون ما فيـه مما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم بعد أن ينقلوه إلى لغاتهم، فتضطر العربية أن تقف وحدها فى معترك الحيـاة، فلا تزال تتطلع إلى التجـديد حتى تصبح فى مـبدئها ونهـايتها لغـتين أو لغات متباينة، أو تمشى إلى الموت فتصبح فى ذمة التاريخ[1].

وكان للقرآن أثره كذلك فى تيسر التدفق والتفاعل الثقافى بين شعوب عدة تعربت بفضله، وكانت لغات شتى ولهجات متباينة .

ذلك أن القـرآن خلق للعـرب جامـعة دينيـة سيـاسـية حـفـزتهم إلى التعـارف والاختـلاط، فى المساجد والنوادى، ومواقف الحـروب فى الجزيرة وغير الجـزيرة، وقد استحكمت حلقات الوحدة العربية بهدايتـه وكان أكثر القائمين بالدعوة إلى تلك الهداية ممن ينطقـون باللغـة التى نطق بها القرآن، وذلك - مـع أن القرآن كان مـتلوا بكل لسان تعبدا به أو تأثرا بفصاحته، أو نظرا فى أحكامه، أو طلبا لمعارضته - من شأنه أن يذهب بجانب عظيم من تناكر اللغات واختلاف اللهجات[2] .

ذلك أن الإسلام عندما خرج من الجزيرة إلى العراق والشام ومصر وسائر الممالك التى افتتحها المسلمون، ودخل من أهل تلك المماليك، الكثير فى دين الله ودخلوا كلهم فى طاعته وتحت حكمه، تعلمـوا اللغة لأسباب مختلفة، بعضهـا دينى وبعضها دنيوى، ومن غيـر المعقول أن يـعالجوا غـير لغة القـرآن، فزال الاختـلاف، ورجعت اللهـجات المستكرهة بقـايا أثرية، تروى، إن رويت، على أنها شاهد أو دليل، ثم تلا ذلك عـصر التدوين، فدونت اللغة غير منظور إليهـا إلا على أنها لغة أمة من الناس سيدها الإسلام ووحدها لغة ودينا وغاية، وبذلك التأم صدع اللغة العربية واجتمع شتيتها فى لغة العبادة والقراءة والكتـابة والتعلم والتعليم، وأصبح من الممكـن أن يتفاهم العرب وغـير العرب بلغة واحدة فصـيحة، ولهجة واحدة عـذبة، لا يستعصى على أحد فهـمها، ولا تروعه منهجيتها، فلا يعدل أحد عن طريقها.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

ولم يقتصر فضل تعلم القرآن وتعليمه على اللغة وحدها ، وإنما امتد ليصبح تغيرا ثقافيا جذريا وشاملا فيما يشبه أن يكون إعادة صياغة شخصية الأمة بكاملها .

وقد استند القرآن الكريم فى هذه التربية العامة إلى العمليات التربوية التالية (١):

أولا : تلك العملية التى يسميها القرآن بالإنذار، وهى عبارة عن الوعى التام بكل ما فى المجتمع من خلل يكاد يودى به - خلل يعقد الحياة وتبرز من خلاله المشكلات، ويوحى إلى أنفس المواطنين باليأس والقنوط - اليأس من القدرة على التغلب على العقبات والمشكلات، والقنوط من الوصول الحياة إلى شكل أحسن وأفضل .

والإنذار إنما يعنى فى القرآن تبصرة الناس بسوء المآل - إن هم استمروا فى ممارسة الحياة بتلك الأساليب التى ينكرها القرآن ويرى فيها ضررا يلحق بالناس .

وثانيا : تلك العملية التى يسميها القرآن الكريم بالبشارة، وهى عبارة عن الصورة الدقيقة لشكل الحياة فى المجتمع الذى يأخذ بالأساليب وبالوسائل التى تكشف عنها الدعوة الجديدة، وتراها الكفيلة بتحقيق هذه الصورة، وبناء المجتمع من جديد على أساس جديد .

والبشارة إنما تعنى خلق الأمل فى نفوس الناس، ودفعهم إلى العمل الجاد فى سبيل تحقيق هذه الصورة .

وثالثا : تلك العملية التى يستكشف فيها الناس الوسائل والأساليب التى يمارسون بها الحياة، وهى العملية التى يسميها القرآن الكريم بالعمل الصالح، والعمل الصالح فى القرآن الكريم إنما يعنى العمل الذى يصلح به حال الفرد به حال المجتمع(٢) .

فهم القرآن :

التربية بالدرجة الأولى « سلوك » وَ« عمل » ، والسلوك أو العمل إنما هو تطبيق لفكرة، وبحكم هذه العلاقة بين الفكرة والسلوك كان لا بد من الفهم ومن الاقتناع، إذ لا يتصور أن يسلك الإنسان سلوكا عن غير فهم أو اقتناع وإلا اتسم هذا السلوك بالتخبط والعشوائية واللامعقولية .

ولما كان العمل بالقرآن هو لتربية الإنسان سلوكا وتطبيقا وضح لنا أنه لا بد من فهم القرآن- كما فصلنا فى الصفحات السابقة- حيث بينا أنه ليس المقصود منه مجرد

---

(١) محمد أحمد خلف الله : القرآن والثورة الثقافية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ص١٢.

التلاوة أو التماس البركة، وهو مبارك حقـا، ولكن بركته الكبرى فى تدبره وتفهم معانيه ومقاصده، ثم تحقيقها فى الأعمال الدينية والدنيوية على السواء[1].

وإذا كـان القـرآن العظيم عندنا نحن المسلـمين، كلام دال علـى معـانيـه، دلالة مأخوذة بالطريـق الواضح العادى لدلالة الكلام العربى، فليس هو على ذلك بمحتاج إلى التفسير احتياجا أصليا..

ولكن الحاجة إلى تفسير القرآن إنما هى حاجة عارضة نشأت من سببين[2]:

١- أن القرآن كما هو معروف لم ينزل دفـعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه فى ظرف زمنى متسـع جدا قدره أكثر من عـشرين عاما، فكان ينزل منجما على أجزاء مع فواصل زمنـية متـراخيـة بين تلك الأجزاء، وكان نـزوله فى تقدم بعض أجـزائه وتأخر البعض الآخر على ترتيب معروف يختلف عن ترتيبه التعبدى؛ لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظورا فيه إلى مناسبة الظروف والوقـائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

فكان انقراض تلك الملابسات الوقـتية محوجا إلى مـعرفتها معرفـة نقلية تصورية ليتـمكن الآتون من استـعمال القـرائن والدوال، التى اهتدى بها إلـى معانى التـراكيب القرآنية سابقوهم، وبذلك طلبـوا الرجوع إلى المعارف المنقولة عن تواريخ نزول الآيات، وحالها، والمناسبات التى جاءت فيها للاستعانة بذلك على استيضاح المعانى المقصودة من التركيب[3].

٢- إن دلالات القرآن الأصلية التى هى واضـحة بوضوح ما يقتضـيه من الألفاظ والتراكيب، تـتبعها مـعان تكون دلالة التراكيب عليـها محل إجمـال أو محل إبهام، إذ يكون التركيب صالحا على الترديد لمعان متباينة يتصور فيها معناه الأصلى ولا يتبين المراد منها، كأن يقع التعبير عن ذات بإحدى صفـاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خواصها، أو أحد لوازمها، على الطرائق البيانية المعهـودة فى اللغة العربية وغيرها، فينشأ عن ذلك إجمال، فيطلب بيانا، أو إبهام يتطلب كمـا تعيينا يقع ذلك فى الكلام بصفة عامة، ولما كان الذين اتصلوا أولا بتلك المجمـلات أو المبهمات أو المطلقات قـد رجعوا إلى المبلغ،

---

(١) حسن البنا : مقاصد القرآن الكريم، ص٦.

(٢) محـمد الفاضل بن عاشـور : التفسـير ورجاله، مـجمع البحوث الإسـلامية، سلسلة البـحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

ﷺ في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها، احتاج من جاء بعدهم إلى معرفة تلك الأمور المأثورة عن رسول الله لتتضح لهم تلك المعانى كما اتضحت لمن قبلهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالخبر المأثور [1].

ولهذا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير المفهم الذى تتضح به المعانى والمقاصد بحسب مدارك البشر وما تتسع له عقولهم، وإن كان القرآن في الحقيقة قد يسره الله للناس تيسيرا عجيبا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان]. ولكن بعد تبلبل الألسنة، وفشو اللحن وانتشار العامية والبعد عن الفصحى، صار الناس فى حاجة إلى تفسير الألفاظ والتراكيب التى قد يغيب معناها عن أذهانهم أو يخفى مدلولها عن إدراكهم.

من هنا كتب الراغب الأصفهانى [2] يقول: إن « أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله؛ وذلك لأن الصناعة إنما تشرف بشرف موضوعاتها أو بشرف صورها، أو بشرف أغراضها، وصناعة التفسير قد تحقق لها الشرف فى الموضوع، لأن موضوعها كلام الله- تعالى- الذى هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، وتحقق لها شرف الصورة لأن صورته إظهار المكنون فى القرآن من أسرار أودعها الله فيه، وتحقق لها شرف الغرض، لأن مقصدها التمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا فناء لها ».

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله، وتطلب تفسيره، ولذلك يقول ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن »[3].

ولا شك أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهى المجيد، ومن هنا قال سعيد بن جبير: « من قرأ القرآن ولم يفسره، كان كالأعمى، أو كالأعرابى»، يقصد البدوى الجاهل الذى لم يتعلم.

ولذلك جاء فى تفسير الطبرى: « وفى حث الله- عز وجل- عباده على الاعتبار

---

(١) المرجع السابق، ص١٦ .

(٢) أحمد الشرباصى : قصة التفسير، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، فبراير ١٩٦٢، ص١٥ .

(٣) المرجع السابق، ص١٦ .

بما فى آى القرآن من المواعظ والتبيان بقوله جل وعلا : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر]، وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به أو« معرفة من القيل والبيان، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ويعتبر به »(١).

كذلك أكد ابن كثير فى مقدمة تفسيره أن الواجب على العلماء، الكشف عن معانى كلام الله وتفسيره ذلك وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الفتيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله(٢) .

وإذا رجعنا إلى الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) وجدناه فى المقدمة يتحدث بما نفهم منه أن الخوض فى تفسير القرآن واجب «كفرض العين» .

وحينما يتحدث القرطبى فى تفسيره « الجامع » عن قارئ القرآن الكريم، يذكر أنه ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب، وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ؟ وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه فلا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كحمار يحمل أسفارا(٣) .

والتفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان]، أى بيانا وتفصيلا، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف(٤).

---

(١) أحمد الشرباصى، قصة التفسير، ص١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، جـ١، ص٤ .

(٣) قصة التفسير، ص١٨ .

(٤) محمد حسين الذهبى: « التفسير والمفسرون»، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦١، جـ١، ص١٣ .

وأول ما ظهر التفسير، ظهر فى صورة عملية، ذلك أن الصيغة الغالبة لكل ما أثر عن المفسر الأول، أى الرسول ﷺ وما نقل بعد ذلك عن صحابته وتابعيهم هى البيان العملى التوضيحى القريب[١].

وأوضح ما يميز الطابع العملى لهذه المرحلة من التفسير ما قدمناه عن قول ابن مسعود من أن الواحد منهم إذا تعلم عشر آيات لم ينتقل إلى غيرها حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[٢].

كان تفسير الرسول توضيحا قريبا يطل على الحقيقة من أقرب مكان، ويستهدف البيان الذى تجده النفس عامة، ويخاطب العام والخاص من غير أن يعمد إلى زينة أو زخرف، وإنما يبغى الإبانة السريعة التى تقتضيها طبيعة المقام، فهو رسول الله إلى الناس كافة، والناس يختلفون، وتتفاوت مراتبهم فى الوعى والمستوى العقلى. لقد كانت رسالة تقتضى مراعاة العام، وتقدير طبيعة التذوق بالقياس إلى الأكثرية. وكانت عقول العرب لا تعرف التعمق الفلسفى ولا الاستقصاء الفكرى الدقيق. من أجل هذا نجد خطاب الرسول فى تفسيره للقرآن واضحا عمليا قريب المأخذ، يوافق هذه الأكثرية التى تعيش على الفطرة، على الرغم من تلك الأصول العميقة والحقائق الدقيقة التى حفل بها تفسيره ﷺ[٣].

وهكذا شهدت سنوات التفسير الأولى أن الجهد القائم : قراءة وفهما وتفسيرا يقوم على الحرص على التحقق الكامل بنصوصه على المستوى الفردى وعلى مستوى الأمة، بل وعلى مستوى القيادة السياسية التى تدير شئون الأمة. ولم يكن يغيب عن جيل الصحابة المفهوم الحضارى لمعنى التفسير وهدفه ومقصده، وكان الحرص شديدا على تجاوز الفصام فى التعامل مع النص القرآنى، ونعنى به : الفصل بين القراءة والعمل، لتكون القراءة بعد ذلك قراءة نظرية مجردة عن القيمة والأثر[٤].

إن مقصد العمل التفسيرى هو الترجمة الحقيقية لهداية القرآن من خلال التفسير، ولا ينبغى أن تقتصر الهداية على كونها خطبة وعظية أو حكمة فلسفية أو نكتة

---

(١) عفت محمد الشرقاوى : الفكر الدينى فى مواجهة العصر، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، ص١٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢١.

(٤) زياد خليل محمد : تفسير القرآن، إشكالية المفهوم والمنهج، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٨) أغسطس / أكتوبر ١٩٩٦، ص١٤.

بلاغية أو حقيقة صوفية أو مسألة فقهية أو وجهة نحوية. إن الهداية القرآنية منهج شمولى متكامل ينفذ إلى كل مداخل النفس الإنسانية فيسلم فيها القلب والفؤاد، والعقل والجوارح لله- تعالى- وهى منهج ينفذ إلى كل ميادين الحياة العملية والمعرفية فيسلمها لله رب العالمين [1].

ثم كان الذى حدث أن مفهوم التفسير أصبح يدور فى إطار الثقافة الشخصية للمفسر، وذلك على حساب الغاية التى يتمخض عنها تفسير القرآن فى حق الأمة، وهذه الثقافة ليست تلك التى تحقق للإنسان القيام بواجبه الخلافى وواجب رسالته العالمية، بل تلك الثقافة التى تبحث فى مسائل نظرية وتشبع حاجة المفسر التى أرادها من التفسير، فلننظر إلى الطابع الغالب على مفهوم التفسير عند بعض العلماء.

فيعرفه بعضهم بأنه: « علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها » [2].

وأما من اهتم بناحية اللغة، فيذكر فى معناه أنه « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى يحمل عليها التركيب وتتمات لذلك »[3] وهكذا.

وعلى الرغم من انضباط هذه المعانى واتزانها وقيمتها فى بيان معانى القرآن، إلا أن هناك شيئا ظل مبهما، وهو ما هدف هذا الفهم لكتاب الله، وما هو مستواه بالنسبة إلى الأمة والفرد ؟ أى الفهم المربى للأمة، الموجه لها نحو عملية البحث والبناء والضرب فى الأرض لقيادة مركب المدنية وتوجيه الحياة البشرية، والفهم الذى يربط الفرد بقضايا أمته ومجتمعه ليكون عضوا نشطا قادرا على مشاركة الأمة فى الخروج من أزماتها ونكباتها ؟ .

إنه إذا كان الأصل اللغوى لمفهوم التفسير يدل على « إظهار المعنى » وبيانه كذلك، فإن أولى مهامها هى إظهار هداية القرآن وإعجازه فى إطار المواجهات الحضارية بين هذه الأمة والأمم الأخرى على مختلف الصعد، وفى إطار مفهوم الخلافة الذى أنيط تحقيقه بهذه الأمة، هذا فضلا عن المهمة الأساسية لتفسير القرآن، وهى إظهار الحلول

---

(١) المرجع السابق، ص١٥.

(٢) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن، جـ٢، ص١٤٨

(٣) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، جـ٢، ص١٧٤.

القرآنية للمشكلات التى تواجه أمة الرسالة ابتداء، بل التى تواجه المجتمع البشرى عموما[١].

أما «التأويل» عند المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة المتصوفة فهو[٢] صرف اللفظ عن المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا قال الآخر : هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل، وعلى هذا فالمتأول، مطالب بأمرين :

الأول : أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه، وادعى أنه المراد .

الثانى : أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلا فاسدا أو تلاعبا بالنصوص .

وقد شغل بعض العلماء والباحثين بالفروق بين «التفسير» و «التأويل»، والذى نرجحه هو أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا ينجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن[٣] .

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ، واستنباط لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية ومدلولاتها فى المعانى من كل ذلك .

ولعل هذا يشير إلى الدور الذى تلعبه العلوم العقلية فى فهم الهدى الدينى، فالعقل عندما يباشر النص الدينى لاستجلاء معانيه، فإنه سيعتمد المبادئ المنطقية العامة للفكر، التى بنى عليها النص نفسه، وهى القاسم المشترك الأصلى، بين الخطاب الدينى وبين المخاطب بالتكليف، ولكن عقل الإنسان معمور أيضا بحصيلة من المعارف المكتسبة عن الكون والإنسان، وهذه المعارف تتدخل حتما عند مباشرة النص الدينى، أو أى نص

(١) زياد خليل، ص١٦ .

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢.

غيره بالفهم، وذلك من طبيعة عملية الإدراك العقلى نفسها، إذ ليس من الممكن التخلى عن المكتسبات المعرفية للعقل عند فهم الخطاب[1].

وإذن فإنه يكون من الضرورى، ومن المشروع أن يكون للمعارف العقلية دور فى فهم القرآن، إلا أنه من الضرورى أيضا أن يكون ذلك الدور سالكا مسلك الرشد فى استخدام هذه المعارف، فى تحديد المراد الإلهى، وذلك بأن يفرق بين نوعين من المعارف العقلية : نوع يكون الحق فيه يقينا أو قريبا من اليقين، ونوع يكون الحق فيه مظنونا ظنا ضعيفا أو موهوما، فيعتمد الأول فى الفهم، ويترك الثانى فلا يكون له مدخل فيه حتى لا يفضى إلى تحصيل أفهام دينية موهومة أو مظنونة ظنا ضعيفا[2] .

والناظر فى القرآن يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أوجز فى مكان قد يبسط فى مكان آخر، وما أجمل فى موضع قد يبين فى موضع آخر، وما كان عاما فى آية، قد يدخله التخصيص فى آية أخرى[3] .

لهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله- تعالى- أن ينظر فى القرآن أولا، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزا، وبما جاء مبينا على فهم ما جاء مجملا، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ويتخطاها إلى مرحلة أخرى؛ لأن صاحب الكلام أدرى بمعانى كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا فمن تفسير القرآن بالقرآن : أنه يشرح ما جاء موجزا فى القرآن بما جاء فى موضع آخر مسهبا، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة فى بعض المواضع وجاءت مسهبة مطولة فى موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة فى بعض المواضع وجاءت مسهبة مفصلة فى موضع آخر[4].

ومن تفسير القرآن بالقرآن أنه يحمل المجمل على المبين ليفسر به، وأمثلة ذلك كثيرة فى القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ... **وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي**

---

(1) عبد المجيد النجار : فى فقه التدين فهما وتنزيلا، جـ١، ص٩٩.

(2) المرجع السابق، ص١٠٠ .

(3) محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون، جـ١، ص٣٧.

(4) المرجع السابق، ص٣٨ .

يَعِدُكُمْ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] بأنه العذاب الأدنى المعجل فى الدنيا، لقوله تعالى فى آخر السورة نفسها : ﴿ ... فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة] فسرتها آية أخرى ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف].

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، فمن الأولى : ما نقله الغزالى عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد فى صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثله بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدى مقيدة فى الوضوء بالغاية فى قوله تعالى: ﴿ ... فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ... ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة] ومطلقة فى التيمم فى قوله تعالى فى نفس الآية: ﴿ ...فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم ... ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة] فقيدت فى التيمم بالمرافق أيضا[1].

ومن الثانى : نفى الخلة والشفاعة على وجه العموم فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة]، وقد استثنى أهل التقية من نفى الخلة فى قوله : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم].

ومن تفسير القرآن بالقرآن : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف، كخلق آدم من تراب فى بعض الآيات ومن طين فى غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التى مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه[2].

ولقد أنزل القرآن على الرسول العربى محمد ﷺ واضحا مبينا، واتخذ منهجه مناداة الفطرة، وبذلك كان قريبا إلى عقول الناس الذين نزل فيهم وقلوبهم، غير أن النصوص يتناولها الناس فهما كل بحسب درجته العقلية . فإذا كان النص كتابا إلهيا فى درجة عالية من البلاغة لا يرتقى إليها خصيب المعنى عميقه، فإنه لا شك يفسح مدى متفاوتا بين الناس فى قدر تفهمهم له، وهذا لا يطعن بحال فى القرآن ما دام الناس

---

(١) الذهبى : التفسير والمفسرون، جـ١، ص٣٨

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

متفاوتين فى الرقى العقلى تبعا للفطرة والاكتساب، بل إن الشخص الواحد تتباين مراتب تفكيره فى أطوار حياته، وإذن كان القرآن فى حاجة إلى من يرجع إليه فيه فيوضح ما أجمل من معانيه ويقرب ما بعد عن الفهم منها، ومن ثم فطبيعى أن يكون أمين الله على وحيه مفسرا لكتابه[1].

كان الرسول المفسر الأول يبين معني المجمل من القرآن، هذا رجل يسأل الرسول، يقول، أرأيت قول الله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الحجر] فيقول الرسول: «اليهود والنصارى»، فيقول الرجل: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر] ما عضين ؟ فيقول الرسول: «آمنوا ببعض وكفروا ببعض» ويقرب المعنى، فأبو بكر يقول للرسول: يا رسول الله: كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ... ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء] ؟فيقول الرسول: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟.. فهو ما تجزون به»[2].

وكان الرسول كذلك يوضح معنى اللفظ الغريب فى القرآن. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»[3]. وعن عمر ابن الخطاب عن النبى ﷺ: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ... ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء]، قال: «لزوال الشمس»[4]. ولم يكن الناس بحاجة إلى أن يبين لهم الرسول مناسبات النزول، فالأحداث التى تنزل فيها الآية تجرى بين اعينهم وتتناقلها أسماع العرب وأفواههم فى أنحاء الجزيرة العربية، ولا هم بحاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام متشابه القرآن يحكمون منطقهم لأن عقولهم على فطرتها لم تألف تعمقا أو لجاجا فى تفكير فلسفى[5].

فالناظر فى هذه الأمثلة يجد أن الرسول ﷺ قد تعرض فى تفسيره للقرآن الكريم، لبيان ألفاظه وجمله، التى خفيت دلالتها على بعض الصحابة، إما لقصور معرفتهم بلغة العرب، أو لأن اللغة فى حد ذاتها لم تسعفهم فى توضيح المراد منها، لأنها قد جاءت تحمل دلالات خاصة، أو لأن الموضوعات التى تتحدث عنها هى فى

---

(١) مصطفى الصاوى الجوينى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٨، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩-١٠.

(٣) جلال الدين السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، د.ت، جـ٢، ص١٩٦.

(٤) المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٨.

(٥) منهج الزمخشرى، ص١٠.

مجال الخفاء والغموض، لأنها من المغيبات التى لا يمكن معرفتها إلا عن طريق السماع من الوحى المعصوم، أو لصعوبة الوقوف على مراد الله منها، وإن كانت فى ظاهرها واضحة المعنى على ما هو المعروف لديهم من طرق استعمالها وأنواع دلالتها[1].

والناظر كذلك، يرى كيف أن الرسول ﷺ كان يلفت النظر إلى القرآن الكريم نفسه، كمرجع يعتمد عليه فى تفسير القرآن، فقد أخرج الترمذي والشيخان عن عبد الله رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] شق ذلك على المسلمين، فقالوا : يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : ﴿ ...**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان].

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف]، فإنها بيان للفظ « كلمات » من قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

ومن المعلوم أن اعتماد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى تفسير القرآن وتوضيح مراد الله تعالى من كلامه، إنما كان على الوحى وما يلقيه الله فى قلبه من فهم، وما خص به من علم ومعرفة، فقد تكفل له بحفظه وجمعه فى صدره، فقال تعالى : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴿١٦﴾ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة].

وروى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ ... **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]، عمد « عدى بن حاتم » إلى عقالين، أحدهما أبيض والآخر أسود، ووضعهما تحت وسادة حتى بين له الرسول ﷺ أن المراد بالخيطين، بياض النهار وسواد الليل . . وغير ذلك كثير .

فعلى ما كان عليه الصحابة من العروبة الخالصة، والتصرف فى فنون القول، وأخذهم بزمام الفصاحة، فقد خفيت عليهم بعض ألفاظ « القرآن » اللغوية، ولم يعرفوا معناها . أخرج أبو عبيد فى « الفضائل » عن إبراهيم التيمى، أن أبا بكر الصديق - سئل عن قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم[2] .

---

(١) عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم، ص٤١٤ .

(٢) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص٢٩ .

وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه - قرأ على المنبر: «وفاكهة وأبا » ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: « إن هذا لهو الكلف يا عمر ! وما عليك يا ابن أم عمر، أن لا تدرى: ما الأب » ؟ لأن عدم معرفة معنى كلمة من القرآن لا تضر المسلم ما دام حافظا للقرآن عاملا بكل ما فيه من الأحكام والآداب ؟

وأخرج أيضا من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : « كنت لا أدرى ما « فاطر السموات والأرض) حتى أتانا أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها، أى « ابتدأتها » وروى أيضا عنه أنه قال : ما كنت أدرى، ما قوله : ﴿ ...رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ... (٨٩) ﴾ [الأعراف]، حتى سمعت بنت « ذى يزن » - وقد جرى بينى وبينها كلام - تقول : « تعالى أفاتحك »، تريد : أقاضيك وأخاصمك !

وكان الصحابة رضوان الله عليهم، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ، رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خلص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب [٢] .

غير أن الصحابة كانوا متفاوتين فى معرفتهم بأدوات الفهم والاستنباط، فلم يكونوا جميعا فى مرتبة واحدة، السبب الذى من أجله اختلفوا فى فهم بعض معانى القرآن وإن كان اختلافا يسيرا بالنسبة لاختلاف التابعين ومن يليهم . ومن أمثلة هذا الاختلاف ما روى من أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، فأخبر عمر بأن قدامة شرب فسكر وأيد ذلك أبو هريرة شاهدا، فلما أعلن عمر أنه سيجلد قدامة احتج هذا بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ... (٩٣) ﴾ [المائدة]، وهو ممن ينطبق عليه هذا وذكر ما يدلل به عليه، فسأل عمر : ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس : إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين، وحجة على الباقين، لأن الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]، قال عمر : صدقت[٢] .

---

(١) محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون، جـ١ ، ص٥٨ .

(٢)المرجع السابق، جـ١ ، ص٦٠ .

وكان السلف رضوان الله عليهم يهتمون بتعرف مقاصد القرآن الكريم، ويرون الفضل لمن علم شيئا من تفسيره، فعن على رضى الله عنه أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له الرجل : جعلت فداءك ! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ... ﴿٨٥﴾﴾ [القصص]. وقال مجاهد: أحب الخلق عند الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها(١).

ومع هذا التعظيم لقدر التفسير والمفسرين الذين يعلمون فيم أنزلت الآيات وماذا أريد بها، فإن السلف رضوان الله عليهم كانوا يتحرون دائما فى التفسير ألا تتحكم فيما يفهمون من الآيات أغراض خاصة، أو أهواء شخصية، أو ظروف طارئة، ولكنهم كانوا يجردون أنفسهم من كل ذلك حتى يكون القرآن أميرا على تصرفاتهم ويكون هواهم تبعا لما جاء به رسولهم ﷺ .

وقد قسم الباحثون وعلماء التفسير أقسامه إلى ثلاثة(٢) :

١- التفسير بالرواية، ويسمى أيضا التفسير بالمأثور .

٢- التفسير بالدراية أو تفسير الرأى .

٣- التفسير الإشارى .

والتفسير الأول (بالمأثور) هو بيان معنى القرآن الكريم بما جاء فى القرآن نفسه، وبما جاء فى السنة الصحيحة، وبما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وبما نقل عن التابعين - على رأى - من كل ما هو بيان وتوضيح لآيات القرآن المجيد (٣) .

ولا خلاف على تفسير بعض القرآن ببعض، أما تفسير القرآن بالسنة، فإن كان مما لا تصح نسبته إلى النبى ﷺ ، فهو مردود غير مقبول، وإن كان مما ثبتت صحته عن النبى فلا خلاف فى قبوله والثقة به، والاطمئنان إليه، وها هى كتب السنة بين أيدينا قد تميز فيها الصحيح من غيره، بفضل جهود العلماء الذين عنوا بهذا الشأن، وتناولوا فنون

---

(١) حسن البنا : مقاصد القرآن، ص٢٠٨.

(٢) جاد الحق على جاد الحق، ص٢٧٢.

(٣) محمد أبو النور الحديدى صقر : التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه، المركز العالمى للتعليم الإسلامى، مكة المكرمة، ١٩٨٣، ص٢٩.

الأحاديث وأسانيدها بالبحث والتمحيص حتى ميزوا الصحيح من غيره، وأضحى من السهل على من يريد معرفة الصحيح أن يذهب إليه فى مصادره ومواضعه[1].

وأما تفسير الصحابة، فإن كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وما ليس للرأى فيه مجال، فله حكم المرفوع، حيث يقبل، ويطمأن إليه، وإن كان مما للرأى فيه مجال، فقد اختلف فيه. . .

وأما أقوال التابعين فى التفسير، فإن كان مما تلقوه عن الصحابة، فقد سبق بيان حكمه وإن كان مما للرأى فيه مجال، فقد اختلف فيه كذلك.

وأظهر أسباب الضعف فى رواية التفسير بالمأثور ظهور أحاديث غير صحيحة نسبت إلى الرسول ﷺ منذ أن بدأ الانقسام والاختلاف السياسى وظهر التعصب المذهبى.

كذلك تسربت «الإسرائيليات» إلى بعض جهود التفسير بالمأثور، والمقصود بالإسرائيليات معارف لليهود وثقافتهم استمدت من أشعار التوراة والتلمود وشروحه والتراث الشفهى المتناقل بينهم، وهذه المنابع إن كان فيها حق، ففيها باطل كثير[2].

ولقد كانت كثرة المروى من المأثور كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، أكبر عامل فى صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعليل والتجريح، حتى لقد نقل عن الإمام الشافعى أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث»، وهذا العدد الذى ذكره الشافعى، لا يكاد يذكر بجوار ما روى عن ابن عباس من التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل فى التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة[3].

وأدرك عدد من علماء الأمة واقع خضوع النقول المتعلقة بالأخبار التفسيرية للتحريف من احتمال الاختلاف والخلط، والمجازفة والوضع، أو الثبات والإتقان، والتحرى، والتصحيح فشمروا عن سواعدهم بوضع قواعد النقد للأخبار بصفة عامة، وترتيب منازل المحدثين وفقا لها، وتعيين المتهمين بالوضع والموسومين بالضعف،

---

(١) المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) محمد محمد أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٣.

(٣) محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون، جـ١، ص١٥٧.

وتمحيص الأحاديث بتأييد بعضها، ورد بعضها لبعض وطرح الأحاديث الضعيفة والروايات المنكرة للصحيح المشهور، الذى نقله الثقات المعروفون بالصدق والأمانة[(١)].

أما التفسير الثانى (بالرأى) فمقصود به تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم فى القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوب دلالتها، واستعانته فى ذلك بالشعر الجاهلى ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن وغير ذلك من أدوات يجب أن يعتمد عليها المفسر [(٢)].

وقد اختلف العلماء من قديم الزمان فى جواز تفسير القرآن بالرأى، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين : فقوم تشددوا فى ذلك فلم يجرءوا على تفسير شىء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم، وقالوا لا يجوز لأحد تفسير شىء من القرآن وإن كان عالما أديبا متسعا فى معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى عن النبى ﷺ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين[(٣)].

وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك، فلم يروا بأسا من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده .

والفريقان على طرفى نقيض فيما يبدو، وكل يعزز رأيه ويقويه بالأدلة والبراهين.

ويقسم البعض التفسير بالرأى إلى قسمين [(٤)] :

أ- تفسير محمود : وهو ما كان موافقا لغرض الشارع، بعيدا عن الجهالة والضلالة، متمشيا مع قواعد اللغة العربية، معتمدا على أساليبها فى فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسر القرآن برأيه أى باجتهاده، ملتزما الوقوف عند هذه الشروط، معتمدا عليها فيما يرى من معانى الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزا سائغا جديرا بأن يكون تفسيرا مشروعا .

ب- التفسير المذموم: وهو تفسير القرآن بدون علم، أو تفسيره حسب الهوى، مع الجهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام الله على مذهبه الفاسد، وبدعته الضالة، أو يخوض فيما استأثر الله بعلمه، ويجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا

---

(١) محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله، ص٢٩.

(٢) التفسير والمفسرون، جـ١، ص٢٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٤) مناع القطان : التبيان فى علوم القرآن، ص١٥٥.

والقسم الثالث من أقسام التفسير (الإشارى)، فيهدف إلى تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولى العلم، أو يقول بها بعض الصوفية وغيرهم من الفرق التى ظهرت فى سالف عصور المسلمين [1] .

وقد تحفظ العلماء على هذا القسم، فهذا هو شيخ الأزهر-السابق- يقول :

« ولا شك أن على الناس جميعا أن يحذروا هذا النوع من التفاسير الإشارية الملتوية، لأنها خارجة عن حدود الضبط والعلم، وكثيرا ما يلتبس فيها الحق بالباطل، والخيال بالحقيقة . وعلينا جميعا أن نلتزم الكتاب والسنة مستهدين بأقوال السلف الصالح، وأن نعرض عمن يقولون فى كتاب الله بغير علم، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون من كيد للإسلام والمسلمين، فينفثون سمومهم محرفين الكلم عن مواضعه بإشارات وادعاءات لا سند لها إلا أفهامهم » [2] .

ويحسن بنا أن نتذكر هنا أن القرآن العربى البليغ الوجيز المعجز المشتمل على الدقائق واللطائف والأسرار لا يمكن أن يكون الناس فى فهمه والتأثر بمعناه والتصور لمفاهيمه على مرتبة سواء، بل القرآن أشبه بالكنز الذى لا تنتهى فوائده، ولا تحصى فرائده - ولله المثل الأعلى - وهو مفتح الأبواب لكل قاصد أو راغب، وكل داخل إلى هذا الكنز يأخذ منه ما يستطيع أو يطيق، فمنهم من يخطو خطوة، ومنهم من يخطو خطوات، ومنهم من يقطع مراحل، والسبيل ممتدة ممتدة، والكنز مليء مليء[3] ، وصدق العلى الكبير :﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** (١٠٩) ﴾ [الكهف].

ومن هنا قال الراغب الأصفهانى[4]: « ثم إن القرآن - وإن كان فى الحقيقة هداية للبرية - فإنهم لن يتساووا فى معرفته، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم، فالبلغاء من فصاحته، والفقهاء من أحكامه والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه . وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته فى العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه، وعلى ذلك أخبار النبى ﷺ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها كما سمعها، حتى يؤديها إلى من لم يسمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع ».

---

(١) جاد الحق على جاد الحق، ص٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(٣) أحمد الشرباصى : قصة التفسير، ص٣٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص٤٠ .

وعند التأمل، نجد أن فى التفسير مرتبة دنيا ومرتبة عليا، أما المرتبة الدنيا فهى التى تليق بالعامة، وهى فهم ما يعطيه الظاهر من الآيات، وإدراك المعنى الإجمالى العام، مما يحقق الطاعة ويبعد عن المعصية، وأما المرتبة العليا للتفسير فهى مرتبة الخاصة من العلماء والباحثين، الذين يبحثون فى دقائق التفسير وخفاياه وأسراره، مما لا يسهل على العامة تناوله وهضمه [1].

وأولى مراتب التفسير أن يفهم الإنسان معانى الألفاظ، ومن الألفاظ ما يعرفه العامة والخاصة، ومنها ما يعرفه معظم الخاصة، ومنها ما يعرفه القليل من الخاصة، أو من ضروب الألفاظ ما يحتمل أكثر من معنى، ولذلك يتفاوت الناس فى مجال التفسير كثيرا.

والحق أننا لا نتطلب خلال الجزء الحالى من التربوى أن يكون بالضرورة «مفسرا» للقرآن الكريم، فهذه ليست مهمته ولا هو أعد لها، فلها المتخصصون المؤهلون لذلك، وإنما نسوق كل هذا ليكون على دراية عامة ببعض الجوانب التى تعينه على الاستعانة بعدد من التفاسير حتى يستطيع أن يفهم ما جاء بالقرآن الكريم من أفكار وتعاليم تستغرق جوانب العملية التربوية .

وحتى لا يقع فى وهم أحد أننا نشق على التربويين بما نثبته خاصا بتفسير القرآن فإننا نشير هنا إلى عدد من الشروط الأساسية التى يجب أن تتوافر فى المفسر - فضلا عن العلم بعلوم القرآن - وبالتالى يستطيع التربوى بناء على ذلك أن يميز بين التفسير الذى يمكن الاعتماد عليه وذلك الذى لا يكون كذلك .

وقد أجمل الشيخ محمد رشيد رضا هذه الشروط فيما يلى[2] :

١- فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد .

٢- الأساليب، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه، ويحتاج هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب «المعانى والبيان»[3] .

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) تفسير المنار، جـ١ ، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠

٣- علم أحوال البشر (التاريخ الاجتماعى والحضارى)، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه فى غيره، بين كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية فى البشر، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها، فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعلم وجهل [١] .

٤- العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم فى شقاء وضلال، وأن النبى ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه، إن هذا المطلب الرابع يكاد يكون هو الأقرب لما نقصه من التاريخ التربوى بصفة خاصة والتغيير الثقافى بصفة عامة، فما أشير إليه فى«٣» يتصل بالأحوال العامة من الناحية التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، أما هنا فى« ٤» فالأمر يتصل بجوهر عملية التغيير السلوكى لمجموع أفراد الأمة .

٥- العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشئون الدينية والدنيوية [٢] .

٦- علم أصول الدين، وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسرون أن يستدلوا على ما يجب فى حقه تعالى، وما يجوز، وما يستحيل، وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات .

٧- علم أصول الفقه، إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهى، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم[٣] .

وفى نهاية هذا الجزء لا بد وأن يتساءل القارئ عن أقوم الطرق لفهم سليم للقرآن الكريم وتفسيره ؟

---

(١) المرجع السابق، ص٢١ .

(٢) المرجع السابق، جـ١ ، ص٢١ .

(٣) محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، جـ١ ، ص٢٦٧

ويجيبنا القرضاوى على ذلك بهذه المعالم التى سعى من خلالها أن يرسم الخطوط العريضة للمنهج مثل[1] :

١- الجمع بين الرواية والدراية، أى الجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول والتأليف بين تراث السلف ومعارف الخلف، وهذا ما سار عليه كثير من أئمة التفسير، وعلى رأسهم ابن جرير الطبرى فى موسوعته التفسيرية « جامع البيان فى تفسير القرآن » والذى يصنفه ضمن القائلين بالمأثور فقط أو القائلين بالرواية فقط يظلمه كثيرا، فقراءته تبين لنا كيف أنه يسرد الروايات، ثم يناقشها ويبين أولاها بالصواب، أو يرى هو رأيا آخر فى فهم الآية الكريمة[2] .

٢- تفسير القرآن بالقرآن، ذلك أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضا، ويفسر بعضه بعضا، فما أجمل فى موضع فصل فى موضع آخر، وما أبهم فى مكان بين فى آخر ، كما سبق أن بينا.

وعلى سبيل المثال، ففى فاتحة الكتاب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة]، لم يبين المراد بالربوبية هنا، ولكن بينها فى قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]، فتجلت الربوبية فى الخلق، فالتسوية، والتقدير فالهداية، وكذلك لم تبين الفاتحة المراد بالعالمين، وقد أشار إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، فدل على أن العالمين تشمل السموات والأرض وما بينهما [3] .

٣- تفسير القرآن بالسنة، وذلك مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء]، وقوله ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل]، وذلك كما فسر الرسول ﷺ : ﴿ ... أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ... ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام]، أنه طلوع الشمس من مغربها[4]، كما فسر قوله: ﴿ ...مَن يَعْمَلْ

(١) يوسف القرضاوى : المنهج الأمثل فى التفسير، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد (٨٣)، فبراير / إبريل ١٩٩٩ ، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١.

(٣) المنهج الأمثل فى التفسير، ص١٤ .

(٤) المنهج الأمثل فى التفسير، ص١٧.

سُوءًا يُجْزَ بِهِ ... ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]، فإنه ما يجزى به العبد في الدنيا من النصب والهم والخوف . وكما فسر الزيادة فى قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ [يونس].

٤- الانتفاع بتفسير الصحابة(١) : فهم تلاميذ المدرسة المحمدية، فيها تخرجوا ومنها اقتبسوا وعنها تلقوا، فإذا صح عن الصحابة تفسير معين أصغينا له أسماعنا، لما امتازوا به من مشاهدة أسباب التنزيل وقرائن الأحوال، فرأوا وسمعوا ما لم ير غيرهم ولم يسمع، ولا سيما إذا أجمعوا على هذا التفسير، فإذا اختلفوا، فقد أتاحوا لنا أن نميز من آرائهم ما نراه أقرب إلى السداد، أو نضيف إلى أفهامهم فهما جديدا؛ لأن اختلافهم قد أعطانا دليلا على أنهم فسروا برأيهم واجتهادهم .

٥- الأخذ بمنطق اللغة(٢) : فما دام القرآن قد نزل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، يجب أن يفسر اللفظ بحسب ما تدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها، وما يوافق قواعدها ويناسب بلاغة القرآن المعجز . وهذا مع الاهتداء بما سبق .

٦- مراعاة السياق(٣) : فيجب أن نربط الآية بالسياق الذى وردت فيه ولا تقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تجر جرا لتفيد معنى أو تؤيد حكما بقصد قاصد . إن الكلمة الواحدة قد ترد فى القرآن لعدة معان مختلفة، وإنما يتعدد المعنى المراد هنا فى كل موقع بالسياق، ونعنى بالسياق هنا، ما قبل الكلمة وما بعدها .

٧- ملاحظة أسباب النزول(٤): وقد سبق أن أشرنا إليه من قبل . ومهما قلنا بضرورة رعاية أسباب النزول الخاصة، فلا يعنى هذا أن نبالغ فى ذلك كما يفعل البعض فى عصرنا، حتى كاد بعضهم يقصر الألفاظ القرآنية العامة على ما وردت فيه فى عصر النبوة، وهذا لا يقبل بحال لأنه يتنافى مع عموم القرآن مكانا وزمانا، فهو كتاب الزمن كله .

القرآن مصدر التعليم وتعلم العلوم الحديثة

ليس كثيرا على القرآن الكريم وهو كتاب الإسلام الخالد ومعجزته النادرة أن تتضافر الجهود المخلصة على تفسير إعجازه وإيضاح حديثه، وإن مرور الزمن لا يعفى

---

(١) المنهج الأمثل فى التفسير، ص١٩

(٢) المرجع السابق، ص٢١ .

(٣) المرجع السابق، ص٢٤ .

(٤) المرجع السابق، ص٣٣ .

الباحثين فى كل عصر من تبيان آياته، وتحليل مراميه، بل إن تقدم العقل الإنسانى مما يزيد فى ضرورة هذا التحليل والبيان على نحو تطمئن إليه البصائر والضمائر المنصفة. وإذا كنا نرى النصوص الدينية فى أوربا تؤلف لها المجامع المختلفة من قوى الثقافات المتعددة، فيقومون بتوضيح ألغازها وتفسير مضمونها، كل حسب اختصاصه ومنحاه[1]، حتى تضخمت المكتبة الدينية تضخما لا يمنع مستقبلا من اطراد البحث، ومواصلة الاستنتاج، إذا كنا نرى ذلك ونقرؤه دارسين متفهمين، فإننا نرحب بكل مجهود يبذل فى شرح الحقائق القرآنية، وتفسيرها تحت أضواء هادية من التاريخ والعلم والفلسفة والمنطق، ونرى كتاب الإسلام فى حاجة دائمة إلى عقول مستنيرة منصفة تستشف أسراره، وتؤيد إعجازه.

ونحن الآن فى عصر تقدمت فيه الفتوح العلمية تقدما مدهشا، ففى كل يوم، جديد طريف تحمله انتصارات العقل البشرى، فتسير به الصحف اليومية مقرظة مادحة، والمجلات العلمية شارحة[2]. وقد تطوع رهط من أولى العلم والثقافة، فأخذوا يدرسون آيات الكتاب الكونية دراسة هادية، ويحاولون أن يستشفوا من خلالها أقباسا وضيئة، تشير إلى ما جد من مخترع واستحدث من مستكشف.

فالحق أنه لا توجد سورة فى القرآن - وخاصة السور المكية - إلا وفيها إشارة أو تصريح أو عرض كامل للنظر فى الكون والتأمل فى نطاقه وإبداعه، لتحريك السمع والبصر والحواس والعقل للتفكير فى خلق الله تعالى، ثم الانتقال من المخلوق إلى الخالق، ومن الطبيعة إلى مكونها وبارئها، ومن المسبب إلى السبب، ومن المصنوع إلى الصانع مما يقتضيه العقل ويسوق إليه الفكر أدق الأمور وأجلها، وأحقر الأشياء وأعظمها[3].

ومن أهداف الآيات الكونية فى القرآن أيضا، توجيه نظر الإنسان إلى أنه جزء صغير من هذا الكون، ليربطه به وليتعرف أسراره وأحواله، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله له هذا الكون الكبير، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وفى آيات متعددة يشير القرآن إلى أن الله سخر للإنسان هذا الكون البديع ويحث الإنسان على دراسة الكون، واستكناه أسراره والتأمل فى نظامه، كما أشرنا عدة

(١) محمد رجب البيومى: البيان القرآنى، ص٢٨١.

(٢) المرجع السابق، ٢٨٢.

(٣) عبد الله شحاتة: تفسير الآيات الكونية، ص٣٠.

مرات، ليستفيد الإنسان منه ويستخدمه لصالحه، في المعاش الدنيوى والمعاد الأخروى، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة]، ويقول: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

وكلمة التسخير من أقوى التعابير فى الدلالة على الخدمة المستمرة الدائبة، ويستعمل القرآن أحيانا كلمة خلق، وجعل، وأنزل، لتعديد ألوان النعم العديدة التى أوجدها الله للإنسان فى هذا الكون . والمتأمل فى آيات القرآن الكونية يلحظ تنوع أسلوبها، فأحيانا تستلفت النظر إلى آثار قدرة الله، وأحيانا تعدد نعم الله على الإنسان فى هذا الكون البديع، ومرة أخرى تهدد الجاحد بسلب هذه النعم، وكأن الآيات الكونية فى مجموعها نداء جهير للناس أن افتحوا عيونكم وأيقظوا أفئدتكم، وتأملوا مليا فى خلق الله لكم، وفى تركيب أجسامكم(١).

ويستند أصحاب التفسير العلمى للقرآن واعتباره مصدرا تستمد منه علوم حديثة إلى أن إعجاز القرآن لا ينبغى أن يكون موقوفا على فصحاء العرب ومن لف لفهم، فإن الإنسانية مخاطبة به، مطالبة بالتسليم له ، لأنه كلام الله، ليس لآدمى فيه كلمة، ولا حرف، والإنسانية أعجميها أكثر من عربيها، ومع ذلك، فلا بد أن يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان ولو كان أعجمى اللسان، لتلزمه حجة الله إن أبى الإسلام(٢) .

هذا النوع من النظر والتفكير يؤدى إلى نتيجة لازمة : أن لإعجاز القرآن نواحى غير الناحية البلاغية، وغير ناحية التنبؤات التى كانت فى ضمير الغيب حين نزل القرآن، ثم حققها الله فعلا فيما استقبل الناس من زمان .

وإذا فهمنا الناحية العلمية على أوسع معانيها، شملت كل ما عدا الناحية البلاغية من النواحى، هذه النواحى هى التى ينبغى أن يشمر المسلمون للكشف عنها، وإظهارها للناس فى هذا العصر الحديث، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل به من آيات القرآن، ويستعينوا بها جميعا على استظهار أسرار آيات القرآن التى اتصلت بالعلوم جميعا. ولا غرابة فى أن يتصل القرآن

---

(١) عبد الله شحاتة، تفسير الآيات الكونية، ص٣١.

(٢) محمد أحمد الغمراوى، الإسلام فى عصر العلم، ص٢٥٨.

بالعلوم جميعـا، فما العلوم إلا نتاج تطلب الإنسانية أسـرار الفطرة، والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة، فلا غرو أن يتطابق والـفطرة، وتتجاوب كلماتها وكلماته، وإن كانت كلماتهـا وقائع وسننا وكلماته عبارات وإشـارات تتضح وتنبههم طبق ما تقتـضيه حكمـة الله فى مخـاطبة خلقـه، ليأخذ منهـا كل عصـر على قدر مـا أوتى من العلم والفهم، وكذلك دواليك على مر العصور[1].

هذا النوع من الإعجاز يعجـز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكيك فـيه، إلا أن يتبرأ من العقل، فإن الحـقيقة العلمية التى لم تعـرفها الإنسانية إلا فى القرن التـاسع عشر أو العشرين مثلا، والتى ذكرها القرآن، لا بد أن تقوم عند ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن[2] .

ويؤكد الغمراوى أنه مهما يكشف العلـم فى عصر الفضاء من حياة فى الكواكب فهو إنما يحقق معـجزة علمية للقرآن، تتجدد بها الحـجة وتزداد الأدلة بها دليلا على أن القرآن من عند الله، فلا يحتاج العالم إلى الإيمان بالقرآن بعد توفيق الله إلا إلى نفر من المسلمين يحـسنون عرض معنى تـلك الآيات القرآنية علـى العلماء والمثقـفين فى أقطار المسلمين وغير المسلمين[3] .

وفى القرآن أمثلة للحـقيقة الكونية يجـهلها الناس فينبئـهم القرآن بها فى أسلوب حكيم معجز ظاهره صالح لهدايتهم إلى الله، وباطنه يهتدى به أهل العلم، إذا أذن الله فانكشفت تلك الحقائق لهم .

ويضرب الغـمراوى مثالا للحـقيقـة الكونية يصرح بهـا القرآن، حين يؤمن على الناس أن يفتنوا بها إذ يمكنهم صرف عبـاراتها إلى ظاهرة كونية أخرى . والمثل هو قوله تعالى : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [النازعات] - ليل السماء، فى سورة النازعات التى يقيم الله فيـها الحجة على منكرى البعث بالأجـساد، والمفسرون جميـعا، القدامى منهم والمحـدثون، أغفلوا دلالة مـرجع الضمـير المضاف إليـه الليل، وصرفـوه إلى ليل أرض، مع رجوعه صراحـة إلى السماء، فلو أنهم أخذوا بظاهر الآية كمـا كان ينبغى، لقالوا إن للسمـاء ليلا غير ليل الأرض وإن لم يعرفوه . وهذا وحـده سبق إجمالى إلى حقيقة لم يعرف العلم تفصيلها إلا حديثا، عرفها نظريا استنباطا من أن الضوء لا يرى، وأن ليس فـوق جو الأرض ما يعكسـه لخلوه من الهـواء وما يحمل، فـلا بد أن تكون

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦٢.

السماء فيما بعد جو الأرض مظلمة حالكة، والأرض فى إشراق وضياء بالنهار، ومن باب أولى تكون السماء فى ليل حالك والأرض قليلة (من الليل)، أى أن السماء فى ليل متصل، ونهار القمر إنما يكون على سطحه ويكون الظل على القمر كقطع الليل المظلم، وسماؤه تكون أشد ظلاما لخلو جوه من الهواء [(١)].

ثم جاء عصر سفن الفضاء، وصعود الإنسان إلى القمر وتصوير الفضاء من سطح القمر فرأى الإنسان ذلك بعينه، وقد نشرت الصحف صورا للأرض من القمر أرسلتها السفن الفضائية وفيها الأرض كوكب مضىء فى سماء سوداء حالكة هى سماء القمر، وظلمة ليل السماء يكفى فى الدلالة عليها كلمة « ليل »، وأما شدة تلك الظلمة فقد دل عليها الفعل « أغطش »، فلو كان يغنى عنه الفعل « أظلم » الذى فسره به المفسرون لنزل القرآن به لأنه آنس وأوضح [(٢)].

ومع ذلك فالغمراوى يؤكد على أمرين مهمين :

الأول : أنه لا ينبغى فى فهم الآيات الكونية من القرآن أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه . إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدت إلى كثير من الخطأ فى التفسير .

الأمر الثانى : أنه ينبغى ألا تفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التى لا تزال موضع فحص وتمحيص. إن الحقائق هى سبيل التفسير الحق، هى كلمات الله الكونية، ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدسيات والظنيات، فهى عرضة للتصحيح والتعديل، إن لم يكن للإبطال فى أى وقت، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة الثابتة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون تعدد حظها من الصواب[(٣)] .

وقد أضاف الشيخ محمد مصطفى المراغى قيدا آخر عندما قال أننا ينبغى ألا نجر الآية إلى العلوم كى تفسرها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها[(٤)].

ويمكن للقارئ أن يأخذ هذا القيد مستشفا من خلال القيدين السابقين، لكن تسجيله الصريح الواضح هنا، يكمل التوجيه المحتوم لمن يتعرض إلى كتاب الله بتفسير

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٤) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى، ص٢٨٥.

علمي رشيد . فى ضوء هذه التوجيهات الصريحة، قطع العلماء من المتفقهين شوطا حميدا فى تفسير بعض الآيات الكونية والطبية، فضلا عن النفسية والاجتماعية، فجاءوا بما يعجب ويروق مما لا يتطرق إليه التعسف والافتعال .

ويظهر أن الإمام الغزالى كان - إلى عهده - أكثر من أقر باحتواء القرآن كل العلوم، ما كان وما يكون، ويكفى أن ننظر فيما كتبه فى كتابه « جواهر القرآن » حيث قسم علوم القرآن إلى قسمين، ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات، وغير ذلك [1]، ثم يقول : « ووراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم ممن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها، أن فى الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس فى قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين».

ثم يقول بعد ذلك : « ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها، وليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله- تعالى- وهو بحر لا ساحل له، وإن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا، الشفاء والمرض كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن] وقال: ﴿...وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..﴿٥﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة]، وقال: ﴿...يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... ﴿٦١﴾﴾ [الحج] وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل فى النهار، وكيفية تكور حدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه[2] . ويعدد الغزالى أمثلة أخرى،

---

(١) محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون، جـ٣، ص١٤١ .

(٢) الذهبى، جـ٣، ص١٤٢ .

لينتهى منها إلى القول بأنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها « فتفكر فى القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرى»[1] .

وتابع التفسير العلمى آخرون مثل جلال الدين السيوطى وأبو الفضل المرسى والفخر الرازى والزمخشرى .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمى - تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالى، وابن العربى، والمرسى، والسيوطى، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت عمليا، ظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى، ضمن تفسيره للقرآن .

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر رواجا كبيرا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التى تسير على ضوء هذه الفكرة [2] .

وقد أنكر كثيرون هذا الاتجاه، من هؤلاء، أبو حيان التوحيدى، حيث نجده فى تضاعيف كلامه يحمل على الفخر الرازى لنزعته العلمية فى تفسيره، ويرفع عقيرته فى وجه من ينحو هذا الاتجاه الذى يسميه فضولا وتخليطا وتخبيطا [3] .

ويعد الفقيه الأصولى المالكى الشاطبى زعيم المعارضة لفكرة الاتجاه العلمى فى تفسير القرآن فى العصور السالفة .

وعلى الرغم من وجود اتجاه علمى فى تفسير القرآن عند الشيخ محمد عبده، فإن محمد رشيد رضا تلميذه ينعى فى مقدمة تفسيره على من اتجهوا فى تفسيرهم الاتجاه العلمى، فقال[4] : « كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٣ .

(٢) الذهبى، جـ٣، ص١٥٠ .

(٣) عبد المجيد عبد السلام المحتسب : اتجاهات فى التفسير الحديث، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٣، ص٢٩٥ .

(٤) تفسير المنار، جـ١، ص٨.

قارئه عن هذه المقاصد العالية من حيث هو « هدى للمتقين»، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب، وقواعد النحو، ونكت المعانى ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفقه بكثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات . وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة، على ما كانت عليه فى عهده كالهيئة الفلكية اليونانية، وغيرها، وقلده بعض المعاصرين[1] بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن ».

وأنكر ذلك أيضا الشيخ محمود شلتوت بقوله : « إن طائفة من المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها، أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها . نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ... **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا فى القرآن فتحا جديدا، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية، نظروا فى القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذى من أجله أنزله الله»[2] .

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا سالفين فكروا مثل هذا التفكير، ولكن على حسب ما كانت توحى به إليهم أحوال زمانهم، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية، ولسنا نستبعد إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية دارون مثلا، أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية دارون قد قال بها القرآن منذ مئات السنين .

ويؤكد شلتوت أن هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل

---

(١) لعله يقصد الشيخ طنطاوى جوهرى .

(٢) اتجاهات التفسير فى العصر الحديث، ص٣٠٤.

القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف، وهى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم، وهى خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير، فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غدا من « الخرافات». فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة، لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا فى الدفاع عنه، فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم، وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول[1].

ومن المعاصرين المنكرين لهذا الاتجاه، نجد د.سيد أحمد عثمان يحذر من احتمال ظهور اتجاه عكسى، ما دمنا شققنا طريقا نذهب فيه ومنه إلى إثبات أن القرآن قد سبق العلم الحديث فى كذا وكذا من علوم الفلك والحياة والبحار والطب، فقد ينبرى قوم آخرون يعلم الله نواياهم ليشقوا طريقا عكسيا يحاولون فيه[2] :

(أ) هدم ما يتبناه منافسوهم، (ب) أو إثبات عكس ما يحاول أولئك المنافسون إثباته .

ويستطرد سيد عثمان : إن سائلا ما يسأل بنية الاستفسار أو الاستيضاح أو بنية الشك أو التشكيك : لما كان القرآن الكريم نزل متضمنا هذه الحقائق، أو القوانين والمبادئ العلمية، فلم لم يسبق المسلمون، على تتابع العصور والأجيال إلى اكتشاف تلك الحقائق، أو الوصول إلى تلك القوانين، أو استخلاص تلك المبادئ ؟ لم لم يسبق المسلمون فى هذا كله ويأتوا بها قبل العالم الحديث ؟ لم لم يتبينوها فى كتابهم الكريم إلا بعد أن أعلنها العلم الحديث وكان الأجدر بهم أن يكونوا هم السابقين[3] ؟

ونحن نردد مع سيد عثمان صيحة الصدق والأمانة التى يقول فيها : إن الإعجاز

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٦.

(٢) سيد أحمد عثمان : عن اللاعلمية فى محاولة (الإعجاز العلمى للقرآن)، مجلة دراسات تربوية، عالم الكتب، القاهرة، جـ١ نوفمبر، ١٩٨٥، ص٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣١.

العلمى الحق للقرآن الكريم أنه « بعث أمة، بعث وعى، وإرادة وذوق . فأنشأت علوما، وأقامت أخلاقا، وأبدعت فنونا، ترشد عقل الإنسانية، وتنور قلبها، وترقى وجدانها، إعجاز القرآن العلمى الحق هو إعجاز فى صياغة الإنسان صياغة تحقق فعاليته تحققا كاملا، وتسمو بأخلاقياته سموا دائما، إعجاز القرآن العلمى هو أنه أعلى كرامة الإنسان، وأعز قيمته وصان حريته، فكان لذلك الإنسان ما كان من صياغة حضارة إسلامية، إنسانية، شامخة فى نواحيها كافة»[1].

وانتقد الشيخ الذهبى النظر إلى القرآن باعتباره مصدرا للعلوم الحديثة من ناحيتين[2] :

١- الناحية اللغوية، وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، نحن إن كنا لا نعرف شيئا عن تحديد هذا التدرج، وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، نظرا لحدوثه وطروئه على اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معان جددت باصطلاح حادث، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم ؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعانى التى حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتليت أول ما تليت على من كان حول النبى ﷺ؟

٢- عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن فى أعلى درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمى وقلنا بأن القرآن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعانى المستحدثة لأوقعنا أنفسنا فى ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن، أو يذهب بفطانة العرب، وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعانى، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب، وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم، وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧ .

(٢) التفسير والمفسرون، جـ٣، ص١٥٧.

العلمية من لدى نزول القرآن الذى حوى علوم الأولين والآخرين ؟ ولم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون ؟ وهذا أيضا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم[1].

كذلك فقد نبه « المحتسب » [2] إلى أن جعل الارتباط بين القرآن وبين الحقائق العلمية المختلفة، ناحية من نواحى بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء هو خلط بين علم التفسبر وعلم إعجاز القرآن، فغاية علم التفسير إنما هى بيان معانى ألفاظ القرآن مفردة، وجمله مجتمعة، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المبانى، سواء فى ذلك آيات الخبر والقصص، وآيات الأدب وأيات الأحكام، وسائر ما اشتملت عليه معانى القرآن وهو أمر يختلف كثيرا عن « إعجاز القرآن» .

وإعجاز القرآن قد ثبت واستقر وصار فكرة مفروغا منها لا تحتاج إلى إثبات، والقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهانا على إعجاز القرآن . إذن فجعل القرآن بما يحويه من أصول العلوم المختلفة دليلا على إعجازه وصلاحيته للبقاء لا يستقيم مع ثبوت إعجازه فى حياة النبى ﷺ[3] .

ثم إن المعجزة تكون ذات قيمة عندما تكون من جنس ما يتفوق به الناس الذين يبعث إليهم الرسل، والعرب كانوا أهل فصاحة وبلاغة وبيان فجاء الإعجاز البيانى اللغوى للقرآن، والعلوم التى كان العرب يعرفونها لم تكن بشىء، وأكثرها كان يعتمد على الملاحظة البسيطة الساذجة الفطرية، فإذا كان ذلك كذلك فإن جعل القرآن معجزا، لأنه يحوى بين تضاعيفه أصول العلوم المختلفة مصادم لواقع العرب، وبالتالى هو نسف لإعجاز القرآن [4].

ومع ذلك فلا بد من التفرقة بين استخدام الحقائق العلمية حين الكلام عن آيات القرآن وبين الاعتماد على الفروض أو النظريات . ومن هذا المنطق لا بد من لفت نظر فريقى علماء العلوم الشرعية وعلماء العلوم الكونية إلى ما يلى[5] :

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٢) عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتجاهات التفسير فى العصر الحديث، ص٣١٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣١٦.

(٤) المرجع السابق، ص٣١٧ .

(٥) كارم السيد غنيم : التحقيق العلمى للآيات الكونية فى القرآن، المسلم المعاصر، العدد (٣٦) أغسطس / أكتوبر ١٩٨٣، ص٤٥.

فبالنسبة للمتخصصين فى العلوم الدينية، لا بد من الانتباه إلى ما فى بعض كتب التفسير، خصوصا القديم منها من خزعبلات وخرافات وأساطير، وعلى سبيل المثال فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] يقول بعض المفسرين القدامي[1] : إنها سبع أرضين ومن كل أرض والتى تليها خمسمائة عام والأولى منها على ما ظهر حوت قد التقى طرفها فى السماء والحوت على صخرة والصخرة بين ملك، والثانية مسكن الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت، والخامسة فيها حيّاتها والسادسة فيها عقاربها، والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه يطلقه الله لمن يشاء، وهذا ظاهر فيه الافتراء!

إن المطلوب من علماء الدين عندما يجىء الحديث عن شئون الكون، أن يرجعوا إلى أهل الذكر الذين تخصصوا فى العلوم الكونية. ثم عليهم أن يلفظوا كل ما من شأنه فرض سلطة روحية ودينية على الفكر الإنسانى والأبحاث التجريبية والدراسات العلمية، حتى يمكن أن ينتهوا إلى أعظم النتائج وأفضل الثمرات التى وصلت إليها البشرية [2].

أما بالنسبة لرجال العلوم الكونية، فهناك مزالق وسقطات يقعون فيها، مرجعها هو عقد سباق بين القرآن وبين العلوم الحديثة من حيث مجالات البحوث العلمية وليؤكدوا سبق القرآن فى طرق أبوابها قبل توصل العلوم الحديثة إلى معرفتها، ومن الأمثلة على ذلك أن بعض رجال العلم قد غالى فى تفسيرهم حينما حملوا الآية الكريمة ﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [الفجر] على أنها إشارة إلى أن الفراعنة كانوا يحنطون أجسادهم فى الفجر بعد عشر ليال بعد موتهم، أى ربط هذا بين الآية الكريمة وبين ما كان يحدث فى عهد الفراعنة [3] !

إنه لمن المحمود، بل من الضرورى والواجب الذى لا بد منه أن يكون هناك تبادل معرفة بين المسلمين فى مختلف تخصصاتهم فيلتقى علماء العلوم الكونية بعلماء العلوم الشرعية فيعلم علماء العلوم الشرعية علماء العلوم الكونية الأمور التعبدية التى تجعل صلاتهم وعبادتهم وصومهم وزكاتهم على مستوى مرض ومقبول من الله- تعالى- ويلتقى علماء العلوم الكونية مع علماء العلوم الشرعية فيعرضوا عليهم كثيرا من شئون الحياة، وليس شرطا فى عالم الشرعيات أن يتعمق فى الكيمياء والفيزياء والطب والفلك، وإنما المقصود فى ذلك إلمامه وإحاطته بالكليات العلمية لا بالتفصيلات

---

(١) كارم السيد غنيم، ص٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠.

التخصصية، فإذا أراد التفصيل، فعليه الرجوع إلى أهل التخصص فى كل فرع من فروع العلوم . كما أنه على رجال العلوم الكونية أن يحذروا الزلل والسقوط فى المزالق حينما يتكلمون فى إحدى القضايا فى ذلك حتى لا يعتريه الشطط فيوقع الآيات فى أمور لم تنزل هى من أجلها (١).

أساليب تعليم القرآن الكريم :

الغرض الأول من تعليم القرآن الكريم، هو إطلاع التلاميذ على المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى، على اختلاف أنواعه من عقائد وعبادات ومعاملات، وأخلاق حتى تتكون فى نفوسهم العقيدة الإسلامية الصحيحة، وحتى يتأدبوا بأدب القرآن فتتهذب أخلاقهم ويسلكوا فى حياتهم الاجتماعية المسلك الذى يرتضيه الشارع الحكيم(٢) .

ومما يستهدف أيضا من تدريس القرآن للتلاميذ، السمو بمستوى تفكيرهم فى الحياة، وتذوقهم لأفانين القول، وتطويع ألسنتهم على بليغ البيان القرآنى، وفصيح الكلام المعجز، وإمدادهم بثروة عظيمة فى الألفاظ والعبارات والتراكيب السامية البارعة، والاطلاع على تعاليم الإسلام السمحة فى سجلها القرآنى الخالد، والوقوف على بعض مظاهر الإعجاز العلمى والتشريعى .

ولعل أولى المسائل التى رأينا من الواجب بسطها فى مستهل هذا الجزء- القضية الخاصة بقراءة القرآن .

فمنذ ابتداء نزول القرآن الكريم على الرسول الأمين والنبى ﷺ يحفظه ويأمر من حوله ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوه، وقد سمى أولئك الذين كتبوا القرآن كتاب الوحى.

ولقد أجيز فى أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب، وقد روى فى ذلك أحاديث نبوية، يؤدى استقراؤها إلى القول بأن العرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن، ففيهم الرجل الشيخ والمرأة العجوز اللذان جمد لسانهما على لهجتهما فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها، ولم يلوكوها من قبل، فكان لابد أن تمرن ألسنتهم أمدا على لغة القرآن حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت (٣) .

---

(١) المرجع السابق . ص ٥٩.

(٢) محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية الدينية، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ص ٨٨.

(٣) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى، القرآن، ص٣٥.

ثم تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار، فاختلف الناس فى القراءة، ومنهم من كان يقرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التى ما كانت القراءة بها إلا ترخيصا مؤقتا حتى تلين الألسنة إلى لغة القرآن، وإنها لواحدة، وإن اختلفت القراءات المتواترة فى ظلها[1].

وعندما قام عثمان بإعادة جمع المصحف فقد أراد بذلك أن يكتب على حرف واحد من الحروف السبعة (أى اللهجات واللغات السبع)، فما كان جمعه إلا لإثبات الحرف الباقى الذى روى مكتوبا عن النبى ﷺ ليجتمع عليه المسلمون ولا يتفرقوا .

ومن الملاحظ أن عثمان قد كتب المصحف خاليا من النقط والتشكيل ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هى سبع قراءات . ولكى يكون المكتوب محتملا لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لابد من أن يكون غير منقوط ولا مشكول[2] .

كذلك لكيلا يعتمد القارئ على المكتوب، بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند إلى الرسول ﷺ . قال بعضهم إن الخط فى عصر النبى كان غير منقوط ولا مشكول، لأن العربية لغة بيان وإفصاح وتعبير، وإنسجام بين ألفاظها وتآخ بين أساليبها، فلم تعتمد على المكتوب بل على المقروء ونغماته، وتآخى عباراته من غير تجافى اللفظ عن المعنى، ولا المعنى عن اللفظ [3] .

ولما أخذت العجمة تغزو اللسان العربى، ابتدأوا بنقط القرآن وشكله فى عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات، ومن غير اعتماد على المكتوب، بل يكون مع المكتوب ضرورة الإقراء من حافظ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبى ﷺ، وكان فى الصحابة من يقرئ الناس ويعلمهم وجوه القراءات [4].

وحقيقة اختلاف القراءات السبع هو اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال أن يكون فى كلام الله- تعالى- وبالتتبع تبين أن اختلاف القراءات لا يخلو عن ثلاثة أحوال[5] :

(١) المرجع السابق، ص٣٧ .

(٢) المرجع السابق، ص٤٠ .

(٣) المرجع السابق، ص٥٠ .

(٤) المرجع السابق، ص٥١ .

(٥) محمد سالم محيسن : فى رحاب القرآن الكريم، جـ١ ، ص٢٦٣ .

أحدها : اختلاف اللفظ، والمعنى واحد، مثال ذلك الاختلاف فى لفظ «الصِّرَاطَ» فقد قرئ بالسين، والصاد .

والثانى : اختلافهما فى اللفظ والمعنى معا مع جواز اجتماعها فى شىء واحد، مثال ذلك القراءات الواردة فى قوله تعالى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة]، فقد قرأ عاصم، والكسائى ويعقوب، وخلف العاشر، (مَالِك) بإثبات ألف بعد الميم، على أنه اسم فاعل وقرأ الباقون (ملك) بحذف الألف على أنه صفة، أى قاضى يوم الدين . ومن هذا تبين أن المراد فى القراءتين : هو الله تعالى .

والثالث : اختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما فى شىء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضى التضاد، مثال ذلك القراءات الواردة فى قوله تعالى : ﴿ ... لَقَدْ عَلِمْتَ ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء] -، فقد قرأ الكسائى، بضم التاء، مسند إلى ضمير المتكلم وهو نبى الله موسى- عليه السلام- وقرأ باقى القراء بفتح التاء سند إلى ضمير المخاطب وهو « فرعون»[1] .

ومع هذا فقد أكد باحثون أن لاختلاف القراءات، فوائد، نذكر منها [2] :

- ما فى ذلك من عظيم البرهان، وواضح الدلالة، إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه، لم يتطرق إليه تضاد، ولا تناقض، ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد، وأسلوب واحد وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق ما جاء به ﷺ.

- سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة، إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى إلى قبوله من حفظه جملا من الكلام تؤدى معانى تلك القراءات المختلفات، لا سيما فيما كان خطه واحدا، فإن ذلك أسهل حفظا وأيسر لفظا .

- إعظام أجور هذه الأمة، من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم فى تتبع معانى ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وما خفى من إشاراته، وإنعامهم النظر، وإمعانهم الكشف عن التوجيه، والتعليل والترجيح، والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم .

- بيان فضل هذه الأمة من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقى، وإقبالهم عليه

(١) المرجع السابق، ص٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٩ .

هذا الإقبال، والبحث عن لفظه، والكشف عن صيغه، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده، حتى حموه من خلل التحريف، فلم يهملوا تحريكا ولا تسكينا، ولا تفخيما، ولا ترقيقا، حتى ضبطوا مقادير المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات[1].

والقراءات المتواترة نقلت لنا عن القراء الحفظة المشهورين بالحفظ والضبط والإتقان، وهم أئمة القراءات المشهورة الذين نقلوا لنا قراءة الصحابة عن رسول الله ﷺ، وكان لهم فضل العلم والتعليم لكتاب الله العظيم، وهم[2] :

١- ابن عامر الشامى (عبد الله بن عامر الشامى اليحصبى) قاضى دمشق فى خلافة الوليد، توفى بدمشق سنة ١١٨ هـ .

٢- ابن كثير المكى التابعى، توفى بمكة سنة ١٢٠هـ .

٣- عاصم الكوفى بن ابى النجود التابعى، توفى بالكوفة سنة ١٢٨هـ وراويه حفص بن سليمان الكوفى، توفى سنة ١٨٠هـ .

٤- ابن عمرو البصرى (زيان بن علاء البصرى)، توفى بالكوفة سنة ١٥٤هـ .

٥- حمزة الكوفى بن حبيب الزيات، توفى سنة ١٥٦هـ .

٦- نافع المدنى، أصله من أصفهان، توفى بالمدينة سنة ١٦٩هـ .

٧- الكسائى الكوفى، على بن حمزة توفى قرب الرى سنة ١٨٩هـ .

ومراتب القراءة أربعة[3]:

١- **الترتيل**: وهو فى اللغة : مصدر رتل الكلام، أى أحسن تأليفه . واصطلاحا قراءة القرآن على مكث وتفهم من غير عجل . وهو الذى نزله القرآن، قال تعالى: ﴿ ...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل]، أى تلبث فى قراءته وتمهل فيها وافصل الحرف عن الحرف الذى بعده وذلك عونا على تدبر القرآن وتفهمه، ومرتبة الترتيل أفضل المراتب .

٢- **التحقيق**: ومعناه المبالغة فى الإتقان بالشىء على حقه من غير زيادة فيه ولا نقصان منه، فهو بلوغ حقيقة الشىء والوقوف على كنهه . وهو عندهم : إعطاء كل

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٠.

(٢) محمد محمود عبد الله : كيف تجود القرآن الكريم، مكتبة القدس، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٦.

حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمز واعتماد الإظهار والتشديدات ونونية العنات وتفكيك الحروف، وهو بيانها وإخراج بعضها من بعض، وملاحظة الجائز من الوقوف .

وهو يكون لرياضة الألسن، وتقويم الألفاظ وإقامة القراءة بغاية الترتيل وهو الذى يستحسن ويستحب الأخذ به على المتعلمين[1] .

٣- الحدر : وهو إدراج القراءة وسرعتها، ولا بد فيه من مراعاة أحكام التجويد من المد والتشديد والقطع والوصل، والتحذر فيه من بتر حرف المد وذهاب الغنة فهو خطأ .

٤- التدوير : وهو عبارة عن التوسط بين المقامين من التحقيق والحدر، وهو الذى ورد عن أكثر الأئمة ممن روى مد المنفصل ولم يبلغ إلى الإشباع، وهو مذهب سائر القراء، وصح عن جميع الأئمة وهو المختار عن أكثر أهل الأداء .

وقد يقال إن تعليم القرآن الكريم لصفوف التعليم الأولى لا يكون مجديا بدرجة ملحوظة؛ لأن الأطفال ما يزالون فى أولى مراحل تعليم القرآن والكتابة، والحقيقة أن الطفل، بحكم شعوره الدينى، فى حاجة شديدة منذ أيامه الأولى بالمدرسة إلى التدرب على النطق بالقرآن الكريم ليشب محبا لدينه متحمسا فى حكمه وحسن تصرف[2] .

وقد أكد ابن خلدون أن تعليم الأبناء للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون طوال العصور المختلفة فى سائر البلدان الإسلامية لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من القرآن وبعض فنون الحديث، وصار القرآن « أصل التعليم» الذى ينبنى عليه ما يكتسب بعد ذلك من المهارات، وسبب ذلك « أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه، يكون من حال ما ينبنى عليه » [3] .

وقد عرض مفكرنا العظيم لاختلاف طرق تعليم القرآن ونظمه فى البلدان الإسلامية حتى زمنه، فأهل المغرب، كانت طريقتهم تقوم على الاقتصار فى مرحلة التعليم الأولى على تعليم القرآن الكريم وحده ورسمه ووسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، وإلى أن يبلغ حد الإتقان أو يفشل فى ذلك.

---

(١) محمد محمود عبد الله: كيف تقرأ المصحف الشريف، مكتبة المقدس، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون، طبعة الشعب، القاهرة، ص٥٠٥.

أما أهل الأندلس فتعليم القرآن والكتابة من حيث هى على الإطلاق لا رسم المصحف فقط، واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل أهل المغرب، إلا أنه لما كان القرآن الأصل الأساسى ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلا فى التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب وقوانين اللغة وتجويد الخط، ويشددون فى الاهتمام بالخط بصفة خاصة، ويستمر الحال على هذا حتى يصل المتعلم إلى مرحلة البلوغ[1].

أما أهل أفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ودراسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن أو استظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، أما عنايتهم بالخط فتأتى فى مرتبة ثانية، وعموما فطريقتهم فى تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس.

وأما أهل المشرق فعنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى فترة الشباب ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون مخصصون، كما يتم تعليم صنائع أخرى فى مكاتب الصبيان.

وقد انتقد ابن خلدون هذه الأساليب، وبين أثر هذه المناهج على تكوين الصغار عموما، فمثلا بين أن البدء بدراسة الأدب والشعر وتقديمها على دراسة العلوم الأخرى وإعطائهما جل الاهتمام - كما هو الحال فى بلاد الأندلس - يجعل المتعلمين متقدمين فى اللغة والأدب، وذلك على حساب تقصيرهم فى العلوم الأخرى، فيقول: « وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والأدب والترسل وممارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى، وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها»[2].

أما أهل المغرب وإفريقية، فقد أفادهم الاقتصار على القرآن، القصور عن ملكة اللسان جملة، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة فى غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى، وحظه الجمود وقلة التصرف فى الكلام.

ويريد ابن خلدون بذلك أن يلفت الانتباه إلى أن مجرد تعلم القرآن بحفظه دون التطرق إلى علوم أخرى، وخاصة علوم العربية لا يساعد فى حسن التصرف فى الكلام والتعبير حيث يقتصر هذا الصنف من المتعلمين على مجرد ترديد آيات القرآن دون أن

(١) المرجع السابق، ص٥٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠٧.

يكون لها إشعاع مؤثر فى أساليب لغتهم وتفكيرهم، ويستدل ابن خلدون على ذلك بأن أهل أفريقية أخف من أهل المغرب فى ذلك: « لما يخلطون فى تعليمهم القرآن بعبارات العلوم فى قوانينها » كما سبق أن أشرنا .

وأشار ابن خلدون إلى رأى القاضى أبى بكر بن العربى الذى قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما ذهب أهل الأندلس « لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه، ثم ينتقل منه إلى الحساب . . ثم ينتقل إلى درس القرآن ». ثم ينقل تعقيب القاضى » وياغفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره، يقرأ ما لا يفهم . . ».

ويمدح ابن خلدون هذا الرأى، وإن أقر بأن « العوائد لا تساعد عليه »، ذلك أن الاتجاه الغالب هو تقديم دراسة القرآن وحفظه فى سنوات التعليم الأولى، ففى هذه الفترة تكون القدرة على ذلك فى أوج نشاطها وفعاليتها، أما تأخير ذلك إلى مرحلة الشباب، فإن التجربة قد أثبتت أن « الصوارف عن الحفظ والتعليم » عديدة قد لا تساعد على تحقيق هذا الهدف .

وعلى أية حال فإن من المهم فى عصرنا الحاضر أن نراعى اختيار نماذج من كتاب الله ذات أهداف تتناسب ومستوى الطفولة، وذات مضمون يسهل إدراكه، وألفاظ وأساليب لها إيقاع وجرس ورنين، وذلك ليستمع إليها الطفل من المعلم فى خشوع العابد وورع التقى وإيمان المتبتل، أو يستمع إليها من المصحف المعلم أو المصحف المرتل، والغرض من هذه التلاوة كما قلنا وهذا الاستماع أن يرتبط المسلم من البداية بكتاب الله -سبحانه وتعالى- ولذلك لا بد من الدقة فى الاختيار، ومراعاة مستوى الطفل فى هذا الاختيار(١).

أما قضية الحفظ، فإننا نقر بأن حفظ أى شىء ليس سهلا، وليس هذا متعلقا بالقرآن وحده، فحفظ الشعر صعب، وحفظ النثر صعب، وحفظ المعادلات فى العلوم والرياضيات صعب كذلك، وهكذا كل شىء فيه حفظ فى أى مجال من مجالات المعرفة، صعب بلا جدال، ولكن كثيرا من الناس تثور ثائرتهم ويغلى الدم فى عروقهم وترتفع صيحاتهم خوفا على الأطفال من ثقل العبء الذى يلقيه حفظ القرآن على كاهلهم(٢) .

إن الطفل يستطيع أن يحفظ، وهذا الحفظ ذخيرة لغوية بلا جدال . هذه الذخيرة

(١) محمد صلاح الدين مجاور : تدريس التربية الإسلامية، الكويت، دار القلم، ١٩٧٦، ص٩٧ .

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة .

تساعد الطفل على النمو اللغوى، وهى أيضا ربط له بأعظم مصدر لهذا المعتقد الذى يدين به والذى سيقضى حياته فى إطار حدوده . والطفل فى سن المرحلة الأولى يمكنه الحفظ، وما أثر الحفظ يوما على عقل طفل تأثيرا عكسيا، ولكننا لا نحبذ الحفظ بالطريقة التى تنفر الطفل . وبدلا من أن تحببه فى كتاب الله، تبعده عنه؛ ولذلك لا بد من توافر شروط معينة يتم الحفظ فى ضوئها[1] :

(أ) أن تكون الآيات التى يراد للتلميذ أن يحفظها مرتبطة بموقف فى مشاهدات الطبيعة أو فى الإنسان نفسه أو فى الكائنات من حوله مثلا ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد] ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ ... ۝١٧﴾ [الغاشية] بحيث يكون الجزء الذى يكلف الطفل بحفظه مترابطا ويشكل قدرا معقولا بما يحفظ .

(ب) أن يفهم الطفل ما سيحفظه قبل أن يحفظ، وما خفى من المعانى يقرب للطفل، ويا حبذا لو عرف مناسبة الآية أو الآيات .

(جـ) ألا يكون معظم ما يحفظه مما يصور العقاب والموت وما بعده من عذاب وشقاء، فالطفل قادم إلى الحياة وليس موشكا على تركها، ومن الأصوب أن ترتبط الآيات التى يحفظها على دعم فكرة الحب لله، ولا بأس من مراعاة قصر الجمل والنغم والجرس وغير ذلك مما يسهل الحفظ، ولا ينفر الطفل .

(د) أنه مع التسليم بقدرة الطفل على الحفظ، إلا أن هناك طاقة واستعدادا يجب مراعاته، ولا نريد أن نرهق الطفل فى الحفظ بالكم أو بالكيف، إرضاء لرغباتنا نحن الكبار، فننفره من كتاب الله، ويكون الحفظ عليه عبئا ثقيلا، ولذلك ليست المسألة بالكثرة ولكنها بالمضمون والهدف، وحب الطفل لكتاب الله سيجعله يقبل عليه حافظا ودارسا، ولذلك لا بد فى عملية الحفظ من الدقة فى اختيار الكم والكيف[2] .

إنه من المعروف فى العلم التربوى أن «الحفظ والاستظهار» آفة ينبغى أن تحارب وعادة ينبغى أن تستأصل، لكن، هل هذا صحيح بصفة مطلقة ؟ كلا، فهو صحيح فى أحوال، ولكنه غير صحيح فى أحوال أخرى، ومن الأحوال التى يصح فيها، القوانين والنظريات العلمية، فهذه لا بد من حفظها، وحتى يكون الحفظ مجديا يشترط أن يصحبه الفهم . كذلك بالنسبة للشعر يستحسن فيه أيضا الحفظ، أما بالنسبة للقرآن

---

(١) المرجع السابق، ص٩٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٩٩ .

فالأمر هنا أهم وأخطر، والسر فى ذلك أن الله كلف الأمة الإسلامية بحفظ القرآن، ولم يكلف الأمم الأخرى بحفظ كتبها وصحفها لأن هذه الكتب لم تكن معجزة بألفاظها، مثل القرآن الكريم[1] وفضلا عن ذلك فهناك أدلة أخرى توجب حفظه :

١- ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ، قال: « إن ربى قال لى قم فى قريش فأنذرهم . قلت : أى ربى، إذن يتلفوا رأسى حتى يدعوه خبزة (أى مهشما كالقطعة من الخبز) فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما (أى مستلقيا أو مضطجعا كهيئة النائم) ويقظان، فابعث جندا أبعث مثلهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك».

فقد أخبر -سبحانه وتعالى- أن القرآن لا يكفى ثبوته وحفظه بصحيفة أو لوح يغسل بالماء، وإنما محله القلوب والصدور، وذلك بالحفظ عن ظهر قلب، فإذا انضم إلى الحفظ فى الصدور، الكتاب فى الصحف، فقد ازداد التوثق والاطمئنان وقوله « لا يغسله الماء» صيغة نفى، ولكن النفي قد يأتي للنهي، والنهى عن غسله بالماء يستلزم عادة الأمر بحفظه، فهو مثل ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة]. ﴿ ... فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة].

٢- ما ورد فى وصف الأمة الإسلامية « أناجيلهم فى صدورهم » أى كتابهم المقدس المعول عليه فى بقائه وسلامته من التحريف والتبديل والحفظ فى الصدور، بخلاف أهل الكتاب، فإنهم لا يحفظون كتابهم إلا من الصحف، ولا يقرءونه كله، إلا نظرا لا عن ظهر قلب، كما هو الشأن فى جمهرة المسلمين، وذكر هذا الوصف فى معرض المفاضلة بينهم وبين غيرهم، يدل على أن الحفظ أمر يختصون به[2] .

٣- ما رواه البخارى فى صحيحه فى قصة الرجل الذى أراد أن يتزوج المرأة التى عرضت نفسها على النبى ﷺ ولم يكن له بها حاجة، ولم يكن يملك شيئا ليكون مهرا، فقال له النبى: « فما معك من القرآن » ؟ فقال : سورة كذا وكذا، قال : « أتقرؤهن عن ظهر قلب» ؟ قال : نعم، قال : « فاذهب فقد زوجتكما بما معك من القرآن »[3] ، وهذا الحديث وإن لم يدل على الوجوب، لكنه يدل على أن الحفظ عن ظهر قلب أمر مرغوب فيه، ومستحب .

وقد توافرت ظروف وعوامل عدة ساعدت على حفظ القرآن منها[4] :

---

(١) أبو شهبة، ص٣٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٩.

(٣) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب : القراءة عن ظهر قلب .

(٤) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص٤٠٣.

١- التعبد بالقرآن، فقد اتفق الفقهاء قاطبة على أن الصلاة سواء أكانت فرضا أم نفلا، جماعة أو غيرها لا تصح إلا بالقرآن .

وكذلك كان قيام الليل واجبا فى صدر الإسلام على النبى، وقيل : عليه وعلى أصحابه، عماد القيام الصلاة، ومن أركانها قراءة القرآن ولن تكون قراءة القرآن في الصلاة إلا حفظا، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ ﴾ [المزمل].

وقد كان هذا القيام لونا من ألوان التربية الإسلامية حتى تصفوا نفوسهم وتبدل أخلاقهم وتقوى عزائمهم وتتربى فيهم قيمة الصبر، والتحمل، وعدم الخضوع لأهواء النفس وشهواتها ويكونون على استعداد للتضحية والكفاح فى سبيل عقيدتهم ودينهم[1] .

وما ظننا برجال كان بعضهم يختم القرآن فى ركعة يحيى بها ليلة كعثمان ابن عفان وتميم الدارى، بل روى عن سليم بن عتر التجيبى أنه كان يقرأ القرآن فى الليلة ثلاث مرات من الذاكرة !

٢- الجهد النبوى فى حفظه، إذ لم يترك الرسول عليه الصلاة والسلام أمرا فيه حث على حفظ القرآن إلا وسلكه، فكان يفاضل بين أصحابه فى حفظ القرآن، فيعقد الراية لأكثرهم حفظا للقرآن، وإذا بعث بعثا جعل إمامهم فى صلاتهم أكثرهم قراءة للقرآن، ويقدم للحد فى القبر أكثرهم أخذا للقرآن[2] .

وحفظه عدد كبير من الصحابة، وليس أدل على ذلك من أنه قتل فى غزوة واحدة فى معركة اليمامة من جيش واحد هو جيش خالد بن الوليد رضى الله عنه أكثر من سبعين قارئا للقرآن، فكم كان عدد القراء فى هذا الجيش؟ وكم كان عددهم فى بلدان المسلمين آنذاك ؟

٣- الأمر بتعهد القرآن والتحذير من نسيانه، فكذلك أمر النبى ﷺ أصحابه وكل من يجىء بعده بتعهد القرآن وممارسة قراءاته حتى لا يتفلت منهم ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى موسى عن النبى قال : « تعاهدوا القرآن، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفصيا من الإبل فى عقلها »[3] .

---

(١) المدخل لدراسة القرآن، ص٤٠٥.

(٢) فهد بن عبد الرحمن : خصائص القرآن الكريم، ص١٦٧.

(٣) التفصى : التخلص والتفلت . عقلها، جمع عقال، وهو حبل تقيد به البعير، وإنما ضرب المثل بالإبل لأنها أشد الحيوانات نفورا وشرودا.

ويزيد النبى ﷺ توضيحا فيقول : « إنما مثل صاحب القرآن (حافظه) كمثل الإبل المعقلة (المقيدة) إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» وفى الأمر بالتعهد، والمواظبة عليه تحذير من نسيانه أو ذهابه[1].

٤- تحريم روايته بالمعنى، إذ تتعلق العبادة بالقرآن من ناحيتين، الأولى : من ناحية ألفاظه، وذلك فى تلاوتها فى القرآن وفى خارج الصلاة، فالقرآن متعبد بألفاظه، والثانية : من ناحية معانيه، وذلك بالعمل بها وتطبيقها والتزام أحكامها[2] ، كما سبق وأن فصلنا .

٥- تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظه وضبطه، ففى عهد الرسول ﷺ، كان هناك أهل الصفة [3] ، كانوا يحتطبون بالنهار ويقومون الليل ويقرأون القرآن ويحفظون ويتدارسون ويعلمون غيرهم .

ثم تفرغ لحفظ القرآن، وإقرائه كثير من التابعين بالأمصار الإسلامية، حيث سبقهم إلى ذلك الفضل سبعة من الصحابة : عثمان، وعلى، وأبى بن كعب، وزيد ابن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعرى [4].

٦- اشتهار العرب بقوة الحافظة، فقد كان العرب تغلب عليهم البداوة والأمية، فكان طبيعيا أن يكون معتمدهم فى حفظ أنسابهم وأشعارهم، وخطبهم، ومفاخرهم، وتفاخر آبائهم، وأجدادهم، وكل ما يتصل بهم على حوافظهم وذاكرتهم، فقد كانوا يعنون غاية العناية بالأنساب، والأحساب والأشعار والخطب، ومن اعتز بشىء فلا بد أن يسجله ويقيده، ولما كانوا أمة أمية فقد قامت الحافظة والذاكرة مقام التسجيل بالكتاب[5].

وإذا نظرنا إلى رسم المصحف وكتابته فى عهد- عثمان رضى الله عنه- وهو الرسم الذى لايزال بين أيدينا، وجدنا فيه اختلافا فى كتابة الآيات عن نطقها، فما السر فى ذلك[6]؟

---

(١) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن، ص٤١٣ .

(٢) خصائص القرآن الكريم، ص١٧٤

(٣) مكان مظلل كان فى مسجد النبى ﷺ، كان يأوى إليه، من لا دار ولا أهل ولا مال، فكانوا يبيتون فيه ويطعمون، ويعانون .

(٤) المدخل لدراسة القرآن، ص٤٢١ .

(٥) المرجع السابق ، ص٤٢٣.

(٦) فهد بن عبد الرحمن : خصائص القرآن الكريم، ص١٦٩ .

إن فى ذلك فائدة كبيرة وهى حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور الرجال فلا يعتمدوا على التلقى المكتوب، إذ أن للتلاوة أحكاما ينبغى أن يأخذ بها تالى القرآن مما سوف يأتى فيما بعد، وليس من السهل، بل قد يتعذر كتابة مثل هذا .

من أجل هذا قرر العلماء أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقى عن حافظ متقن، وكانوا يقولون : «من أعظم البلية تشييخ الصحيفة» ، بل إن أعلام حفاظ القرآن يميزون الحفظ بالتلقى، فهذا بن مسعود يقول : «حفظت من فى رسول الله (فمه) ﷺ بضعا وسبعين سورة»، ويبين عن أخذ باقيه فيقول فى رواية أخرى :«وأخذت بقية القرآن عن أصحابه» (١) .

وقد كان الرسول ﷺ يبعث القراء إلى من يدخل فى الإسلام لتعليمهم التلاوة، وكان بإمكانه أن يكتب لهم، فقد بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل يثرب يعلمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، وحيث فتح مكة خلف على أهلها معاذ بن جبل يقرئهم القرآن، واقتدى بسنته الخلفاء الراشدون .

لذا فقد وضع العلماء كتبا غير قليلة فى أحكام التجويد لتيسير التلاوة، يصفون بها كيفية نطق الحروف، وبيان مخارجها، بل استعمل بعضهم صورا توضيحية لمخارج الحروف وحركات اللسان، والشفتين .

ولا تصبح التلاوة حية نشيطة إلا إذا شارك الطلاب فيها مشاركة تامة فعالة، وتتم هذه المشاركة إذا عمد الطلاب إلى تهيئة التلاوة فى منازلهم قبل الدرس، ويحدد المدرس وطلابه طريقة التهيئة، ولا بد أن تشمل التهيئة مراجعة القراءات الغريبة فى معاجم اللغة أو كتب التفسير أو الكتب الخاصة «بغريب القرآن». والخطوة الأولى هنا أن يدرب المعلم تلاميذه على استعمال المعاجم والتعرف على هذه الكتب والتمرس بمراجعتها، والاستفادة منها، فإذا استيقن المعلم قدرة طلابه على الاستقلال فى استعمال هذه المعاجم، شرع فى تكليفهم بتهيئة دراسة الآيات . والأمر الثانى تحديد أغراض الآيات، ولعله يحسن لهذا أن يكلف الطالب تقسيم الآيات المتلوة إلى أجزاء يدور كل جزء منها حول غرض معين، وقد يضيف المعلم مع تلاميذه إلى هذين الأمرين ما يرونه حسنا من الإجابة عن أسئلة يضعها المعلم تتعلق بالآيات المتلوة أو الإجابة عن بعض أسئلة يطرحها الطلاب لأنهم وجدوا حاجة إلى بحثها(٢) .

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٠ .

(٢) محمد أمين المصرى : لمحات من وسائل التربية الإسلامية وغاياتها، ١٩٧٨، ص٢٤ .

يهيئ الطلاب ما سبق ويأتون إلى الدرس يتبارون فى الإجابة عن أسئلة المعلم وتقديم ما يبذلوه من جهد . والأفضل أن تكون هذه التهيئة مكتوبة فى كراسات الطلاب وتصحح من قبل الطلاب فى الدرس بعد المناقشة، ثم ينظر المعلم فى كل جزء منها ليعرف جهد طلابه وقدرتهم على تصحيح أخطائهم .

وغنى عن البيان أن يقوم المعلم بتقسيم كل سورة من السور القرآنية إلى وحدات كل وحدة منها متكاملة المعنى، ويحدد الوقت المخصص لحصة القرآن القدر المناسب للزمن من هذه الوحدات بترتيب السور من مبتدئها إلى نهايتها .

ثم يقرأ المعلم الآيات التى حددها قراءة نموذجية يراعى فيها الخشوع والتأنى، والنطق السليم، والتجويد، وإخراج الحروف من مخارجها، وحسن الوقف والوصل، ثم يطلب المعلم من التلاميذ قراءة الآيات قراءة خاشعة متأنية يلتزمون فيها بصواب القراءة وجودة النطق، وتمثل المعنى(١).

وتأسيسا على ما سبق تكون مراحل السير فى درس القرآن الكريم كما يلى(٢):

١- التمهيد من المعلم بما يناسب، على أن يتضمن ذلك، السبب فى نزول الآية.

٢- ثم تعرض الآية بأى طريقة من طرق العرض ككتابتها على سبورة إضافية - مثلا - بخط واضح مع ضبط الكلمات بالشكل . وإذا كانت الآية فى كتب التلاميذ، فللمعلم أن يكتفى بذلك، ويكلفهم بإخراج الكتب والنظر فيها إلى موضوع الدرس، ويمكن أن يكون العرض بمقتضى بطاقات يعدها من قبل إذا لزم الأمر لتوزع عليهم .

٣- ثم يقرأ المدرس الآية قراءة نموذجية فيها تؤدة وتأن وجودة إلقاء .

٤- ثم يعطى التلاميذ فرصة لقراءة الآية قراءة صامتة للتفكير فيما تضمنته، وللإلمام بما احتوته من صعوبات لفظية ومعنوية .

٥- ثم يناقشهم ويشاركهم فى تفسير الألفاظ وتوضيح الأساليب، وشرح المعنى، وإذا استعصى على التلاميذ استنباط التفسير أو التوضيح أو الشرح من خلال المناقشة، فلا يضيع فى ذلك الكثير من الوقت، بل يسرع إلى إخبارهم بذلك مع الإتيان ببعض الجمل والعبارات التى توضح ما استغلق على أفهامهم .

---

(١) محمد عبد القادر أحمد : طرق تعليم التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٠، ص٧٠.

(٢) محمد صالح سمك، ص٩٢ .

٦- ثم يقرأ المعلم الآيات قراءة نموذجية مرة أخرى ويتبعه التلاميذ فيقرأون واحدا بعد واحد، حتى يتقنوا التلاوة .

٧- ثم ينتقل المعلم إلى مرحلة الاستنباط والربط، وذلك باستنباط ما اشتملت عليه الآيات من أحكام، والربط بينها وبين ما فى معناها من الأحاديث الشريفة أو القصص التى تحضره، وكذلك يربط الأحكام الواردة فيها ويطابقها بما فى الحياة الاجتماعية، ويبين أثر اتباعها أو تركها فى فساد الأخلاق أو صلاحها، وفى النظام الاجتماعى، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض[١] .

ولأن قراءة المعلم النموذجية خطوة جوهرية، كان لا بد من أن يراعى الالتزام بقواعد التجويد الأساسية من حيث[٢] :

(أ) إظهار حروف القلقلة وهى القاف، والطاء، والباء، والدال، والجيم، وإظهار حروف الحلق وهى الهمزة، والهاء والعين، والغين، والحاء، والخاء، عقب التنوين أو النون الساكنة، ومن حيث الوقوف عند الإشارات الخاصة بها فى القرآن الكريم فى مكان وجوب الوقف أو جوازه أو امتناعه، وضرورة التسكين حيث الوقف والتحريك الدائم فى غيره، وإخراج الحروف من مخارجها والانتباه إلى الحروف الشمسية والقمرية .

(ب) إظهار المعنى فى قسمات الوجه، ونبرات الصوت من أمر، وزجر، ونهى، وإنكار وتعجب، واستفهام، وتمن، ورجاء، وعرض، وتخصيص، ونفى، وإخبار، وعتاب، وتقريع، ولوم .

(جـ) ضبط الحركات والسكنات لكل حرف والحرص على الإصابة، وعدم اللحن، وحسب المعلم أن يقرأ جزءا من الآيات إذا كان مستوى طلابه قويا، أما إذا كان مستوى طلابه ضعيفا، أو لم يقم التلاميذ بتحضير الدرس، فيجب أن يقرأ النص قراءة جهرية يراعى فيها الشروط السابقة .

آداب حملة القرآن :

وإذا كان هذا هو (ما يجب) فى تعليم القرآن، إلا أن طريقة تعليمنا له حتى وقت قريب كانت طريقة غير مربية، بل ما تزال هذه الطريقة مستمرة فى بعض أجزاء العالم الإسلامى، ذلك أن معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله- تعالى- أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله- تعالى- هو اسم « الله »- تبارك وتعالى- يتعلمه بالأيمان الكاذبة

---

(١) المرجع السابق، ص٩٣ .

(٢) محمد عبد القادر، ص٧٢ .

كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا، والله ما فعلت كذا . وكذلك القرآن، يسمع ممن يعيش معهم أنه كلام الله- تعالى- ولا يعقل معنى ذلك، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه سائر المسلمين الذين يتربى بينهم، وذلك بأمرين :

أحدهما : اعتقاد أن آية كذا، إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى، وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ويبارك له فى كذا وكذا، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة أكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا أو عدم صحته، نقول أن فيه مبالغة فى التعظيم عظيمة جدا، ولكنها يا للأسف لا تزيد عن تعظيم التراب الذى يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . نقول : ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التعاويذ كالخرق والعظام والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الأعجمية المنقولة عن بعض الأمم الوثنية، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه - إذا جرينا على سنة القرآن - عبادة للقرآن لا عبادة به !

ثانيهما : الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التى تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم، والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن .

ومن هنا كان اهتمام علماء المسلمين بوضع عدد من القواعد والضوابط أو الآداب، التى يجب أن يلتزم بها حملة القرآن، أشار إليها الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النورى الدمشقى (٦٣١-٦٧٦هـ)، نجملها فيما يلى[1] :

١- إكرام أهل القرآن والنهى عن إيذائهم، فقد قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب] ولا شك أن حامل القرآن - كما هو المفروض عندما يعيه ويتدبره ويعمل به - هو فى مقدمة المؤمنين والمؤمنات ممن ينطبق عليهم هذا الحكم .

وعن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ : «إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط» . رواه أبو داود، وهو حديث حسن .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يجمع بين الرجلين من

---

(١) آداب حملة القرآن، ص٣٥ .

قتلى أحد ثم يقول : «أيهما أكثر أخذا بالقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما، قدمه فى اللحد» . رواه البخارى .

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر[1]: اعلم يا أخى - وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله فى هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب ابتلاه الله- تعالى- قبل موته بموت القلب ﴿ ...فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور].

٢- ابتغاء مرضاة الله، فأول ما ينبغى للمقرئ والقارئ، أن يقصده بذلك، رضى الله- تعالى-[2] ، قال عز وجل : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥]، أى الملة المستقيمة.

وعن الأستاذ أبى القاسم القشيرى، قال : الإخلاص، إفراد الحق فى الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله- تعالى- دون شىء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله- تعالى-[3] .

وعن سهل التسترى قال : نظر الأكياس فى تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه فى ضوء علانيته لله وحده، لا يمازجه شىء لا نفس ولا هوى ولا دنيا [4].

ويرتبط بهذا بالضرورة، ألا يقصد بتعلم القرآن توصلا إلى غرض من أغراض الدنيا من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك . ومما يشين المقرئ إقراؤه بطمع فى رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء كان (الرفق) متمثلا فى مال أو خدمة وإن قل، ولو كان على صورة الهدية التى لولا قراءته عليه لما أهداها إليه[5]. قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ

---

(١) آداب حملة القرآن، ص٣٩

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢.

(٤) المرجع السابق، ص٤٣.

(٥) المرجع السابق، ص٤٤.

يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ... ﴿١٨﴾ ﴾ [الإسراء].

وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»، حسن[1].

٣- البعد عن المغالاة فى (تكثير) المتعلمين منه وكراهية أن يتعلم تلاميذه من غيره، يقول أبو زكريا، » وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهى دلالة قوية من صاحبها على عدم إرادته بتعليمه وجه الله- تعالى- فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك، بل قال لنفسه، أنا أردت الطاعة بتعليمه وقد حصلت، وهو (أى تلميذه) قصد بقراءته على غيره زيادة علم، فلا عتب عليه »[2].

ومما روى عن على بن ابى طالب[3]، أنه قال: يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقا يباهى بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى[4].

٤- التخلق بالأخلاق الإسلامية، وهى جملة المحاسن التى ورد الشرع بها من زهد فى الدنيا والتقلل منها، وعدم المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة، والحلم والعبر والتنزه عن دنئ الاكتساب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واجتناب الإكثار من المزح، والالتزام ببعض الواجبات التى تتصل بالنظافة، بإزالة الأوساخ وتقليم الأظافر وإزالة الروائح الكريهة، والملابس المكروهة، والحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار الغير، وإن كان دوننا[5].

٥- الرفق بالمتعلمين، فقد روى عن أبى هارون العبدى، قال: كنا نأتى أبا سعيد

(١) آداب حملة القرآن، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨.

(٣) ضعيف، أخرجه الدرامى (٣٨٨).

(٤) آداب حملة القرآن، ص٤٩.

(٥) المرجع السابق، ص٥٠.

الخدرى- رضى الله عنه- فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، وإن النبى ﷺ قال : « إن الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا » . رواه الترمذى وابن ماجة وهو ضعيف[1].

وينبغى أن يبذل لهم النصيحة، فإن رسول الله ﷺ قال : «الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم »، رواه مسلم.

ومن النصيحة لله تعالى ولكتابه، إكرام قارئه، وطالبه وإرشاده إلى مصلحته، والرفق به ومساعدته على طلبه بما أمكن وتألف قلب الطالب وأن يكون سمحا بتعليمه فى رفق، منطلقا به، ومحرضا له على التعلم [2] .

وينبغى أن يحنو على الطالب، ويعتنى بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه، ويجرى المتعلم مجرى ولده فى الشفقة عليه والاهتمام بمصالحه والصبر على جفائه وسوء أدبه ويعذره فى قلة أدبه فى بعض الأحيان، فإن الإنسان معرض للنقائص، ولا سيما إذا كان صغير السن .

٦- التواضع، وينبغى ألا يتعاظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع معهم، فقد جاء فى التواضع لآحاد الناس أشياء كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن وما لهم عليه من حق الصحبة وترددهم إليه[3] .

٧- التدريج، إذ ينبغى أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية، والشيم المرضية ويروضه على المجاهدة، ويعوده الصيانة فى جميع أموره الباطنة والجلية، ويحرضه بأقواله وأفعاله المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ومراقبة الله تعالى فى جميع اللحظات .

٨- الحرص على التعليم، فيستحب للمعلم أن يكون حريصا على تعليمهم مؤثرا ذلك على مصالح نفسه الدنيوية التى ليست بضرورية، وأن يفرغ قلبه - فى حال جلوسه لإقرائهم - من الأسباب الشاغلة كلها، وهى كثيرة معروفة، وأن يكون حريصا على تفهيمهم، وأن يعطى كل إنسان منهم ما يليق به، فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار،

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة، ويأمرهم بإعادة محفوظاتهم، ويثنى على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة بإعجاب أو غيره، ومن قصر عنفه تعنيفا لطيفا ما لم يخش تنفيره، ولا يحسد أحدا لبراعة تظهر منه ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه، فإن الحسد للأجانب حرام، فكيف للمتعلم الذى هو بمنزلة الابن ؟[1].

٩- التهيؤ للتدريس : وينبغى للمعلم أن يصون يده أثناء الإقراء عن العبث وعن كثرة النظر فى اتجاهات مختلفة بغير حاجة إلى ذلك، ويجلس على طهارة، مستقبل القبلة، ويجلس بوقار، وتكون ثيابه نظيفة، وإذا وصل إلى موضع جلوسه، صلى ركعتين قبل الجلوس، سواء كان الموضع مسجدا أو غيره .

١٠- يستحب الوضوء لقراءة القرآن وتعليمه، وقد كان ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر .

قال إمام الحرمين : ولا تكره القراءة للمحدث، لأنه صح أن النبى ﷺ كان يقرأ مع الحدث، وأما الجنب، والحائض، والنفساء فتحرم عليهم القراءة[2] .

١١- تسن القراءة والتعليم فى مكان نظيف، وأفضله المسجد .

١٢- يستحب لقارئ القرآن أن يجلس مستقبلا القبلة، متخشعا، متحليا بالسكينة والوقار .

وإذا نظرنا إلى ما يحدث الآن، فسوف نجد كثيرا من المسلمين يتلون القرآن أو يسمعونه يتلى بأعذب الأصوات، وبأدق الشروط (اللفظية) للتلاوة، ومع ذلك لا ترى له أثرا فى نفوسهم وفى سلوكهم؛ وذلك لافتقار التدبر الخاشع حتى عند بعض قرائه وعلمائه؛ لأن هؤلاء فى الحقيقة يتاجرون بقراءته وتفسيره، وهذا نقيض الخشوع[3] .

وقد وردت آيات كثيرة تحث المؤمنين على الخشوع للقرآن، وتبين أن التدبر الخاشع لآياته يحيى القلوب كما يحيى الله الأرض بعد موتها، يقول تعالى :﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)** ﴾ [الحديد].

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

(٢) محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ٤٣٩.

(٣) أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، ص ٣٦.

وإذا كانت هذه آداب لمن يقوم بواجب « التعليم »، فإن هناك كذلك آدابا لمن يقوم بمهمة « التعلم» يجب الالتزام بها، وقد أجملها أيضا الإمام أبو زكريا فى الخطوط العريضة التالية [1] :

١- فالكم الأكبر مما ذكرناه من آداب للمعلم هى نفس الوقت آداب للمتعلم، ومن هنا تأتى أهمية « التفرغ » لمهمة التعلم، بحيث يجتنب المتعلم الأسباب الشاغلة عن التحصيل باستثناء الظروف القهرية .

ثم إن « تطهير القلب » شرط أساسى، فالقرآن نبت ليس هناك ما هو أطيب منه، والنبت الطيب لابد له من التربة الطيبة، ولا يتوافر هذا إلا بتطهير القلب مما يفسد الخلق، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهى القلب»[2] ، وقد أحسن القائل بقوله: يطيِّب القلب للعلم كما تطيَّب الأرض للزراعة.

٣- وإذ كان المعلم مطالبا بالتواضع، فالمتعلم أولى بأن نطلب منه ذلك، وإذا كان يتصادف أحيانا أن يكون المعلم أصغر من المتعلم أو أقل مركزا فإن هذا لا يسقط هذا المطلب، وقد قال شاعر[3] :

العلم حرب للفتى المتعالى   كالسيل حرب للمكان العالى

وينبغى أن ينقاد لمعلمه، ويشاوره فى أموره، ويقبل قوله كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق .

وانقياد المتعلم للمعلم يؤخذ هنا بحرص شديد فى إطار القاعدة الإسلامية « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، إنه انقياد فيما لا نعلم وفقا للآداب والأخلاقيات المتعارف عليها إسلاميا .

٤- ولا ينبغى للمتعلم أن يقصد من المعلمين إلا من ثبتت أهليته العلمية وتقواه الدينية وأخلاقه الحسنة، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم[4] .

---

(١) المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) أخرجه البخارى.

(٣) آداب حملة القرآن، ص ٦٢

(٤) المرجع السابق، أخرجه مسلم.

٥- ومن المفضل ألا يجيء المتعلم إلى مجلس القرآن إلا وهو فى كامل الحال، متطهرا نظيفا، ولا يتخطى رقاب الناس، بل يجلس حيث ينتهى به المجلس، إلا أن يأذن له المعلم فى التقدم أو يعلم من حالهم إيثار ذلك(١).

٦- والتأدب ليس مطلوبا من المتعلم تجاه معلمه فقط، بل هو مطلوب منه تجاه زملائه وحاضرى مجلس العلم، فهذا جزء أساسى من تأدبه من المعلم وصيانة لمجلسه، ومن مظاهر هذا التأدب ألا يرفع صوته من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا غيرها، ولا يلتفت يمينا ولا شمالا بلا داع، بل يكون متوجها إلى المعلم مصغيا إلى كلامه .

٧- ومن المطلوب من المتعلم أن يكون على درجة من دقة الملاحظة بحيث يقرأ على المعلم إذا لاحظ انشغال قلبه، ومله، وضيقه وحزنه وجوعه وعطشه ونعاسه وقلقه، ونحو ذلك مما يحول بينه وبين الوفاء بمهمة التعليم، وفقا لما يجب أن يكون من كمال النشاط وعلو الهمة (٢) .

ويرتبط بهذا أن يتحمل المتعلم ما قد يظهر من المعلم من جفوة ويلتمس له العذر بحيث لا تصده هذه الجفوة عن تقبل ما يلقيه عليه من معلومات، وإذا جافاه المعلم، ابتدأ هو بالاعتذار إليه، وأظهر أن الذنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له فى الدنيا والآخرة، وأبقى لقلب المعلم له .

٨- وغنى عن البيان أن من أهم واجبات المتعلم، أن يكون حريصا على التعلم مواظبا فى جميع الأوقات التى يتمكن منه فيها، ولا يقنع بالقليل مع قدرته على الكثير، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل وضياع ما استوعبه وحصله، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال .

ومن أطرف ما ساقه الإمام أبو زكريا هنا نصيحته للمتعلم بأن يقتنص من فرص التعلم ما يستطيع قبل أن يعلو مركزه حيث تتكاثر عليه المهام والمشاغل مستشهدا فى ذلك بقول لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا . ومعناه اجتهدوا فى كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة، فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم؛ ولهذا قال الإمام الشافعى : تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه (٣) .

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق ، ص٦٧.

وإذا كان الأمر كذلك من حيث ضرورة فهم القرآن وتدبره، وتعليمه وتعلمه، وحفظه ومدارسته، فما هو السبيل لحسن الاستفادة منه تربويا، بالإضافة إلى ما سبق بيانه؟ ذلك هو ما يمكن إجماله فيما يلي[1]:

- أن يتخذه الإنسان سميره وأنيسه، ويواظب على قراءته وفهمه، والعمل به، ذلك أنه هو الطريق إلى الله، وهو ينبوع الحكمة وعمدة الملة وكلى الشريعة، وهو ما لا نمل من ذكره وتكراره واثقين أن القارئ لن يمل هذا التنبيه . ثم هو يفسر بعضه فيما ذكرنا عن التفسير القرآنى للقرآن أو تفسير القرآن بالقرآن، فإذا غفل المرء عن بعضه، لم يسلم استنباطه من الزلل والتعرض للفساد، فلا ينبغي - مثلا - أن يفسر قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ... ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، مع الغفلة عن قوله تعالى : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة]. ومن هنا فمن الخطأ أن يفهم البعض من الآية الأولى، ألا نمد أيدينا إلى علوم الغرب على أساس إنها إنتاج غير المسلمين، ولا يصح أن نتعلم على أيديهم، وإنما نمد أيدينا إلى كل اتجاه نغترف منه بقدر ما نستطيع، ولنا فى ديننا المعايير والموازين التى تبين لنا ما نترك من هذه العلوم، وما نأخذه.

كذلك لا ينبغى أن نقرأ قوله تعالى : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ... ﴿٤١﴾﴾ [التوبة]، مع إهمال قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿٩١﴾﴾ [التوبة].

- ألا نمل النظر إلى السنة لأنها تبيان له، فلا يستغنى عنها طالب فهمه وتعلمه. ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، فالقنوت يطلق على الذكر، أو الطاعة أو الخشوع، وهذا لا ينافى الكلام، ولكن السنة بينت أن الكلام فى الصلاة ينافى الخشوع فيما روى عن ابن مسعود أنه قال : « أتيت النبى ﷺ وهو يصلى، فسلمت عليه، فلم يرد، فلما قضى الصلاة، قال : إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام إلا أنا أمرنا أن نقوم لله قانتين .. لا نتكلم فى الصلاة» .

- وجوب معرفة أسباب النزول، وهو ما سبق ان أشرنا إليه عدة مرات، قال عمر: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحد ؟ فقال ابن عباس : يا أمير

(١) على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى، القاهرة، دار المعارف ١٩٥٩، ص ٥١.

المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيم نزل فيفسرونه بالرأى فيختلفون فيقتتلون !!

وتتجلى فائدة معرفة سبب النزول فى هذا المقام فى بيان المعنى فى المثال التالى:

أرسل مروان إلى ابن عباس يسأله عن قوله تعالى : ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران]. قال: لئن كان كل امرئ فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعون ! فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ؟ لقد سأل الرسول يهودا عن شىء فكتموه وأخبروه بغيره، واستحمدوه بما أخبروا وفرحوا بما أتوا من الكتمان، ثم قرأ ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴿١٨٧﴾ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقد أثار بعض الفقهاء بعض القضايا المتصلة بتعليم القرآن وتعلمه، من ذلك أن تلميذا للقابسى سأله عمن علم القرآن لولده فقال يكفيك قول الرسول ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» والذى يعلم القرآن لولده داخل فى ذلك الفضل، فإن قيل : إنه لا يلى تعليمه بنفسه، ولكنه يستأجر له من يعلمه، فلتعلم أنه هو الذى يعلم ولده، إذا أنفق ماله عليه فى تعليمه القرآن فلعله أن يكون بما علمه من ذلك من السابقين بالخيرات بإذن الله، وتكون هذه الدرجة فى نية هذا الوالد هى تعليم ولده القرآن[1] .

كذلك سأل هذا التلميذ أستاذه عن رجل امتنع أن يجعل ولده فى الكتاب هل للإسلام أن يجبره ؟

وهل الذكر والأنثى فى ذلك سواء ؟ فإن قال : لا يجبره، فهل يوعظ ويؤثم ؟ وكيف إن لم يكن له والد وله وصى، فهل يلزم ذلك بالجبر ؟ . فإن لم يكن له وصى، فهل ذلك للولى أو الإمام ؟ فإن كان لا أحد لهذا الولد، فهل للمسلمين أن يفعلوا ذلك من ماله ؟ فإن لم يكن له مال فهل على المسلمين أن يؤدوا عنه، أو أن يكون فى الكتاب ولا يكلفه المعلم إجارة ؟ وكيف إن كان له أدب وله مال، ولا يبالى بذلك، فهل للإمام أن يسجنه أو يضربه على ذلك، أم ليس ذلك عليه؟ وكيف إن كان هذا فى بلد لا سلطان يكرههم على الواجبات، وينهاهم عن المنكرات، فهل تبيح لجماعة من المسلمين الموثوق فى دينهم أن يقوموا مقام السلطان أم ليس يجوز ذلك ؟[2] .

(١) أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام، ص ٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

يجيب القابسى على ذلك بأن المسلمين قـد أقروا بأن يعلموا أولادهم الصلاة وهم لابد إذا علموهم الصلاة أن يعلموهم من القرآن ما يقرأونه فيه، ومن ثم فإن حكم الولد فى الدين حكم والده، مادام طفلا صغيرا، أفيـدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين، وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين ؟

وإن كان للوالد مال، فلا يدعه أبوه أو وصـيه - إن كان قد مات أبوه - وليدخل الكتاب ويؤجر المعلم من ماله حسب ما يجب، فإن لم يكن لليتيم وصى، نظر فى أمره حاكم المسلمين، وسار فى تعليـمه سيرة أبيه أو وصيه، وإن كـان فى بلد لا حاكم فيه، نظر له فى مثل هذا، لو اجـتمع صالحـو ذلك البلد فى النظر مصـالح أهله، فالنظر فى هذا اليـتيم من تلك المـصالح، وإن لم يكن لليـتـيم مال، فـإنه أو أولياؤه الأقـرب هم المرغبـون فى القيام به حـتى يتعلم «القرآن»، فـإن تطوع غيرهم بحـمل ذلك عنهم فله أجره، وإنه لم يكن لليتيم من أهله من يعنى به فى ذلك، فمن عنى به من المسلمين فله أجره، وإن احتسب فـيه المعلم فعلمه لله- عز وجل- وصبـر على ذلك فأجر- إن شاء الله- مضعف فى ذلك، إذ هى صنعته التى يقوم منها معاشه .

وأما تعليم الأنثى القرآن، فهو حسن ومن مصالحها [1].

* * *

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٣ .

خاتمة

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف].

هذا هو وصف المولي- عز وجل- لهذا المعين الذى لا ينضب المتمثل فى القرآن الكريم ، ونحن إذ نقتصر على جزئيات واحدة هى البعد التربوى فكيف يمكن لنا أن نتصور أنه يمكننا الإحاطة بالموضوع كله من كافة أطرافه وزواياه ؟

إنها مجرد « إطلالة » ما زالت فى حاجة إلى مزيد ومزيد ، قد نقوم نحن به ، إذا كان فى العمر بقية ، وقد يقوم به آخرون ، سعيا نحو الكشف عن هذه الأبعاد التربوية فى كتاب الله الكريم ، حتى يمكن أن يجد مربونا بين أيديهم مصباحا ينير لهم طريق تنشئة إنسان مسلم وفقا للتوجيهات الربانية والإرشادات القرآنية ، إنسان يعمر الأرض بالنهضة والتقدم والأخلاق .

وفى هذه الإطلالة كان علينا أن نقدم رؤية عامة عن أساسيات العقيدة الإسلامية، وخاصة أن الكتاب الحالى إنما هو حلقة أولى فى سلسلة نريد بها أن نبرز الأبعاد التربوية لكل أصل من أصول العقيدة الإسلامية .

ثم كان علينا بعد ذلك أن نقدم عددا من أفكار ونتائج دراسات جمهرة من علماء الدين والفقه تتصل بالجوانب الأساسية للقرآن الكريم ، كنوع من التثقيف الدينى لباحثى التربية الإسلامية ، وخاصة أن الجمهرة الكبرى منهم يتعلمون فى معاهد تعليم مدنية حديثة قلما تعنى بتعميق الثقافة الدينية ، مع تفاوت بطبيعة الحال بين بلدان الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة .

وانتقلنا بعد هذا إلى عدد مختار من الأساسيات التربوية التى يمكن استنباطها من آيات القرآن الكريم ، راعينا فى اختيارها أن تكون مستغرقة لأهم القضايا التى تعنى بها فلسفة التربية على وجه العموم ، دون ما محاولة لأن تكون هذه القضايا مقحمة ، كما يحدث أحيانا من البعض عندما يتعرض لمسائل وقضايا معاصرة من خلال القرآن الكريم.

أما الجزء الرابع فقد خصصناه لهذا الجانب « العملى » المتمثل فى بعض الأساليب التربوية .

وننتهى فى الجزء الأخير ببعض القواعد والقضايا والمبادئ الخاصة بكيفية تعليم وتعلم القرآن الكريم .

وفى النهاية فإننا ندعو المولى العلى القدير أن نكون قد وفقنا بعض الشىء فيما أملنا تحقيقه ، فإذا ما شابت محاولتنا سلبيات ، فإننا نسأل الله أن يغفر لنا ويهدينا إلى سبيل الرشاد .

المراجع

١- إبراهيم أحمد عمر : العلم والإيمان ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ .

٢- إبراهيم اللبان : القرآن وتجديد المجتمع ، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣) ، ج ٢ .

٣- ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٥ هجرية .

٤- . . . . . . : مراتب الإجماع ، ضمن كتاب (محاسن الإسلام للبخارى) دار الكتاب العربى ، بيروت ،د . ت ، ط٢ .

٥ - ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا) : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٦- ابن القيم (محمد بن أبى بكر) : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق محمد حامد الفقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٧- ابن كثير : تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨١ .

٨- ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٩- أبو الوفا المراغى : فكرة التوحيد فى القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة كتب إسلامية (العدد ١٧٠) ، مايو ١٩٧٥ .

١٠- أحمد إبراهيم مهنا : الإنسان فى القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١١- . . . . . . : حول ترجمة معانى القرآن الكريم ، دراسة مقارنة لثمانى ترجمات باللغة الإنجليزية ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد (١٨٩) ، رمضان ١٤٠٠ هجرية .

١٢-. . . . . . : مقومات الإنسانية فى القرآن فى القرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ، سلسلة بحوث إسلامية ، جزءان ، ١٩٧٠ .

١٣-. . . . . . : من علوم القرآن ، الإعجاز ، مجلة الأزهر ، السنة ٥٧ ، ج ١ ، شوال ١٤٠٥ هجرية .

١٤- أحمد الشرباصى : قصة التفسير ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية ، فبراير ، ١٩٦٢ .

١٥- أحمد حسن الباقورى ، أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

١٦- أحمد سعيد : لا للفقر فى ظل القرآن ، دار الهلال، القاهرة ، سلسلة كتب الهلال (٤٣٣) ، يناير ١٩٨٧ .

١٧- أحمد عبد الحميد غراب : الشخصية الإنسانية فى ضوء القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

١٨- أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الفضائل الخلقية فى الإسلام ، دار العلوم ، الرياض، ١٩٨٢ .

١٩- أحمد عمر هاشم ، النفس فى القرآن ، دار الفيصل ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٢٠- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٩٥٥ .

٢١- أحمد محمد الحوفى : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة دراسات فى الإسلام (١٧٠) ، ١٩٧٥ .

٢٢-. . . . . . : مع القرآن الكريم ، دار نهضة مصر ، القاهرة، ١٩٧٤ .

٢٣- أسامة شموط : التربية الخلقية فى القرآن والسنة ، فى (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الفكر التربوى العربى الإسلامى ، تونس ، ١٩٨٧) .

٢٤- إسماعيل راجى الفاروقى ، أبعاد العبادات فى الإسلام ، مجلة المسلم المعاصر ، بيروت ، العدد العاشر، ١٩٧٧ .

٢٥- البهى الخولى : آدم عليه السلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٤.

٢٦- التهامى نفرة : سيكلوجية القصة فى القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس، ١٩٧٤ .

٢٧- الحسينى عبد المجيد هاشم : الوحى الإلهى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية (٢٢٦) ، ١٩٧٠ .

٢٨- الخطابى ، بيان إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٣ .

٢٩- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، د . ت .

٣٠- الراغب الأصفهانى (أبو القاسم) : المفردات فى غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٣١- الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) تحقيق أبى الفضل إبراهيم ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣٢- الزمخشرى : الكشاف ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣٣- السيد سابق : إسلامنا ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، د . ت .

٣٤- السيد عبد الرحيم عطية : بلاغة الأمر والنهى عن النسق القرآنى ، السلام العالمية، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٣٥- السيد على السيد : مكانة العلم ومناهجه ومجالاته فى القرآن ، ضمن المحاضرات العامة للموسم الثقافى الأول ١٣٧٨ / ١٩٥٩ للجامع الأزهر .

٣٦- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : الإتقان فى علوم القرآن ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة، ١٩٥١ .

٣٧- الشاطبى (أبو إسحاق) : الموافقات فى أصول الشريعة ، دار المعرفة ، بيروت (د.ت) .

٣٨- الغزالى (أبو حامد) : المنقذ من الضلال ، مكتبة الجندى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣٩- . . . . . : إحياء علوم الدين ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، د . ت .

٤٠- الفيروزآبادى (محمد بن يعقوب) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد على النجار ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة ، ١٣٨٣هجرية .

٤١- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، طبعة الشعب ، القاهرة ، د . ت .
٤٢- المعهد العالمى للفكر الإسلامى : إسلامية المعرفة ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
٤٣- النسائى (أحمد بن شعيب) : فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة ، دار الثقافة، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ .
٤٤- النووى الدمشقى (أبو زكريا يحى بن شرف) : التبيان فى آداب حملة القرآن ، تحقيق نبيل بن يعقوب البصارة ، دار الدعوة ، الكويت، ١٩٨٧ .
٤٥- أمير عبد العزيز : دراسات فى علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣.
٤٦- بدران أبو العينين : أصول الفقه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
٤٧- توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ .
٤٨-...... : نفوس ودروس فى إطار التصور القرآنى ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، جزءان ، ١٩٧١ .
٤٩-.... : هكذا نصوم ، مجمع البحوث الإسلامية ،سلسلة البحوث الإسلامية، القاهرة ، ١٩٧١ .
٥٠-...... : واقعية المنهج القرآنى ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٧٠ .
٥١- جاد الحق على جاد الحق ، مع القرآن الكريم ، الأزهر الشريف ،القاهرة ، ١٩٩١ .
٥٢- جمال البنا : الإسلامية والعقلانية ، دار الفكر الإسلامي، القاهرة ، ١٩٩١.
٥٣- حسان محمد حسان : التربية البيئية ، فى (الفكر التربوى العربى الإسلامى) .
٥٤- حسن أحمد عابدين : حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن ، رابطة العالم الإسلامي، مكة ، ١٩٨٤ .
٥٥- حسن البنا : مقاصد القرآن الكريم ، دار الشهاب ،القاهرة ، ١٩٧٨ .
٥٦-...... : نظرات فى كتاب الله ، مكتبة الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٥٧- حسن الحيارى : التصور الإسلامى للوجود ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٩ .

٥٨- حسن صعب : الإسلام والإنسان ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١ .

٥٩- خالد محمد خالد : الدين فى خدمة الشعب ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت.

٦٠-....... : كما تحدث القرآن ، المقطم للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٦١- خليل أحمد خليل : جدلية القرآن ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٦٢- رءوف أبو سعدة : من إعجاز القرآن ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٦٣- راجح عبد الحميد الكردى : نظرية المعرفة بين القرآن والسنة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، مكتبة المؤيد ، الرياض ، ١٩٢٢ .

٦٤- راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٦٥- زغلول راغب النجار : الإنسان والكون ، محاضرة ملحقة بكتاب(عبد الله شحاتة: تفسير الآيات الكونية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٠) .

٦٦- زكريا البرى : أصول الفقه الإسلامى ، النهضة العربية ،القاهرة ، ١٩٧١.

٦٧- زياد خليل محمد : تفسير القرآن ، إشكالية المفهوم والمنهج ، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة ، العدد (٨٠) ، أكتوبر ١٩٩٦ .

٦٨- سعد المرصفى : العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٨٠ .

٦٩- سعيد إسماعيل على : النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٧٠ -..... : ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٨٢ .

٧١- سعيد عبد الحميد محمود السعدنى : القيم التربوية فى القصص القرآنى ، قصة سيدنا يوسف ، رسالة ماجيستير ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ،القاهرة ، ١٩٨٢.

٧٢- سليمان دنيا : الدين والعقل ، المكتب الفنى للنشر ، القاهرة ،سلسلة الثقافة الإسلامية ١٩٥٩.

٧٣- سيد أحمد عثمان : المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٧٤-...... : عن اللاعلمية فى محاولات (الإعجاز العلمى للقرآن) ، مجلة دراسات تربوية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ج١ ، ١٩٨٥ .

٧٥- سيد قطب : التصوير الفنى للقرآن ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٦ .

٧٦-...... : النقد الأدبى ، أصوله ومنهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، د . ت .

٧٧-...... : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٩٦٥ .

٧٨-...... : دراسات إسلامية .

٧٩-...... : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٨٠-...... : مقومات التصور الإسلامى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٨١-...... : هذا الدين ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٨٢- شاكر عبد المجيد : المنهج العلمى للاعتقاد ، مكتبة القدس ، بغداد ، ١٩٨٤ .

٨٣- صابر طعيمة : المعرفة فى منهج القرآن الكريم ، دار الجيل ، بيروت ، د . ت .

٨٤- صالح عضيمة : مصطلحات قرآنية ، الجامعة العالمية الإسلامية (لندن) ، دار النصر ، بيروت ، ١٩٩٤ .

٨٥- صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٨٦- صلاح الفوال : التصور القرآنى للمجتمع ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٨٧- طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات الكلام، تحقيق كامل بكرى وزميله ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، د . ت .

٨٨- طه جابر العلوانى : الجمع بين القراءتين ، قراءة الوحى وقراءة الكون ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٨٩- عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٩٠-........: التفسير البيانى للقرآن ، دار المعارف ، القارة ، ١٩٦٩ .

٩١-........: الشخصية الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٣ .

٩٢-........: مقال فى الإنسان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٩٣- عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال (٢٣٧) ، نوفمبر ١٩٧٠ .

٩٤-......: الإنسان فى الإسلام ، دار الإسلام ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٩٥-......: التفكير فريضة إسلامية ، دار الهلال ، القاهرة ، د . ت .

٩٦-......: الفلسفة القرآنية ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (٢٢٩) ، ١٩٧١.

٩٧-......: الله، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (٤٢) ، سبتمبر ٩٥٤.

٩٨-......: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (١٦٩) ، أبريل ١٩٦٥.

٩٩- عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ١٩٨١.

١٠٠- عبد الجليل عيسى : حول أسماء القرآن الكريم وصفاته ، سلسلة مع القرآن الكريم ، المقاولون العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، العدد الثالث .

١٠١- عبد الحليم حفنى : التصوير الساخر فى القرآن الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

١٠٢- عبد الحليم محمود : أسرار العبادات فى الإسلام، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية (١٤٨) ، يناير ١٩٦٦.

١٠٣-........: أسرار وأحكام ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية (٢٧٤) ، ١٩٧١ .

١٠٤- عبد الرحمن الأمين : عوامل انتشار الإسلام ، فى (التوجيه الإسلامى للشباب، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١).

١٠٥- عبد الرحمن بن زيد الزبيدى : مصادر المعرفة فى الفكر الدينى والفلسفى ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، مكتبة المؤيد ، الرياض ، ١٩٩٢ .

١٠٦-. . . . . عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ، مكة المكرمة، د.ت . ط١.

١٠٧-. . . . . : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، دار العلم ، دمشق / بيروت ، ١٩٧٩.

١٠٨- عبد الرحيم فودة : الدين عند الله ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، العدد (٥٣) رجب ١٣٩٣/ أغسطس ١٩٧٢.

١٠٩- عبد الصبور شاهين : القرآن الكريم واللغة العربية ، فى (عبد الفتاح عساكر «إعداد» : مع القرآن الكريم ، المقاولون العرب ، القاهرة ، ١٩٧٦) .

١١٠- عبد العال سالم مكرم : الفكر الإسلامى بين العقل والوحى ، دار الشروق، القاهرة ، ١٩٨٢ .

١١١- عبد العزيز الخياط : الزكاة والضمان الاجتماعى فى الإسلام ، دار السلام ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

١١٢- عبد العزيز جاويش الإسلام دين الفطرة والحرية ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال (١٨) ، ١٩٥٢ .

١١٣- عبد العزيز عبد المجيد : القصة فى التربية ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت،ط٥.

١١٤- عبد العزيز غنيم عبد القادر : القرآن وحفاظه فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

١١٥- عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية ، مركز مطبوعات اليونسكو ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١١٦- عبد الغنى عبود : الإسلام والكون ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧.

١١٧-. . . . . : الإسلام والإنسان المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١١٨- عبد الفتاح القاضى ، الصيام ، فضائله وأحكامه ، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية ، أكتوبر ١٩٧٢ .

١١٩- عبد الفتاح عاشور : منهج القرآن فى تربية الفرد والمجتمع ، الخانجى ، القاهرة، ١٩٧٩ .

١٢٠- عبد القادر حسين : من بلاغة القرآن ، مجلة منار الإسلام ، أبو ظبى ، العدد(٧) ، رجب ١٤٠٠ هجرية (١٩٨٠).

١٢١- عبد الكريم الخطيب : القرآن ، نظمه، جمعه ، ترتيبه ، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٢٢-. . . . . . : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٤.

١٢٣-. . . . . : المرأة ومكانتها فى القصص القرآنى ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت، العدد (١٠٧) السنة (١٠) ، سبتمبر ١٩٧٤/ رمضان ١٣٩٤ هجرية .

١٢٤-. . . . . . : مصادر القصص القرآنى ومقاصده ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت السنة (٨) العدد (٨٦) صفر ١٣٩٢ هجرية .

١٢٥-. . . . . : من قضايا القرآن ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

١٢٦- عبد اللطيف مشتهرى : الصيام جنة ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، نوفمبر ١٩٧٠ .

١٢٧ - عبد الله أبو السعود : فقه العبادات ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢.

١٢٨- عبد الله الفاوى : الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، مجلة الوعى الإسلامي، الكويت العدد (١٨٨) ، شعبان ١٤٠٠ هجرية / ١٩٨٠ .

١٢٩- عبد الله شحاتة : علوم التفسير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية (٣١٦) ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

١٣٠-. . . . . . : القصة فى القرآن الكريم ، مجلة العربى ، الكويت ، مارس ، ١٨٧٦.

١٣١- عبد المجيد النجار : الإنسان والكون فى العقيدة الإسلامية ، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٧٧) ، أغسطس/ أكتوبر ١٩٩٥.

١٣٢-. . . . . . : خلافة الإنسان بين الوحى والعقل ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ .

١٣٣- . . . . : عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوى ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد (٧٣-٧٤) ، أغسطس ١٩٩٤ / يناير ١٩٩٥ .

١٣٤- . . . . : فى فقه التدين فهما وتنزيلا ، مركز الأبحاث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، سلسلة كتاب الأمة (٢٢) الدوحة ، صفر ١٤١٠هجرية .

١٣٥- عبد المجيد عبد السلام المحتسب : اتجاهات فى التفسير الحديث ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٣٦- عبد المحسن صالح : دورات الحياة ، دار القلم ، القاهرة ، المكتبة الثقافية. يناير ١٩٦٣.

١٣٧- عبد المغنى أحمد ناجى : من صور الإعجاز فى أسلوب القرآن الكريم ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد (٢٤٧) ، رجب ١٤٠٥ هجرية / ١٩٨٥ .

١٣٨- عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامى ، دار القلم، الكويت ، د . ت ط٨.

١٣٩- عجيل النشمى : القرآن كمصدر تشريعى فى رأى المستشرقين ، مجلة الوعى الإسلامى ، الكويت ، العدد (٢١٨) ، صفر ١٤٠٣/ ١٩٨٢.

١٤٠- عدنان الشريف : من علم النفس القرآنى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧.

١٤١- عز الدين إسماعيل : نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية ، مكتبة غريب ، القاهرة . د . ت .

١٤٢- عفت الشرقاوى : الفكر الدينى فى مواجهة العصر ، دار العودة ، بيروت، ١٩٧٩.

١٤٣- . . . . : بلاغة العطف فى القرآن الكريم ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ .

١٤٤- على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٤٥- على خليل أبو العينين : فلسفة التربية فى القرآن الكريم ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٤٦- على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ .

١٤٧- على مصيلحى حسن : نداءات المؤمنين فى القرآن الكريم ، دار الصفوة ، الغردقة ، ١٩٩٠ .

١٤٨- عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، مؤسسة الرسالة ، سلسلة كتاب الأمة (٤) ، أبريل ١٩٨٥ ، ط٢.

١٤٩- فاروق أحمد الدسوقى : مفاهيم قرآنية حول الإنسان ، المكتب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٦ .

١٥٠- فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل : القرآن والنظر العقلى ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى هيرندن ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ .

١٥١- فتحى أحمد عامر : المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٦.

١٥٢- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومى : خصائص القرآن الكريم ، الرياض، د .ت ١٤٠٩ هجرية ،ط٤.

١٥٣- كارم السيد غنيم : التحقيق العلمى للآيات الكونية فى القرآن ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد (٣٦) ، أغسطس / أكتوبر ١٩٨٣ .

١٥٤- كامل على سعفان : المنهج البيانى فى تفسير القرآن الكريم ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٥٥- الكرمانى (محمود بن حمزة) : أسرار التكرار فى القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، القاهرة ، ١٩٧٤.

١٥٦- مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠.

١٥٧- مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٥٨- محمد إبراهيم الشافعى : المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٨٢.

١٥٩- محمد أبو النور الحديدى صقر : التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه ، المركز العالمى للتعليم الإسلامى ، مكة المكرمة ، ١٩٨٣ .

١٦٠- محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د.ت.

١٦١-...... : أصول الفقه ، دارالفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٧.

١٦٢-........ : الزكاة ، فى (التوجيه التشريعى فى الإسلام ، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢) ، ج٢.

١٦٣-...... : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام)، ج٢.

١٦٤-...... : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ، فى (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام) ، ج٢.

١٦٥- محمد أحمد الغمراوى : الإسلام فى عصر العلم ، إعداد أحمد عبد السلام الكردانى ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٨.

١٦٦- محمد أحمد خلف الله : الأسس القرآنية للتقدم ، حزب التجمع الوطنى ، سلسلة كتاب الأهالى ، العدد الثالث ، يونية ١٩٨٤.

١٦٧-.... : الفن القصصى فى القرآن الكريم ، النهضة المصرية ، القاهرة، ١٥٧.

١٦٨-.... : القرآن والثورة الثقافية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤.

١٦٩-.... : مفاهيم قرآنية ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٧٩) يوليو ١٩٨٤.

١٧٠- محمد البهى : الإسلام فى حياة المسلم ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠.

١٧١-..... : القرآن والمجتمع ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٦.

١٧٢-.... : من توجيه القرآن الكريم ، الإيمان ، مجمع البحوث الإسلامية ، سلسلة البحوث الإسلامية ، أغسطس ١٩٦٩.

١٧٣-.... : منهج القرآن فى تطوير المجتمع، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩.

١٧٤- محمد الحسينى حنفى : المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧١.

١٧٥- محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث، مكتبة الفلاح ،الكويت ، ١٩٧٩.

١٧٦- محمد الصادق عرجون : القرآن العظيم ، هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

١٧٧- محمد الغزالى : الإسلام والمناهج الاشتراكية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة، ١٩٥٢ .

١٧٨- . . . . . . : الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦١ .

١٧٩- . . . . . . : الجانب العاطفى من الإسلام ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ .

١٨٠- . . . . . . : المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٨١- . . . . . . : خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٨٢- . . . . . . : كيف نتعامل مع القرآن ؟ المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، هيرندن ، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩١ .

١٨٣- . . . . . . : نظرات فى القرآن ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٨٤- محمد الفقى : الحج فى الإسلام ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة البحوث الإسلامية (٢٥٩) نوفمبر ١٩٧٢ .

١٨٥- محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية ، ١٩٩٧ .

١٨٦- محمد أمين المصرى : لمحات من وسائل التربية الإسلامية وغاياتها ، دار الفكر القاهر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٨٧- محمد بلتاجى : مدخل إلى الدراسات القرآنية ، مكتبة الشباب ،القاهرة ، ١٩٨٩ .

١٨٨- محمد بكر إسماعيل : الأمثال القرآنية ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

١٨٩- محمد جابر الفياض : الأمثال فى القرآن الكريم ، المعهد العالى للفكر الإسلامي، هيرندن ، فيريجنيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٣ .

١٩٠- محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ١٩٦١ .

١٩١- محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، الدار الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٩.
١٩٢- محمد رجب البيومى : البيان القرآنى ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية (٣١) ، ربيع الثانى ١٣٩١/١٩٧١.
١٩٣- محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ، دار المنار ، القاهرة، ١٣٧٣هجرية .
١٩٤- محمد زكريا البرديسى : أصول الفقه ، النهضة العربية ،القاهرة ، ١٩٧١.
١٩٥- محمد سالم محيسن: تاريخ القرآن ، مكتبة شباب الجامعة ، الإسكندرية، د.ت.
١٩٦-. . . : فى رحاب القرآن الكريم ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨٠.
١٩٧- محمد شديد : منهج القصة فى القرآن ، مكتبة عكاظ ، جدة ، ١٩٨٤.
١٩٨- محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية الدينية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٧٣.
١٩٩- محمد صلاح الدين مجاور : تدريس التربية الإسلامية ، دار القلم ، الكويت، ١٩٧٦.
٢٠٠- محمد عبد القادر أحمد : طرق تدريس التربية الإسلامية ، النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٩٠.
٢٠١- محمد عبدالله دراز : الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، د . ن، د. ت .
٢٠٢-. . . . : دستور الأخلاق فى القرآن ، تعريب عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٣.
٢٠٣-. . . . : مدخل إلى القرآن الكريم ، ترجمة عبد العظيم على ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٤.
٢٠٤- محمد عبد الواحد حجازى : أثر القرآن فى اللغة العربية ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة البحوث الإسلامية ، (٤٣) ، ديسمبر ١٩٧١.

٢٠٥- محمد عبده : دروس من القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (٩٦) ، مارس ١٩٥٩.

٢٠٦-. . . : رسالة التوحيد ، تحقيق محمود أبو ريه ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٦.

٢٠٧- محمد عثمان نجاتى ، القرآن وعلم النفس ، دار الشروق ، القاهرة، ١٩٨٩.

٢٠٨- محمد على الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ، د. ن ، ١٩٨٠.

٢٠٩- محمد فريد وجدى : الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية ملحق العدد الثانى من مجلة الأزهر ، ربيع الأول ١٣٥٥/١٩٣٦.

٢١٠- محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٩٦٥.

٢١١-. . . . : الإيمان بالله فى القرآن الكريم ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة ، ٩٣/١٣٩٤هجرية ، العدد الأول .

٢١٢-. . . . : دراسات فى النفس الإسلامية ، دارالشروق ،القاهرة ، ١٩٧٤.

٢١٣-. . . . : منهج التربية الإسلامية ، دار القلم ، د . ت ، ط٢.

٢١٤- محمد قطب عبد العال : القصة فى القرآن ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مكتبة الشباب (٤٩) ، القاهرة ، ١٩٩٦.

٢١٥- محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم ،القاهرة ، د.ن،د.ت.

٢١٦-. . . . . : الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣.

٢١٧- محمد محمد خليفة : مع نزول القرآن ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١.

٢١٨- محمد محمود بكار : الأمثال من الكتاب والسنة وأثرها فى هدى الأمة، مجلة كلية أصول الدين والدعوة ، جامعة الأزهر ، أسيوط ، العدد الثالث ، ١٩٨٥.

٢١٩- محمد محمود عبد الله : كيف تجود القرآن الكريم ، مكتبة القدس ، القاهرة، ١٩٩٦.

٢٢٠-. . . . : كيف تقرأ المصحف الشريف ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٩٩٦.

٢٢١- محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (١٤) ، مايو ١٩٥٢ .

٢٢٢- محمد نصار : عناصر العقيدة الإسلامية ، مجلة المسلم المعاصر ، القاهرة، العددان ٦٩ - ٧٠، أغسطس / يناير ١٩٩٤ .

٢٢٣- محمد هيشور : سنن القرآن فى قيام الحضارات وسقوطها ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٢٢٤- محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسان إليه ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١ .

٢٢٥- . . . . . : بين الدين والفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٢٦- محمود بن الشريف : الأمثال فى القرآن ، دار المعارف ، القاهرة ،سلسلة اقرأ (٢٦٥) ، يناير ١٩٦٥ .

٢٢٧- . . . : الحب فى القرآن ، دارالمعارف ، القاهرة ، سلسلة اقرأ (٤٦٩) ، ١٩٩٤ .

٢٢٨- محمود حب الله : موقف الإسلامى من المعرفة والتقدم الفكرى ، ضمن بحوث (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية) النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٢٢٩- محمود حمدى زقزوق : تمهيد للفلسفة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢٣٠- محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٣١- . . . . . : إلى القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (١٥٤)، يناير ١٩٦٤ .

٢٣٢- : من توجيهات الإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، د . ت .

٢٣٣- محمد فرج الدمرداش : وعلم لآدم الأسماء كلها ، المعهد العالمى للفكرى الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٢٣٤- مصطفى أحمد الزرقاء : الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد ، دمشق ، ١٩٦٥ .

٢٣٥- مصطفى سعيد الخن : أثر الاختلاف فى القواعد الأصولية فى اختلاف الفقهاء ، مؤسسة الرسالة ، د . م ، ١٩٧٢ .

٢٣٦- مصطفى الصاوى الجوينى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢٣٧- مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القران ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، ١٩٥٦ .

٢٣٨- مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٢٣٩- مقداد ياجن : التربية الأخلاقية الإسلامية ، الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٢٤٠- منتصر محمود مجاهد : أسس المنهج القرآنى فى بحث العلوم الطبيعية ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٢٤١- نديم الجسر : القرآن فى التربية الإسلامية ، ضمن بحوث (التوجيه الاجتماعى فى الإسلام) ، ج١ .

٢٤٢- هارولد . ب . سميث : مذهب الإسلام فى الإنسان ، ضمن بحوث (الثقافة الإسلامية) .

٢٤٣- وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ، المختار الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٢٤٤- يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٦٩ .

٢٤٥- . . . . . : المنهج الأمثل فى التفسير ، مجلة المسلم المعاصر ، القاهرة، العدد (٨٣) ، فبراير / أبريل ١٩٩٧ .

٢٤٦- يوسف عبد الغنى على : حول مفهوم التوحيد فى رحاب القرآن المجيد ، مجلة أصول الدين والدعوة ، جامعة الأزهر ، أسيوط ، ١٩٨٥ ، العدد الثالث .

٢٤٧- يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة البحوث الإسلامية (٦٠) ١٩٧٢ .

كتب للمؤلف

١- الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ،١٩٦٨ .
٢- المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٧٢ .
٣- دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٤- تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٥- قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٦- الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤، صدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ١٩٨٦ بعنوان « دور الأزهر فى السياسة المصرية » ، مع حذف الفصل الأول ، وزيادة فصل فى آخر .
٧- التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٨- أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦، أعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
٩- التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٠- أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١١- التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٢- نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٣- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة، القاهرة ، ١٩٨٠ .
١٤- دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠، وكان قد صدر بالاشتراك مع آخرين بعنوان « التربية ومشكلات المجتمع » ، الأنجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٥- دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .
١٦- المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٨١ .
١٧- دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٨٢ .
١٨- ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ،القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ فى دار نشر الثقافة ، القاهرة) .
١٩- تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
٢٠- الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣، ثم صدرت طبعة منفردة مختلفة تماما ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧) .
٢١- النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٢- تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣.
٢٣- محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة، ١٩٨٤.
٢٤- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥.
٢٥- معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥، وكانت قد صدرت طبعة أولى منه ، مختصرة ، عن دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨).
٢٦- إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦.
٢٧- الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧.
٢٨- بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ،القاهرة ، ١٩٨٧.
٢٩- تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩.
٣٠- الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩.
٣١- هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩.
٣٢- هوامش فى السياسة المصرية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٠.
٣٣- اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩١.
٣٤- تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربيج ، عمان ،١٩٩١.
٣٥- محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .
٣٦- الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢.
٣٧- دراسات فلسفية (بالاشتراك) ، للصف الثالث الثانوى (مستوى رفيع) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢.
٣٨- مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين (بالاشتراك) ، التقرير النهائى ، منتدى الفكر العربى ، عمان ،١٩٩٢.
٣٩- نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢.
٤٠- رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣.
٤١- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤، وقد أعيد طبعه عام ١٩٩٩ بعنوان « التربية فى حضارات الشرق القديم » مع تغييرات جوهرية .

٤٢- مقدمة فى التاريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه ، مع إضافات كثيرة ، عام ١٩٩٩ ، نفس الناشر .
٤٣- التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٤- سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٥- فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥ .
٤٦- التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ،سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٧- التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٥ .
٤٨- التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٤٩- سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٠- التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦، كانت الطبعة الأولى المختصرة منه بعنوان « تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية » ، نفس الناشر ، ١٩٧٩ .
٥١- التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٢- التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ،القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٣- التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٤- البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧ .
٥٥- إستراتيجية تعليم الكبار فى الوطن العربى ، (تحت الطبع) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٨ .
٥٦- التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة، ١٩٩٨ .
٥٧- التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
٥٨- عرب فى قاع الزمن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٥٩- دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦٠- شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦١- رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦٢- نظرات فى التربية الإسلامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦٣- مستقبل التعليم قبل الجامعى فى مصر ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ، الأهرام ، سلسلة كراسات إستراتيجية (٨٣) ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٤١١٣
I. S. B. N الترقيم الدولى	977-10-1318-1

٣٧٧,١ سعيد إسماعيل على.
س ع ق ر القـرآن الكريم: رؤية تربوية/ سـعـيـد إسمـاعـيل على. ـ
القاهرة : دار الفكر العربى، ٢٠٠٠.
٤٩٩ ص؛ ٢٤ سم.
ببليوجرافية : ص ٤٨١ - ٤٩٩ .
تدمك :١-١٣١٨-١٠ - ٩٧٧.

١ - التربية الإسلامية .   أ- العنوان

تصميم وإخراج فنى

حسام حسين أنيس

أمـيرة للطباعة

٥ شـارع مـحـمـود الخـضـرى - عـابـدين
ت : ٣٩١٥٨١٧ مـحـمـول : ٠١٠١٤٥٦٠٣٧